

من أعلام العصر

كيف عرفت هؤلاء

دكتور محمد رجب البيومي

الدار المصرية اللبنانية

من أعلام العصر

[كيف عرفت هؤلاء]

بقلم
الدكتور محمد رجب البيومى

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

من أعلام العصر

[كيف عرفت هؤلاء]

الناشـر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٣٢٩١ / ٩٦
الترقيم الدولى: 9 - 250 - 270 - 977
جمع : **او ـ تك**
العنوان: ٤ ش بني كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع : **آمون**
العنوان: ٤ فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م
تصميم الغلاف: **محمد العتو**

مقدمة

لم يدرْ بذهنى أن أكتبَ هذه الذكريات قبلَ أن أتلقَّى خطابًا من مجلّة المنهل الغراء تطلب منى أن أحرّر بابًا تحتَ عنوان «رحلة فى الذاكرة» أتحدّث فيه عن ذكرياتى الخاصة مع من عرفتُ من كُتّاب العصر الحديث وعلمائه وشعرائه، والحقّ أني ترددتُ بعض الشىء فى البدء بكتابة هذه الذكريات، لأنّى أعرف فى نفسى انطوائية محتشمةً كانتْ ـ ولا زالتْ ـ تدفعنى إلى الانزواء عن المجتمعات الأدبيّة، ومَنْ سعدتُ بمعرفتهم من رجال الفكر كان اتصالى بهم وليد ظروف أقرب إلى المصادفة، وفيهمْ من راسَلْتُه على البُعد لدواع ملزِمَة، ومن رَأَسَ تحرير بعض المجلات العلميّة، فتأكدتْ صلتى به عن طريق النشر بمجلته، ثم بغيره من كتّابها عن طريقها أيْضًا، لذلك فكرْتُ كثيرًا فيما عرضَتْه المنهل، ولكنّ العجيبَ حقا، أننى ماكدتُ أبدأ الحديث عن واحدٍ من هؤلاء، حتى وجدتُ الأسماء أخذتْ تتزاحم، فَما أنتهى إلا لأبدأ، وكان الأمرُ من السهولة بحيث كنتُ أكتب الحديث عن الشخصية التى أختارها فى عجلةٍ لاتعرف التمهّل، إذ أجُد خواطرى تتدفّق بدون انقطاع! ولا أدرى ما رأْى القارئ الفاحص فى هذه الخواطر، لأنّ سرعة تدوينها جعلت تخيفنى.

أذكر أنى قرأْتُ للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد كتاب (رجال عرفتهم) فرأيتهُ يتضمن ذكرياتٍ حلوة مفيدة عن نفر من الأعلام، وقد قال الأستاذ فى مقدمته: «ونُسمّى كتابتنا عنهم بالتعليقات، ولانسميها بالسير والتراجم، لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث، أو نحلّل الشخصيات، ولكنّا كتبناها لنبدى لهم رسومًا قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم بها». وما قالَه العقاد يُشبه فى بعضِ

وجوهه ما حاولْتُ أن أقدّمه فى هذه الصفحات، ولا أعنى أننى أحاول اللّحاقَ بالكاتب الكبير، فهذا مما يستحيل، ولكنّى أحاولُ أن أنتفعَ بما كتب طريقةً واتجاهاً، مع الاعتراف بأنه عَلَمٌ يتحدّثُ عن أعلام.

وقد رأيتنى أهتم كثيرًا بأفكار من أتحدث عنهم، لأنّ هذه الأفكار هى التى جذبتْنى إلى الاتصال بهم، فهى الركيزةُ الأولى فى بناء التعارف الأدبىّ بينى وبينهم، وفى رأيى أنّ ما دَوَّنْتُه قد يضيف الجديد إلى ما يعلمه القارئون عنهم، ولن ينتظرَ منى القارئ نقداً صارمًا، أو معارضة واخزة، لأنّ الحديث هنا عن أحبّاء اصطفيتهم لنفسى، وما وقع اختيارى عليهم إلاَّ لمزايا رفيعة يتحلّون بها، فهم جديرون بالتبجيل، على أنى قد أخالف بعض وجهات النظر، فلا أكتمُ هذه المخالفة، بل أسجلها غير واثقٍ كل الثقة بصواب رأيى، إذ ربّما خَفِيَ علىَّ من الأمور مالم يخفَ عليهم، وحسبى أن التزم الصدق فيما أسطر، وهو فى هذا النطاق خير شفيع.

محمد رجب البيومي

الأستاذ عبد الرحمن شكرى

عبد الرحمن شكرى أحد زعماء الشعر العربى فى عصره، وهو أولُ ثلاثة انْتَقَلُوا بالمنحى الشعرى من ضرب إلى ضَرْبٍ، حيث عملوا على تأصيل قواعد تجديدية تتَّصل بالوحدة العضوية، والتجربة الشعرية، والتحليل العميق للنفس الإنسانية، وتنوّع القافية تنوعًا لا تشذّ به الموسيقى الخارجية التى تطلبها الأذن السّامعة، ولكنّ ظروفًا فوق إرادته، جعلته يعتزلُ الناس مدة طويلة فى كهولته، ثم أجبره المرض على الاعتزال القهرى فى شيخوخته، وكنتُ فى الخمسينيات أعرفُ أنه يُقيم بالإسكندرية، وأحس رغبةً حارَّة فى لقائه، والتمتّع بتوجيهه، وقد أخبرتُ تلميذه ومريده الوفى الأستاذ (نقولا يوسف) برغبتى فى هذه المقابلة، والأستاذ نقولا رقيقُ الحس، نبيل الشعور، فلم يشأ أن يقول إن ظروفه الشخصية والمنزلية لاتتيحُ اللقاء على وجه سريع، بل قال إنه سيرعى إنجاز هذه المسألة متى سمحت الأحوال. ودعوتُ الله أن تسمح.

وفى سنة ١٩٥٧ كتبَ إلىَّ الأستاذ نقولا يقول، إنه اتّفق مع الأستاذ أسعد حُسنى رئيس تحرير مجلّة العالم العربى أن يُصدر عددًا ممتازًا من المجلّة خاصا بأدب الأستاذ شكرى، وريادته الشعرية، وقد دَعَا صفوةً من تلاميذه إلى المشاركة فى تحرير هذا العدد، لذلكَ يرجو أن أُسْهِمَ بكلمةٍ شافية تتفق وهذه المناسبة الكريمة، لأنّ العددَ سينشر بمناسبة بلوغ الشاعر الكبيرِ سّن السبعين، ولأمر أراده الله لم يصلِ الخطاب فى حينه، بل توجّه إلى مدرسة بالمنصورة غير التى أقومُ بالتدريس بها، وحمله بعض الزملاء فى جيبه، ثم إلى منزله حتّى يلقانى مصادفةً، ولم يتيسر اللقاء إلاّ بعد صدور العدد، فأسفتُ أسفًا شديدًا لضياع هذه السانحة،

وكتبتُ للأستاذ نقولا أُعلن له حقيقة ما كان، فردّ مسامحًا، وقال: إن الفرصة لاتزال مُهَيّأةً، فصاحب مجلة العالم العربى يُرَحِّب بكل مقال يبحثُ فى آثار عبد الرحمن شكرى، وقد أنبأه أن العدد الخاص به لاقىَ رواجًا غير منتظر، فلم يرجع مْنه شىء إلى مخزن المجلّة، وأن الأستاذ شكرى كان سعيدًا بهذا الرواج سعادة تامة.

المقال الأوّل:

وقد سارعتُ فكتبت مقالاً حول نظرات شكرى فى الأدب العربى، لأنّ الشاعر الكبير كان قد نشر بمجلتى الرسالة والمقتطف عدّةَ مقالات عن الشعراء الكبار فى العصر العباسى، من أمثال أبى تمام، والبحترى، وابن الرومى، والشريف الرضى، والمتنبى، ومهيار، وأبى العلاء، وأبى نواس، أتَى فيها بالجديد الطريف، وكان كلّ بحث خاص يقومُ مقام مؤلَّفٍ مستقل فى كتاب منفرد، لأن نظراتِ الناقد الحصيف كانتْ من الطرافة وصدق الاستشفاف، ودقّة النظرة بحيثُ فاجأتَ القُرَّاء بما لايعلمون عن شعراء كبارٍ كثر الحديث عنهم كثرةً تفوق الحصر، وكُتِبتْ عنهم الأجزاء المتعددة شرقًا وغربًا، حافلةً بما رَاقَ وشاق، ولكن نظرات شكرى الصائبة أضافتِ الجديد. ثم أرسلتُ المقال إلى الأستاذ أسعد حسنى، فبادَر بنشره، وأعلمتَ الأستاذ نقولا يوسف بما كان، فكتب إلىَّ على عَجَلٍ يقول: إن ماكتبتهُ صَادَفَ ارتياحَ الأديب الكبير، وأنه قرأه مَسرورًا كل السرور، وذكَر أنّ الأقلام تتناوله شاعرًا لاناقدًا، وأن هذا المقال قد ذكَّرَ الناس به ناقدًا ذاجدّ واجتهاد، كما أنّه وضع سطورًا تحت أفكار يخالفنى فيها، ولم يشأ الأستاذ نقولا أن يسأله عن وجه المخالفة، ولكنَّ سرور شكرى بالمقال أعادَ إليه رجاءً فى أبناء الجيل الجديد، إذ عرَف أنهم لم ينسوه شاعرًا وناقدًا.

المقال الثانى:

قرأتُ خطاب الأستاذ نقولا، فصمّمت على أن أعيد الكَرَّة، متحدثًا عن بعض مقالات الشاعر النقدية، ما دامَ الحديث عن نتاجه الأدبى المنثور قدْ صادفَ

ارتياحه، وكنتُ أعرف أنّه خاض معركة نقدية تحت عنوان (بين القديم والجديد)، بمجلة الرسالة استغرقتْ عدّة أشهر متتالية، لأن الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوى كانَ قد نشر عدّةَ مقالات عن القديم والجديد فى الأدب العصرى، ذهب فيها إلى أنّ المجددين من الشعراء والكُتَّاب يحاربونَ القديم انتصارًا للتحلّل والمروق، لارغبةً فى التجديد، ولما كانَ الأستاذ شكرى من زعماء التجديد الأدبى المعاصر، فقد رأى أن يُعارض ما اتّجه إليه الأستاذ الغمراوى، فنشرَ عدّة مقالات لم تكنْ ممهورةً باسمه، ولكنّ الزيات قال إنها بقلم (أحد أساطين الأدب الحديث)، وعَرَفَ النابهون من القراء أنّ شكرى صاحبُ هذه المقالات، لأن أسلوبَه مشتهر ذائع، وطريقته التحليلية لاتخفى على مُطلع مثابر، وكانَ مِنْ رأى شكرى أنّ التَّحَلل يوجد فى الأدب القديم كما يُوجد فى الأدب المعاصر، وأن التصّونَ كذلك يوجد فى الأدبين، وليس المجون فى الأدب المعاصر وليدَ التأثر بالأدب الأوربى، لأنّه وُجد فى الأدب العربى جاهليا واسلاميا، وطبائعُ النفس البشرية هى هى فى كل زمان ومكان، قرأتُ هذه المقالات حين صدورها، وَوَجّهتْنى توجيهًا صحيحًا إلى حقائق أدبيّه كنت أجهلها، فكتبتُ مقالا تحت عنوان: (شكرى بين القديم والجديد)، وأرسلتُهُ إلى مجلة العالم العربى، فنُشر بدون إبطاء، وحملَه الأستاذ نقولا إلى الشاعر الكبير، فبدأ بمراسلتى شاكرًا، وقد حزنت كثيرًا حين جاءنى خطّهُ المريض مُبعثرًا فى الصحيفة، إذ كان يعانى من الشلل، ومع ذلك أصرَّ على كتابة الخطاب إصرارًا كلّفه كثيرًا من الجهد والوقت، إذا لايستطيع أن يكتبَ الكلمة الواحدة ويدهُ ترتجف بدون مشقة أليمة، ولا أكتم القراء أنى تأثرت حتى سقط الدمع من عينى!! ورَددت عليه ردا مستفيضًا حافلا أخُبره بتقدير الجميع لأدبه وريادته، وأنّ اعتزاله المتكرر، لم يُنْسِ الناس جهاده الظافر فى إقامة الصرح الأدبى الحديث، وأن التاريخ لاينسى أقدار النابغين.

خطاب تال:

وبعد عدة أسابيع، وصلنى خطاب تالٍ من الشاعر الكبير يعلن أنّه قد ارتاح لما كتبت فى خطابى السالف، ويطلب أن أَبحث له فى المنصورة عن دواء لايُوجد

بصيدليات الإسكندرية، وهو ضرورىٌّ بالنسبة إليه، وأرفق ثمن الدواء بالخطاب، وقد بادرتُ أبحث عمَّا طلب، فلم أجدْه بالمنصورة، وعز علىَّ ألاَّ أكونَ محققًا لرجائه، فبادرتُ إلى صيدليات الأقاليم المجاورة باحثاً مثابرًا، حتى عثرتُ عليه فى إحدى صيدليات مدينة (بلقاس) فأحضرْتُ كميّة كبيرةً منه، حذرًا من نفادها مع احتياج الشاعر إليها، ثم سافرتُ إلى الإسكندرية مُتَّجهًا إلى منزل صديقى الأستاذ نقولا يوسف، وأريْتُه ما أحمل من الدواء، ففرح كثيرًا، وقال: إنّ الشاعر سيُسَرُّ بلقائك لأنه لاينقطع عن ذكرك، وقد حان موعد رؤْيته فهيًّا. وسعدتُ كثيرًا بزيارة الرجل الكبير، ولكنى كنت أتقطّع صامتًا لما لمسته من وطأة المرض الذى جَعله شبحًا لا إنسانًا، وحاولتُ أن أُسرع فى الذهاب مخافة أن يظهر على وجهى ما يدل على ألمى المبرّح فأزيدَ الرجل ألماً، فتعلَّلْتُ بانتظار أحد الأقرباء لى وفق موعد قد حان، وخرجت مع صديقى وأنا لا أملك نفسى من الحزن.

المقال الثالث:

وإيمانًا بما قاله صديقى نقولا من ارتياح الشاعر لما أكتب، حاولتُ أن أسّره بمقال جديد، إذْ قرأتُ دراسةً جيدة عنه فى كتابٍ عن الأدب المعاصر للدكتور شوقى ضيف، ذهب فيه إلى أن نزعة التشاؤم تغلبت على شعر شكرى، وعلّلَ هذه النزعة لدى شعراء التجديد بآراء استمدّها من استنتاجه الخاص، ومع تقديرى الكبير للدكتور شوقى ضيف، فقد رأيتُ أن أخالفه فى حكمه بغلبة التشاؤم على شعر الرجل، لأنّ نتاجه الأدبى يجمع التفاؤل إلى التشاؤم، والنفس الإنسانية لاتستقر على حالة واحدة، فبينما يسرّ الإنسان فى الصباح إذْ يدهمه فى المساء ما يُحزنه، فيقول الشعر فيما يسرّ ويسىء معًا، ثم استشهدت بقصائد كثيرة تنحُو منحى التفاؤل بجوار ما استشهد به الدكتور شوقى ضيف من قصائده التى تنحو منحى التشاؤم، وكتبتُ مقالاً تحت عنوان «شكرى بين التفاؤل والتشاؤم» بسطْتُ وجهة نظرى بما أملك من الدليل، وأرسلتُ به إلى الأستاذ شكرى بعد نشره، فردّ سريعًا يطلب كتاب الدكتور شوقى، وكان أخى الأستاذ سعيد الشرباصى متجهًا إلى الإسكندرية، فبعثتُ به معه، وقابل الأستاذ، فرحّب به ترحيبًا كبيرًا، ثم رأيتُ

الكتاب يجىء إلىّ بالبريد المسجل بعد أن قرأه الشاعر، وفى طَيِّه رسالة صغيرة يقول فيها: إن الدكتور شوقى مع تسجيله نزعة التشاؤم لدىّ، لم ينكر علىّ إيمانى بالمستقبل. وقد استمرت المراسلاتُ بينى وبين الشاعر الكبير، يكتبها بقلمه الأشل موجزةً مركزة، فأفرحُ بها كثيرًا كثيرًا، وقد كتبتُ إليه قائلا: إنّى لا أريد ردا، فأنا أعلمُ ظروفه الصحيّة، وكانَ مع ذلك يُسرع فى الرد المبادر، ولا سبيل إلى الامتناع عن مراسلته لأنه يطلبها، ويحثُّنى الأستاذ نقولا عليها، وكنتُ عرضت عليه أن أقوم بطبع بعض آثاره إذا استطعت، فأرسل إلىّ تفويضًا كتابِيا بذلك.

ديوان شكرى:

انتقل شكرى إلى رحمة ربه، وتحدثت الصحف اليومية والأسبوعية عن مأساة اعتزاله، وإهمال القائمين على الثقافة لأمره، ودَعت إلى إحياء آثاره الأدبيّة التى طبعت منذ أكثر من ربع قرن، ولم يعرف عنها الجيل الحاضر شيئًا، ولكنَّ هذه الدعوة المخلصة ذهبت هباءً بدون استجابة، وهنا نهضَ أحد الموسرين من تلاميذ عبد الرحمـٰن شكرى حين كان أستاذًا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية، وهو الأستاذ عبد العزيز مخْيُون، فصمّم على نشر ديوان شكرى إحياءً لذكراه، واتصل بالأستاذ نقولا يوسف لتحقيق هذا المأرب، وسارعَ نقولا بالاتصال بى، لأن معى تفويضًا من الشاعر بطبع ما أريد من مؤلفاته، وهذا ما يسهلُ نشر الديوان بدون صعوبات قانونية، وقد حضر الأستاذ نقولا لزيارتى بالمنصورة، واتفقَ معى على أن يقوم هو بجمع أجزاء الدواوين المتفرقة، وهى جميعُها لديه، تاركًا لى أن أقوم بجمع ما تفرق فى المجلاّت الأدبيّة من شعر لم يُنشرْ فى أجزاء الديوان، وهى مهمة من الصعوبة بمكان، لأنى أقيم بالمنصورة حينئذ، والدوريات الأدبية بالقاهرة، ولا سبيلَ إلى الذهاب للعاصمة إلا يوم الجمعة نظرًا لعملى الرسمى، ولم أشأ أن أنكل عن عمل أدبى أعدّه دَيْنًا فى عنقى للشاعر الكبير، فصمّمت على السفر المتواصل حتى جمعت ما أقدرنى الله عليه، وقَدَّمْتُه للأستاذ نقولا، فطلب منى مقدمة للديوان حدَّدَ حيّزها المتواضع، على أن يكتبَ هو مقدمةً تشمل حياة الشاعر وما يعرفه من اتصالاته وأخباره، فجاءت مقدمتُه ضافية واسعة، وعتبتُ

عليه أن حددَّ لى مساحةً متواضعة بحيث تضاءلت كلمتى جوار كلمته، ولكنّ هذا ماكان، ثم صدر الديوان وفى مقدمته إشارةٌ إلى ماقمتُ بجمعه من القصائد المتفرقة، ومن الاعتراف بالجميل لأصحابه أن أذكرَ أن أخى الاستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود قد استدركَ علىّ عدة قصائد جمعها فى كتاب خاص، كما استدركَ صديقى الأستاذ المحقق محمد محمود حمدان قصائد أخرى ما زال يحاول جمعها وهما يشكران على هذا، إذ أنّ ظروفى الضيقة لم تسْمح بأكثر مما قدمت، وهو جهد المقل، كما يقال فى المثل العربى، وقد ظهر الديوان رائعًا فخمًا، مطبوعًا على ورق مصقول، ذا حجم لافت للنظر، وبذلك تهيأ للدارسين أن يقولوا ما يشاءون فى تحليل روائع هذا الشاعر الكبير.

لقاء العقاد:

شاء الأستاذ عبد العزيز مخيون أن يُهدى للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عدّة نسخ من ديوان شكرى، لأنّه زميله فى النضال الأدبى، وقد كَتَبَ الأستاذ العقاد عند رحيل صديقه عدة مقالات قوية عن أثره الرائد فى التجديد الأدبى نَشَرَها بالهلال، والشهر، ويوميات الأخبار، كما رثاه بقصيدةٍ حارة بالأخبار فور رحيله، قال فى مطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أودَى   قرب الرحيل، لقد قارب جدّا

وإبراهيم هو إبراهيم عبد القادر المازنى، ثالث الرفقة، وقد أسهمُوا معًا فى تصحيح كثير من الآراء المخطئة فى حقل الأدب، وعُرفوا فى النقد المعاصر بأنهم أصحاب مدرسة الديوان، ولتفصيل ذلك مجال آخر، اتَّسَع به الحديث، وتعددت اتجاهاته ومراميه.

أجلْ، شاء الأستاذ مخيون أن يُهدى الديوان للأستاذ العقاد، فرأى أن يصحبنى مع الأستاذ نقولا لزيارة الشاعر الكبير فى ندوة الجمعة، وفُوجئَ العقاد بظهور الديوان فى سمته الرائع، فشكر الأستاذ مخيون على قيامه بطبع هذا الأثر

النفيس، وعدَّ ذلك مكرمةً نادرة، وخاصة فى حديث شكرى، سَارِدًا أعذب الذكريات عنه، ومشيراً إلى ماجدّ من خلاف بينه وبين المازنى لم يلبْث أن انقشع، لأنّ المازنى قد ترضّى صاحبه، وعاد الود كما كان، لا كما يزعم من يحاولون تأريث العداء ظالمين.

وَخَرَجْنا من ندوة العقاد سعداء بلقائه، ثم وزّع الأستاذ مخيون عشراتٍ من الديوان على من يعرفهم من كبار الأدباء، فكثر الحديث عن شكرى، وتبوأ بديوانه الحافل مكانه الجهير..

* * *

الدكتور منصور فهمى

فى النصف الأول من القرن العشرين كان اسم الدكتور منصور فهمى يملأ الأندية الثقافية، ويشغل ذوى الفكر، إذ كانت جولاته الفكرية فى الصحف والمجلاّت متجاوبة الأصداء، وقد خاض نقاشًا متصلَ الحلقات مع نفر من ذوى الريادة الأدبّية، فكان رأيه موضع التقدير والاحتفال، وحين كنتُ طالبًا بكلية اللّغة العربيّة قرأتُ إعلانًا بجريدة الأهرام عن مناقشة رسالة فلسفيّة بكلية أصول الدين، يرأس لجنتها الأستاذ الدكتور منصور فهمى باشا، رئيس جامعة الإسكندرية السّابق، فحرصت أن أحضر هذه المناقشة لأرى ذلك العملاق الذى قرأت له، وقرأت عنه، وأعرف كيف يدير النقاش العلمى فى محيط أزهرى، يشاهدُه لأول مرّة رئيسًا يوجّه المناقشة، ويقررّ الحكم.

وحين أزف الموعد هرعت إلى صالة المناقشة بكلية أصول الدين، فشهدت من الجموع المتزاحمة ما لا عهد لى به فى المناقشات الجامعية، كما وجدتُ فى الكلّية قُسساً من كبار رجال الدين المسيحى، ومجموعة من الآنسات والسيدات يحضرن لاستيعاب مناقشة فلسفية فى إحدى كليات الأزهر، وبعد لحظات صعدت لجنة المناقشة إلى المنصّة، يتقدمها الدكتور منصور فهمى، ومعه الأساتذة الدكاترة: محمد البهى، ومحمد غلاب، ومحمود حب الله، ومحمود الخضيرى، وهم من صفوة أساتذة الفلسفة فى مصر، وقد تخرجوا من الجامعات الأوربيّة، ونالوا أرقى شهاداتها عن استحقاق.

وكان المألوف أن يفتتح رئيس اللجنة المناقشة بكلمة يسيرة، يقدّم فيها الطالب،

ويشير إلى موضوع الرسالة، ولكنّ الدكتور منصور فهمى أفاض إفاضة شافية فى تقديمه، فذكر أن دائرة الفلسفة قد اتسعت فى مصر، إذ امتدت من الجامعة إلى الأزهر، وهذا ما لاغرابة فيه، فكتُبُ الفلسفة لها مكانتها عند الأزهريين، وشيخ الأزهر اليوم (يريد الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق وكان شيخ الأزهر حينئذ) هو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب لأكثر من عشر سنوات، وله بحوثه العميقة المتزنة، وطالبُ اليوم الأستاذ محمد فتح الله بدران يتقدم برسالة دقيقة حول كتاب «الملل والنحل» للشهر ستانى، ومعنى ذلك أن الأزهر فى عهده الحاضر قد لبّى روح الزمن، واتصل بالنهضة العلمية المعاصرة محافظًا على طابعه المنهجى، ومقدّرًا فى رحاب الفلسفة وجهات النظر المختلفة، ومصوبًّا ما يراه موضع التصويب، وستتبادل الجامعات فى مصر والخارج رسائله العلمية لتكون موضع الدراسة والتنويه، وفى هذا التلاقح الفكرى ما يدفع بركب الإنسانية إلى التقدّم، وقد حرص الإسلام على حُرية الفكر، ودعا إلى سبيل الله بالحكمة.

وامتدت كلمة الدكتور حول هذه المعانى فى هدوء تشع منه روح الفيلسوف، ثم تقدم الباحث فعرض موضوع الرسالة وما انتهى إليه من نتائج، وخاض لجج النقاش مع أساتذة كبار درسوا الرسالة، وعرضوا ما سنح لهم من الاعتراضات، فأجاب الطالب قدر استطاعته، وكان موفقًا واعيًا، ورئيس الجلسة مصغٍ متيقظ، يسعف الطالب تارة، ويهمس فى آذان المناقشين تارة أخرى، ثم ختم المناقشة بكلمة مشجعة بعد أن أعلن فوز الرسالة بأرقى الدرجات العلمية، وانصرف الحاضرون وقد غنموا من المعارف ما جلّ قدره، وارتفع مستواه.

انصرفْتُ مع القوم، ولكنّ خاطرى لم ينصرف إلى أمد طويل عن التفكير فيما رأيت، ومن رأيت، وقد أكبرت الدكتور منصور فهمى إكبارًا يرتكز إلى رصيد سابق من المعرفة الفكرية، أيدته المشاهدة العلمية فى محفل جهير، أبان عن سماحة الرجل وهدوئه واتزانه، وسعة صدره لسماع مالايوافق عليه من الآراء، وتلك دروس فى الأخلاق العلمية والعملية يجب أن يلتفت إليها أهل العلم لينجوا من آفات الجدل، ومشاحنات اللّجاج.

ثم حانت ذكرى المولد النبوى الشريف، وأقامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حفلا جليلاً لهذه المناسبة، إذ قرأت فى الصحف أسماء من سيتحدثون، ومن بينهم الأستاذ الدكتور منصور فهمى، فنهضت لشهود الاحتفال فى موعده، واستمعت إلى ماقيل من شعر ونثر، وكانت كلمة الدكتور منصور فهمى موضع انتباه الحاضرين، لأنه قارن بين صاحب الذكرى العاطرة والمشاهير من المصلحين فى الغرب ليعلن قدر النبوة المصطفاة، فأضاف الجديد حقاً، على حين اكتفى بعض المتحدثين بترداد ماهو مشتهر معروف، وكان من حظّى أن أجد صديقى الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى يدعونى إلى مجلس بالجمعيّة يحضره صفوة القوم، فسعدت بأن جلست جوار الدكتور منصور فهمى، فابتدأ مشكورًا بتحيتى، والسؤال عنى، وكأنه أحسّ احتشامى وهيبتى، فشجعنى على الحديث متفضّلا. وأخذ القوم يتفرقون تباعًا، والرجل يُلاطفنى بحديثه عن فيض وترحاب، وقد قلتُ له: إنّى سعدت بحضور المناقشة التى رأسها بكلية أصول الدين، فابتسم الرجل ثم فاجأنى بما لم أتوقع حيث قال: إنّه ما تهيب مناقشة رسالة كما تهيّب مناقشة هذه الرسالة، لأنه كان يخشى أن يحدث لجاج أو غضب من بعض الذين يضيقون بالبحث الفلسفى، وله سابقة مثيرة فى هذا المجال، إذ كان رئيسًا للجنة مُناقشة الدكتوراه التى تقّدم بها الدكتور زكى مبارك عن أخلاق الغزالى بقسم الفلسفة فى كلية الآداب، وقد حضر المناقشة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد اللبان، •ض علماء الأزهر، وقد تعّرض الطالب لأخطاء وقع فيها الإمام الغزالى، وهذا ما لا غُبَارَ عليه، لأن لكلّ عالم مهما ارتفعت مكانته أخطاؤه، بجانب إصاباته الكثيرة، كما أنّ طالب الدكتوراه لايزال باحثًا ناشئًا، ومن الطبيعى أن يخطئ وأن يصيب.

ويظهر أن نزوة الشباب فى كيان الدكتور مبارك حملته على الاندفاع فى الهجوم، فثار الشيخ اللبان، وواجه الطالب بأسئلة محرجة، وليس من حقه القانونى أن يتدخل فى النقاش، إذ ليس من أعضاء اللجنة، ولكنى راعيت مقام الشيخ الجليل فسمحتُ له أن يسأل، وطلبت من الدارس أن يجيب، فردّ بما زاد

النار اشتعالا، وحاول شيوخ آخرون أن يتدخلوا بالسؤال وطلب الإجابة، فقلت: إن السؤال قانونًا من حق أعضاء اللجنة، وكان الدكتور طه حسين بين الحاضرين، وليس من أعضاء اللجنة، فتقدّم بعدة أسئلة للطالب، ولم أجد ما يمنع من قبول أسئلته، لأنه أستاذ بالكلية، والطالب من تلاميذه، وكان الدكتور يتعمد إحراج زكى مبارك، فقابل أسئلته بتسّرع غير حميد، واشتط فى نقد الغزالى، وكأنه من وجهة نظره فى مستواه العلمى، وطبيعى أن يثور الحاضرون لمسلك الطالب، فرأيت أن أحسم الموضوع، وقلتُ فى صراحة، إن الطالب يواجه الامتحان، وإن من شأنه أن يخطىء ويصيب، واللجنة ترصد كل ما يجيب به، وترى أنّها لاتُسأَل عن النتائج التى قررّها الباحث، فهو المسئول عنها، ولكنّها فى الوقت نفسه تعلن أنّها حين تقدر الطالب لاتقف عند النتائج فقط، بل تنظر فى منهجه العلمى، وطرق الاستدلال، ووسائل الاستنتاج، لتطمئن على معدنه وأصالته، أما الخطأ والصواب فمتوقعان.

وقد ارتاح الأستاذان محمد أحمد جاد المولى، وعبد الوهاب النجار ـ وهما من أعضاء لجنة المناقشة ـ لما أبديت، ولكنّ الشيخ النجار كان أرحم بالطالب وأرفق، فصاح بالحاضرين، إننا جميعًا نبجل الإمام الغزالى ونقدره، والطالب كذلك يضعه موضع التقدير، ولولا ذلك ما خصّه برسالة علمية أخذت عدة سنوات من عمره الدراسىّ، وانتهزت كلام الأستاذ النجار رحمه اللّه، فقلتُ، إن الشيخ أصاب موقع الحق، وأضيف إليه أن عيب الدارس أنه نظر إلى الغزالى بمقياس عصرنا الحاضر، وهذا خطأ، لأننا نحاكم كلّ مؤلف بمقاييس عصره التى انتهى إليها فى زمنه الغابر، بدون أن ننكر سابق فضله، ورصين عقله! فإذا كشفت العصور المتابعة عن أخطاء لم يهتد إليها من قبل، فحسبه أنه كان مبرّزًا فى عهده، وقلت إن تقدّم البحوث الطبيّة فى العصر الحاضر لايجعلنا ننكر ما قام به أطباء العصور الماضية من جهود ـ مهما كانت متواضعة ـ بجوار الفتوح العلمية الحديثة، وكذلك الأمر مع الإمام الغزالى. وانتهت المناقشة بدون أن يهدأ الحوار فقد انتقل إلى الصحف، وكتب فيه الشيخ الدجوى، والشيخ أحمد مكى، ولم أسلم ممّا قالا،

لذلك توجست خيفة قبل النقاش فى كلية أصول الدين، ولكن، الحمد للّه، فقد كانت الريح رخاءً بل كانت نسيمًا عاطرًا.

انتهت الجلسة الطيبة، وخرجت من جمعية الشبان المسلمين وأنا أتوق لمثلها، حيث أفدت كثيرًا من هذه النظرات الصائبة، وذاك التدفق فى التعبير على وجه سمح لاانقطاع لرافده، وكأن غديرا يترقرق من حديث الدكتور، وكأن الله عز وجل قد شاء ألاّ يحرمنى هذا الثمر الناضج من الحديث الجذاب، إذ ذهبت ذات ضحى إلى دار الهلال بالمنيرة لأقدم مقالاً أدبياً إلى الأستاذ الكبير طاهر الطناحى، مدير تحرير مجلّة الهلال فى أحد عهودها الزاهرة، فوجدت الدكتور منصور فهمى بمكتبه، فسلّمت عليه فى أدب، وتهيبت أن أبدأه الحديث، ولكنه قال فى لطف: إنه يذكر لقائى معه، ولكنه لايدرى أين كان، فقلت له: هما لقاءان لالقاء، وحدثته عن سعادتى التامة برؤيته التى أعتبرها مغنمًا فكريا جزيلا، فانبسطت أساريره، وتألق الابتسام فى ثنيته، فوجدت الفرصة سانحة لأن أقول له: عندى سؤال ياسيدى يتعلق بك، ولن أجد جوابًا عليه من غيرك، فقال: أهو سؤال طارئ أم سؤال تدّخره من قبل؟ فقلت: يعلم الله أنى أدَّخره من سنوات، فقال، ولم لم تكتبْ إلىّ به، فسكت متطلّعًا، فقال: هلم، قلت: إنى أقرأ على مدى ربع قرن بحوثًا ومقالات أدبية لك فى مجلات الهلال، والمجمع، والمصوّر، والمعرفة، وغيرها من كبريات المجلاّت العربيّة الرصينة، وكنت أنتظر أن تقوم بجمعها فى كتب مستقلة كما يفعل العقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، كما أعرف أنك تُدرّس للطلاب مادة الفلسفة منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم تشأ أن تخرج كتابًا للناس يجمع خلاصة هذه الدروس كما يفعل تلاميذك الذين تخرجوا على يديك ثم صاروا زملاء بقسم الفلسفة فى كلية الآداب؟

نظر الدكتور إلىّ وفى وجهه حيرة عرفتها من ملامحه، ثم قال: إنهما سؤالان لاسؤال، سؤال يتعلق بمقالات المجلات، وسؤال يتعلق بدروس الفلسفة بالجامعة، أما ما يختص بمقالات الصحف فأصارحك أنى بعد أن أنشر المقال أجد فيه كثيرًا من نواحى النقص، فأشيح عنه، وقد قمت بنشر بعض الخوالج النفسية التى

ظهرت فى جريدة الأهرام ما بين العشرينيات والثلاثينيات فى مجموعة تحت عنوان (خواطر نفس)، فصادفت ارتياحَ الناقدين، وتلقيت عنها عشرات الرسائل المشجعة، ولكن لا أدرى لماذا حين أعاود قراءتها أجد بها من الاقتضاب تارة، ومن الخلل تارة أخرى مايجعلنى أعتقد أنى تسرعت فى نشرها، وقد هممتُ فى أحيان كثيرة أن أجمع مقالات الهلال وحدها وهى تكفى لملء خمسمائة صفحة، فكنتُ أجمع الأعداد وأعيد قراءة ماكتبت فأحسّ بفتور يضعف من عزيمتى، أما مقالات مجلة المجمع فهى مستريحة فى أماكنها الأمينة، لأنّها للخاصة، والخاصّة وحدهم، وهم يحرصون على كل عدد يظهر من هذه المجلة الرّصينة، هذا عن السؤال الأول، أمَّا السؤال الثانى عن دروس الفلسفة بكلية الآداب، فالأصل فى التعليم الجامعى أن يكون للمادة عدة مراجع قديمة وحديثة يُنّبه إليها الأستاذ طلاّبه فيسعون إلى دراستها، ثم يكتبون الخلاصة الدقيقة بعد الائتناس بما قاله الأستاذ فى محاضراته بالكلية! هذا هو الأصل المنطقى، ولكنّ بعض الأساتذة يوفّر على الطلاب عناء البحث، ويقوم هو بطبع ما يقوله. وتوزيعه على الطلاب، وفى أحيان كثيرة تقوم دار من دور النشر الكبيرة، فتطبع الكتاب وتوزّعه على الطلاب وعلى غيرهم من جمهرة القراء. وبالنسبة لدروس الفلسفة بالذات فإنى أتساءل: هل يقدّم مثلى أو أحدٌ من زملائى جديدًا يباهى به، ويقدّمه مطبوعًا للقارىء؟ إنّ الذى نقوله فى هذا المجال هو مَقررات مشتهرة يعرفها دارسو الفلسفة فى كليات الغرب، وإذا كانت هناك زيادة مَّا، فهى تعقيب أو توضيح أو تفصيل أو اختصار، فقل لى بربك: ماذا يُنسَبُ لأستاذ الفلسفة من الفكر حين يكون عالةً على سواه فى كُلية مبتدئة، وأقولُ مبتدئة بدون خجل، لأن الدراسة الجامعيّة عندنا فى دور الطفولة بالنسبة لدراسة الفلسفة فى كليات أوربا، مع استثناء دراسة الفلسفة الإسلامية، فقد استطاع الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق رحمه الله أيام كان أستاذ المادة بالكلية أن ينقلها من حّيز إلى حيز، فأضاف إليها ما ابتكره علماء الإسلام فى علمى الأصول والكلام!

ثم سكت الدكتور قليلا ليقول بعد ذلك: أنا الآن أُدَرِّسُ لخمسة طلاّب فحسب فى السنة الثانية بالدراسات العليا، ومهمّتى أنْ أحدّد الموضوع، وألخص ما قيل

فيه، ثم أذكر مراجعه فى الفرنسيّة، وأدعو كلّ طالب أن يبحث هذه المراجع، ويكتب عنها ماتناقشهُ فى الدّرس الأسبوعى على مدى العام، والمشكلة أمامنا مشكلة «الاصطلاحات»، إذ تُوجد فى الكتب الأوربية «اصطلاحات» لانعرف مطابقها فى الكتب العربية، وفى مجمع اللغة بمصر لجان تبحث هذه المصطلحات فى الفلسفة وفى غيرها من العلوم، وستؤتى ثمارها بعد حين..

جاء دورى فى الكلام، فقلتُ: إنّ أبوابًا كثيرة من التفكير قد فُتّحت أمامى حين شرفتُ باستماع حديثك، على أنى أقول: إنّ ما قرأتُه فى مجلة الهلال بقلمك الرصين يُضارع ما يكتبُه كبار الأدباء فى العالم الغربى، فإذا كنتَ تلاحظُ بعض النقص، فلاشكّ أنَّ أمثال العقاد، وأحمد أمين، وطه حسين، يلحظون فى مقالاتهم ما تلحظ من استدراك، ولكنهّم يجمعون ما نَشروه حِرصًا على مافيه من نفع جزيل، فإذا قامَ الدكتور منصور فهمى بجمع مقالاته كما عزم ذات يوم، فإنّه سيفيد القارىء العربى، ثم قلتُ: وإذا كنتُ ياسيدى قد أفدتُ من حديثك العَفْوى الآن ما يتعذر أن أجدَهُ لدى كاتب آخر، أتكونُ مقالاتكُ ذات التفكير المُتَّئد خاليةً من الصائب السديد؟!

تشعّب بنا الحديث طرائق مختلفة، ثم حانَ الافتراق، ولكنْ إلى لقاءات أُخْرى ذات أرجٍ بهيج.

* * *

الأستاذ أحمد حسن الزيات

تربعت «الرسالة» على عرش الصحافة الأدبيّة بالعالم العربى فترة طويلة، حيث كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يجمع الصفوة من كبار الأدباه ليطالعوا القراء بأحدث ما يكتبون، وقد تشتعل المعارك القلمية بين هؤلاء الصفوة فيتزاحم المثقفون فى قراءة الرسالة فى شوق، وتترك هذه المعارك الأدبية من الدوىّ بين المثقفين، أضعاف ما تتركه المعارك السياسية فى الصحف اليومية، لأن قراء الرسالة فى كثرتهم الغالبة على وعى يقظ لما يدور من الأفكار، وقد ظهرت «الثقافة» لتنافس الرسالة، وهى لسانُ لجنة التأليف والترجمة والنشر، وأعضاؤها هم الذين أسهموا فى بناء الرسالة، وساعدُوا على ذيوعها، وكان المنتظر أن ينخفض مستوى الرسالة بمنافسة الصحيفة الجديدة، ولكن الأستاذ الزيات جذب إلى مجلته أعلام الفكر فى العالم العربى، مع من بقى معه ممن آثروا الرسالة بالعون الصادق، فكانَ جهد «الثقافة» أنْ تلاحق «الرسالة» فى خطوها الفسيح، وقد نشأت مولعًا بهذه المجلة الرائدة، لأنّ أساتذة المعاهد الدينيّة بالأزهر كانوا من أنصارها عن إخلاص متحمّس، ولأن أسلوبها البيانى قريب مما يحبون من أساليب السلف، وللأستاذ الزيات بلاغته المبدعة، إذ كان مقاله الافتتاحىّ يشبه الشعر المنثور فى صفاء معدنه، وجودة تصويره، هذا إلى اهتمامه، بالذكريات الإسلامية، ومواقف البطولة فى التاريخ العربى، واختياره أنفس ما يذاع من الآثار الأدبيّة فى هذا المجال،

اتصالى بالرسالة:

وكنت أتهيب الكتابة إلى الرسالة، وأنا فى عهد الطلب، وأرى أن مستواها

الرفيع وَقْف على ذوى الدُّرْبَة من التمّرسين، ثمّ جاءَ شهر رمضان فكتبتُ مقالاً تحت عنوان (رمضان عند الأدباء)، متّحدثًا عن الصلة المفقودة بين فريق من الشعراء والكتّاب، والشهر الكريم، ومستشهدًا بطرائف مما قيل فى هذا المجال، وهتفَ به أمثال البحترى، وابن الرومى، وبديع الزمان الهمذانى، وابن الراوندى، وبعثتُ المقال للرسالة، فنشرهُ الزيات سريعًا قبل أن تضيع مناسبته، وكان المقالُ ذا حجم كبير، فلم تضقْ به الرسالة، ولم تحاول أن تختصر منه شيئًا! وكان ابتهاجى كبيراً بنشر المقال، إذ جعل لدّى من الثقة ما دفعنى إلى مواصلة الكتابة بدون انقطاع.

ومما أذكرُه عن مقالاتى الأولى بالرسالة أنّى كتبتُ بحثًا تحت عنوان (من أخلاق البحترى) فى ثلاث حلقات، وبعثتُ به إلى الرسالة، ومعه «ظرفٌ» عليه عنوانى الخاص، ليتفضّل الأستاذ الزيات بإخبارى عن وصول البحث، ولم يضنّ الأستاذ بالمراسلة، بل كتبَ يقول، إنّ فى بعض التعليقات ما يخرجُ من النقد إلى الهجاء، لذلك يرى أن أختصرَ المقالات إلى اثنتين، وأنْ أحذف العبارات القارصة التى تُسىء إلى البحث، مكتفيًا بذكر الحوادث المُجَرَّدَة، فهى تُغنى عن التَعقيب المسىء! وقد استجبتُ إلى ما قال الزيات، وحررتُ البحث من جديد، فتفضل بنشره، ثم بادرتُ بإرسال مقال آخر تحت عنوان (عمر بن الخطاب الأديب) وحملتهُ بنفسى للرسالة، وكانت فرصةً طيبه للقاء الأستاذ، وكان مكتبهُ حينئذ خالياً من الزوار، فطلب منى أن أقرأ البحث، فَارْتَضَاهُ ووعد بنشره، ولكنى قلت له: إننى لم أُسرف فى التعليق على الشواهد، عملاً بما نصحنى به الأستاذ من قبل، فقالَ لى الزيات: هُنا موضع الخطأ، لأنّ التعليق على آراء الفاروق الصائبة مدعاةُ ارتياح، وليسَ كالتعليق على انتهازّية البحترى ووصوليته، وإن مقصدى من توجيهى السابق، أنْ ترتفع عن الهجاء، وتُقدّم ما يدعو إليه، تاركًا للقارىء أن يكمل ما تريد! وقد سعدت بملاحظة الكاتب الكبير، وحاولت التقيّد بها فيما سأكتب.

الحكم بالكفر:

توالتْ مقالاتى وقصائدى بالرسالة، وقد كتبتُ بحثًا (عن المرأة فى شعر

الرصافى) ذكرتُ فيه بعض ماقال الشاعر، وكان من بين ما قال (مظلومةٌ حتى بميراثها) ونُشر البحث فى حينه، ثم ذهبت بعد قرابة نصف عام من نشره إلى زيارة الأستاذ، فوجدتُه يبتسم قائلاً (سأدخل معك النار يا رجب) فدهشتُ لما قال الزيات، ورأى الحيرة فى وجهى، فقال إنّ شيخ الإسلام فى تركيا العلامة الكبير (مصطفى صبرى) أصدر كتابا تحت عنوان (موقف العلم والعالم من الدين) وذكر فى الجزء الثانى منه أنّ مقال الرصافى يكفر كاتبه وناشره، وإذا حكم شيخ الإسلام فى دولة الخلافة بكفرنا، فالويل لنا.

سكتّ ولا أدرى بماذا أجيب، ولكنّ الرجل طلب لى فنجانًا من الشاى لأهدأ، وقال لقد امتُحنت بشيخ الإسلام مصطفى صبرى، ووكيل المشيخة زاهد الكوثرى، حيث واصلاَ الحملات على الرسالة فى تشنج لا أدرى مأتاه، وقد بَدَا شَرُّ هذين يوم أن نشرتِ الرسالة مقالاً للأستاذ محمود شلتوت عن نزول عيسى، إذ اتجه الشيخ المدّقق إلى عدم وجود نص صريح فى هذا النزول، وأدلَى بالحجج الدامغة، وهو من كبار المجتهدين فى عصره، ولكنَّ الشيخيْن هبّا هبّة الثائر المحنق، وظّلتْ صحفُ العوام تنضح بأهاجى الرسالة وصاحبها، وتعدُّها لسانًا من لسان التبشير، ورأيتُ أن أبتسم بدل أن أغضب، وكانَ فى مقدرة أحدهما أن يُرسل ردا موضوعيًا للرسالة، فأسارعُ بنشره عَرْضًا لوجهة نظرٍ مقابلة! ولكنهّما لم يردّا إلاّ بالسباب والشتائم، وهما يعلمان أن الرسالة ليست مجالاً للأوْضار والأقذار، فأخذا يشتمان من بعيد! ولنا الله.

قلت إن الذّى يهاجم شلتوت والزيات من السهل عليه أن يقول عنى مايشاء! فقال الأستاذ: لقد هاجما الأفغانى، ومحمد عبده، والمراغى، ورشيد رضا، ومحمد فريد وجدى، ومحمد حسين هيكل، ومن لا أحصى، ومن الإنصاف للزيات أن أقول إن الرسالة قد نَعت الشيخ الكوثرى بعدَ وفاته، فنشرتْ مابعثه أحد الفضلاء فى رثائه، وعَدَدْتُ ذلكَ سموا فى أخلاق الرجل، وترفعًا منه عن الصغائر والأضغان.

فى المنصورة:

المنصورة عاصمة الدقهلية، وقد اعتاد صاحب «الرسالة» أن يمضى بها شهور

الصيف، متخذا مجلسه تحت ظلال شجرة مورقة، كتبَ عنها عدّة مقالات تحت عنوان فى ظلال الكافورة، وفى مجلسه هذا يفرغ إلى قراءة بريد الرسالة على شاطئ النهر، وكانَ من عادته أن يَرمى بالمقال التافه ليذهبَ مع التيار الصاخب. وأذكُر أن الأستاذ عباس خضر قد كتبَ يقول: إذا كانَ نهر دجلة بالعراق قد أغرقَ مكتبة بغداد حين قذف التتار بمجلداتها إلى النهر، فإنّ نهر النيل قد شارك أخاه، حين رمى الزيات بمئات القصائد والبحوث فى موجه المتدافع، والقياس مع الفارق طبعًا، لأن الزيات لم يكن يرمى غير الركيك التافه، ولكنّها طُرفة تُسجّل.

وكم حَوَى مجلس الزيات فى ظلال الكافورة من طرائف نادرة، إذ كان أدباء المنصورة ينتهزون فرصة وجوده لِيَسْعَدُوا بحديثه، وأذكر أنَّ أحد الشعراء من مدرسى المدارس الثانوية، حاول أن ينشر قصيدة بالرسالة، وتشفّع بالأستاذ محمود البشبيشى، وهو صديق الزيات، ومن كتّاب الرسالة الأفاضل، فحددّ له البشبيشى موعدًا للقاء الأستاذ بمجلسه، وجاء الشاعر، فطلب منه الزيات أن يقرأ القصيدة فبدأ قائلاً:

عرضتْ علىّ جمالها وعقارها بتلهّفٍ فأبيتُ أَنْ أختارها

فلم يتمالك الزيات أن قال للشاعر قاطعًا قوله: لا أرىَ فيك ماتستحق به أن يُعرضَ عليك الجمال والعقار؟ وهب أن ذلك قد كانَ، فلاينبغى أن يُسَجل، لأنّ الشاعر المتصّون لايجيز أن يجعل صاحبته طالبة راغبة، وهى فى الأصل الطبيعى مطلوبة مرغوبة، لقد عيبَ على ابن أبى ربيعة أن يتباهى بصويحباته، وعده النقاد مبالغًا متخيّلا، فقال الأستاذ البشبيشى: وإذا كان ذلكَ حقيقة واقعة، فَلِمَ لايُقال؟ فابتسمَ الزيات قائلا: أشكُّ فى أنه حقيقة مع ابن أبى ربيعة، وأجزمُ أنه ادّعاء مع صديقنا هذا، ثم واصل الشاعر قراءته فجاء ببيت مكسور، وكانت فرصة للزيات يتعلّل بها فى إهمال القصيدة.

ومما أذكره من طرائف هذا المجلس، أنّ الشاعر الفكه الأستاذ طاهر أبو فاشا كان يأخذ مجلسه المرح جوار الزيات، ويفيض بما عُهِدَ عنه من الطرائف والأفَاكِيه،

وحانَ موعد الغداء، وكان من عادة الزيات أن يأتيه إلى مجلسه من المطعم القريب، فدعاه الزيات إلى مشاركته، ولكنه قال إنه على وعد مع الأستاذ على متولى صلاح أن يتناول معه «الطعمية» فى الغداء، فقال الزيات على البديهة: (الكعكة اللّذاعة، تؤكل فى جماعة) وقام طاهر لينقل إلى صاحبه ما قاله الزيات، فارتبك الرجل، وقال: إن الزيات لايأكل الطعمية، ولكنّه يريد ما فوقها! وفوجئ الأستاذ بطاهر وعلى متولى يحملان أطباق الكباب وما يتعّلقُ به إلى مجلسه، ولم يكنْ تناولَ الغداء بعد، فقال لطاهر: ماذا صنعت؟ فقال إنّ على متولى دفع الثمن اليسير وقمتُ أنا (بالمشال) فأيهمّا أكثر عناءً: الذى دفع عدة قرُوش، أم الذّى تصبب عرقًا حتى كادِ يموت؟ قال الزيات: وأيْن الكعكة اللذاعة؟ فقال طاهر لم نُرد أن نأكل فى جماعة!

قصيدة وعتاب:

أرسلتُ إلى مجلة الرسالة قصيدةً تحت عنوان (الموت يتكلّم)، ومضى نصف عام بدون أن تنشر القصيدة، فبعثتُ بها إلى مجلة الثقافة فنُشرت بعد أسبوعين، ثم فوجئتُ بعد قرابة شهرين بنشر قصيدتى بمجلة الرسالة، ولم أكن أتوقع ذلك وأَرْسَلَ بعضُ القراء تعليقًا للرسالة يقول إنها تنشرُ المُعَادَ المكرّر، إذ أن قصيدة (الموت يتكلم) قد نُشرت من قبل بالثقافة، وذكر التاريخ ورقم العدد، وكنتُ غافلاً عمًّا كان، فلم أكد أقابل الزيات حتى صاح بى: ماهذا؟ أتبعث لى بقصيدة منشورة بالثقافة؟ قلت: ياسيّدى، أنا معذورٌ جدا فيما كان، فقد أرسلتُ القصيدة إليكم منذ ثمانية أشهر، ثم ظننتُ أنها لم تحز قبولكم؛ إذ أبطأ نشرها هذا الإبطاء، فبعثتُ بها إلى الثقافة فنشرتها على الفور، وفوجئت بها من بعد فى الرسالة، فوقعت فى أشد الحيرة فماذا أصنع؟ فبدا على وجه الأستاذ ما يدلّ على أنه قبل العذر، ثم قال: لاتعجب إذا تأخر نشر القصّة أو القصيدة لعامٍ بالرسالة، لأنها تتلقّى كل أسبوع سيلاً من القصص والقصائد وهى لاتتسع لأكثر من قصّة وقصيدتين فى العدد الواحد، لأن المقالَ والبحث هما اللذان يشغلان أكثر الصفحات، وقد تركتُ قصيدتك مع أخواتٍ كثيرات حتى وقعتْ فى يدى مصادفة

فنشرتها، وكان عليكَ أن تُخبرنى بنشرها فأعرف، قلت: لن أبعث بما أرسله للرسالة إلى مجلة أخرى مهما امتد الزمن، فقال الرجل فى تشجيع: ولن يمتد.

فى مجلة الأزهر:

اختير الأستاذ الزيات رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وتهيبّه كتابُ المجلة المعتادون، فلم يرُسلوا إليه مقالاتهم، واضطّر الأستاذ إلى الاستعانة بمن يَعرف من كبار الأدباء ذوى النزعة الإسلامية فظهرت المجّلة تحمُل أسماء كتاب الرسالة، وكانتْ موضع ملاحظة لدى الكثيرين، فأرسلَ الأستاذ عبد الله أمين خطابًا يتساءل عن الظاهرة؟ فأين كُتَّاب الأزهر وعلماؤه؟ مع أن المجلّة تنطق بأسمائهم؟ وأجاب الأستاذ قائلاً: لقد راسلنا أصحاب الفضيلة العلماء، فلم يُلبِّ الدعوة غير عالمين فحسب! فإمّا أن تظهر المجلة بيضاء، ولاسبيلَ إلى ذلك، وإما أنْ أكتبها جميعها وهذا مالايُطاق، وإمّا أن أستعين بمن أعرف، وهذا مافعلت! ثم استعانَ بتأثير الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر، فتوافدت مقالات الأساتذة من كتّاب الأزهر تباعًا.

وقد حَدث أمر شاذ قابله الأستاذ بمكتبه، إذ وفد لزيارته بعضُ المتطفلين على الكتابة الدينيّة بدون علمٍ أو أمانة، وأخذ يخوضُ فى أمور لايدرى عنها شيئًا، ثم تعّرضَ لسيرة رسول الله ﷺ بما يدلُّ على سوء الأدب، وكانَ الأستاذ على العمارى يجلسُ فى مواجهته، والزيات أمامهما فى مكتبه، فما كاد هذا المتحدث ينطق بكلمته النابية حتى نهض العمارى، وضربه بكفّه على وجهه ضربةً جعلته يسقط على الأرض، ففزع الزيات وارتمى بجسده كله على الرجل المضروب ليعوق العمارى عن مواصلة الضرب، وانتهى الأمر بتحقيقٍ ذى أخذ وردّ، والطريف أنّ بعض أصدقاء الزيات قال له: لماذا دافعتَ عن المضروب وقد أساء لسيرة رسول الله؟ فقال الزيات: كلاّ، أنا لم أدافع إلاّ عن العمّارى، لأنّه فى حماسته وشبابه سيقتلُ الرجل إذا واصلَ الضرب، وهنا يتعّرض للقصاص، فأردتُ أن أحميه من خطرٍ يتهدّده، وانتشرتْ إجابة الزيات، فكانت طرفة!

ومن أعجب مالاقاه الزيات أثناء رياسته لتحرير مجلة الأزهر أن أحدالعلماء ممن

سارت لهم شهرة فى الكتابة ذهب إلى مكتبه، وقال له: أنا أحق برئاسة تحرير مجلة الأزهر؛ لأنّى أستاذٌ كبير بإحدى الكليات، ولى مؤلفات ذائعة، ومقالاتٌ مستفيضة، فقال الزيات فى هدوء: لقد أنقذْتَنى يا أخى، أنا أرجو فضيلة شيخ الأزهر منذ شهور كى يعفينى من هذا العبء، وهو لايقبل، فاذهب إليه، وقلْ له: إنّ الزيات مستقيل وأنا أريد أن أخلفه، وطار الرجل إلى الشيخ شلتوت، وكانَ إمامَ الأزهر حينئذ، فأخبره بما كان، فتعجب الإمام الأكبر من تَطاول الشيخ، ولكنه قال له: إذا استقال الزيات فلابد أن نعرض كتّاب الأزهر جميعاً، لنختار من يليق، وفيهمْ من يرجحك فى هذا المجال، إذْ لستَ وحدك، وأرى من الأوفق أن تعتذر للزيات فهو متفضّلٌ على المجلة، ولم يكنْ يريدها، لولا الإلحاح الشديد!

وظلّ الأستاذ قائمًا على تحرير مجلة الأزهر، حتى لقى ربه، فبكاه تلاميذه الكثيرون، وظهرت كتب خاصة بأدبه وتأثيره فى المحيط الثقافى، لأنّ دوره الكبير حفظ له مكانه بين أعلام العصر الحديث.

* * *

العلاّمة الأديب المجَرِىّ
عبد الكريم جرمانوس

كان أستاذنا الدكتور إبراهيم محمد نجا يدرس لنا فقه اللّغة بكلية اللغة العربية، وكان يستشهد كثيرًا بآراء صديقه العالم الأديب المجرى الأشهر الدكتور عبد الكريم جرمانوس، ويقول: إنه حظى بزمالته أيام كان يتردّد على كلية اللغة طالبًا زائرًا، ثمّ امتدّت علاقته به، حتى صار يُذاكرُ معه دروسه الأزهرية فى النحو والصرف والبيان فى أوقاتٍ كثيرة من أيام الأسبوع، ومما يذكر عنه أنّه كان يتردّد على حلقات القسم العام بالجامع الأزهر أيامَ كانتْ هذه الحلقات تضمّ (الطّلَبة) الغرباء من شتى بقاع العالم الإسلامى، وقد لَفَتَ نظرَهُ أن الدارس المجتهد «جرمانوس» أَخَذَ يستمع إلى الدرس الواحد ذى الموضوع الواحد فى النّحو والبلاغة من عِدّة مدرّسين، مع أنّ الأصل أنْ يعكفَ الطالب فى المادة الواحدة على أستاذ واحد، كيلا يتبدّد وقتُه هباءً، ولكنّ جرمانوس شرحَ وجهه نظره، وهى أنّه يقّارنُ بينَ مايسمعُ ومَن يسمع فى الجانبيْن ليعرفَ أوجهَ الزيادة والحذف، وبهذه المقارنة تثبتُ المادّة.

هذا ما قاله الدكتور «نجا» عن «جرمانوس»، وفيه مايدلّ على أن الطالب لم يأتِ للأزهر ليفهم فقط، بل لينقدَ ويرجّح، مهما كانت المادةُ العلميةُ جديدةً عليه، وهى روحٌ علمية عالية لاتُتاح لغير النوابغ. ثم مضت الأيام، وأخذتْ مقالاتُ الدكتور «جرمانوس» تُنشَر فى المجلاّت العربية الراقية، وأخذ العلماء يتحدّثون عنه عالماً يدرسُ أكثر من سبع لغاتٍ شرقية وغربية دراسةً متمكنةً، بحيث يستطيع أن

يُحاضر ويؤلّف بكلّ منها فى سهولة، وإذا كانت كلّ لغةٍ من هذه اللغات تحفل بالمؤلفات والأعلام والآراء والمذاهب، فإنّ عقليّة «جرمانوس» قد اتسعتْ لفيضٍ زاخرٍ من نتاج الفكر الإنسانى لايُتاح إلا لأفراد، ولا أدرى لماذا كنت مشغوفًا بالرجل منذ حدّثنا عنه أستاذنا الدكتور إبراهيم نجا، حتى أذن الله، فتوثّقتْ صلتى الشخصيّة به، ولكن كيف؟

أبو العلاء وابن شهيد:

كنتُ نشرتُ بحثًا بمجلة الأديب اللبنانية عن الصلة بين رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسىّ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرىّ، وقد انتهيتُ إلى أنّ ابن شهيد هو الذى أثرّ فى أبى العلاء على عكس مايرى الكثيرون، وقدّمت من الأدلة المنطقية ما يؤيدّ هذا الاتجاه مستندًا إلى نصوص من رسالة التوابع والزوابع تأكَّدَ وصولُها إلى أبى العلاء قبل أن ينشئ رسالة الغفران، وما كاد البحثُ ينتهى إلى يد الدكتور جرمانوس، حتى بادرنى بخطاب طويل يؤيّد وجهة نظرى، ويعترفُ أنها عدلّت من رأيه كثيرًا فى ضوء ما قدّمتُ من الأدلّة، وقد فرحتُ بخطاب جرمانوس لأنّه زاد من ثقتى فى نتيجة البحث المشار إليه، كما فتح لى بابَ التعرف إليه، وقد كتبتُ عنه مقالاً بمجلة الحج السعودية يُعلن تقديرى لمواهبه، ويعرف برحلته إلى الحجاز التى نشر بعضَ فصولها بالعربيّة فى مجلة الرسالة، وقد تفضَّلَ الأستاذ وديع فلسطين فسارعَ بإرسال مقالى إلى جرمانوس بجامعة بُودابست بالمجر حيث يعملُ أستاذًا للحضارة الإسلامية والتاريخ العربىّ بهذه الجامعة، فأسرع «جرمانوس» بمراسلتى شاكرًا ماكتبتُ عنه.

فى القاهرة:

ثم انعقَد بعد ذلك مؤتمرُ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فدُعِى إليه الدكتور جرمانوس؛ لأنه عضوٌ مراسل بالمجمع، وتلقيتُ برقّيةً منه يُعلنُ فيها وجودَه بفندق سميراميس مع السيّدة زوجته، وأنه يَودُّ لِقائى، وسرعانَ ما نشطتُ إلى زيارته، وامتدّ الحديثُ معهُ من العصر حتّى بعد صلاة العشاء، وفى هذه الأثناء قدَّم إلىَّ

دعوةً باسمى من السّفِير المجرى لحضور حفلةٍ تكريميّة أقامها له السفير، تليها مأدبة للعشاء؛ إذ شاء الرجل الدبلوماسى أن يجمع أصدقاءَ جرمانوس فى لقاءٍ أدبىّ بالسفارة بمناسبة زيارته للقاهرة، ولا أدرى لماذا اعتذرت، فقال جرمانوس ضاحكًا: ألا تُريد أن آكُلَ معك؟ فقلت: لو تكرّمت فإنّى أدعوك لزيارتى بالفيّوم مع السيدة حرمك لنأكل جميعًا، فنظر الرّجُل بابتسامٍ، وقال: الفيوم! لقد قرأت عنها، وسأحضر.

وفى هذه الجلسة النّادرة حدّثت الرجلَ عمًّا قاله أستاذنا إبراهيم نجا بشأن تعدّد الدّرس الواحد ذى الموضوع الواحد، فأخذ الدكتور جرمانوس بيدى فى قبضة يده، وقال لى: سأحدّثك عن عجيبة مُماثلة، فقد أتُيح لى أن أسمع درسًا فى فضائل الصّوم الإسلامى بالتركية فى مسجد استانبول، فدونتُ خلاصته فى مفكّرتى، ثم أتيح لى أن أسمع بالأوردية درسًا فى فضائل الصوم بمسجد دلهى بالهند، فدونت خلاصتَهُ فى مفكّرتى، ثم أُتيح لى أن أسمع فى مسجد الحسين درسًا فى فضائل الصوم باللّغة العربية، فدونت خلاصه فى مفكرتى، ثم طلبتْ منِّى إذاعةُ المجر درسًا باللغة المجرية عن الصوم الإسلامى بمناسبة شهر رمضان، فكتبت الحديث من وحى معلوماتى وخاطرى وأذَعْتُه، ثم بدالى أن أرجع إلى مفكرتى التى حوتْ خلاصة الدروس المتعدّدة فى اللغات المختلفة، فرأيتُ منْ غرائب الاتفاق والاختلاف ما جعلنى أندم على أنْ لم أكن تلميذًا متنقّلا فى مساجد الإسلام؛ لأدوّن كلّ ما أسمع، فأجنى الثمارَ الشهيّة من الشرق والغرب، ولكل ثمرةٍ مذاقها اللذيذ.

زيارة الفيوم:

ذهبت إلى القاهرة بعد يومين لأصطحب الدكتور جرمانوس إلى الفيوم وفْق ما اتفقنا عليه، فراعَنى أنْ يحدثنى فى الطريق عن مناطق المدينة السياحية، واعتزامه رؤيتها، وعن رغبته فى الجلوس أمامَ السّواقى الشهيرة، وزيارة أماكن الجمال الطبيعيّة فى بُحيرة قارون وعين السّيلسيّين، فقلت له: عجبًا! مَنْ أعلْمَك بهذا كله

عن بلدٍ لم تسمعْ به إلا منذ يومين؟ فقال: إنه زار أصدقاءه القاهريين، واستخبر عن المدينة ليكون على بيّنة من محتوياتها، وأنّ من عادته ألاّ يزور مكانًا فى الشرق أو الغرب إلاّ قرأ مادوِّن فى كتب الرحلات عنه، فإذا لم يجدْ فى الكتب ما يروى ظمأه، سأل العارفين فاستفاد، ثم قال: إنه قرأ بالأمس نُبذةً عن تاريخ الفيوم القديم، وعلم أنّ يوسف الصدّيق قد أنشأ بها بحرًا لايزال يحمل اسمه، وهو مايعرف ببحر يوسف، وأنّ خصومه هم الذين أجبروه على حفر النهر؛ إذ أفهمُوا ملكَ مصر حينئذ أنّ يوسف وهو الوزير قد أهملَ إقليم الفيوم، ولم يَشقّ به من الأنهار ما يضمنُ وجودَ الزروع، وينمىّ الحاصلات، وأدرك يوسف مكيدة هؤلاء فتدارك الأمرَ، وحفر النّهر فصارت البلدةُ بعد ذلك جنّةً دانية القطوف.

وكنّا فى بدءِ موسم رمضان، فاشترط علىّ أن يكون إفطاره عند الغروب كوبًا من اللبن، مع قليلٍ من التمر، فقلت: قد ينفع هذا فى السحور، أما فى الوجبة الأولى للصائم فمحال، فقال إنه منذ خمسة أعوام لايُفطر فى رمضان على غير اللّبن والتمر، مراعاة لشيخوخته؛ لأنه يزحف إلى التسعين، وبعد حوارٍ قليل استجبتُ إلى ماأراد على كرُهٍ، وأحضرتُ طعامى مع طعامه لأغريه، فما استجاب.

وكان الأستاذ محمود تيمور القصّاص الأشهر قد كتب مقالاً عن جرمانوس ذكر فيه أنّه أكول نهم، وأنّه رأى حَمَلاً مشوياً ينضج على النار، والسّمن يكسوه من كل مكان، فما استطاع أن يَصْبر حتى ينزل من مقرّه فوق الجمر المتهب، وأخذ يمتلخُ قطعًا من اللحم ويزدردُها على سخونتها الحارّة، فتذكّرتُ ما قال تيمور، وحدثتُ الدكتور به، فضحك فى سرور، وقال: صَدَقَ تيمور، لقد كان ذلك قبل ثلاثين عامًا عند زيارتى الأولى لمصر، وكنتُ سليم المعدة لا أشكو من الحموضة مهما أفرطتُ فى الطعام، أمّا الآن فقد أجبرنى الزمن على أن أتحفّظ، وقد استمرت زيارتهُ للفيّوم يومين، طاف بها معى فيما رغب من الأماكن، وحين رأى المنحدرات النباتيّة ذات الشجر الظليل فى عين السّلسّيين قال إنها قطعةٌ من رياض سويسرا، وكأنّ الغرب قد انتقل إلى الشرق، ولاتزال رناتُ حديثه البديع تغمرُ أذنى بتسلسلها المطّرد مهما بعد الزمن.

مصر والعاميّة:

شكا جرمانوس إلىّ مالاحظه من انتشار اللّغة العاميّة فى مصر، وقال إنه تعلم اللغة العربية أولّ ما تعلّمها من القواميس، وحين شرُف باعتناق الإسلام فى الهند، وأعلن ذلك فى مسجد دلهى، إذ خَطَبَ الجمعةَ وشرح دواعى إسلامه، رأى من الضرورىّ أن يتقن العربية لغة القرآن، فبذل جهده فى المجر مستعينًا بمعاجم اللغة، ثمّ بداله أن يحضر إلى الأزهر الشريف ليتلقّى الشريعة واللغة معًا، وحين وصل إلى الإسكندرية، وقدَّمَ جواز السفر بعد نزوله من الباخرة تكلّم بالعربية الفصيحة التى درسها من قبل، فأخذ السامعون يتضاحكون ويعجبون، ثم يَرُدُّون عليه بالعامّية التى لايفهم منها شيئًا، فجعل يضربُ كفا على كف، ويقول: لقد خفتُ أن أتحدّث بغير العربيّة فأكون أضحوكة فى مصر، فلماّ تحدّثت بها صِرتُ أضحوكة!! ولكنّ الذين ضحكوا منه فى إدارة الجوازات لا يُساوُون شيئًا جوارَ من قابلوا الضيفَ بمظاهر التكريم من كبار الأدباء والعلماء؛ إذا أُقيمتْ له حفلاتُ الاستقبال فى جمعيّة الشبان المسلمين، ودار الهداية الإسلامية، كما سعد بصداقة أعيان الفكر، وقادة الأدب، فأنزلوه أحسنَ منزل، وهيّئوا له الالتحاق بمعاهد الدراسة العربية، حتى أتقن اللغة إتقانَ المتمكن، وكتب فصولاً قيمّة بها، كما اختُصّ بعالم أزهرىّ كان يسهر معه فى مسكنه الخاص بحىّ الحسين، ليقرأ معًا كتب الشريعة واللغة والعقيدة، ثم اصطحب فريقًا من محبّى الآثار، من فرعونية، وإسلامية، ليبلغوه ما يريد رؤيته فى المتاحف والمعابد والمكاتب، والمزارات الإسلامية؛ إذ كان الرجل لايكتفى بالدراسة النظرية دون المشاهدة والعيان، بل إن المشاهدة تُتيح له أن يدوّن من المذكرات الشخصيّة ما يضيف الطريف إلى التليد.

رحلة الحجاز:

رحل جرمانوس إلى كثير من بقاع العالم، ولكنّ الذى فتن لبّه، واستولى على مشاعره مارآه فى رحلة الحج إلى البيت الحرام؛ فقد كان يرسم لهذه الربوع

الطاهرة صورةً زاهيةً قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها، وكانت أشواقه تدفعه إلى استجلائها عن قرب، فلما تحقّق له ذلك أحسّ كأنه نبت فى الحجاز منذ نشأته الأولى، وأن الشمس والصحراء والقافلة والجمل والحُداء من أكبر عوامل بهجته وطربه، وكتابه الرائع (الله أكبر) يسجّل خواطرهَ المؤمنةَ، ويرتفع به فيما يتناول من أحاسيسَ إلى مرتبة الشاعر المحلّق، ومع ذلك ففكرُ الرحّالة الدءوب لم يفارقه؛ إذ كان يسأل رفاق السفر عن كلّ مايرى مما يبحث عن تعليله وتحليله، وقد حدّثته عن المقالات التى تُرجمت من كتابه، وقلتُ له: إنّ حديثه عن الزواج فى البادية وفى مكة، وكيف كان يقترن الزوج بمن لايعرفها إلاّ بعد أن يعقد القران، وتصل إلى منزله، ثم هى فى اللقاء الأول تعتلّ عليه وتحاول أن تضربه بعنف إذا اقترب منها، هذا الحديث الشائق الذى سجّله الكاتب بدقة كان من الغرابة بحيث لايكادُ يتصورّ؛ لأننّا إذا صدّقْنا وسلّمنا أنّه لم يرها حتى قدمت منزل الزوجية، فمن الصعب أن نتصورّ عراكًا حاميًا فى اللقاء الأول، قلتُ ذلك لصاحبى، فذكر أنه أيضًا حار بعضَ الشىء فيما سمع، ولكنهّ لم يندهشْ لأنه قرأ من قبلُ فى رحلة ابن بطوطة أنه رأى بالهند فى ليلة الزفاف جماعة من أقارب الزوج يذهبون لإحضار الزوجة، فيجدون جماعةً من أقاربها يقفون أمام المنزل محاولين أن يمنعوا ذهاب العروس، ويدور نقاشٌ حاد، تعقبه معركة بالأيدى، ثم يطول اللجاج حتى يتدخَّل المحايدون فيستميلوا أهل الزوجة كى يأذنوا بذهاب العروس، ويتمّ الأمر بعد نزاع يطول، كلّ ذلك والقِران معقودٌ من قبل، والاتفاق تام على أكمل الوجوه، فكيف يُستغرب بعد ذلك أن تتأبّى الزوجة عند لقاء إنسانٍ لم تره من قبل؛ لابّد أن تدلّ وتتأبّى فى استعلاء.

دفاع عن العربية:

أجمل ما أذكره لجرمانوس بالشكر والتقدير، دفاعُه عن العربيّة فى وجه العامية؛ إذ كان يُشَنّعُ على من يُحاولون من أبناء اللغة الفصحى أن ينحدروا إلى الكتابة بالعامّية، ويرى ذلك قصورًا فى الملكة وتفريطًا فى رسالة القلم، ويتساءلُ: أيهّما أحسن للكاتب، أن يكتب لبلد واحد، أم للأمة العربية جميعها، ومما قاله فى

هذا الصدد أنّ كاتبًا عربيا أهدى إليه قصّة كتبها بلغة بلدته العامية، فلم يفهم منها شيئًا، فذهب بالقصّة إلى سفير هذه البلدة بالمجر، ففوجىء بأن السفيرَ نفسه يعترف بأنه لم يستطعْ مواصلة قراءتها؛ لأنها تضمّ ألفاظًا لم يسمعْ بها من قبل، وإذا كان المواطن القريب لايدرك عامية بلده لاختلافها من إقليم إلى إقليم، فكيف الظنّ بالقارىء البعيد؟ ولم يسكتْ جرمانوس عمًّا يحاول الاستعماريوّن أن يزيّنوا به انتشار العاميات، قطعًا لروابط الأخوة، ووَهنًا لوشائج القُرْبَى، إذْ كشف النقاب عن ذلك فى نزاهةٍ وإخلاص. لقد كان عبد الكريم جرمانوس إنسانًا صادقَ الحس، نافذ البصيرة، قوىّ الإيمان، ومثله لايغيب عن ذاكرة أصدقائه وعارفيه.

* * *

العلامة محمد إسعاف النشاشيبى
أديب يُنكَر فضلُه!

تجلسُ مع أديب العربيّة الأكبر المغفور له الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى، علاّمة فلسطين، ووارثِ علم سيبويه والمبرد والأصمعى، فتحارُ كلّ الحيرة فيما تلمسُ من سعة اطلاعه، وتنوّع معارفه، وغوصه على الدقائق الدفينة فى مطاوى المخطوطات، فَضْلاً عن المطبوعات، ولستَ وحدك الذى يَحَارُ، فكلّ من يستمعون إليه فى مجلسه الحاشد يعجبون ويدهشون، وهم ـ بَعْدُ ـ فى طليعة المثقفين غزارةَ مادّة، وشمول ثقافة، وشدة تنقيب؛ إذْ كانَ الرجلُ ـ رحمه الله ـ موسوعةً علميَّة تنطق بما ضمَّتْ من الذخائر والكنوز.

وقد يظنُّ بعض القراء أنّى أجنح إلى المبالغة، ولكنَّ من سعِد بمعرفته، يشهد صادقًا بما أشير إليه من ميزاتٍ علميّة قلَّ أن تُوجد إلاَّ عند الأفذاذ، وهأنذا أزكّى قولى بشهادة الأديب الكبير أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة؛ حيث يقول عنه:

«.. لقد وقف نفسه ووقتَه وجهدَه على دراسة الإسلام الصحيح فى مصادره الأولى، وتحصيل اللغة العربية وعُلومها وآدابها من منابعها الصافية، فكان آيةً من آيات الله فى سعة الاطلاع، وتقصّى الأطراف، وتمحيص الحقائق... لا تُذكَرُ مسألةٌ إلاَّ كان له عنها جواب، ولاتُثار مشكلة إلا أشرقَ فيها رأى، ولا تُروَى حادثة إلاّ وَرَدَ عليها مثل، ولا يحضُر ندوتهَ أديبٌ مطّلع إلا جلسَ فيها جلسة المستفيد؛ فهو من طراز أبى عبيدة والمبرد، لذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا واختياراً

المستفيد؛ فهو من طراز أبى عبيدة والمبرد، لذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا واختيارًا وأمالىَّ، وكان خاتمة طبقةٍ من الأدباء اللغويين المحقّقين».

إنكار الذات:

وقد أُتيح لى أن أسعدَ بزيارة الأستاذ مرّات فى مجلسه «بالكونتننتال» بالقاهرة؛ إذ كانَ يزورُها كثيرًا، فيتوافد عليه أهلُ المعرفة من عاشقى أدبه، وكان السبب فى اتصالى به لا يَخْلُو من طرافة وهو من ذكرياتى الأدبية التى أُعْنَى بتسجيلها، لما تتضمن من مَغْزًى خُلقى، واتجاهٍ سلوكىّ يحسن أن يُلمّ بهما من يحرصون على الخبر الأدبىّ الطريف:

كنتُ فى نشأتى الأدبية الأولى حريصًا على قراءة المجلاتّ الأدبية الرصينة، وكانت مجلّة الرسالة فى طليعة هذه المجلات علْمًا دقيقًا، وأدبًا صافيًا، وفنّاً رفيعًا، واختيارًا حصيفًا، فكنت أقرأبها بحوثًا أدبيّة متصلة الحلقات، تمتاز ببُعْد الغور، ونفاذِ النظرة، وبراعةِ النقد، ولكنّ صاحبها لايُعلِنُ عن اسمه، وإنّما يُكتَبُ العنوانَ فى أعلى الصفحة الأولى من المقال منسوبًا إلى من قال عنه صاحب المجلّة «أستاذٌ جليل»، وتتوالى البحوث المتشعبة لغةً وتاريخًا ونحوًا وأدبًا ونقدًا، والباحث الكبير لا يُسفر عن وجهه، بل يدع أمثالى من القرّاء متسائلاً: كيف يجوزُ لمن بلغَ هذا المبلغَ من السطوة العلمية الفذة أن يُنكر نفسه فلا يُعرف؟ ثم أقول: لعلّ الباحث الكبير مشهورٌ لدى الخاصّة دون العامّة، فهو يكتفى بمعرفة زملائه الكبار، دون سائر القرّاء، ولا أكتمُ القارئ أنني سألتُ عنه أساتذتى، ومن أتّصلُ بهم من قراء الأدب وعشّاق الثقافة، فلمْ أَلمسْ جوابًا شافيًا، ولا أدرى لماذا شَغَلنى هذا الخاطر بتكرارِ مقالات الأستاذ فى الرسالة، وكنتُ أجد من يُعقبون على بعض آرائه فى المجلّة، لايذكرون غير هذه العبارة «ذكر الأستاذ الجليل فى مقالة كذا» دوُن إشارةٍ ما إلى اسمه، ولكنّ ما يسوقونه من عبارات الثناء يدلّ على أنهم يتحدثون عن قمة من قمم الأدب، فهم يُوَفّونه حقّه من الإجلال، وكأنهم يعرفونه، ويحترمون رغبتهَ فى التنكّر ـ والاختفاء، ثم أدهشنى أن أجدَ عالمًا بارزًا

من كبارِ علماء مصر، وعضواً مرموقًا من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة يقع فيما أقع فيه من الحيرة، فينشر فى مجلة الرسالة خطابًا «إلى الأستاذ الجليل» يقول فيه:

«إنى ليطربنى ياسيّدى أن أقرأ لكم هذه المقالاتِ القديرة، الزاخرة بالفائدة، فى نقد الطبعة الأخيرة من (العقد الفريد)، وليست تلك النقداتُ وحدها هى التى سبَتْنى من علمِك الغزير، واطلاعك المنقطع النظير، وإحاطتك بما تكنّه ضمائر أسفار السابقين الأوّلين من أئمة اللغة وحفّاظها، بلْ تتبّعْتُ فى الرسالة الغرّاء كلَّ ما دبّجَتْه يراعتُك منذ أول عهدك بها، لم تفُتْنِى منه فائتةٌ، بل لقد اتخذتُ منه دروسًا أتوفَّر عليها، وأعكفُ على الإفادةِ منها، والتضلّع من معينها الفياض.

وإنى لأعجبُ ياسيدّى كل العجب فى هذا العصر الذى يُباهى بالقشور، وسُخف القول، كيف تتستّر وتحتجب، وتقفُ فى تواريك هذا وعزلتك مرُشدًا وهاديًا لاتبتغى غير خدمة وطنك ولغتك. وإنْ أسفتُ على هذا التستّر والاحتجاب، فإنما أسفى على أنّ أمثالى من طالبى المعرفة، يودّون لو أُتيحتْ لهم فرصةُ لقائك ليستزيدوا منك، وليتحلوا بما يشهدون فيك من كمال الخلق، ولكنك زهدتَ فى نباهة الذكر، وعِفْتَ الإعلان... وضربتَ المثلَ فى التواضع وإنكار الذات، فليتعلَّمْ من هذا المثل الصالح من يتطاولون على صفحاتِ الجرائد والمجلات، فيدَعون ما يتصاولون من أجله، ويخرجونَ إلى ميادين العيب والتجريح..»

قرأتُ هذا الخطاب، وكاتبُه هو الأستاذ الكبير أحمد العوامرى بك، كبيرُ مفتّشى اللغة العربية بالوزارة، وعضو مجمع اللغة، وصاحب التحقيقات العلمية الدقيقة بمجلة المجمع، وناشر الثمين من كتب التراث، فقلتُ فى نفسى إن الرغبة فى معرفة (الأستاذ الجليل) لاتقتصر على الصغار من الطلاّب مثلى، بل تتعدّاهم إلى القادة من كبار العلماء، وأئمة المحققين، وقد عبّر العوامرى عن رأيه فى مجلة الرسالة، فلماذا لا أكتب أنا الآخر، فأضمُّ صوتًا إلى صوت!

ثم خجلت من نفسى، وأنا طالبٌ بالسنة الأولى من القسم الثانوى حينئذ أن أتبع كلمة العوامرى بكلمة لا تَبْلُغُ مبلغها من الإصابة، وستكون تكرارًا غير مفيد إذا سمحت المجلة بنشرها، وقد يسألنى أساتذتى بالمعهد ماذا أفدْت؟ وقد تكلم العوامرى بما يغنى عن مقالك؟ فبماذا أجيب؟

غير أن الإلحاح يعاودنى مُصِرا على أن أجهرَ بمشاعرى، فاهتديتُ إلى أن أنظم قصيدة شعرية فى هذا المجال، وحينئذ لاتكون تكرارًا، فاستعنتُ بالله، وقلتُ من قصيدةٍ طويلةٍ موجّهاً الخطابَ إلى الأستاذ الجليل:

دع اللثام

دع اللثامَ، فقد واليتَ تعذيبى ... ياطالما ضلّ فى واديك تنقيبى

حجبتَ نفسَك فى شمّاء شاهقةٍ ... لكنّ سيبكَ عنّا غيرُ محجوب

فكنتَ مثلَ النسيم الطلق ينعشنا ... ولا نراهُ بتحديق وتقليب

فيم استتارُك؟ والأشواقُ جامحةٌ ... والعين ما بين تشريق وتغريب

ونحن فى زمنٍ، كلٌّ يتيه بما ... يزجيه للناس من فُحْشِ الأكاذيب

هو التواضعُ فى أسمى مظاهره ... لقد قبضتَ عليه بالتلابيب

فهات بَحْثَكَ، إنّا معشرٌ كلفٌ ... بما تُدَبِّجُ من بدءٍ وتعقيب

فكم مقالٍ رصين الفكر مؤتلقٍ ... منمّق الصوغ، مختار التراكيب

دنيا بمختلف الآيات حافلة ... يريك منظرها شتّى الأعاجيب

فمن بيانٍ إلى نحوٍ إلى لغةٍ ... من كل مؤتلق فى العين مرغوب

مباحثٌ زادها فى النفس منزلة ... أن اسمَك الفذّ فيها غير مكتوب

أسلوبك المشتهى تلقاه منفردًا ... بطابعٍ واضح بين الأساليب

ما إن أراه على القرطاس مُرْتسما ... حتى أسوق إليه كل ترحيب

كأنه إذ يُوافينى بطلعته . . . (قميص يوسف فى أجفان يعقوب)
إخال أحرفَه السوداء قد كُتبت بالمسك يعبقُ منهُ عاطر الطيب
أستاذِىَ الفذّ، قُل لى غيرَ منتظرٍ من أنت؟ واكشِفْ قناع الشك والريب
قلبى يحدثنى فى كل آونةٍ أنّ اسمك الحقّ (إسعاف النشاشيبى)

والبيتُ الأخير ينطقُ بمعرفتى اسم الباحث، وقد جاء ذلك من معاودتى لبعض المقالات التى ينشرها النشاشيبى بتوقيعه الصريح؛ إذْ أراها تتّفق فى سمتها العام مع المقالات التى يكتبها (الأستاذ الجليل) طريقةً ومنهجًا واستطرادًا، فقلت لابدّ أن المقالة المعلومة كالمقالة المجهولة تخرجان من مشكاةٍ واحدةٍ، وترجّح ذلك لدىَّ ترجيحًا بعد صبرٍ طويلٍ، فلم أشأ أن أكتمه، ثم بعثتُ بالقصيدة إلى مجلة الرسالة لتتكرّم بنشرها، ولكنّ الزمن يمرّ بدون أن أجدَ لها صدًى، فقلت فى نفسى، لعلَّ الشعر ركيك فى رأى رئيس التحرير، أولعلّى أخطأتُ صاحبَ الاسم الحقيقى، ومع هذا التردّد، فقد شعرتُ بأسفٍ لإهمال القصيدة هكذا.

مضتْ سنوات سبع، فاتصلت بمجلة الرسالة كاتبًا، وعرفتُ أستاذنا الزيات معرفة شخصية لتردّدى على مكتبه، ثم كانت المفاجأة!

لقد انعقدت ندوة الرسالة ذاتَ مساء، والتأم الشملُ بحضور نفرٍ من كتّاب المجلة، يتسامرون كعادتهم كلّ أسبوع، ثم انفرج الباب عن مقْدم زائرٍ كبير، هُرِعَ الأستاذُ الزيات للقائه مسرورًا، وهو يقول: أستاذنا النشاشيبى، ومَضَى يعرّف الزائر بالحاضرين، جتى جاءَ دَوْرى، وما كاد الزيات ينطق باسمى حتى ابتسم النشاشيبى ابتسامًا غامرًا، وفَتَح ذراعيْه لاحتضانى، وهو يقول:

قَلْبى يّحدثُنى فى كل آونةٍ أن اسمك الحقّ إسعاف النشاشيبى

فتحيّرتُ أكبر حيرة؛ لأن القصيدة لم تنشر، فكيف عرفها الأستاذ الجليل؟ وكأنه أدرك حيرتى فجلس جوارى، وقال: لقد قلتَ قصيدةً عامرةً، أرسلها لى الأستاذ

الزيات كي أرى رأيى فى نشرها، فاحتفظتُ بها فى أعزّ مكان، ولو عرفتُ عنوانك لراسلْتكُ شاكرًا، ولم أرغبْ فى نشرها كيلا تفْضَحَ اسمى؛ فأنا أودّ أن أظلَّ مستترًا عن الكثيرين، لأنقدَ فى حريّةٍ بعيدة عن المجاملة! وأحيانًا أنكر نسبة المقال لى جَبْرا لخاطرِ من يخدشهم النقد، فماذا أصنع؟

ثم قال لى، لابدّ أن تزورَنى فى الفندق غدًا، لنتناول الغداء، وحاولتُ أن أعتذرَ فأصّر، وكرّرتُ الاعتذار، فلم أفلح.

فى مجلس النشاشيبى:

ذهبتُ إلى الأديب الكبير فى الموعد المحدّد، فوجدتُ من إيناسه ولُطفه وبشاشته ماراعَ وأطرب، وكان الاستشهاد بالشعر الأصيل ديدنَه؛ إذ ما تطرق القول إلى خاطرٍ من الخواطر إلا أسعفته ذاكرتُه بالجيد المختار، ثم قال لى: أتدْرى لماذا أوثر الاستتار؟ ومنذُ متى؟

قلتُ: ما أشوقَنى لمعرفة السرّ العجيب! فأطرق مليّاً ثم قال: رحم الله أبى، لقد كان من كبار أثرياء وطنه، ولديه من العمّال فى المتجر والمزارع جمعٌ هائل، كلّهم ينظرون إليه بإكبار، وكنْتُ أنشرُ نقداتٍ أدبية فى مجلات الشام بسوريا وفلسطين ولبنان، وأعنُفُ فى النقد، فيردُّ علىَ المنقودون بأعنف العبارات أحيانًا، حتى لنتشاتم!! وكان الأصحاب من تابعى الوالد، إذا وجدوا من يشتمنى فى الصحف، سارعُوا إلى أبى، فاستشاط غيظاً؛ لأنّه رجل أعمال لايُقدّر النقاش العلمىّ حق قدره، وكم مرّة دعانى غاضبًا، وصاح: تُشْتَمُ فى الصحف، وتُشْتَم معك أسرتُك يا إسعاف!!

وليستْ لى قدرة على محاورة أبى، فصرتُ من بعدها أقدّم النقد بدون توقيع، كيلا تُشْتَمَ الأسرة!! ومضى أبى إلى رحمة الله، فأصررتُ على أن أحيى ذكراه فى نفسى حين أرسل المقال بدون توقيع!

قلت: ولكنّ العطر يفوح! فضحك الرجل وقال: أىّ عطر يافتى! نحن أشواك.

وقبل أن أغادر المكان أحضر الأديب الكبير مجموعةً من مؤلفاته أذكر منها: الإسلام الصحيح، والشاعر الخالد، والبطل الخالد، والبستان.. وتفضّل مشكوراً بإهدائها إليّ، فدلّت على فَضْلٍ باذخ، وعلم غزير...!

* * *

الحاج محمد أمين الحسينى
مفتى فلسطين

الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين أشهر من أن يُعَرَّف، وقد كان فى أثناء الحرب العالمية الثانية موضع إشفاق المسلمين جميعًا، لأنّه مطارَدٌ من الإنجليز واليهود معًا، إذ كانت مواقفه الوطنية شَبَحًا فى حلوقهم، وقد اضطربت به الأرضُ، فتنقّل من فلسطين إلى لبنان، فالعراق، فإيران، فتركيا، ثم إلى ألمانيا، حيث وجد بعض الحماية فى كنف أعداء الإنجليز، حتى إذا دارت الدائرة على الألمان زاد الحرج والإشفاق، واختفت أخباره عن العرب فى مصر والشرق جميعًا، وكثر تساؤلُ المخلصين من عارفى فضله، وكنت أحَدَ الذين شُغلوا به حينئذ، لأنى أعرف كفاحه البطولى، وقد جاش خاطرى بالشعر، فنظمت قصيدة قلت فى مطلعها:

تغيَّبَ حتى ما يُتاحُ له عَوْدُ	سلامٌ عليه كيف طوّحه البعدُ
جفَا أرضَه واعتاضَ عنها بغيرها	كأن لم يكن فى الحب بينهما عهدُ
ترحَّل عنها فهى ثكلى تقلّبَت	على جمرات ليس يخبو لها وَقْدُ
تناشدُه الرّجعى، وكيف مجيئه؟	وقد صُمت الجدران وارتفع السدُّ
وتبعثُ برقياتها كلّ ساعة	ومازال يغلو فى السكوت ويشتدُّ
لقد ضجّت الأسلاك حتى تحطمت	فيالرسالات تروح ولا تغدُو

والقصيدة طويلة، وقد نَشرتُها فى مجلة الإخوان المسلمين، ثم شاءَ الله أن تنزاح الغُمة، فاستطاع المجاهد الصابر أن يفلت إلى مصر، ووقاه الله كيد الأعداء،

فأتّى سالمًا منصورًا، وفرحنا فرحًا شديدًا بمقدمه. وأذكر أنى كنتُ فى جريدة البلاغ، فوجدتُ الشاعر الكبير الأستاذ محمود رمزى نظيم يصيح فى فرح: الحمد لله، لقد وصَل الحاج أمين إلى مصر هذا اليوم، وذهب من فوره إلى قصر عابدين، فوجد الحماية من الملك والوزارة والأمّة، ولاتسْل عن الشعور العام حينئذ، شعور الفرحة والاغتباط.

وبعد عدة شهور قابلت صديقى الأستاذ صبحى الصالح، الطالب بكلية أصول الدين (ونائب مفتى لبنان الشهيد فيما بعد) وكان يعلمُ عظيمَ تقديرى للمفتى الأكبر، فقال لى، لقد فاتَك شىء كبير جدا يارجب، قلت: ماذا؟ قال بالأمس ذهبَ وفد من طلاب الأزهر الفلسطينيين إلى مقابلة الحاج أمين، وذهبتُ معهم، فقضينا مع الرجل الكبير أحلى ساعات العمر، وتحدث معنا حديثًا مسهبًا، وعقدَ علينا آمالاً كبارًا، ودامت المقابلة ساعتين، قلت: وكيف لى بلقائه؟ فقال: سيذهبُ وفد سورى من طلبة الأزهر والجامعة للقائه بعد أيام، وسأخبرك قبلها، قلت: ذلك عهد، قال: وسأعمل على الوفاء به.

ولم تمض أيام، حتى كنت بين الزملاء فى حضرة المفتى الأكبر، وقد شعرت بعظمته الشخصية، وهو يلبس عمامته المرتفعة عن مثيلاتها مما نعهُد، ويضعُ العباءة الفضفاضة على كتفيه، فيحسبه الرائى بعمامته وعباءته ملكًا عربيا، ذا تاج بهيج، وحلّة رائعة، هذا من ناحية المظهر، أما المخبر فما سمعتُ من حديثه الهادئ المطمئن، جعلنى أقدّر فيه رزانة السلوك، وهدوء النفس، وبساطة التناول بحيث لم أشعر أن المجاهد الأكبر يطلّ علينا من الأوج، بل يجلس معنا فى السفح! وقد سأل عن أسمائنَا واحدًا واحدًا، وعن معاهدنا الدراسيّة، وحين جاء اسمى قال الأستاذ صبحى الصالح: إننى شاعر، وإننى نظمت أحسن قصائدى فى تحية المفتى الأكبر إذ كان مغربًا فى أوربا، فابتسم الرجل ومدّ يده إلىَّ مصافحًا، وقال: لقد قرأتُ عدة قصائد تفضلّ بها أصحابها علّى، وبَعَثَ بها من مصر مَن يعرفونَ مكانى من أقاربى، وأظننى قرأتُ ما نظمت، ولا أدرى لماذا سكتّ، فلم أنطق بشىء.

لاحظ الشيخ الكبيرُ أن أكثرنا من طلاب الأزهر، فقال فى لطف: أنا أزهرّى تعلمتُ عدة سنوات فى صحن الأزهر، ثم أُنشئتْ بمصر مدرسةٌ للدعوة، أنشأها السيد محمد رشيد رضا لتخرّج دعُاةً للإسلام يفهمون روح العصر، ومنطق الأحداث إلى فهمهم روح الشريعة ومنطق الدين، وأكثر أساتذتها من أعلام ذلك العهد، فالتحقتُ بها، لذلك كانت ثقافتى الأولى مصرية خالصةً، وإذا قلتُ مصرية خالصة، فهى الثقافة الإسلامية، وكنت أتمنى أن تستمرّ مدرسة الدّعاة هذه، ولكن ظروفَ الحرب العالمية الأولى حالتْ دون ذلك، لأن الإنجليز لمسوا تعاطف القائمين عليها مع تركيا والألمان، فحرصُوا على إغلاقها! وأنَا أدعو طلاب الأزهر من الآن إلى دراسة أحوال العصر وملابساته ليكونوا ألسنة المسلمين، ومصابيح الحق، وفيكم الرجاءُ بإذن الله، وحين انتهى المجلس وحان التفرّق نهض المفتى سابقًا إلى الباب ليسلّم على كلّ فرد، وليشدّ على يده ملاطفًا، وحين جاء دورى، قال لى: أشكرك، ولايضرّ أن يتأخَّر الشكر عن موعده، فلكل شيء أوان!

خرجنَا من الاجتماع فى حالةٍ من السرور لا تُقَدرَّ، لأننا رأينا مَثَلاً حيا لزعامة متواضعة مؤمنة، لقد عهدنا بعضَ الزعماء يستطيلُ ويشمخ، ولايدورُ حديثه إلا عن نفسه، فإذا تكلّم فالصوتُ مرتفع، والنظراتُ متوقدة، والفخرُ المجلجل بالأعمال والمواقف لاينقطع، أمّا الأستاذُ العريق فى أستاذيته قبل أن يكون عريقًا فى زعامته، فقد أعطى القدوة المثلى للقائد الذى يستصغر تضحياته مهما كبرت، ويسردُ الأحداث لاليكون محورها، بل ليعطى الفكرة السياسية فى وضوح واتزان.

وقد حاولت أنْ أعاود الزيارة. ولكنْ قيل لى: إن ظروف المجاهد الكبير تحول دون المزيد من اللقاءات، فقد أشار ذوُو الأمر على المفتى بالاتئاد فى المقابلات والأحاديث، لأنّ الانجليز لايزالوُن موغرى الصدور لنجاته، ويتهمونه بالعمل على كراهيتهم، ومصر فى موضعٍ دقيق، فهى لاتحاولُ إغضاب السفارة البريطانية إذا أمكنها أن تتلافى بوادر هذا الغضب، ثم هى تتعهدُ بحماية الضيف الكبير، وهذا يكفى. وكان هذا القول كافيا فى امتناعى عْن تحقيق ما آمُل، مكتفيًا بمتابعة ما

يُقال عنه فى الصحف والمجلاّت. والحقُّ أن الصحافة العربية قد أفسحتْ للرجل مكانًا طيّبًا، حين أخذتْ تشيد ببطولاته، وتتغنى بمآثره، غير عابئةٍ بما يتردد من الطنين الكريه، فهى تعلم ما وراءه من غل دفين...

لا أدرى كم مضى من الزمن، حتى قرأتُ فى الصحف أن جمعية الشبان المسلمين ستحتفل اليوم بجلاء الإنجليز عن مصر، وسيتحدّث خطباء من رجال السياسة والأدب بهذه المناسبة، وسيكونُ من بين المتكلمين سماحة مفتى فلسطين الحاج محمد أمين الحسينى، فقلتُ إنها لَفُرْصَةٌ جيدة تتيح لى أن أستمع إلى الرجل فى حديث عام، وابتدأ الاحتفال، وتتابَع الخطباء، فكان منهم ذُو الانفعال الصاخب بدون تركيز عقلى، ومنهم ذُو النّسق المرّتب تعبيرًا وتفكيرًا وإلقاءً، ومن الفريق الأخير سماحة المفتى، حيث تكلم هادئًا، فتحدّث عن مكانة مصر فى العالم الإسلامى والعالم العربى معًا، وقال: إن احتلال مصر سنة ١٨٨٢ كان نذيرًا باحتلال كثيرٍ من البلاد العربية والإسلامية، وإنَّ الكارثة امتدت إلى مدًى مخيف، وإذا كان الله عز وجل قد أَذِنَ بزوال هذا الاحتلال المصرىّ فمعنى ذلك أن بشائر الاستقلال ستتوالى فى البلاد الأخرى، وستناصر مصر مَن يطالبون بتحرير بلادهم من الأشقاء والإخوة كعهدها دائمًا، ثم قالَ: إن للمستعمرين جنودَهم المستترين فى الشركات والمعاهد والنوادى والصحف، يُعَبِّئُونَهُم فى اتجاههم الخاص ليكونوا طابورًا خامساً، لا يحس به الغافلون، وعلينا أن نأخذَ الحذر من هؤلاء، وقد دوَّى الحفل بالتصفيق عند هذا القول، وبه اختتم المفتى كلامه فغادر المنصّة فى هدوء.

وكنت أثناء حديث المفتى أسجّل نقاطه فى ورقة معى، ولاحظَ ذلك الأستاذ محمد كامل البنا، وكان بين الحاضرين، فسألنى فى ابتسام: أراكَ لم تُسجل غير حديث المفتى، فقلْت: ألا تراهُ جديرًا بالتسجيل؟ فقال: بلى ولذلك أغبطُكَ.. ثم ظهرتْ مجلة الإذاعة المصرية، وبها حديثُ المفتى فى هذه المناسبة دوُنَ أن تشير إلى أنّه كان حديثًا عاما فى جمعية الشبان، فقلتُ فى نفسى، كيف تَفْعلُ المجلّة ذلك؟ ثم خطر لى احتمال أنّ محرر المجلة قد التقى بالمفتى الأكبر فى جلْسة

خاصة، واقتضت المناسبةُ أنْ يُعد له ذلك الحديث، إذ كان موضوع الساعة، وهو احتمال لايبلغ درجة الترجيح.

وفى بعض أيام الجمعة، كنتُ أصلى بمسجد الحسين، والتفتُّ إلى الصّف الأمامى، فوجدتُ الأستاذ محمد كامل البنا بين المصلّين، فسارعتُ بالتسليم عليه، فقال لى: إنّ الحاج محمد أمين الحسينى يحضر ندوة مجلة لواء الإسلام، ويسهم بالحديث الشافى مع كبار العلماء من أمثالِ عبد الوهاب خلاف، ومحمد أبى زهرة، ومحمد البنا، ومنصور فهمى، وعبد الوهاب حمودة، فكنتُ أقولُ فى نفسى: لو كنتَ معنا لسجلّتَ حديثَ المفتى كما سجلته يوم الاحتفال بالجلاء! قلت: ألاّ تزال تتذكر هذا؟ قال: بلى. ولا أدرِى لماذا دفعنى كلامُ الأستاذ البنا إلى مراجعة أعداد لواء الإسلام لقراءةِ مادار بالندوات المسجلّة بها، فرأيتُ الحاج أمين الحسينى يبُدى آرَاءَه فيما يعرض من المسائل الدينية الدقيقة فى وضوح وشمول، وكدت أعرف أقواله وإن لم تنسب إليه، لأنه كان مُتَّسِعَ الأُفق فى إجاباته، فلا يكتفى بالنصوص التشريعية وحدها، ولكنه يربط الشرق بالغرب، فيتحدث عَمَّا كتبه الخصوم ومازيفوه من الحقائق، وقد تتعرّضُ الندوة لمسألة ما فى الهند أو تركيا أو فرنسا أو إنجلترا، فإذا إجابات المفتى تدلّ على دراسة مستوعبة لتيّارات تموجُ بها عواصم الدول، وهكذا رجلُ الدين حين يعيشُ فى عصره، فيرقب أحداثه المترامية فى شتى الدول، ليأخذ منها ما يؤيّد منحاه السياسىّ، والذينَ يعُالجون المسائل الاجتماعية فى ضوء النصوص المشتهرة، دُونَ أن يُحاولوا تطبيقها على مايشهدون من الأحداث، ودُون أن يُوازنوا بين رأى ورأى واتجاه واتجاه أقلّ جدوىً ممن تتّسع نظرتهم إلى هذا المدى الفسيح! ويُخيّلُ إلىّ أن الحاج محمد أمين الحسينى لو خلص من أعباء السياسة وتَفَرَّغَ إلى شئون الفكر وحدها لترك من المؤلفات السديدة مايشبع ويفيد..

ثم ماذا؟

لقد كتب الأستاذ كامل السوافيرى رسالة الماجستير عن «الشعر فى مأساة فلسطين» واختار نماذج للجارم، وعلى محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل،

وأحمد محرم، ومحمود غنيم، وكثير من شعراء الصف الأول فى العالم العربى، وقدّم إلىَّ الرسالة بعد أن طُبعتْ طبعةً مصقولة، راغبًا أن أكتب عنها فى مجلة الأديب اللبنانيّة، ولم أجد حافزًا قويّاً للكتابة، لأن الأستاذ السوافيرى تفضّل واختار لى نموذجيْن من شعرى الخاص بمأساة فلسطين، فقلتُ فى نفسى، ربما يظن القارئ إذا كتبتُ عن الرسالة أننا نتقارَض الثناء، ولكنّ السوافيرى تأثر من تباطُئى، وقال لى غاضبًا: لقد عرضتُ الرسالة على الحاج أمين الحسينى، وقرأت له كثيرًا من قصائدها، ومن بينها قصيدتك التى قلت فيها:

مازلتِ والهةً حيرى تنوحينا	يا جارة الحى مايُبكيك يبكيناَ
علتْ نواحيك آهاتٌ مروعة	مثل التى أصبحت تعلو نواحينا
وناح طيرك مرتاعًا فقلت له	لقد تعلّمْتَ من أطيار وادينا
ولاحَ لى فى الكرى حلمٌ سعدت به	كساعة الملتقى عند المحبينا
رعد يُدوّى وأصوات مجلجلة	تصيح هاتفة، نفدى فلسطينا

وقد أُعجب بها الحاج أمين واستعادها، فكيفَ لاتكتب عن الرسالة؟ والحق أنّى استجبت وعرضت الرسالة بمجلة الأديب، وقلتُ للأستاذ السوافيرى، إذا أردتُ أن أسعد بلقاء الحاج أمين الحسينى، فكيف أصنع؟ فقال: تعالَ معى، يوم الاثنين القادم لتلقاه فى ندوة أحمد حلمى باشا، الزعيم الفلسطينى الشهير، فهى مفتوحة الأبواب للزائرين، وحان الموعد فذهبت مع الأستاذ كامل السوافيرى ولكنّ المجلس كان يضمّ الصفوة، وهم يشقّقون الحديث فى براعة، فاكتفيتُ بالاستماع، وانقضت الندوة، وقد سمعت من أقوال المفتى مايفيد، ولكنى لم أسعد بغير مصافحته حين انتهى الاجتماع وكان ذلك حسبى! وهو كثير...

* * *

العلاّمة محمد فريد وجدى
مؤلف دائرة معارف القرن العشرين

قضى ستين عامًا من عمره المديد لم يترك قلمه يومًا واحدًا إلاّ لمرض، وأبقى من الآثار العلمية مالايقدر على تأليفه لجنةٌ مختارة من الأفذاذ، وكان آية الآيات فى أدب الحوار، إذ أبدى من سعة الصدر، ورحابة النفس، وجمال التواضع ما يعدّ غريبًا فى بابه، لأن بعض مناوئيه كان يجادله بالتى هى أقبح، فلايجد غير الصفح العاقل؛ والتغاضى البصير، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه من حقائق كانت غائبةً عن المنقود، ولا أُرسل هذا الكلام إرسالاً بدون دليل، فلدىّ الشواهد.

لقد جاَدلَ المغفور له السيد محمد رشيد رضا فى بعض المسائل الدينية، وكانت فى صاحب المنار رحمه الله حِدَّةٌ تدفعه إلى التعالى والاستفزاز بدون موجب، وقد تورّطَ فرمى مؤلف دائرة المعارف ومُفَسّر كتاب الله بالجهل، وقرأ فريد وجدى شطط مناظره، فأغْضى عنه، وأخذ يناقشه مناقشةَ الصديق للصديق، وأذكرُ أنّى حادَثْتُه فيما كانَ من أمره معَ السيد رشيد رضا، فقال مبتسماً: إنّ كلينْا يحارب فى جبهةٍ واحدة، هى الجبهة الإسلامية، وإذا كنّا نُحاولُ الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول، فإنّ الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم، وهى وجهة عاقلة لاتجد من يلتزمها غير الآحاد.

كما أذكر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله، قد هَاجم الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتاب (أوقات الفراغ) هجومًا قاسيًا، وعاود الكَرَّةَ على صفحاتِ

مجلة السياسة الأسبوعية، فردَّ الأستاذ فى أدب ملتَزم، ثم أخرجَ الدكتور هيكل كتاب (حياة محمد) فقابلهُ الأستاذ محمد فريد وجدى بإطراء ضاف ممتد، وقال: إنه من الصفحات الرائعة التى سيُكتب لها الخلود، وللرجل فى هذه المثاليات نماذج رائعة لايرتقى إلى مستواها سواه.

أول تعارف:

كنتُ طالباً بمعهد الزقازيق الثانوى، فكتبتُ مقالاً متواضعًا عن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام، سَارداً ماروتْه كتب التاريخ عن أثر الكتاب فى نفسيّة الإمبراطور الرومانى، وعن اجتماعه بأبى سفيان، وسهيل بن عمرو، وسؤاله عن نبىّ العرب، ثم اجتماعة بالبطارقة ليناقشهم فى أمر النبى الجديد، ثم أرسلت المقال إلى مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى، وكان ذلك تسرعا من طالب ناشئ يبعثُ بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلة إسلامية فى ذلك العهد، ففوجئتُ بعد أسبوعَيْن بمظروف كبير، يأتى إلىّ بالبريد، ففضضته لأجدَ مقالى مع ردّ توجيهى من الأستاذ وجدى، خلاصتُه أنّه سُرَّ أكبر السرور باتجاه طالب ناشئ إلى الكتابة فى التاريخ النبوى، وإنه يُباركُ هذا الاتجاه ويُحبِّذُهُ، ولكنه يلفتنى إلى شىء مهم، هو أنّ المقال الإسلامىّ الجيدّ ليس إعادةً للأحداث المدونّة بأسلوب مختلف الألفاظ، ولكنَّ الواجب أن يكون للكاتب رأيه الخاص، وتعليقه الشخصى على الوقائع، وتحليلُه الدقيق للمواقف الغامضة، وحينئذٍ يُضيف الجديد إلى القديم المتعارف، ثم رجانى فى تواضعٍ أنْ أُحاول الاستفادة مما قال، وذلك لايتأتّى إلا بدوام المطالعة، والصبر على القراءة المفيدة، حتى تتكوّنَ لدى ملكةُ الكتابة على نحو كريم.

قرأتُ الخطاب عدّة مرات، وكان أولَ خطاب يصلنى من كاتب مرموق يحتل الصدارة بين ذوى الأقلام، فأعجبتُ به أشد الإعجاب، ولكنَّ حافزًا دافعًا حثّنِى على أنْ أردّ عليه فى إجلال وإكبار، فكتبتُ أقول له:

إنى شاكرٌ توجيهه السديد، وأنه سيظلُّ مصباحًا أستضىء به، ولكنىّ مع ذلك

أصارحُه بهاجسٍ يهجس فى نفسى، هو أنّى أقرأُ لكثيرٍ من العلماء مقالات تُعيد التاريخ بدون إضافة، ويُنشر بعضها بمجلة الأزهر التى يشرفُ عليها الأستاذ الكبير، فما تفسيرُ ذلك؟! وانتظرتُ قليلاً حتى سعدتُ برد للأستاذ قال فيه: إنه ارتاحَ كثيرًا لاستجابتى لتوجيهه، وسأجْنى ثمرةً يانعة بحرصى على القراءة النافعة، أمّا المقالاتُ التى أشرتُ إليها، فهى فى مُستوى ضعيف لامحالة، ولكنّ كُتّابَها من كبار الشيوخ، ولن يخْضَعُوا لتوجيهٍ من مثله، والصحيفةُ صحيفة الأزهر، وشيوخُها فى مقدمة كُتَّابها، لذلك فهو، يتّجه بالتوصيه إلى أمثالِى من الطلاب، معتقدًا أنهم يُبشّرون بأملٍ مرتقب إن شاء الله!

قرأت الردَّ فاقتنعتُ به، وأحَسْستُ أن الكاتب الكبير أصبحَ قريبًا من نفسى، بل أحسستُ أنّه أستاذى الذى أتلقّى عليه العلم، وقد سارعتُ إلى جميع مؤلفاته وأخذتُ أقرؤها بنشوة لاأجدها عند قراءتى لغيره.

زميل كريم:

كان لى زميل من طلاب المعهد الثانوى هو الأديب (محمد المتولى النظامى) رحمه الله، وقد اتكأ على جَيْبه ومالِ أبيه، فأصدَر كتابًا صغيرًا، تحت عنوان (خواطرولمحات)، وبعث به إلى كُبريات الصحف والمجلاّت من أمثال الأهرام، والبلاغ، والمصرى، والهلال، والرسالة، والثقافة، وغيرها، راجيا أن تَنْشر إحدى هذه الصحف سطورًا مشجعةً عن الكتاب، فلم يجدْ أدنى أثر يدلّ على كتابه، مع أنّه أرسَل الكتابَ بالبريد المسجّل، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرَّم بالتّنويه عن كتابه، أو نَقْده، فعزّ عليه أن يُهمَل هذا الإهْمال، وجاءنى شاكيًا متألّمًا، فسألته: هل أرسلت نسخةً إلى مجلة الأزهر، فأجابَ بالنّفى، قلتُ: سارعْ بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدى فقد يُعقّب عليها.

ثم كانت المفاجأة، حين صدرَ العدد الجديد من مجلّة الأزهر (ربيع الثانى ١٣٦٢) وبه صفحة كاملةٌ من القطع الكبير تتحدثُ عن كتاب الطالب الزميل، وقد بدأها الأستاذ وجدى بقوله:

«تنبتُ فى حُقول الجامعة الأزهرية يراعات من الطراز الممتاز ستلعبُ دوراً بعيد الشأو فى إعادة مجده، وإنّ هذه اليراعات ليترشّح منها ـ ولما تبلغ غاية نموها ـ ما ينمُّ عَمَّا ستقوم به من رسالات علمية وأدبّية نرى المجتمع الإسلامى فى أشد حاجة إليها اليوم، وبين يدَىّ الساعة رسالةٌ تحت عنوان (خواطر ولمحات بقلم (محمد المتولى النظامى) لا أبالُغ إذا قلتُ إنها بدايةٌ تبشر بمستقبل بعيد الأثر فى تبليغ رسالة الأزهر. . .» إلى آخر ما جاء فى الصفحة الكاملة.

وقد سُرّ الزميل سرور المندهش الفخور، وسافر إلى القاهرة كى يقابل الأستاذ شاكرًا، مقدّرًا، وكان ممّا سمعه منه، أنّه يرحّب بإنتاج الشباب، ويقدّمه فى التعريف على إنتاج الشيوخ، لأن الشابَّ محتاجٌ إلى من يَشّد أَزْرَهُ كى يواصل النضال، وإنّه يُقاسى مقاساةً أليمةً من أساتذة كبار لايكتبون الجيد، ثم يطلبون أن تخصّهم مجلّة الأزهر بما تخصّ به النّابغين من الشباب، وقد يضطر إلى ترضيتهم بسطور ضئيلة، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض!

هذا ما قاله الأستاذ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد.

إلى القاهرة:

انتقلُت إلى القاهرة طالبًا بكلية اللّغة العربية بالأزهر الشريف، فكان لقاء الأستاذ وجدى أولَ أمنية أحقّقها، فتقدمت إليه مذكّرًا بما كان أرسله إلىَّ من رسائل، فهش للقائى، وشجّعنى أن أَزُوره كثيراً كثيراً، فحدثته عن مقالات قرأتها بقلمه وحاولُت احتذاءها، وأهدى إلىَّ طائفةً من كتبه القيمة، وقد حدثتْ نادرة خاصةٌ به تعجبت لها، إذ كنتُ أزور قريةً ريفيّة، وكان عامل البريد بها مسيحياً ذا ثقافة، فجمعَنَا مجلسٌ علمى عرفت ممن خلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدى راسَلة مراسلاِت علمية بلغتْ عشر رسالات، وكلُّ رسالة تزيد على ست صفحات كبار فيؤلّف مجموعها كتابًا قيما، فتعجبتُ كثيراً، وقلتُ فى نفسى: لماذا لم ينشر الأستاذُ رسائله العشر فى صحيفة سيّارة، أو يجمعها فى كتاب مطبوع لينتفع الناس جميعًا بثماره الفكرية، بدلَ أن يخصّ بها إنسانًا واحدًا فى قرية صغيرة، وأصررتُ

على أنْ أسأله عمَّا صنع، فلّما جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعت، ومادار بخلدى، فنظر إلىَّ باسمًا، ثم قال فى هدوء: لقد كتبتُ مقالاً عن الإسلام والمسيحيّة فى مجلة الأزهر، فأرسل إلىّ هذا الرجل ردا مليئا بالأفكار الخاطئة، وخِفتُ أن أنشره معقّباً بدحضه، فيُحدثُ النشرُ بلبلة لدى إخواننا المسيحيّين لا أرتضيها، ثم خشيت أن أهمله فيظن حديثه صحيحًا وأنى أهملته عن غرض، فرأيتُ أن أفنّد آراءه فى كتابٍ خاص بعثتُ به إليه، ولكنه ردَّ فى إسهاب، وانتقل من موضوع إلى موضوع، فدفعنى ضميرى إلى الردّ عليه، وكررّ التعقيب فكررت الرد آملاً أن ينتهى النقاش عند حدّ، حتى إذا نَفد صبرى اعتذرتُ بعدَ عشر رسائل! ثم قال فى تواضع: إنّ الفكر أمانة، وصاحبُ القلم ليس مخيّرًا دائمًا فيما يكتب، ولكنه يُفاجأ أحيانًا بمالا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد فى حومة القتال سلاحه، والله عليم بذات الصدور.

نزلتْ كلمات الأستاذ على نفسى نزول المطر على الأرض الجدباء، فأحدثتْ فى خواطرى اهتزازًا ناميًا نضيرًا بما يحملُ من ثمر وعطر، وجعلتُ أفكر فى قوله: إن الفكر أمانة، وإن صاحَب القلم يُفاجَأ أحيانًا بما لاسبيل إلى السكوت عنه، فأسأل نفسى: أكل صاحب قلم يصنع ما يصنع الأستاذ؟ ثم أُمعن فى الموضوع فأساله: أهناك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون مايصنع الأستاذ؟ ولَمْ آيس، لأنّى أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفسًا مطمئنة ارتفع بها إلى أرفع المستويات، فأتت بما يعد شذوذًا لدى العامة، وهو عند صاحبه قياسى لا شذوذ فيه.

وعجيبة أخرى، فإنّ الأستاذ محمد فريد وجدى عُرف برأيه المعتدل فيما يُسمَّى بتحرير المرأة، وقد عاصَر قضيةَ التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع، فردَّ عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان (المرأة المسلمة) كان المورد الأوّل لمنْ يريد رأىَ الإسلام فى هذه القضيّة ذات الضجيج الصاخب، ثم واَصل الكاتبُ الكبير بحوثه عن المرأة فى الإسلام، وأبان وجهة الشريعة فى مسائل الزواج والأسرة، وتعدد الزوجات، وتعليم المرأة، والطلاق بما لامزيد عليه، وقد كتب

مقالاً فى بعض المناسبات لم يُرض أحَد الوعاظ ممّن لايبلغونَ مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ، فكتبَ مقالاً تعدّى فيه القول إلى القائل فوصفَه لما هو مبرأٌ منه، وتهوّرَ فى كلمات ماكان ينبغى أن تَصدر من واعظ دينى يجبُ أن يقف عند قول الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(1).

ونشرالواعظُ مقاله فى صحفية متواضعة تنتشر فى حيّز محدود، ولكنّ الأستاذ وجدى قد اطّلَع عليها، فأفردَ للرد عليها بحثًا ضافيًا فى عدة صفحات، ولم يتحدث عمَّا وُجِّه إليه من انتقاص لامبرّر له، بل وَاجَه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيّد وجهة نظره، بجلاء، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يُجيب بما علّمه الأستاذ من أدب، ولكنه ردّ فى تطاول، وعرفتُ ما كانَ، فاتصلتُ بالأستاذ وجدى لأقول له «إن الردّ على أمثال هذا المتشنج مما يزيُد من غروره» ولكنّه ابتسم قائلا: ليست القضية قضيته ولا قضيتى، ولكنها قضيةُ القارئ البصير، وهذا القارىءُ سيتلُو الرأى ونقيضَه ثم يجنح إلى ما يستصوب، فالرد واجب، ومحاولة تجاهله تأيد للخطأ، وهزيمة للصواب!

مقالات شتى:

ظل الأستاذ وجدى قرابة عشرين عامًا رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وكان له فى كل عدد عدّة مقالات، بحيث لو جُمعت آثاره فى مجلة الأزهر وحدها لكوّنت أكثر من عشرة مجلدات، تتحدثُ عن أدق المشكلات الاجتماعية وتردُّ أعتَى التيارات الإلحادية، وتحلّل المبادىء الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامىّ الحنيف، وقد وجدت نفراً من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها فى غير حياء، ولم يُشيروا إلى المصدر المنهوب أدنى إشارة، فقُمتُ بجمع ماكتبه تحت عنوان (مهمة الإسلام فى العالم) وهو أربعة وعشرون بحثًا توضّح رسالة الإسلام فى إنقاذ البشرية، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى مشارق النور، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة فى كتاب

(1) سورة النحل ـ آية ١٢٥.

خاص أنيق المظهر، جيّد الطبع، وقد صُدر بكلمة ممتازة لأخى الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبى، أمين اللجنة العليا، الذى اهتمّ بنشر الكتاب على أوسع نطاق، وقد خصّ به الذين سرقوا أفكاره، ناسين أن الحق حق، وأنه لايعدم أنصاره، مهما غمره النسيان، ولا تزال بين بحوث الأستاذ فى مجلدات مجلة الأزهر عدة كتب قيمة، منها الفصول الرائعة التى كتبها تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)[1] فى أكثر من أربعين فصلا، ومنها ماكتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفوس)، ومنها ماكتبه تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ومنها ماكتبه تحت عنوان (فى معترك الفلسفيّين) ومجلدات المجلّة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينيّة، فهل تجد هذه اللآلئ المتناثرة نظامًا يجمعها فى نسق متّصل، ليسْهل تداولها بين القارئين؟

إيثار وإنصاف:

تلقّى الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر سؤالاً عن الشرك وعقوبته الأخروية، وقد اشتط السائل حين قررً أن الإسلام بالَغَ مبالغةً كبرى فى عقوبة الشرك، إذ جعله دونَ الذنوب جرمًا غير مغفور، إذ يقول الله عز وجل فى كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2].

وتطرّق السائل إلى تعسُّفات ظنيّة لاتتصل إلى اليقين بسبب، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤال إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى، وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى، ليكتب كل منهما ردا شافيًا من وجهة نظره، وكأنّى بالشيخ الأكبر، وقد رأى الأستاذيْن ـ مع اشتراكهما فى جبهةٍ واحدة وهى جبهة الدفاع المخلص عن الإسلام ـ يفترقان فى الثقافة العلمية افتراقًا يفسح مجالا لوجهتى نظرٍ تتباعد وتتقارب، وهذا ماكان؛ إذْ نَحاَ الأستاذ الدجوى مَنْحى يعتمد

(١) تفضلت (الدار المصرية اللبنانية) للنشر، بطبع هذه الفصول الرائعة فى كتاب خاص، صادف ارتياحَ أهل العلم، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدى، آمِلاً أن ترى النور قريبًا إن شاء الله.

(٢) سورة النساء آية ١١٦.

فى أكثره على الأدلة النقليّة مستطرداً إلى أمور تَمُتُّ إلى الموضوع من بعيد، وقد جاءتْ لأدْنى مناسبة كما يقول الأزهريون، أما الأستاذ وجدى فقد استعان بمقررات العلم الحديث ليثبتَ أنّ الدين فطرىّ، وأنّ الشِّرْكَ نكسةٌ طارئة كان زوالها محتّمًا لدى مَن يُقدرون الكرامة الإنسانية، وقد نقلَ عن أئمةِ العلم الاجتماعى فى أوربّا، ما يدلُّ على أنّ البشرية كانتْ موحِّدة فى نشأتها الأولى، إذ عبَدَت الله وحده مهتديةً بفطرتها الخالصة، حتّى طَرأ من الزلل ما أدى إلى الشّرك، كما تابع آثارَ الانحطاطِ الإنسانى لدى الهمجييّن من الوثنييّن فى بلاد مختلفه شرقًا وغربًا، وظهر مقالاَ الأُستاذَيْن: الدجوى ووجدى، متجاوريْن فى عدد واحد، وقد شاءَ بعض المتحمّسين لمقال الأستاذ وجدى أن يبالغَ فى الثناء عليه معقّبا على مقال الأستاذ الدجوى بما ينبئ عن الاستخفافِ لا التقدير، وكأنّه كان يريد استمالةَ الأستاذ بما يقول، ولكنَّ العلامَة الأصيل، قد قاطع المتّحدث فى أدب، وقالَ إنّه استفادَ من مِقال الشيخ الكبير ما أضافَ الجديد إلى رأيه، وأنه نَشَرهُ قبلَ مقاله، اهتمامًا به، واحتفالاً بما أفاضَ به الرجل الحجّةُ من خواطر تمسُّ الوجدان المسلم، وترفع من مستواه، ورجَا الناقدَ أن يعود إلى مقال الدجوىّ مرة ثانيةً، وألا يكتفى بالنظرة الأولى، فتململَ المتكّلمُ دون أن ينطق، ثم آثر الانسحاب، فخرَج بعد مدى قصير.

وشاءَ بعض الحاضرين أن يتنقصَ الناقد بعد خروجه، ولكنَّ الأستاذ وجدى قالَ فى هُدوء: من يَدْرى لعلّه كان يعتقد صحة ما يقول، وَقَدْ هَديتُه إلى ماغابَ عنْه، ومن فضله أنْ قَرأَ ووازَن، فهو خير «ممّن لم يقرأ ولم يفكّر، وأحّب أن تكونَ مجالس العلم موضوعيةً لاذاتية، فهذا أولى بكرامتنا.. سمعتُ ذلك كلّه فتَلَقيتُ درساً من دروس الأخلاق.

نظرة إمام كبير:

مَاتَ صاحُب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا، فأفردَ الأستاذ وجدى صحيفة من مجلة الأزهر للثناء عليه بعد رحيله، ولكنَّ بعض الذين لايفهمون سماحة

الإسلام عَدُّوا ذلك موضعَ نقد لايجوز، وسارعُوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر حينئذ يقولُون فى صخب: إنّ بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصّهم الأستاذ وجدى بنعْى ضافٍ كما فعل مع صاحب الأهرام، فابتسم الشيخ الأكبر وقالَ لمحاوره، أَمعَكَ مقالُ الأستاذ وجدى؟ قال: نعم، قال هلّم فاقرأ، فأخذ الشيخ يتلُو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل، حتّى إذا بلغ القارىء منتصف القول، وهو فى قمّة انفعاله، قال له الشيخ سأقرأُ أنا، ثم أخذَ المجلَّة يتلُو فى جمال نَبْرَة، وحُسْنِ إلقاء، قولَ الأستاذ وجدى:

«إنّ الأزهر ومجلته لَتُشَارِك الأمة فى أساها، وتذكُر من فضائل الفقيد الكبير ما كانَ يُقابل به بحوثَ حضرات العلماء من الاحترام، ويُحلّها فى أرفعِ مكانة من الأهرام، ولطالَما نشر مقالات فى موضوعاتٍ علمية بحتة كان أولى بها المجلاّت، ولكنّه كان يُؤثر أن يكونَ عونًا للأزهر فى أداء رسالته، وفى عهده الجديد، ومما يدلّ على عنايته بهذه الناحية، أنه عندما ثارَ جدالٌ بين القائلين بجواز ترجمة معانى القرآن والذّاهبين إلى تحريمها، وانتصَر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى للقائلين بالجواز، نشرَ الأهرام بحثهَ فى عدد واحد على طوله، ولم يكنْ فضيلتُه شيخًا للأزهر إذ ذاك، فهذه النزعةُ الشريفة مضافةً إلى الكثير من غيرها لايصحّ أن تُترك بدون تقدير وإعجاب، فلا غَرْوَ أنْ عُدتْ خسارةُ الآراء الحكيمة بموته فادحةً، أحسنَ الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلفًا جديرًا بسلفه العظيم».

ثم قال الأستاذ متسائلا: أفهتُم مرمى الجملة الأخيرة!؟ إن الأستاذَ وجدى يعْرفُ أن الأهرام أقوى صحف العالم العربىّ، وأوسعُها انتشارًا، ويخاف أن تتخلّى عن طريقة صاحبها الراحل فى تشجيع المباحث الإسلامية، فأشارَ إلى الخلف باحتذاء السلف! فلو لم يكنْ له فى مقاله غير هذا التوجيه لكانَ جديرًا بالثناء لا بالانتقاد!

تراجَع المعترض قليلاً ثم سأل: ولماذا لايكتبُ الأستاذ وجدى عن الراحلين من العلماء الأزهريّين كما كتبَ عن صاحبِ الأهرام؟

فردّا الشيخ يقول: مَنِ الدّارسُ الخبير لهؤلاء؟ أنتُم أم الأستاذ وجدى! لقد سكَتُّمْ فلم تكتبوا شيئًا وأنتم زملاء وأصدقاء، وأولو خبرة بالقوم؟ أيُلاَمُ الأستاذ وجدى إنْ سكَتَ عن قوم لايكادُ يعرف عنهم شيئًا؟ ولاَ تُلاَمون وأنتم تعرفون كلّ شيء ثم تقّصرون! كنتُ أفهم أن يقولَ أحدكم: كتبتُ مقالاً فى تاريخ فلان رحمه الله ثم حالتِ المجلة دون نشره! هُنا يجبُ أن نسألَ، وأعرفَ لِمَ حُجِبَ المقال؟ أمّا أن نلومَ رجلاً محدود الاتّصال بالعلماء لأنه لم يكتبْ عنهم، ولانلوم أنفسنا فكثير..

وأراد الإمام المراغى أن يغيّرَ وجهة النقد الصائب، فقال: لقد نشَر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازًا بالجريدة اليومية عن صاحب الأهرام، وذكر فيه أكثر ممّا ذكر الأستاذ وجدى، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقْد صادفَ مقال الأستاذ أبى العيون ارتياحي لأنّه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدى، فهل لديكم ما تقولون؟ وانتهى المجلس بالاعتذار.

هذا قليلٌ من كثير أعلمه عن الرجل الكبير، وقد تحدثت عنه بَعْد رحيله فى مناسبات كثيرة، ولا أزال أهش فرحًا بالكتابة عنه، لأنه فى دنيا الخُلُق الرفيع مثالٌ يُحتَذَى، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدثون عنها فى خطب رنانة، ومقالات دورْيّة، ولكنهم لايَلْتزمون بكثير مما يتحدثون، فإذا رأيْنا بين منَ نعرف مَن يلتزم بما يقولُ تطبيقًا ـ مهما عادَ عليه قول الحق بالمضايقة المرهقة لَدى من يحترفون الدسائس والمضايقات ـ فإنّنا نفرحُ كل الفرح حين نجد المثل المنشود إنسانًا كريمًا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، رحمه الله..

* * *

الشيخ محمود شلتوت

كان اسم الأستاذ محمود شلتوت يُدوِّى فى الدوائر الأزهريّة، والأندية الثقافيّة، بما يُذيعه من آراء صائبة فى التجديد الدينى، والإصلاح الأزهرى، وقد كنتُ طالبًا بالقسم الابتدائى بالأزهر حين علمت أنّ الأستاذ شلتوت قد جاء للتفتيش التربوىّ بمعهد دمياط الدينى الذى أتعلم فيه، فتمنيتُ أن يكون الفصل الذى أجلسُ به بين الفصول التى يمرّ عليها الزائر الكبير، وبخاصةٍ أنّه يفتش على مواد اللّغة العربيّة والشريعة الاسلامية معًا، وقد تحقّق ما أرجُو حين رأيُته يزور الفصل، وكان الدرس درس المطالعة فى كتاب يُسمَّى (المطالعة المختارة) ألّفهُ جماعةٌ من المربّين على رأسهم الأستاذ أحمد العوامرى عضو مجمع اللّغة العربية، وفوجىء الأستاذ بدرس المطالعة، فابتسمَ وقال: إنّه كان يودّ درسًا فى الفقه أو النحو، ثم استمع إلى قراءة أحد الطلاب على النحو المتّبع إذْ ذاك، فما فرغَ الطالب عن موضوعه، وقام آخر ليتلوه، حتّى أشار عليه بانسكوت ليقول لنا جميعًا: إنّنى لا أحبّذُ أن يقوم الطلاب بقراءة موضوعٍ واحد على التوالى، لأنّ طالب الأزهر قد حفظ القرآن الكريم قبل أنِ يلتحق بالأزهر، فما معنى أن يتدرّب على القراءة فى السنة الرابعة وهو يقرأُ كتابًا عميقًا مثل شذور الذهب لابن هشام فى النحو، والنهاية للبوصيرى فى الفقه، وفيهم من يقرأ بدون قصور، نعمْ إن هذه هى الطريقة المتبعة فى المدارس والمعاهد، ولكنّى أرى ـ هكذا قال الأستاذ ـ أن يُقْرأ الموضوعُ مرّةً أو مرتين فحسب، ثم يختار الأستاذ موضوعًا من قراءاته، يقرؤُه ويشرحُه، ويتلوُه طالب بعده، وتكون أفكاره موضع الحوار، وقد يختارُ الطالب موضوعًا ويعرضُه على أستاذه ويسمعه زملاؤه، فتتنوع القراءة ويكونُ درس

المطالعة مفيدًا، هذا ما أراه، وسأكتبُه فى تقريرى الذى سأرفعه، ثم ابتسم وهو يقول لنا: أأنتم موافقون؟

كان حديث الزائر الكبير جديدًا علينا، فقد أَلِفْنَا فى مدى السنوات الأربع أن نقرأ الموضوع الواحد فى الحصة الواحدة بدون اعتراض، وهانحن أولاء نرى نقدًا هادفًا من أستاذ كبير، كما ألفنا أن يأتى المفتشُ ليناقش، ويسأل فيما أُخذ من قبل، أمّا أن ينْقد ويقترح، ويسأل الطلاب عن اقتراحه فى تواضع، فهذا هو الجديد، وأذكُر أنَّا تحدثنا مع مدرس الفصل بعد خروج الشيخ فقال: كيف تفترضون فى الأستاذ شلتوت أن يكون مفتشًا تقليديا، وهو مفكر كبير؟!

ظلت زيارة الأستاذ عالقة بذهنى، وأنا أتابع مقالاته السيّارة فى الصحف، وكنت أعرف أنه من أخلص تلاميذ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، دافع عن مذهبه فى الإصلاح الأزهرى، وتعّرض للفصلِ من وظيفته بسبب هذا الدفاع هو وجماعة من أفاضل الزملاء، ثم عاد إلى العمل بعودة الأستاذ المراغى إلى مشيخة الأزهر، كنتُ أعرف هذا، ولكنى فُوجئت بحديث فى الصحف عن محاضرة نقدية ألقاها الأستاذ شلتوت ـ وكان إذْ ذاك وكيلاً لكلية الشريعة الإسلامية ـ تحت عنوان: «السياسة التوجيهيّة فى الأزهر»، دارتْ حول انتقادٍ للسياسة التعليمية بالكليات والمعاهد، إذ أخذت على الأساتذة اعتمادَهم على الكتب المتأخرة لُيناقشوا الألفاظ لاليلخصوا القضايا ويبدوا آراءهم المستقلة بها، كما أخذتْ على الإمام المراغى نكوله عن الإصلاح التعليمى الذى دعَا إليه فى مذكرةٍ شهيرة كانت البدء الحاسم لخطواته الإصلاحّية، وركونه إلى أساتذةٍ من أعداءِ الإصلاح، إذ أَلِفُوا القديم، وحاربوا التجديد المثمر، ثم اقترح الأستاذُ مابه يمتُّد سير الإصلاح، وقد كانت المحاضرة ذات دَوِىٍّ، لأن بعض الناس رآها هدمًا لابناء، ومجابهةً لشيخ الأزهر ذاته، ولكنّ الذين يحبوّن الحق لذات الحق أعجبوا بالمحاضر الكبير وسَعَوْا إلى طبع المحاضرة، وأُرسِلت للمعاهد والكليات كى يقرأها أبناء الجيل الجديد، وهكذا أصبح الرجل ذا رأىٍ جهير يدعو إليه، ويجمع حوله الأنصار، وينابذ الخصوم، والحق أن الإمام المراغى لم يضقْ بالمحاضرة كما حاول

المتملّقون أنْ يذيعوا ذلك، ولكنّه اجتمع بالأستاذ شلتوت، ليناقشه فى ود وإنصاف.

تركتُ الدراسة الثانوية لألتحق بكلية اللّغة العربية بالقاهرة، وكان مَن مزايا هذه الحقبة الجديدة أنْ أحضر الندوات العلمية، وأرى أعلام الأدب والفكر يتصدرون قاعات المحاضرات العامة، ليحاضروا المجتمعين ويناقشوهم فى أدقّ القضايا، وقد أعلنتْ دار الحكمة بشارع القصر العينى عن محاضرات دينيّة فى تفسير القرآن يلقيها كبار الأساتذه أسبوعيا، ومن بينهم الأساتذة محمود شلتوت، وعبد الوهاب خلاف، وعبد الوهاب عزام، وعبد الوهاب حمودة، فاجتذبتْ هذه المحاضرات الأنظار من كل اتجاه وكان طلبة الكليات بالأزهر أسرع الراغبين إلى الحضور، وقد تحدّث الأستاذ محمود شلتوت عن التفسير الموضوعى للقرآن، وضرب المثل له بما ذكر عن سورة النّساء، وكان اسم التفسير الموضوعى جديدًا على الأذهان منذ نصف قرن، لم يشتهرْ كما اشتُهر الآن، وقد خرجْنَا من المحاضرة فى حيرة، لأن الشيخ الكبير ذكر أن التفسير الموضوعى هو جمع «للموضوع الواحد من سُور شتّى، حتى تتكامل الفكرة العامة فى الكتاب، وهذا ما نسلّم به، ولكنّه قال فيما قال: قد يكونُ التفسير الموضوعى خاصا بالسورة الواحدة، فيتحدثُ المفسِّر عن أغراضها، وارتباط كل غرض بسابقه ولاحقه، وكان تفسير الشيخ لسورة النساء مما ينحو هذا النحو، وهذا ماكان موضع الخلاف، وأذكُر أنّى تناقشتُ مع زميلى الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد، وكان رحمه الله من أنبغ طلاب الأزهر، فقلْت له: إن سورة النساء مثلا لاتعطى الفكرة العامة لأحوال المرأة فى القرآن، فلدينا سورة الأحزاب، والنور، والطلاق، وكلها تعالج شئون النساء، فكيف يكون تفسير سورة النساء تفسيرًا موضوعيّاً بالمعنى المفهوم؟ وطالَ حوارى مع الزميل الفاضل، وكان ذاصلة وثيقه بالشيخ شلتوت يحضر ندواته ويؤمّ منزله، فعرضَ عليه ما قلتهُ بعد سماع المحاضرة، وقال: إنّى أعرض وجهة نظر تتطلّب الجلاء، فابتسمَ الشيخ وقال، سأتناول هذه القضية فيما بعد، ومن سرورى أن يعترض طلاب الكليات على ما أقول، فهذا فاتحة الخير.

لم تُتح لى الظروف أن أسعد بلقاء الشيخ شلتوت قبل أن يتولّى مشيخة الأزهر، لأن عملى الرسمى قد بعد عن القاهرة فى عواصم الأقاليم، ولكّنى كنت مشغوفًا باستماع أحاديثه الإذاعية، وقراءة مقالاته وبحوثه الدينيّة، بحيث أعد نفسى أحد تلاميذه الكثيرين، وأذكُر أنى نشرت مقالاً بمجلة الأزهر حين رأس تحريرها الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات تحت عنوان (كتابة المصحف بالإملاء الحديث) وهى دعوةٌ قد تكون مخطئةً وقد تكون صائبة إلى كتابة المصحف الشريف بالطريقة التى يفهمها الطلاب، لأنّ وزارة التربية والتعليم كانت توزع المصحف الشريف على طلاب المدارس الثانوية، فيتعثرون فى القراءة، ولايستطيعون النطق الصحيح إلا فى آيات الدرس الدينى وحده، وحين يقرأ المدرّس ويتابعونه، فقلتُ فى نفسى: ما فائدةُ المصحف إذنْ وهو لايغنى وحده دون موجّه خاص؟ وكيف تضيعُ مئات الآلاف من المصاحف بدون أن ينتفع بها الطلاب على الوجه المنشود، وقد استشهدتُ بأقوال أئمةٍ من السابقين يرحبون بهذا الاتجاه، منهم عز الدين بن عبد السلام، وابن خلدون، ورحّب الأستاذ الزيات بالمقال فنشره بدون إبطاء، ولكنّ ثورةً عارمة قد أحاطت به من كبار الأساتذة فى الأزهر، واتصل الشاكون بالأستاذ الأكبر محمود شلتوت يعترضون على نشرِ المقال، وكنتُ إذ ذاك مدرسًا بالمنصورة الثانوية، فطلبنى الأستاذ الزيات تليفونيا، ليقول لى: إنّ الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت يريد لقاءك، كما أشارَ علىّ الأستاذ أن أزورَه بمكتبه قبل لقاء الشيخ الأكبر، وكنت خالى الذهن عن هذه الشكايات التى تكاثرتْ على المجلة وعلى مكتب الشيخ، وتوجهتُ للقاء الأستاذ الزيات، فأطلعنى على أكثر من عشرةِ ردود ذاتِ نقد صارخ، وقد اتجه بعضها إلى السباب الجارح، وقال لى، سأختار منها ما يجادل بالحسنى وأنشره كى تهدأ الثائرة، ثم قال إن الأستاذ الأكبر يريدُ مناقشتك فيما كتبت، وأنا أشير عليك أن تقول له إن هذا هو رأى الأستاذ حسين والى، لأنّ الشيخ الأكبر يعتبر نفسه تلميذاً للشيخ والى ويُكثر من الإشادة به فى مجالسه العلمّية، وهذا هو الواقع لأنّ للشيخ والى (وكان رئيسًا جهيراً للجنة الفتوى بالأزهر، وعلماً من أعلام هيئة كبار العلماء،

ومجمع اللغة العربية) رأيا أتفق معه فيما كتبت، وقد نشرهَ ودافع عنه، وإن لم أسعدْ بقراءته، ولو قرأتُه لاستشهدتُ به، ثم طلبَ الأستاذ لى الإذن من مكتب الشيخ، فتوجهت إلى لقائه متهيّباً مفكراً، وجلستُ فى المقعد المقابل للمكتب، فقال الشيخ فى ابتسام:

أريد أن أعرف يا أستاذ، ألاتزال تحفظ القرآن حفظًا جيدًا كعهدك به فى صباك؟ قلت نعم، يا سيّدى، فضحك، وقال: لو قلتَ لا، لقلت لك، احفظ القرآن أوّلا، ثم تحدث عن طريقة كتابته، وإن مجلة الأزهر يابنىّ فى رأى الناس تصدر عنْ فكر الأزهر نفسه، وفيهم من يتوهم أن كلّ كلمة تنشر بالمجلة قد زكاها شيخ الأزهر وباركها، فإذا كان لَكَ رأى جديد، فابتعدْ عن نشره لدينا، فأنت لاتعلم أن (الملازم) التى جاءتْنى معارضةً لك، تؤلّف كتابًا فى جزأين! وكُلٌّ عند نفسه مصيب مصيب.

تذكرت كلمة الأستاذ الزيات، فقلت: ياسيّدى أنا تابٌع لامتبوع لقد استشهدتُ بآراء شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ومؤرخ الإسلام ابن خلدون كما نسيتُ أن أذكر رأى الأستاذ الكبير الشيخ حسين والى، وهو علم الأعلام فى الأزهر ومنحاى يقتفى منحاه.

فابتسم الشيخ، وقال: أنت لا تعرف أنّ الشيخ والى خيرُمن استفدتُ منهم بالأزهر، لقد كان عميق الغور فى كل ما يبحث، لايرضى بغير الغوص البعيد، إنّه أوّل مَن كان يكتب يوميا فى كلّ معهد دينى يعمل به سبورة اليوم اللّغوية، وقد جعل عنوانها «قُلْ ولا تقل» فيأتى بتعبير دارجٍ مخطئٍ ليضع جواره التعبير الصحيح، والذين يكتبونَ التحقيقات اللّغوية اليوم عيالٌ على سبورة الشيخ حسين والى، كانت الصحف تتناقل تصويباته، وهذا ما لا يذكره أحد الآن! وأنا أستشهدُ بذلك لأقول إنه لم ينس حق الطلاب فى التوجيه وهو شيخ مرهق يتفرغ للإداريّات، وقد انتقلتْ طريقته إلى طائفة من شيوخ المعاهد، منهم الشيخ أبو العيون، أو الشّيخ سليمان نوّار، ولكنْ على فترات متقطعة، وليسَ على التوالى! ثم مدّيدهُ إلىَّ وهو يقول بارك الله فيك، فعرفت أن المقابلة قد آذنت بالتمام فانصرفت شاكراً.

علمت بعد ذلك من الأستاذ الزيات أن الشيخ الأكبر قد قال له: دَعْه يكتب فى كل عدد، كما علمت أنه قرأ مقالاً لى بمجلة الأزهر تحت عنوان (من سماحة الإسلام) تحدثتُ فيه عن مكانة أبى إسحاق الصابى فى الدولة الإسلامية بالعراق، إذ كان الكاتبَ الأول لعضد الدولة، وله الرأى المسموع، والتوجيه النافذ، وهو بعد صابئ لايدين بالإسلام، ولكنه محفوظ المكانة، مرعى الجانب، أقول تفضل الأستاذ الأكبر فقرأ المقال، وقال للأستاذ الزيات: هذا مقالٌ جديد، لأنه يضرب المثل التطبيقى من أحداث التاريخ، ولابد لمن يُعالج موضوعاً كهذا الموضوع ألا يكتفىِ بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعض ما قام به الخلفاء الراشدون، فهذا كلّه مكرر مشتهر، ولكنْ تجب الإضافات من صفحات التاريخ المتوالية ليعرف الناس صوراً من التسامح الإسلامى التطبيقى على مر الأجيال.

سمعت حديث الزيات عمًّا قال الشيخ ففرحت كثيرًا، وتشوقت إلى لقائه، ولكنى أعهد فى نفسى عزوفًا عن زيارة الرؤساء بدون دعوة منهم، فلم أسعد برؤيته بعد اللقاء الخاص بكتابة المصحف الشريف، وقد كتبتُ عنه أكثر من مرّة، لأعرض بعض اتجاهاته فى عالم التحقيق الفقهى، والإصلاح التعليمى بالأزهر الشريف،

* * *

الدكتور محمد السعدى فرهود

زاملت الدكتور محمد السعدى فرهود فى مراحلَ الدراسة التعليميّة بالابتدائى والثانوى وكلية اللغة العربية ومعهد التربية العالى، ثم زاملته فى مرحلة التدريس الجامعى مدرسًا وأستاذًا، فلم أر تغيّرًا فى أخلاقه منذ عرفته، مما أكد لى أن الطبع الإنسانى المفطور على جِبِلَّتِه لا يتغيّر بتغير الأحوال والملابسات، وما يُظَن أنه تطويرٌ وانتقال، هو شىء ظاهرى مفتعل، إذ أن الجوهر الأصيل يظل محتفظا بمعدنه، فكل ما يراه خلفاؤه اليوم من هدوئه ورزانته وسعيه فى الخير كان واضحًا عند الطالب الصغير فى المعهد الابتدائى بالأزهر، هكذا رأيت ولمست!

ولقد كان مع هذه السجايا الخلقية غيورًا على سمعته العلمية، إذ كان حريصًا كل الحرص على أن يكون الأوّل بين زملائه، وقد تحقق له ذلك فى أكثر السنوات، وفى السنوات التى جاء فيها الثانى كان يأخذ نفسه بأسباب اللوم، إذ يكون أمامها مقصّرًا، وأنا أعلم أن درجات الشفوى بالأزهر قد تُعطَى لمن لا يستحق فيسبق الكادح الجاد، ولكن الله يعوض كثيرًا فيما بعد..

أول ما عرفت الطالب محمد السعدى فرهود كان فى حفل عام أَقامَهُ معهد دمياط الدينى فى مناسبة المولد النبوى الشريف، وقد حَضَرَهُ محافظ الإقليم وفريقٌ من علية القوم، وقام كبار الأساتذة يُلقون كلماتهم الموسميّة، فيُمتعون، ثم قام الطالب محمد السعدى ممثّلا لزملائه، فألقى كلمة ضافية، جذبت إليها الأنظار، إذ ترك المعانى التقليدية التى تُكرّر فى هذه المناسبة، والتى توسّع فيها بعضُ من سبقه من الأساتذة المتكلمين إلى عناصر جديدة تتصل بأخلاق صاحب السيرة المطهّرة،

وكان إلقاؤه يزيّنُ بيانه، فخرج السامعون يثنون عليه تفكيرًا وإلقاءً وهدوءًا، ومنْ يومها طابَ لى أن أعرف الكثير عنه.

ذهبنا إلى معهد الزقازيق الثانوى، فَحافَظ محمد السعدى على أوَّليته المعهودة، وأعدَّ نفسه ليكون أوّلَ الشهادة الثانوية على القطر جميعه، ولكنّ ظروفاً سياسية عاقتْه عن الالتحاق بالدور الأوّل، ظروفاً لا شأن له بها، إذ أنّ غِيرته الإقليمية دفعتْه إلى مناصرة زعيم سياسى من أبناء بلدته (الزرقا)، وأتت الرياح بما لا يَشتهى، فذهب عهدٌ وجاء عهد، يُنَاوِئ الزعيم، وتأخر السعدى عن الالتحاق بدار العلوم التى كان مصممًا على دخولها، فانتسب لكلية اللغة العربية غاضباً، ولم يدْر أن إرادةَ الله فوق كل إرادة، إذْ كان فى طىّ الغيب أن يُصبح محمد السعدى عميدًا لكلية اللغة العربية، فمديرًا لجامعة الأزهر، فهلْ أقول له اليوم: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله».

برز السعدى فى كليته الأزهرية، وكان رئيسًا لجماعة «الضاد» التى أسسها الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله، أخذ الرئاسة بعد تخرج الدكتور الشرباصى، فزاول النشاط الأدبى، وسار له بالكلية ذكر حميد، وأشير إلى أن أحد أساتذته كان يعهد إليه بتحضير الدرس الأدبى ليلقيه على الطلاب تمرينًا للنابهين، وهو سلوكٌ تربوى ناجح، لأن الطالب حين يقفُ أمام زملائه موقف الأستاذ يشمر عن ساعد الجد، ويحاول أن يملأ الموقف قدر ما يستطيع، وقد ألقى الطالب محمد السعدى عدة محاضرات عن الشاعر العباسى بشَّار بن بُرْد، حازت إعجاب أستاذنا الكبير أحمد شفيع السيد رحمه الله، فأثنى عليه فى الملأ المشهود، وتنبأ له بمستقبل زاهر.. ثم مضت الأيام فأبرزت تحقيق نبوءته!..

وانتقلنا بعد الكلية إلى معهد التربية العالى بالإسكندرية، فدرَسْنَا الجديد من علوم النفس والتربية والاجتماع مما لم نكنْ نألفه فى الدراسة الأزهرية، وأذكرُ أن الدكتور رياض عسكر أشار فى بعض محاضراته إلى «مجلس الآباء» وضرورةإنشائه بالمدارس المصرية تقليدًا للمدارس الإنجليزية، فأعْجبتِ الفكرة الطالبَ محمد السعدى فرهود، وكتب مقالاً تربويا نشرته جريدة الأهرام فى مكان

بارز، وتوالى الرد عليه، لدرجة أدهشت الدكتور عسكر، وتمنى أن يُرزق من الطلاب مَن يُذيعون الرأى التربوى على نطاقٍ جهير.. ثم تفرقنا بعد التعلّم، ومضت عدة سنوات حتى جاءنى خطاب رقيق من الأستاذ محمد السعدى فرهود يعلن أنه يكتبُ رسالة الدكتوراه عنْ شعر الأستاذ عبد الرحمٰن شكرى، وقد علم أن لَدَىَّ بعض رسائله الخاصة، ويريد الاطلاع عليها، فربما يكون بها ما يضىء جانبًا من نواحى الشاعر المتعدّدة، وقد سارعتُ بتلبية طلبه، فصور ما أراد من الرسائل، وبعثها إلى ثانية. والغريب أنى بعد عشرين عامًا من هذا الموقف، احتجتُ إلى بعض الرسائل، وبحثت عنها دون جدوى، ثم حدّثْتُ الدكتور السعدى بذلك، فقال: إن الصور محفوظة لديه، وتكرم بإرسال نسخة منها، ولولا ذلك لفقدتْ إلى الأبد، ومنها تفويض من الشاعر لى بطبع مؤلفاته نثرًا وشعرًا.

لم يقتصر السعدى على مراسلتى بشأن رسائل شكرى، فقد راسل كثيرًا من الأدباء فى العالم العربى، حتى جمع من الرسائل مايصلح أن يكون كتابًا، وأذكر أنه راسل الأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف، وكان حينئذ قد ترك القاهرة إلى لبنان، فأمده بعدة رسائل تضم أنباء أدبية ونظرات علمية، وهى لاتزال لدى الصديق، كما أنه حين كتب رسالة الماجستير عن (عبد الله النديم) لم يدع أحدًا يعرف اتصاله بأسرته إلا سافر إليه، وأخذ من أخباره ماكان مجهولا، إذ زار الإسكندرية لذلك عدّة مرات.. وقد كتب الكثيرون عن النديم كتابة من رجع إلى أثاره وحدها، ولكن رسالة السعدى تضمنت أشياء جديدة عمل على جمعها، ثم تحرى مدى صوابها، وحازت تقدير لجنة المناقشة بمعهد الدراسات العربية.

وقد زاملت السعدى، إذْ كنا مدرسين بكلية اللغة العربية بالقاهرة حينًا من الدهر، فاتضح لى من نشاطه جانب إدارى كنتُ أجهله، لأنه مع إكبابه على التأليف الأدبى كان يد الإدارة فى شئون الامتحانات، وموضع استشارتها فى أحوال الطلاب، ولجان الشباب، وسفر الرحلات، ومازال يجمع بين الإدارة والتدريس والتأليف العلمى جمعًا متوازنًا دقيقًا، وذلك يتطلب منه مزيدًا من الجهد الجاهد، وثِقَةُ المحيطين به فى مواهبه تدفعه إلى مواصلة هذا الجهد فى احتفاء.

وقد تنوعت مؤلفات الدكتور السعدى بالكلية، لأن المواد التى قام بتدريسها كانت تقتضى هذا التنوع، ولكن إبداعه الأول كان فى حقل النقد الأدبى، حيث أصدر عدة كتب مهمة تشمل خطوات النقد فى جميع عصوره، وقد فاَجأ طلابه بنظام من التأليف فى تاريخ النقد الأدبى القديم لم يألفوه من قبل، حيث درجوا على أن يكون تاريخ النقد وفق توالى العصور، اقتداء بما صنعه رائد التاريخ النقدى فى مصر المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم، حيث بدأ بحديث النقد فى العصر الجاهلى، وتابع العصور حتى انتهى إلى العصر العباسى. والحق أن هذا الكتاب التليد لايزال يحمل بريقه اللامع منهجًا وأسلوبًا واستنتاجًا، وقد حاكاه أناسٌ - أو قل إنهم سرقوه - ثم أخذوا يعيبونه، وكأنهم لم يتكئوا عليه كل الاتكاء، وتلك من محن العلم فى العالم العربى، أما الدكتور فرهود فقد درس كتاب الأستاذ طه أحمد إبراهيم، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم رأى أن يؤرخ للنقد على غير مذهبه، فأصدر كتابه (اتجاهات النقد العربى) متحدثًا فى المقدمة منحى الأستاذ طه أحمد إبراهيم، ثم معقباً بقوله:

«وآن لنا أن نقوِّم هذا الاتجاه، لأنه يسمح بقيام فواصل بين نقود العصور، وإطلاق القواعد العامة على هذه العصور، مثلما قالوا: إنّ النقد فى العصر الجاهلى نقدٌ فطرىّ، وفى عصر صدر الإسلام نقدٌ ذوقى، وفى الدولة الأموية نقدٌ جزئى، واختلف فى الشام عنه فى العراق، وهذه فى تقديرنا تفرقةٌ لا مسوغ لها، فقد تداخلت النقود، وتداخلت العصور الأدبية، ولم تتمايز هذه أو تلك تمايزا يحتم الفصل بينها، وهذا تفسير الاتجاه إلى تناولنا الموضوعى لهذه الأمور، غير مغفلين ما يفرضه الترتيب الزمنى على حركة التاريخ النقدى.

ووفقًا لهذه الخطة الجديدة كتب الباحثُ فصولاً متتابعة عن اتجاهات النقد العربى، فتحدث عن النقد الاستحسانى، والنقد الانتخابى، والنقد الاجتماعى. والنقد الوصفى، والنقد على سبيل الموازنة، ثم جاء الفصل الأخير ليلم بأهم النظرات النقدية التى تفرقت فيما سبق من الأبواب. والكتابُ بهذا المنحى الجديد طريف كل الطرافة فى بابه.

أما أهمّ كتاب أصدره الدكتور السعدى فى حقل النقد فهو كتاب (قضايا النقد الأدبى الحديث)، وقد أفردتُ له مقالاً خاصًا بتحليله فى مجلة الأديب اللبنانية (أكتوبر سنة ١٩٧٠) وجاء فيه ملخصًا:

«ألمَّ الكاتب إلماماً موجزًا فى مطلع بحثه بما سبق أن أرخ به الدارسون حركة النقد العربى، ثم اتجه إلى أبواب معاصرة، بدأها بالحديث عن تأثر النقد الأدبى بعلوم النفس والاجتماع والجمال، وختَم كل فصل بتعقيب يرجح فيه ما يرتضيه من الآراء المتضاربة فى حيدة تامة لا تعرف الانحياز لمذهب معين، ولكى يصل إلى ما يريده من حديث النقد المعاصر عبر ما قبله من الاتجاهات التراثية عُبورا موجزاً، ولكنه مستوعب، ثم تفرغ للبحث فى قضايا التجربة الشعرية والوحدة العضوية، ومُتتبعًا بذورها فى كتب النقد القديم، حتى انفسح المجال لرصد التيارات المعاصرة، إذ تحدثَ عن خليل مطران، وعبد الرحمن شكرى، والعقاد، والمازنى! وقد لاحظتُ فى مقالى بمجلة الأديب أنه قد بَخَس مطران حقه حينَ جعله ينحاز إلى جانب شوقى فى منحاه، لأن اتجاه مطران الإبداعى مسلم به، وهو الرائد الحقيقى لحركة التجديد فى الشعر المعاصر. إذا أردنا أن نقرر الحقيقة دون انحياز».

هذان الكتابان البارزان فى نتاج الدكتور السعدى كانا موضع تعليقات لى فى دروس النقد وأنا أجاوره بمدرجات الكلية، وقد تناقل الطلاب هذه التعليقات، فكنت أنتظر من صديقى أن يتأثر بعض الشىء بموقفى، ولكنه قابلنى مبتسمًا ليقول: إنه سيسعد حين أدون له خواطرى النقدية فى بحث خاص ليرجع إليه إذا حانت الطبعة الجديدة للكتاب، وهذا السلوك المطمئن الواثق هو ما يميز الدكتور السعدى دائمًا، وما جعل أصدقاءه وزملاءه يعتزون به، وقد جنى كثيراً من الشوك بسبب هذه السماحة، ولكنه لم يثر ثورة الغاضب، إذ طُبع على الهدوء اليقظ، وقد دعى منذ أعوام لإلقاء محاضرة أدبية نقدية عن الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى بالنادى الأدبى فى جدة، وهو أولى الزملاء بالبحث فى موضوع من صميم تخصصه، إذ كتب رسالة الدكتوراه عن الشاعر فعرف عنه أكثر مما يعرف سواه، ولكن ـ وهذا موضع العجب العجيب ـ رأيته بعد كتابة بحثه المسهب، يَدعونى إلى زيارته، ثم يعرض علىَّ المحاضرة قبل أن يلقيها، فقد يكون بها ما يصلح أن يكون

موضعاً للنقاش، وقد دهشت جدًا لهذا الطلب غير المنتظر، وأخذت المحاضرة وأفدت منها، ولم أر بها غير الجيد الصحيح، وعاتبته على ماصنع، فقال فى ابتسام: وماذا يمنع من أن أطمئن؟ فقلت له: إن اطمئنانك هذا مع وثوق الناس بك قد حيرنى.

وقد كان الدكتور محمد السعدى عميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة حين أُنشئت، فلاقى تأسيسها العلمى والإدارى والبنائى جهداً كبيرًا قام بتذليله، على نحو مرهق شاق، ثم ترقَّى إلى منصب أعلى، وجئت عميداً للكلية من بعده، فرأيت أن أقيم له حفلة تكريم اعترافًا بجهده فى إنشاء الكلية وسيرها هذا المسير الصحيح، وقام المتحدثون فأثنوا عليه بما هو أهله، وكانت المفاجأة فى الكلمة الختامية التى ألقاها الدكتور السعدى، حيث ذكر أسماء الزملاء والإداريين والموظفين الذين عاونوه جميعًا جميعًا، وأحصى لكل فرد جُهده الذى قام به، وكأنه كان أثناء عمله عميداً يُسجل خطوات من يقعون تحت إدارته تسجيلا واعيًا، وقال فى تواضع: إن الشكر لهؤلاء جميعا، وقد خرج المستمعون دَهِشين لهذه الذاكرة التى وعت كل شىء، ولهذا الاعتراف المثالى بكل جهد مبذول؛ وكم رأينا من رؤساء لم يعملوا شيئاً ارتكانًا على جهود مرءوسيهم، ثم هم بعد ذلك يتلَمَّسُون الهفوات التافهة لعقابهم، وكأن الرياسة لاتتم إلا بالاستعلاء وترصد وسائل العقاب.

وفى اجتماعات اللجان الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر، رأيت من حزم الدكتور فرهود ما أعجبنى، لأن هذا الحزم الدقيق لم يمنع نظرة الرحمة المتسامحة لمن قعدت بهم بعد ظروفهم الصحية فى مختتم العمر، عن الإجادة التامة، فكان الدكتور يقف فى صف هؤلاء الذين سيودعون عملهم عن قريب، قائلا: إنهم كافحوا قدر مايستطيعون، ولهم جهدهم العلمى الذى يؤيده نشاطهم الممتد عبر السنوات الماضية، وهو رأى قد يجد المعارض، ولكنى أسجله كما رأيته. مع ملاحظة أن النتاج يكون دائماً فى مستوى مقبول، ولايهبط إلى درجة المؤاخذة، فهنا يكون الحسم الدقيق.

هذه خواطر أكتبها عن صديقى الكريم، راجيًا أن أجد مجالا آخر للحديث عنه كما أريد بإسهاب.

الشيخ محمد أبو زهرة

للإمام الفقيه الثبت الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة، قوة لا تُغلب، فهو مع فقههِ الصائب، وعلمه الغزير ذُو حجاج وجدل، يقتحُم المعارك القلميّة فى الصحف، والمصاولات اللسانية فى الندوات، فيُسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأنّ الرجل ممتلئٌ بأصول الشريعة، بصيرٌ بتيارات العصر ودوافعه. . عالمٌ بما يحوكه المغرضونَ من مكايد، ثم هو صريحٌ لايُمارى ولايدارى، لذلك كان موضَع الهَيْبة والخشية يحذرُه معارضوه، ويؤيّده ذوُو وجهته فى حب خالص.

عُرِف عنه معارضته لما يسّمى بالاشتراكية، حين زعَم فريقٌ أنّها من أصولِ الإسلام، فنادَى بأن الإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضْعيّة التى تَتَبدل وتتحول، وتظهر عوارُها الصارخ عند التطبيق، وساء ذلك صاحب الجبروت فى مصر، فدعاهُ، لاليناقشه بالمنطق الواضح، ولكن ليصيح به، أنتَ يا أبا زهرة تؤلّف الكتب، وتبيعها بالثّمن الباهظ، وتعبش عيش المترفين، ثم تصيح فى الناس منددًا بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقولُ إنك عالم من علماء الإسلام! وكان المتحدث ينتظر من الرجل أن يعْتذر متراجعًا، ولكنه قال له: أنا أؤلف الكتبَ داعيًا إلى الله، يقرؤها المسلمون فى جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعونَ إلى المناداة بإعادة طبعها حين تنفدُ على وجه سريع فأستجيب، ثم أدفعُ الضرائب للدولة، وأُعطى الزكاة للمستحق، وذلك كلّه مباح فى شريعة الإسلام، بل إنه فرضٌ على من يقدرُ عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدةً سياساتكم، وتتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة، وتمتلىء بها

مخازنُ المكاتب الحكومية، وتوزّع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرُؤها أحد، فمن هو الصّحيح: مَن يكتبُ لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ماكتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته، ثم تُركن على الرفوف، هذا هو الواقع المشاهد، فأين الجواب؟

وكان المتحدث الخطير فى شغلٍ شاغلٍ من نكسةٍ نزلت به، فآثر المهادنة، وخرجَ الرجل الكبير مرفوع الرأس كعادته، دونَ أن يشغل باله بما كان.

أول لقاء:

كان من عادة الأستاذ أبى زهرة أن يستقلّ مترو مصر الجديدة فى رواحه وغدوه، وكنتُ أراه دائما يَجلس مع نفرٍ من حوارييه فى وقارٍ وأناة، فإذا تحدث وجدَ الإنصات التام، ولو جرَى الحديث فى العُموميات المتداولة، وفى يوم مًّا وجدتُ الرجلَ وحده، والمكان خاليا بجواره، فسارعتُ إلى الجلوس معه، وبدأت الحديث قائلا:

أنا أشتاقُ هذا المجلس من زمن بعيد، لأننّى أحد قرّائك المتابعين، فقالَ فى ابتسام: أهلا وسهلا، وماذا لديك حول ما تقرأ؟

قلت، لقد وقعَ فى يدى كتاب (مالِك، تجارب حياة) للأستاذ أمين الخولى، وقد سَبق أن أشرتَ إلى المؤلف فى بعضِ كتاباتك مقرظًا، ولكنّه فى هذا الكتاب يخالفك منددًا بالدراساتِ العليا فى كلية الحقوق، ولا أدرى وجهة نظره، لأنّه قال ما يحتاجُ إلى إفاضة بدونَ أن يُفيض.

فقال الشيخ: لقد قرأتُ ماكتبَ، إذ عَرضَه بعض الطلاب علىَّ، وذلَك أنّى فى كتاب (أحمد بن حنبل) نقلتُ قول بعض العلماء: «لو قالَ رجلٌ إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عُنّف فى ذلك، ذلَك أنه لوقصد رجل خراسان ونواحيها، لقالُوا إنّ ابن حنبل رجل صالح، وكذلَك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا: ابن حنبل رجلٌ صالح، وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالُوا: إنّ ابن حنبل رجل صالح، فهذا إجماعٌ وهو قولُ فقيه محدّث معاصرِ لأحمد فيه، يرَى إجماعَ الأقطار

الإسلامية المتنائية على أنّ الإمام رجل صالح، وبه تقوم الحجة على صلاح هذا الرجل».

قلتُ هذا فى مَظنَّةِ الإجماع وأريد به الرأىَ العامَّ الإسلامى فى عالمٍ من علماء الإسلام، كما تحدّث عَنه زميلٌ معاصر، ولكنَّ الأستاذ أمين لم يفطنْ إلى ما أريد، وأخذ يتحدّث عن الإجماع الأصولى، كأنّنى أعنيه، مع أنّ السياق واضح، وألسنة الخلق أعلام الحق، ولن يجتمع المسلمون فى الشرق والغرب على إكبار إمامٍ فقيهٍ محدّث شجاع، وهو غير جدير بهذه الثقة، فماذا فى ذلك؟ وما المذلة التى تلحق الدراسات العليا فى الجامعة لو قلْنا: إن إجماعاً من الرأى العام تقررَ بشأن ابن حنبل ومكانته العالية؟ ولكنّ الأستاذ أمين يتكلم بما يشاء.

ولا أدرى لماذا قلتُ له إنّ لى مؤلفًا عن الإمام أحمد بن حنبل أودّ أن تتفضّل بقراءةِ شىء منه، قال فى هدوء: مَرْحبًا، ثم فارقتُه فى شوقٍ حين بلغ (المترو) غايتَه، وبادرتُ بإرسال الكتاب إليه سريعًا بالبريد.

في احتفال الشبان المسلمين:

لمْ يتح لى أن أُديم اتصالى بالشيخ الكبير، ولكنّى بعد عامين من هذا اللقاء العاجل سارعتُ إلى حضور حفلٍ بجمعية الشبان المسلمين تأبينًا لبعض الراحلين من العلماء، فرأيتُ الأستاذ هناك، وانتهزتُ الفرصة للجلوس معه، فذكّرتُه بلقاء (المترو) وسألتُه عن كتابى الذى أرسلتُه بالبريد إليه، فقالَ: إنه قرأ بعضًا منه، وفاتَه أن يكتب إلىّ فى حينه، ثم قال:

لقد كثرتِ الكتابة عن الأعلام الأربعة من فقهاءِ الإسلام فى هذا العصر، وهذا شىء جميل لاشكّ فى نفعه، ولكن هُناكَ من الأعلام المماثلين من لم يَحظوا، ولو بمقال واحدٍ فى المجلاّت العلميّة، ولَدَيْك كتاب (طبقات الفقهاء)، للسبكى، فإنّه بأجزائه العشرة الحافلة بسير الفقهاء مرجعٌ تاريخى وفِقهىّ لعلماء أفاضل، منهمْ من يرتفع إلى منزلة الأئمة الأربعة، ويجبُ أن نبحث عن هؤلاء لنقدّمهم إلى القراء، وقد كتبتُ أنَا عن الفقهاء الكبار، لأنّى أرصد الاتجاه الفقهى فى مدارسه

الأولى لدىَ أئمة المذاهب الفقهية، فكان البحث الفقهى هَدَفى الأوّل، وعليكُمْ أن تبحثوا عن غيرهم فى كتب الطبقات المختلفة، ليستفيد الجمهور مما تكتبون حين يطالع الجديد.

ثم استطردَ الشيخ يقول: لقد ذكرتُ أنّ كتاب طبقات الفقهاء للسبكى مرجع تاريخى فقهى، وأؤكد ذلك ثانيةً؛ لأنّ المؤلف الكبير كان لايقتصرُ على تدوين حياة الفقيه، بل يلّم بآرائه الفقهية التى اجتهد فيها، وقد يكونُ من هذه الآراء ما هو جديدٌ فى بابه، ودراستُه حينئذ أوجب وألزم..

موقف رائع:

ودارت الأيام، وانقطَع لقائى بالشيخ، حتى لقيتُ ذات يوم عالما كبيرًا من أفاضل العلماء فى سوريا الشقيقة، فقال لى - وقد اطّرد الحديث فى شجون مختلفة: حيَّا الله الإمام أبا زهرة، لقد دُعينا إلى ندوةٍ إسلامية كبرى بإحدى العواصم العربيّة التّى اشتهرت بالثورية، وكان المنتدون من كبار العلماء فى العالم الإسلامّى، وفوُجئنا يوم افتتاح الندوة بحضور رئيس الدولة ليقولَ إنّه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماءُ أن الاشتراكية هى المذهب الإسلامى، وليصدرُوا قرارَهم فى هذا الاتجاه، قال الرئيس ذلك، فتكدرّت النفوس، وعبستِ الوجوه، ولكنَّ الشيخ أبا زهرة حيّاه الله، طلبَ الكلمة، واتجه إلى المنبر ليقول:

نحنُ علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جِئْنا إلى هذه الندوة، لنقولَ كلمة الإسلام كمانَراها نحن، لاكما يراها السّياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يَستْمعوا للعلماء، وأن يَعرفوا أنّهم متخصصون فاهمون، لاتخدعهم البوارق المُغرية، وقد دَرسوا ما يسمى بالاشتراكية، فرأوا الإسلام أعلى قدرًا، وأسمَى اتّجاهًا من أن ينحصر فى نطاقها، وسيصدُر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لاكما يُريد رجال السياسة، فهم أولُو الأمر فى هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلا: هلْ فيكم من يخالف؟ فرأى الإجماع منعقدًا على تأييده، فقال: الحمد لله، ولم تستمر الندوة فى انعقادها أسبوعًا كما كان المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام.

فى مجمع البحوث الإسلامية:

كنتُ متجهًا إلى زيارة أستاذى الدكتور عبد الحليم محمود، وكان حينئذ أمينًا عاما لمجمع البحوث الإسلامية، فصادفتُ الأستاذ الكبير أبا زهرة يجلس معه، وقد تفضّلَ فرحّب بى مشجعا، وكنتُ فى هذه الآونة مشغولا بكتابة بحثٍ عن الخطابة فى العصر النبوى، فقلتُ للشيخ: أنا أعرفُ أن لك كتابًا قيّما فى تاريخ الخطابة وأساليبها المختلفة، وعجبتُ كيف انتقلتَ من الفقه إلى الأدب.

فرأيت أبازهرة يتنهد، فأشفقتُ أن أكونَ آلمته حيث لا أود، ثم استمعت إليه يقول: يا بنى إن الثقافةَ الإسلامية جزءٌ لايتجزأ، وكمٌّ لاينفصل، فلابد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرسَ علوم الأدب، لأنّه لايستطيع التعبير عن نفسه إلاّ إذا رُزق البيان الناصع، والأئمة الكبار من الفقهاء كانوا يملكونَ نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيّمة، وما انحطّت كتب الفقه فى العصور المتأخرة إلا لأنّها كُتبت بأقلامٍ لم تتذوقِ البيان العربى، فجاء أكثرها شبيهًا بالأحاجى والألغاز، لقد كانت كلّية الحقوق تَدرس مادة الخطابة لعدة سنوات، فأخرجت من كبار القضاة والمحامين والمشرّعين مَن استطاعوا أن يكونُوا زعماء تشريع وسياسة وأدب، وعلى كلية الشريعة وكلية أصول الدين بالأزهر ألاّ تُغْفلاِ تدريس البيان العربى، ثم اتجه إلى الدكتور عبد الحليم فقال له: ماذا ترى ياسيدنا؟ فقال الدكتور عبد الحليم: لقد كنتُ عميدًا لكلية أصول الدين وأستاذًا بها من قبل، ولحظتُ أن الطلاب فى حاجةٍ إلى قوة الأسلوب، ولابّد من الإلمام بأصول البلاغة، لأنّ رسالتهم تقوم علىٍ الأداء، ولا أداءَ بدون بيان، قال الشيخ: فادعُ إذنْ إلى ذلك يا أخى! ثم استأذن منصرفًا...

فى الندوات العلمية:

الآثار التى كتبها الأستاذ أبو زهرة أكثر من أن تحصر، فقد ترك من المؤلفات الضخمة فى التشريع والتاريخ الإسلامى والعقيدة والمذاهب الإسلامية والقرآن الكريم، وحياة خاتم النبيّين، وسير الفقهاء مايملأ مكتبة فسيحة، وكان له مع ذلك

كلّه آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جُمع مضمونها فى مؤلّفات لبلغت عددًا كبيرًا، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهيرة مدوّية، فيتحول الموقف إلى النقيض.

عندما ظهر فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ من كتاب الدكتور طه حسين المسمّى «بالوعد الحق» تبرّع كثير من الكتّاب بالدعوة إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة، باعتبارها عاملَ تأثير فى النفوس، وقامت ندوة أدبيّة تحبّذ هذا الاتجاه، ولكنّ الأستاذ أبا زهرة سَعَى إلى الندوة مستمعًا، لأنّ أحدًا لم يجرؤ على دعوته متكلمًا كيلا يُفاجأ القوم بما لا يودّون، ثم طلب الكلمة، فرحب الجمهور، واضطرّ مُنَظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فوقف مُتفرسًا وجوهَ الحاضرين، ثم قالَ إن الذين يتحدّثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكبابِ الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوفّقُوا فيما يدعون، لأننا نعلم أنّ هذا الفيلم لم يزدِ المؤمن إيمانًا فوق إيمانه، ولم يردع فاسقًا عن غيّه، ولم يدخل أحدًا من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدتْ كلٌ وجوده الدعايات للإسلام ولم يَبق إلا تمثيل أحداثِ العصر النبوى بأعْلامٍ من صحابة رسول الله؟! وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليومَ بتمثيل دُور بلال حين عُذّب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دورَ ماجِنٍ خليعٍ! وهلْ يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات دلائل المكياج فى وجهها كما أخبرنى بعض من شاهدوا الفيلم ثم نزعم أنّها تمثّل صحابية شهيدة ذهبتْ روحها فداءً لدينها الحبيب! وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتِى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد الداعرة أليست هذه إساءةً واضحة للصحابيات! وجال الأستاذ فى هذا المجال بَسطوة خارقة نعْهدها فى براهينه، فخرج المجتمعون وأكثرهم فى اتجاهه.

وفى ندوة أخرى دار الحديث فيها عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور أبى زهرة، وقد طلب الكلمة ليقول كلمته معقبًا على منَ يمنع التعدّد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق، وما بدأ الحديث حتّى مال بالرأى المتفق عليه إلى وجهةٍ مخالفة، وصاحَ بالقوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرّية المرأة

الأوربية، ونحن نَرىَ قوانينَ التشريع فى ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهةً إسلامية، فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتُبيحُ التعدّد لضرورته الملزمة! فهل فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألْمانية حريتها حيَن اتجه قانون البلاد إلى مايتجه إليه الإسلام؟ إن المرأة فى منزلها ذات حرية، ولكنّ الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لايرون الحرية إلا فى تمزّق الأسرة وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام!

هاتان ندوتان، حضرتهما، واستمعت إلى كل ما قيل بهما، ورأيت انطباعات الجمهور المؤمن بعد حديث أبى زهرة تنطق بتأييد الشيخ، وتهجين من يرى غير وجهته، وكم لهاتين الندوتين من مثيلات مُجلجلةٍ بصوت أبى زهرة، إذ كانَ مطمح الأنظار، وموضع الانجذاب.

* * *

الدكتور محمد حسين الذهبى

حزنت جداً لمصرعه الظالم، فقد كانَ نبيلَ الخُلق، غزيرَ المادة، طاهرَ الطويّة، يؤدّى واجبه العلمى بين طُلابه أحسَن أداء، فهو يفسحُ صدره لكل نقاش، ويتقبل النقد مهما قَسَا، ويعبّر عن وجهة نظره فى هدوء غير متكلّف، وكانَ مع وفرة علمه فى ميدان تخصّصه الذى برع فيه، كثيرَ الاستماع لمن يحدّثه فى ميدان نبوغه، وإن كان من تلاميذه الصغار، يستمعُ وكأنّه يفيد مما يسمع، فإذا رأى أن يُصحّح الخطأ، قَدَّمَه فى ابتسام، وكأنه يتساءل. عرفَ زملاؤه وتلاميذه هذا الصَّدْرَ الفسيح فى تكوينه، فأجمعُوا على حُبِّه، وقلّما يُجمع المتنافسون على حبّ مَن يزاملُهم فى اتّجاههم العلمى، هذا إلى تواضعٍ يكادُ يصلُ إلى درجة الانكسار فى معاملة قاصديه، وقد كان وزيراً يقف أمام الباب فى وزارة الخيرات ليقرأ بنفسه عريضةً يقدّمها سائلٌ محتاج، وأراد بعض المنافقين من مرءوسيه أن يُبلّغه فى تملُّق أنه أرفعُ من أن يقف مع طالب حاجة هذا الأمد الطويل، فقال لهُ فى هدوء يقرب من الاحتجاج: دَعْنى، فكلّنا طُلاَّب حاجات، فإذا قلتُ إنى حزنتُ كثيرًا كثيرًا لمصرعه الظالم، فأنَا صادقٌ صادقٌ.

اللقاء الأول:

وقد قابلتُ الدكتور الذهبى ثلاث مرات فحسب! وهى لقاءات علميّة لم تخرجْ عن حدّ السؤال والجواب والرد والاعتراض فى بساطة يعرفها أصدقاء الرجل، فقد كنتُ أؤلّف كتابًا عن (خطوات التفسير البيانى) أعرض فيه جهودَ البيانيّين من المفسرين الذين تناولوا كتاب الله من الناحية البلاغيّة، وفى مطالعاتى المتكررة

عرفتُ من بعض الكاتبين أنّ للزمخشرى نظيرًا فى منحاه البيانى، هو ابن عطية الأندلسى، صاحبُ التفسير المسمّى (بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) فرأيت من مستلزمات البحث أن أقرأ هذا التفسير، وأدرسَ اتجاهه البيانى، وكان لايزالُ مخطوطًا، وبه أجزاءٌ متفرقة فى دار الكتب المصرية، فحاولتُ الاطلاع عليها أكثر من مرة، فلم أجدْ مُعينًا بالدار، إذ تعلّلوا بتمحلات لامُبَرِّرَ لها، فتذكرتُ أن الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبى كَتَبَ عن هذا التفسير فى مؤلّفه الكبير (التفسير والمفسرون)، وقد خصَّه بباب منفرد، فعلمتُ موعدَ حضوره بالكلية، وذهبتُ إلى لقائه، وقلت: إنى فى حاجةٍ إلى معرفةِ اتّجاه ابن عطية فى تفسيره القرآنى، وقد اتصلتُ بدار الكتب بدون جدوى، وقرأتُ ما جاءَ فى كتابك القيم، فهرعتُ إلى الاستزادة منك، فسألَنى عمَّا أقومُ به من تأليفٍ فى هذا المجال، فقلت: إنى أضع كتابًا أرصُد فيه خطوات التفسير البيانى على مرّ العصور، وقد قرأت أنّ ابن عطية يسهم فى هذا المجال بنصيب وافر، وأنّه يُقْرَنُ بالزمخشرى فى اتجاهه البيانى! فصمتَ الرجل قليلا، وقال: الذّى أعرفه من قراءتى لبعض أجزاء التفسير المخطوطة بدار الكتب، أنّ الناحية البلاغية فيه ضعيفة جدا، وأنهُ لايقرن بالزمخشرى فى هذا المجال. قد يكون المفسّر موضّحًا لآيات التشبيه والاستعارة والمجاز فى النص القرآنى، ولابد أن يفعل، ولكنه لايزيد فى ذلك عمَّا يذكره النيسابورى، أو الألوسى، أو الفخر الرازى، والذين يقرنونه بالزمخشرى فى هذا المجال قد ظلموه، فإذا كنت قد خصصت كتابك للتفسير البيانى وحده فلن تجد عنده شيئًا ذا بال متميز!

ورأيتُ المجال يسمح بالحديث عن كتاب الدكتور عن التفسير والمفسرين بأجزائه الثلاثة الكبار، فقلتُ: إن أستاذنا قد وضَع أول كتاب يؤرّخ التفسير القرآنى على نحو جديد معاصر، إذ لم يسبقْه فى هذا المجال قدر اطلاعى المحدود من أبناء العربيّة كاتبٌ معاصر! فنطر الأستاذ متفرّسًا فى وجهى، ثم قال: أصدقُك الرأى يا أخى أنى غير راضٍ عمَّا كتبت، فقد كنتُ أُوثر أن أكتبَ عن عصر واحد من عصور التفسير، لأُشبعَ القول بما يُرضى حاجة نفسى، ولكن الرسالة العلمية التى

وافَق مجلس الكلية على عنوانها قد شملت تفسير القرآن جميعه، فجعلتُ أسْبحُ فى محيط لا أعرف أوّله من منتهاه، وكان الجهد شاقا فى قراءة المخطوطات المتآكلة، واستيفاء المصادر البعيدة، ممّا أوقعنى طيلة إعداد الرسالة فى تأزّم مستمر، وأعتقد أنى قمت بالمستطاع فحسب لابما يجب أن أقوم به.

وتابع الدكتور الذهبى حديثه قائلا: لقد علمت أن المستشرق المجرىّ الأستاذ (جولد زهير) أصدر بالألمانية كتابًا عن تاريخ التفسير، فسعْيتُ حتى عرفت أن نسخة منه بجامعة فؤاد، وهُنَا أخذتُ ألح على أساتذتى بالكلية ممن يعرفون الألمانية أن يتكرّموا بترجمة الفهرس فقط، لأرى اتجاه المستشرق فى التأليف، فقد يفيدنى، فاعتذروا عن هذا العمل الهيِّن، ولو وَقَعَ فى يدى هذا الفهرس لنفعنى، إمّا متابعة أو مَعارضةً، ثم ترُجم الكتاب بعد أن أعددتُ الرسالة، وأقبلت على قراءته، فلم أسترحْ لكثير ممّا جاء به، ولو تُرجم الكتاب جميعه وأنا أضع الرسالة لتتبّعتُه بالنقد المنصف.

قُلت: ولكنى أتذكر أنك عددتَ الجزء الأوّل من كتاب (جولد زهير) من مراجعك، قال: أنت على صواب، فقد ظهر هذا الجزء بعد مناقشة الرسالة، وقبل طبع الكتاب، فجعلتُه مرجعًا لمن يريد الاستفادة، وحاولتُ أن أضيف إلى الرسالة فقرات تتعلق به فى موضعين أو ثلاثه من الرسالة بعد مناقشتها ثم رأيت أن العمل يتطلب كتابًا مستقلا، وأذكر أن مترجم الكتاب لأول مرة، وهو الدكتور على حسن عبد القادر، ومترجمه للمرة الثانية وهو الدكتور عبد الحليم النجار، وكلاهما من نابغى الأزهر، قد علقا على الآراء الشاذة بإيجاز، والأمر يتطلّب الاستيفاء.. وهكذا دار الحديث.

اللقاء الثانى:

بعد ظهور كتابى (خطوات التفسير البيانى) قابلنى أخى الأستاذ الدكتور الحسينى هاشم رحمه الله، وقال لى: إن أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبى يبحث عنك، وقد طلب منى أن أخبرك بضرورة لقائه، فلا تتأخر.

وكنتُ مشوقاً للقاء الرجل، ولكنى أخذتُ أسائل نفسى عن رغبة الأستاذ وباعثها، فقلتُ: ربمّا يكون قد تفضل بقراءة الكتاب، وفيه نقدٌ صادق لبعض آرائه، فأراد أن يناقشنى فيما كتبت، وسعيتُ إلى استيعاب ما نقدتُ به الأستاذ، وفحواه أن المؤلف أفرد فصلاً خاصا عَمَّا سمّاه (التفسير الإلحادى) يدور حول آراء فى التفسير لأستاذَيْن كبيرَيْن من علماء الأزهر، هما الشيخ حامد محيسن شيخ كلية اللّغة العربية الأسبق، وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبد المتعال الصعيدى، من كبار علماء الأزهر، وأساتذة كلية اللّغة العربية، وقد بدأ حديثه بقوله: «يمنى الإسلام من زمن بعيدٍ بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه، بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم.. مُنى الإسلام بهذا فى أيامه الأولى، ومُنِىَ بمثيله فى أحدث عصوره، فظهرَ فى هذا العصر أشخاصٌ يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفه، ومزاعم منبوذة».

وقد استهولْتُ أن يُقال هذا الكلام فى عالمين كبيرْين لهما وزنهما العلمى فى الدوائر الأزهرية، وإنْ كَتَبَا ما يخالف التفسير المتعارف، فالأستاذ حامد محيسن قد اشتط فى تأويل آيات الرجم بالكواكب، وفى تأويل قصة أيوب اشتطاطاً ظاهر التعسف، والرد عليه لايكون بجعله بين مَنْ يكيدون للإسلام ويعملون على هدمه، والأستاذ الصعيدى قد اشتط حين وقف أمام آيات الأحكام فى الزنى والسرقة، فقال الأمر فى الفعل ليس للوجوب الدائم، بل يرجعُ إلى الحاكم، تارةً يراه واجبًا، وتارة يراهُ مندوبًا ينتقل منه إلى عقاب آخر، هذان العالمان مجتهدان وقد أضلاً طريقَ الصواب فيما انتحياه فكان الأوْفق بالدكتور الذهبى ألاَّ يجعلهما مُلْحدَيْن، وهذا ما عارضتُ به الأستاذ الذهبى حين قلت (فى ص ٣٢٨ من كتاب خطوات التفسير البيانى):

«وليتَ شعرى إذا جاز لبعض المسْتشرقين ومن يتعاطون التفسيرَ من غير أبْناء الإسلام، أن يُوصَمُوا بالكيد للإسلام، والعمل على هدمه، شفاءً لإحنهم المريضة أيجوزُ أن يكونَ شيخ كلية اللغة العربية، ومدير التفتيش بالأزهر، وعضو جماعة

كبار العلماء أحد هؤلاء! والرجلُ لم يزد على أن اجتهد، أخطأ أم أصاب، لوصحّ ما قاله الأستاذ الذهبى ما وجَدَ الأستاذ مكانًا جهيرًا له فى أعرق جامعات الإسلام، بل ما وجد كُبرى المجلات الإسلامية تُوسع له من صفحاتها أفسح مكان، إنّ فضيلة الأستاذ الذهبى رجل غيور بدون شك، ولكنّه اشتطّ فاندفع، فضاع من يده الزمام».

هذا ما قلته عن الدكتور الذهبى فى كتاب طَبَعَه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وتداوله الطُلاَّب والأسَاتذة، وجاء خبره للأستاذ الذهبى، فقرأ ما سطّرته، ولابدّ أنه يريد أن يناقشنى فيما كتبتُ، ففكّرتُ فيما يجب أن أقوله إذا دار النقاش حول هذه القضية، وسارعتُ إلى لقاء الشيخ الكبير، فرأيته ينهضُ واقفا حين وقع نظره على، ويبتسمُ مادا يده الكريمة ويقول فى مودة: اجلسْ يارجب، لقد علّمتَنى، لقد علَّمْتنى! قلت: معاذ الله ياسيدى فنحنُ جميعًا تلاميذك، قال: قرأت كتابك من ألفه إلى يائه، لأنه تحدث عن ناحية فى التفسير لم تكنْ موضع اهتمامى الأوّل، وحين وَصلت إلى ما قلتَه عن التفسير الإلحادى عرفتُ أنى أخطأت، لقد كنتُ مندفعًا فى عهد الشباب يا أخى، ولكنْ ألا تعلم أنّ معنى الإلحاد هو الميل، وإذن فقد وصفتُ الرجلين بأنهّما مالا ولم يعتدلا: قلتُ فى عجلة، معنى الإلحاد لغويا هو الميل، ومعناه اصطلاحًا المروق والكفر! قال: أعلم هذا، ولكنّى أردتُ أن أخفف عن نفسى، فأعترف أن الحق معك! وربتَ كتفى فى مودة، فكان مجلسه مضرب المثل فى صدق الاعتراف، وفى الإقرار بالحق بدون ملاحاة!

اللقاء الثالث:

ذهبت إلى مكتب أستاذى الجليل الدكتور كامل الخولى عميد كلية اللغة العربية ذات صباح، فوجدته يجلس مع الدكتور الذهبى مُتحاورِيْن، فظننتُ الحديث خاصا، وهممتُ بالرجوع، ولكنّ الرجلين معًا قد صاحا بدعوتى فى صوت واحد، فأقبلتُ لأجد الدكتور الذهبى يقول: أنت تفر منّى، لأنكَ تعرف أنّى

سأعاتبك، قلتُ: إن عتاب الدكتور نصح وإرشاد وتوجيه! فقال الدكتور الذهبى موجهًا الحديث للدكتور الخولى: إن الدكتور رجب متأثر بما قال الدكتور أحمد أمين فى كعب الأحبار، فقد قرأتُ له مقالاً ينزل به عن قَدْرِه، وكَعْب فى رأيى مسلم صادق، والذين يتشككون فى إسلامه لايملكون الدليل، وقد بسطتُ هذا الموضوع فى كتابى عن التفسير، وقرأه رجب، ولكنه لم يقتنع به كما أرى فى اتجاهه!

قلت: ياسيدى، إن صاحبَ المنار السيد محمد رشيد رضا لا الدكتور أحمد أمين وحده قد هاجم كعباً ووضعه دُون موضعه لديك بكثير. قال: أعرف هذا، ولكنَّ كعبًا قد روَى عنه ابن عباس، وأبو هريرة، وروَى عنه الإمام مسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، ولولا ثقة هؤلاء الكبار من الصحابة، والأجلاء من رجال الحديث ورواته ما روَوا عنه شيئًا! والقصةُ التى تقولُ إنّ كعبًا اشترك فى مؤامرةِ عمر بن الخطاب التى انتهت بمصرع الفاروق لا تَثبتُ أمام النقد، إذْ كَيف يُعقل أن يقول كعبٌ لعمر ستموت بعد ثلاثة أيام، ثم يُصرع بيد الغدر فى الوقت الذى حدّده ولا يتجه الاتهام حينئذ إليه؟ لَوْصّح ذلك لَقُدّمَ كعبٌ إلى المحاكمة مع أبى لؤلؤة المجوسى والمرزبان ومَن اشتركوا فى التدبير، ولكن أحداً لم يُوجّه إليه ملامًا، أما السيد رشيد فعلى جلالة علمه فهو رجلٌ يؤخذ منه ويرد، وقد كتب الأستاذ الدجوى رحمه الله تفنيدًا لما قال السيد محمد رشيد رضا وإنْ لم يصرّح باسمه. . راجِعْ هذه القضية من جديد يارجب. فأصغيتُ بدون اعتراض، وأذكر أن الدكتور الخولى قال للشيخ الذهبى مداعباً تناقشه فى تاريخ التفسير وهو مجالُ تخصصك فيسكت، ولكنْ لو ناقشته فى الأدب والنقد والبلاغة لما سكت!

قال الذهبى: أعرف أنه سكت تأدبًا فقط، وعنده ما يقوله. . .

ثم تولّى الدكتور وزارةَ الأوقاف، ولاقى صعوبات شاقة فى الوقوف أمام التيّارات الوصوليّة، وقد اعترف علنًا فى مجلس الشعب أنه غير مبتهج بمنصبه،

وأنّه يتمسك بموقفه مؤثراً أن يرجع إلى مكانه العلمى بجامعة الأزهر، وقد تحقّق له ما يرتجيه، ولكن أعوان الشر تربّصوا به، فنال الشهادة مأجوراً مُثابًا، فصار ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضله، فرحين بما آتاهم الله من فضله العميم.

* * *

الدكتور زكي مبارك

حين انتقل الدكتور زكى مبارك إلى رحمة الله نشرت بمجلة الرسالة ترجمة أمينة لحياته، ولم أغفل فى ختامها ما اصطدم به فى خريف عمره من تهاون واستخفاف، بعد أن أسهبت إسهابًا شاملاً فى تقدير مؤلفاته، وتشخيص سماته الأدبيّة، ولم يكن فى ذلك ملامة تلحق مؤرخًا منصفًا يحاول أن يقدم للتاريخ صفحة صادقة عن راحل كريم، وقد شاء صاحب الرسالة أن يلحق اسمى فى رأس المقال بهذه العبارة (بقلم صديقه وتلميذه) وقد سألته عن ذلك فقال: ليطمئن القارىء إلى أن الذى يتحدث قريب غير بعيد.

وما كاد هذا البحث يُقرأ، حتى تلقيت نقدًا متعّددًا من زملاء أفاضل يقدّرون الدكتور، ويرون إشارتى إلى حالته الأخيرة إساءةً إلى تاريخه، مع أنه تحدث عنها بنفسه، وسجّلها فى ديوان ألحان الخلود، مكررًا مُلحا بدون استتار، وقد تتابع النقد قارصًا موجعًا، حتى كدت آسف على ما قدّمت، وزاد فى حيرتى المؤلمة أن العقل الباطن صوّر لى الدكتور فى حُلم خاطف يلومنى لومًا صارخًا، فانتبهت من النوم وأنا أقاسى مرارة التأنيب، فتذكرتُ سالفةً سابقة هى أنى قبل وفاته بأشهر قليلة تحدثت على صفحات الرسالة عمًا طرأ على أسلوب الدكتور زكى مبارك من انحراف ملموس، بحيث انقطعت الصلة بينه وبين ماكان يُدبِّجُ من قبل، وقد ثار الدكتور على ماكتبت، واتهمنى بمجاملة خصومه، وتحدث إلى صديقى الأستاذ محمد خليفة الجعلى، وهو من قرية بريف الدقهلية، ساخطًا على ماكتبتُ، وكان الأستاذ الجعلى زميلاً له فى تحرير جريدة البلاغ.

رثاء شعرى:

وقد شملنى أسىً على رحيل الدكتور، فقلتُ فى نفسى: لقد كنت موضوعيا فى مقال الرسالة، لأنك سلكت مسلك المؤرخ، والمؤرخ ينقل عمًّا شاهد بدون تحيّز، وهذه شجونك تدفعك إلى رثاء شعرى يؤكد محاسن الكاتب الكبير، فلابد أن تشفى فؤادك بقصيدةٍ تصوّر حسرة الأدب، ولوعة الأصدقاء على فقد هذا الأديب المطبوع، ورأيت الشعر ينحدر على لسانى سهلاً طيِّعًا، فكان مما قلت:

زكىّ رَحلت فاتجهت عيون ... تُريد البدرَ فى ليل المحاقِ
هَفت لمؤلفاتك تجتليها ... لتلمسَ العزاء عن الفراق
وأقسم ما تسلّت باطلاع ... ولكن زادها برح اشتياق
ترى الأسلوب كالمعنى رقيقًا ... فتندب صاحب الغرّ الرقاق
تركت مدامع العشاق نهمى ... على ليلى المريضة فى العراق
وإخوانًا تساقطهم حديثا ... يظل على المدى سحر الرفاق
تُكرره على شغف فيغدو ... مع التكرار معسول المذاق

وكان الدكتور مبارك فى وجداناته العاطفة، يلمس مشاعر كنت أحس بها أحياناً فى جنبات صدرى، حتّى إنى قرأتُ له خطابًا تحت عنوان (الخطاب الذى احترق) فَخُيّلَ إلىّ أنى أنا الذى كتبته، وقد طفقتُ أتعجب لهذا الإحساس المماثل، إحساس الحرمان الخائب فى دنيا الوجدان، والأحاسيس تتشابه لامحالة، أما أنْ تتطابق بحيثُ يعبّر الدكتور عن إحساسه، وكأنه ينقل من صفحة خاطرى، فهذا ما ارتفع بنفسى فى خلواتى الصامتة التى أتحدث عنها بدون لسان، لأنّ الحزين يتسلّى بالحزين، وبخاصّة إذا كان المتسلّى به كاتبًا وشاعرًا من طراز رفيع، وإلى هذه الحالة المطابقة أشرت فيما قلت من رثاء الرجل فهتفت:

عواطفُك التى أنشأت تجلُو ... غوامضها بفكر ذى ائتلاقِ

وجدتُ مثيلها عندى كأنَّا | شربْنا الشوقَ من كأسٍ دهاقِ
تجرّعنا مرارتها اضطرارا | فلم نغنْم سوى الدمع المراقِ
وشبَّ الهجر يرمُض جانحيْنا | ويؤذن كلّ قلب باحتراق
أكانَ من المحتمّ أن أَلاقى | من الوجد المبرّح ما تُلاقى
وقد عجّلتَ مرتحلا لأحسُو | بقايا الكأس وحدى دون واقِ

وهكذا خُيِّل إلىّ أنى برثائى الشعرى، مسحت ما قدمت فى ترجمتى النثرية للراحل العزيز.

لقاء حافل:

بعد أن حدثَنى الأستاذ الجعلى بغضب الدكتور مبارك، سألتُه أن يحدِّدَ لى موعدًا للقائه، فقال إنه يقيم بجريدة البلاغ، ولا يحتاجُ لموعد، إذ لاعمَل له غير كتابة مقال أسبوعى يكتبه فى منزله، ويحضر للسّمر والمؤانسة، فبادرتُه لزيارته، وقد حملتُ معى ديوانه الجديد (ألحان الخلود) وكان قد ظهر منذ قليل، وفى ذهنى أفكارٌ تتعلق بالديوان، رأيت أنْ آخذ فيها رأى صاحبه، فما كاد يَرانى حتى ضحك ضحكةً عاليةً، وقال: أخبرنى الأستاذ الجعلى أنكَ لا ترضى عن مقالات (الحديث ذو شجون) التى تُنشر الآن فى البلاغ! قلتُ هادئاً: كلمة (لاترضى) أكبر مما تُقال بالنسبة للدكتور، فأنا أسْتفهم عمًّا لا أعلم سرّه فحسب! لقد خُيِّل إلىّ أنّ الحديث المتنقّل من غَرضٍ إلى غرض سريعًا بدون رابط واضح، وبدون تحليل متّئد قد يصلحُ أن يكونَ حديثًا للمجلس فقط، أما أن يُنشر على الناس بقلم كاتب كبير، فأنا أبحث عن تعليله.

فقال الدكتور: لقد وقعتَ فى الخطأ حينَ فرّقْتَ بين حديث المجلس، وحديث الجريدة، فالأديب الصادق هُو الذى يكتب كما يتكلّم، وعظمُة الكاتب فى صراحته الواضحة التى تواجه الخصوم برءوس الرّماح!

سكتُّ قليلا، فقال الدكتور: لِمَ لَمْ ترد؟ قلت: لقد كنتَ منذ عشر سنوات تكتبُ (الحديث ذو شجون) بمجلة الرسالة، فكنت تهتّم بصقله وتركيزه وهدفه، لذلك كان القارىء لايمل معاودته، ولكنّ هذا الاهتمام قد تضاءل فيما تكتب بالبلاغ.

فرد الكاتب الكبير يقول: هناك فرقٌ بين زكى مبارك اليوم، وزكى مبارك الأمس، لأن أفكارى تتبدّل بتغير الزمان، لقد وُجِدَ فى فرنسا مذهبٌ يدعو إلى تسجيل الأديب كلّ خواطره كما تفد إلى ذهنه بدون ترتيب، ليعطى القارىء صورة صحيحةً لما يجرى بين أطباق الدم واللحم، وقد اقتنعتُ أخيرًا بهذا المذهب، فعدلّت اتجاهى، إذ كانتْ مقالات الرسالة تخضع إلى سيطرة العقل، فيحذف ويثبت، وإن خالفت ما أحسّ به، أما اليوم فلا.

قلت: إن كلّ كاتب يجب أن يكون للعقل نصيبٌ من توجيهه، والشاعر وهو ذاتى محض، يحتاج إلى عقله فى ترتيب الخواطر، وتصوير المشاعر، ولو تخلّى عنه لما قدّم شيئًا يقرأ؟

صاح الدكتور: عليك أن تفهم أوّلا؟ فتراجعتُ أقول: نعم، ورآنى أحمل (ألحان الخلود) فقال: أى قصيدة أعجبتك؟ فقلُت أكثره رائع، ولكنّى جئتُ لأستفهمَ عن شىء لا أجد لدىَّ تعليلا واضحًا بشأنه. فابتسَم الرّجل قائلا: تفضّلْ. قلت: لا تكادُ تخلو قصيدة من قصائد الديوان بدون مقدمة نْثريّة مسهبة، قد تكوُن مصدر غضبٍ لمن هجوتهم فيها من كبار الكُتاب فلماذا؟

فردّ الرجل، يقول: إذن لم تقرأ الديوان، لقد قلتُ فى مقدمته إن الشاعر الفرنسى الكبير (لامارتين) كان يقدّم كلّ قصيدة من قصائدهِ الوجدانية بمقدمة تسلط الضوء على مناسبتها، وغوامض اتجاهاتها، وكانت مقدماتُه فى بعض الأحيان أحسن من القصائد نفسها، وهكذا فعلت.

فتجرأتُ فقلت: يضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى! فصاح الرجل ولماذا لاينطلق لسانك؟ أمعى كُرباج؟ أنا أعزل ضعيف.

قلت: ياسيدى، قلت إنَّ «لامارتين» كان يسلّط الضوء على اتجاهاتهِ الوجدانية، ولكنك تجاوزتَ ذلك إلى السبّ العلنى فى أناس كبار!

فصاح: من هؤلاء الكبار؟ السنهورى؟ أحمد أمين؟ على الجارم؟ النقراشى؟ الزيات؟ العقاد؟ كلّهم عندى مزيّفون غير صادقين!

قلت: ولكنك مدحتَهم من قبل فى كُتبك الذائعة، فماذا يقول القارئ إذا فُوجئ بتناقضٍ سافر بين قولٍ وقول؟

قال: أنا أمدح حين أَرْضَى، وأهجو حين أسخط، وذلك سلوكٌ صادق أمين، والذى يثبت على رأى واحدٍ، حجرٌ فى جبل، لايحسّ بتقلب الزمان وعصف الرياح.

وكأنّ الأستاذ الجعلى شاء أن ينهى الحديث، فتطرق إلى موضوع سياسىّ، خاضَ فيه الأديب الكبير بروحه السّاخرة، فأمتعَ وإن لم يقنع! وفارقناه مسرورين.

لقاء تال:

حرصتُ على أن أديم لقائى بالدكتور مبارك، فساقتنى قدماى إلى جريدة البلاغ بعد قرابة أسبوعين، فما أنْ رآنى الرجل الطيّب، حتى نهض مُرَحبًا ومُحتضنًا، فعرفتُ أنّ معارضتى إياه لم تتركْ غير الصدى الجميل فى ننسه، وسألنى: أَيْن ديوان ألحان الخلود؟ فقلتُ هو فى صدرى أحفظ أكثره، قال: وأىّ قصيدة أعجبتك؟ قلتُ: قصيدة بغداد! فقال: الله أكبر! لقد أُعجب بها شاعر العراق الكبير الأستاذ محمد رضا الشببنى وزير المعارف الأسبق، لأنه ناقد، وضاقَ بها على الجارم الموظف بوزارة المعارف، لأنه حاقد! قلت: القصائد ترتفع عند قوم، وتنخفض عند آخرين، لاختلاف وجهات النظر، فقال الدكتور: من أَيْن جاءك هذا الاحتيال، الحق هو الحق، ولن يكون الاختلاف أبدًا فى القصائد الممتازة، ولكّنه يكون فى القصائد المتوسطة التى تحمل القوة والضعف معًا، فيميل قوم إلى الإغضاء عن المحاسن لتجسيم المساوئ، ويميل قوم إلى تضخيم المحاسن ليقضوا

على المساوئ، وقصيدة بغداد، كلها محاسن، وقد حاربها الأستاذ السباعى البيومى فى دار العلوم.

قلت: لقد شهدتُ معركتك الأدبية مع الأستاذ السباعى! قالَ: وماحكمك عليها؟ قلت: السكوت أولى! فأطرقَ الدكتور مبارك، وقال عجبًا: لقد اعترف الناس جميعًا بأنى انتصرتُ فى معاركى مع طه حسين، وأحمد أمين، وأحمد زكى باشا، ولكنّهم يصّرون على أنّ الأستاذ السباعى قد انتصر، وأنا لم أحارب السباعى إلاّ بُربْع قوّتى، لأنى كنت أشفق عليه!

قلت: ولهذا انسحبتَ أنتَ من المعركة، ففاز هو بالانتصار! قال: إنّ السباعى قد حاز رضا القراء لأنه حاربنى بسلاح الشتم والسبّ، وماكنُت أظنّ أنه يملك هذه الثروة البغيضة من السباب!

سكتّ فلم أنطق! فقالَ: لماذا لا تردّ؟ قلت لنتكلم فى حديث آخر، فصاح مبارك: ولماذا؟ قلت فى هدوء: أخشى أن أغضبك حين أقول إن الذّى بدأ بالسباب ووالى الشتائم هو الدكتور زكى مبارك، وكانَ السباعى مهذّبًا فى مقاله الأول، فلّما رأى النار تحيط به من كل مكان، أوْقدَ نارًا مثلها، فأزعجت الدكتور، وآثر الانسحاب!

قال مبارك: هذا بعضُ الحق، وليس الحق جميعه، لقد حَدّثَنى الأستاذ محمد خليفة الجعلى أنك من أبناء كلية اللّغة العربية، والسباعى أستاذ بدار العلوم، فلماذا تتعصّب له هكذا، وبين الأزهريين والدرعميّين ما بين الأوس والخزرج فى الجاهلية؟!

قلت: ولكننّا نحن اليوم فى الإسلام، وأنا أعترفُ بأن معاركك الأدبّية أحلتْ منزلتك لدى القراء، وقد قال الزيات: إنك الملاكم الرياضى بين الأدباء.

اعتراف:

سكت الدكتور مبارك، وأخرج من جيبه ورقة أخذ يقرؤها، فهممتُ بالانصراف، ولكنه ضغط على يدى التى قدمتها للمصافحة قبل الخروج، وصاح:

اجلس، اجلس - سأعترف لك بشيء خطير، خطير جداً، أرجو أن تذيعه، وتسجله على.

لقد قلتَ إن معاركى الأدبّية هى التى أعلت منزلتى لدى القراء، وهذا حق، ولكنّ هذه المعارك هى التى حرمتنى حقّى فى بلدى، لقد نلت ثلاث دكتوراهات من الشرق والغرب، وطمعتُ أن أكون أستاذًا بكلية الآداب مثل الذين لم يحملوا أية دكتوراه، وليس لهم سلاحٌ غير الخضوع والاستسلام، فأخذوا يترقون فى السلك الجامعى وهم تلاميذ بالنسبة إلىّ، وقُضِى على أن أظلّ بوزارة المعارف، فقبلتُ على مضض، ثم استُكْثر على أن يدُومَ لى التفتيش بالوزارة، ففصلَنى السنهورى، والسبب كلّه كلمة الحق التى أزعجتْ أمثال طه حسين والسنهورى والجارم والنقراشى والقبانى! أنا شهيد الحق! والناس يعرفون ويسكتون!

قلت: نعم إننا نعرف هذا كله، ولكننا لن نسكت، كما لم يسكت المنصفون من أمثال منصور فهمى، والمازنى، وعبد القادر حمزه، وحسبك بهم من أنصار! واستأذنت إلى غير لقاء.

* * *

السيد حسن القاياتى

نشأناْ نقرأ قصائد رائعةً للأستاذ السيد حسن القاياتى بجريدة الأهرام ومجلّة الرسالة، ونُدرك فى نظمه رصانةً تدل على إتقانٍ واتئاد، حيثُ لا يأتى بالمعنى العَفْوى كما اتفق، ولكنَّه ـ كأبى تمام ـ دائمُ الغوصِ على الشُّوارد الخافية النائية، وكانتْ مكانته فى مجمع اللّغة العربيّة تُلقى علينَا ظلاّ من المهابة، فلا نجرؤ على تفقد ما يقعُ من الغُموض فى شعره، حتّى كانت السنة الرابعة بكلية اللّغة العربيّة، وحَاضَرنَا الأستاذ عبد الجواد رمضان عن الأدب المعاصر، فذكر السيد حسن القاياتى قَريعًا لشوقى وحافظ ومحرم وكبار الفحول من شعراء النهضة، وأكْبرنا ذلك بدءاً، فعرضَ علينا الأستاذ من قلائده ما كنّا نجهل، بلْ مازاد عجبنا من جهلنا إياه، فالأستاذ فريدٌ فى اتجاهه الشعرى، يُعنَى بالدقائق من المعانى، وبتجنّب الفضول، وإذا أطالَ لا ينزل عن مستواه فى بيت واحد! وقد كثُر حديث الأستاذ عبد الجواد رمضان عن صاحبه، فقلْنَا له: وماذا يفيد الحديث المقصورُ على الطّلاب فى حجرة ذات أربعة جدران، فانطلقَ ليكتب بَحثَاً أدبيّاً عنه نَشَرهُ بمجلة الأزهر، وتلته بحوثٌ خاصة بشعر القاياتى، وأذكر أنّى قرأتُ فيما كتبه الأستاذ بمجلة الأزهر أن الأستاذ حسن القاياتى، كان زميلَ الأستاذيْن الكبيريْن مصطفى عبد الرازق ومحمود أبو العيون فى عهد الطلب، يتدارسون ويسمرون معًا، ثم حانَ موعد امتحان (العالمية) وهى الشهادةُ النهائية حينئذ فتقدم الأستاذان للامتحان، وأنِفَ الأستاذ القاياتى أن يَجلْس مجلس الممتحن! ولا ندْرى كيف وقع هذا؟ ولكنه تاريخ يكتب!

أول لقاء:

تشوقتُ إلى لقاء الشاعر الكبير، فأخبرتُ الأستاذ عبد الجواد برغبتى، فقالَ لى حين طلبتُ أن يُمهّد سبيل التعارف: عجبًا، ألا تعرف بيت القاياتى بالسكرية؟ لآيوجد أديبٌ أو زعيم سياسى إلاّ عَرفَ هذا البيت، لقد كانَ والدُ السيّد حسن من زُعماء الثورة العرابّية، ونُفِى إلى الشام مع شقيقٍ له من علماء الأزهر، وألّف بعض الكتب هناك، ثم قامتْ ثورة سنة ١٩١٩ فكانَ منزل القاياتى بالسكرية أحدَ بَراكينها الثائرة، وَبِهِ أُعِدَّ أكثُر منشوراتِ الثّورة، وكان الأستاذ مصطفى القاياتى أكبر خطيبٍ عرفته ثورة ١٩١٩ بشهادة زعيمها الخالد سعد زغلول! ومازالَ بيتُ القاياتى منذ سنة ١٩١٩ عامرًا بالوفود! وإذا انقطعَ حديثُ السياسة، فإنّ حديث الشعرِ والأدب لاينقطع، لأنّ السيد حسن القاياتى يُصغى إلى كل ما يَعرضُه الناشئة من طلبة الأزهر ودار العلوم والجامعة من الشعر، ويحاولُ أن ينقُد ما اعْوَجَّ، ويَهدِى من ضلّ! ثم تسألنى بعد ذلك عن بيت القاياتى؛ وتطلُب شفيعًا للقاء صاحبه، اذهبْ سريعًا وتتلمذ عليه!

لم يكن الأستاذ عبد الجواد مبالغًا فيما قال، فقد ذهبتُ عقب صلاة المغرب إلى بيت القاياتى بحىّ الدرب الأحمر، فوجدتُ المجلس الأدبى، يؤمُّه الناشئة والكبار معاً، وفى هذا المجلس عرفتُ صديقى الأستاذ طاهر أبو فاشا، إذ كانَ لاينقطع عن لقاء الشاعر الكبير، كما عرفتُ فريقًا من الأدباء لهم مكانُهم الواضح فى دنيا الفكر المعاصر، وتقدمت للأستاذ فأعلمتُه بما يَفيضُ فيه الأستاذ عبد الجواد من حديثٍ عن شاعريته، ووجدت من بشاشةِ اللقاء ما شجعّنى على تكرار الزيارة، غير أنّ الذى عجبت له، أن الأستاذ لم يكن ليكتفى مع زائريه بما يُقدم من شراب القهوة شتاءً والليمون صيفًا، بل كان يُقيم مآدبَ الغداء والعشاء على نحوٍ متواصل، وكأنّ الزائر قد أَتَى إلى منزله الخاص ليأكل ويشرب! وقد رأى الأستاذ طاهر أبو فاشا دَهْشتى حين أخبرنى أن ماشهدتُ الليلةَ هو النظام اليومى الممتد، فقالَ لى: لقد تأخرتَ عنْ موعدك، جئتَ للسيد حسن، وأنت فى السنة الرابعة، لقد ضاعتْ عليك السنوات الثلاث! وحينَ رجعتُ إلى الأستاذ عبد الجواد تحدثّتُ معه عن لقاء

الشاعر وكرمِ مجلسه فقال إن بيت القاياتى من أعْرق بيوت (الصوفيّة) ولهذه البيوُت تقاليد لاتنقطع، وكانَ أجداد القاياتى من كبار القضاة فى عصر المماليك، ولهم ذكر مأثور دونه على مبارك فى الخطط التوفيقية، وفى طليعتهم شمسُ الدين القاياتى قاضى قضاة مصر فى المائة الثامنة، ومنذ المائة الثامنة هذه، والبيتُ عامرٌ بزائريه، يتحدثون فى الفقه والدين والأدب والسياسة ثم يأكلون وينعمون! وأطرقَ الأستاذ قليلا ثم قالَ وفى قنا بيتٌ مماثل، هو بيت الصوفى الكبير «أبو الوفا الشرقاوى» بيوتٌ حافلةٌ بالعلم والكرم معًا!!

شغف واهتمام:

شُغفت بتتبّع آثار القاياتى فيما تفرق من الصحف، وقد حدثَنى الأستاذ محمد شوقى أمين، أنّه كتب فى جريدة الوادى عدّة مقالات عن شعر القاياتى تحت عنوان (ثنائيّات القاياتى) إشارةً إلى أبياتٍ من الحكمة، أكْثَر الشاعر من نظمها، بَيْتَيْنِ بيتين، حتى ألّفتْ مجموعةً من المعانى الفكرية ذاتِ المنحى الفلسفى، وكانَ المشرف على رئاسة تحرير الوادى حينئذ الدكتور طه حسين، فقالَ لشوقى حينَ واصلَ المقالات عن هذه الثنائيّات، ماذا أبْقيت لشوقىِ وحافظ والبارودى حين جَعلتَ القاياتى أكبر شاعرٍ معاصر؟! وقد قرأتُ ما وَقَع فى يدى من مقالاتِ شوقى أمين، ثم لفتنى الأستاذ عبد الجواد رمضان إلى قراءة ما كتبه القاياتى فى جريدة كوكب الشرق، تحت عنوان (العثرات)، إذا أخذ يتتبَّع مقالات الأدباء، وقصائد الشعراء تَتَبُّعاً ناقدًا، ويخصّ كلّ عثرة نقدية بتصويبِ كاشف، وكانَ البحثُ عنْ جريدة كوكب الشرق شاقا بالنسبة إلَىّ، ولكنّى اهتَديتُ إلى مجلّد يحوى سنةً كاملة من أعدادها، فأسفتُ أكبر الأسف أن تفرّقَتْ هذه البحوث فى صفحات الجريدة المسائية دونَ أن تُجمع! مع أنها لوطُبعت فى جزءٍ مستقّل لألفت كتابًا حافلاً بالتصويب النقدى الرصين، ولا أدرى لماذا أهملها صاحبها؛ فتركها أباديد.

بين القاياتى وشوقى:

من أبيات السيد حسن القاياتى الذائعة قوله:

إنى لأضخمُ مَن فى مصر قافية   لا تجحدونى هذا أيها العجم

وهو قول يدلّ على اعتزازه بمكانته الشعرية، كما يدلّ على أنه لايقرّ سبق غيره عنه فى مضمار القريض، وهو لإبائه العنيف لم يشأْ فى حياة شوقى أن يشنّ حربًا عليه، لأنّ أنصار التجديد قد أَصلَوْا شوقيا بما فيه الكفاية، ومنزعُ القاياتى أقربُ إلى منزع شوقى فى الاتجاه الفنّى، فما يُقال عن تقليد شوقى يُقال أيضًا عن تقليد القاياتى! وحينَ ارتحل شوقى نهضَ من يُبايعُ العقاد بإمارة الشعر، كما نهضَ مَن يُشيدون بشوقى الراحل ويعدّونه فردًا لانظير له! ولا أَدرى لماذا ترك القاياتى تحفظه من ناحية شوقى، وآثَر أن يُعلن ما طواه فى أحنَائه من شجون أدبّية، حين كتبَ فى جريدة كوكب الشرق الصادرة بتاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩٣٤ تحت عنوان (إمارة الشعر)، وهى إحدى العشرات المتوالية بالجريدة (ورقمها ٦٨) فقال القاياتى:

هأنذَا، وهذا شوقى، وتلكَ أشعارُه وهذه أشعارى، فإن كنُتم ولابّد قاضين له علينا، فلا أقَل من نظرة موازنةٍ عفيفة برّة تُلقونها على قصيدةٍ لى، وقصيدةٍ له، فإذا انكشفتِ المقايسةُ بيننا وبينه عن سبقه وتبريزه كانَ لكمْ أن تحلّوه سماءه وتلبسوه تاجَ الإمارة يأتلق على مفرقه الوضاح.

ثم يعرضُ قوله:

كَمْ نالَ كرسّى النّيَابة جاهلٌ   إنْ قيسَ بالكُرْسّىِ قيس بأنفس

مقارنًا بقول شوقى:

دَارُ النيّابة قد صُفت آرائكها   لا تُجلسوا فوقها الأحجارَ والخُشُبا

مؤكّدًا أن شوقيا نزعَ المعْنى منه غاصبًا إياه! ويقولُ بصدد ذلك «لَمْحَة جُلّى من الموازنة بين شاعريْن عصريّيْن أحدُهما أمير الشعراء (شوقى)، والثانى شاعرٌ من عرض الشعراء، لا هُو بالنّابه، ولا المعروفْ، بيدَ أنك ترى فى بيْته على فضيلة السبق فيه مسحةً فنّانةً من الشاعرية الساخرة، فى جدّةٍ من التشبيه، وجزالةٍ من اللفظ إلى مانجد فى بيت شاعرِكم من الانتحال بل الإغارة المسلّحة».

هذا قليل من كثير قاله القاياتى! وموضُع النقد فيما انتحاه، أنّه جعل الموازنة بين بيت وبيت فقط! وما هكذا يا سعدُ تورد الإبل! فقدْ يتفوّق القاياتى فى بيتٍ وفى أبيات! ولكنّ النظرة العامة إلى شعر الشاعرين فى موضوعاتهما المختلفة، وأساليبهما المتباينة هى التى تكونُ موضعَ الترجيح، ولا أدْرى كيف نسى القاياتى ذلك أو تناساه!

رثاء منتحل:

كان من عادة القاياتى أن يودّع الراحلين، بثنائيّة من شعره، يكتبُها بالنسخ، ويوقع بكلمة (السيد) فحسب، ويضُع الشعر بَيْن مستطيلٍ يخطّه بالقلم الرصاصى، ثم يرسُل القصاصة إلى الجريدة اليومية فيظهر البيان بتوقيع (السيد).

وحينَ مات الدكتور زكى مبارك ظهر هذا البيان بتوقيع (السيد)

شُعَلٌ من اللهب الذكى ... شَبتْ بقلبى من زكىّ
جَمعَ الذكاءَ فرُوعيتْ ... صلة المسمّى بالسمّى

وكنّا فى منزله بالسكرية، فحدّثَنا الشاعر حديثًا عجبًا، خلاصتُه أنه نظمَ بيْتَين فى رثاء زكى مبارك، وبعثَ بهما إلى الجريدة، فَفُوجئ ببيتَين لم ينظمهما، وقد نُشرا بتوقيعه، ثم رأى أن يُحقق الأمر بنفسه، فوجدَ الأصل مكتوبًا بخط نَسْخى يوافق خطّه، وبتوقيع لايختلف عن توقيعه، وقد وُضع البيتان فى مستطيلٍ كعهده فيما يُرسل، وهو للآن لايعرف هذا الذى حاكاه شعرًا وخطا وتوقيعًا فأجادَ المحاكاة! قلتُ: ولمَ لمْ تُعلن الأمر؟ قال: أردتُ، ولكن رئيس التحرير شاءَ أن يتريّث، ليعلم مَن المرُسِل؟ لأنّه إذا وجد الصمت، فسيعلنُ عن نفسه! أمّا إذا وجد الاحتجاج فسيؤثر السكوت.

ثم ضحك القاياتى، وقال: هناك قصةٌ مشابهة وقعتْ للشيخ حمزة فتح اللّه، فقد كان يركب فى تفتيش المدارس بالصعيد سفينةً تابعة لشركة (كوك) وكان عُمّالُها يضايقونه حين الوضوء والصلاة، فعزم على شكواهم، ولم يفعل، ولكنّه فوجئ

بقصيدةٍ ممهورة باسمه، تعلن هذه الشكوى، وإذا كان الشاعر يتكلف الغريب غير المأنوس من الألفاظ، فقد جاءت ألفاظ القصيدة على طريقته، وكأنها من حُرّ نظمه، فكانت مفاجأةً أولى للشاعر، أما المفاجأةُ الثانية فهى نسخةُ القصيدة ذاتها، إذ كُتبتْ بخطّ مماثل لخط الشيخ حمزة فتح الله، إذ كانَ يكتب بحروفٍ تقرب من الرّسم الكوفى، وهو ما اعتاده أصحاب الصحف، حتى ألفوهُ منه! وقد قال الشيخ حمزة: هذا النظمُ نظمى وما قرضتُه، وهذا الخط خطى وماكتبتُه! ثم اتضح أن الشاعر إسماعيل صبرى اشترك مع حفنى ناصف فى النظم، وقد قلَّداَ الخط تقليداً متقنًا، ثم قال القاياتى: إنّه كان علىَ صلة قويّة بإسماعيل صبرى، وقد زارهُ لأول مرّة مع الدكتور محمد صبرى السوربونى وسَجَّلَ هذه الزيارة فى قصيدةٍ نشرها أخيرًا بالثقافة، ومطلعها:

أما وَقدْ زُرتك فلأعجبِ	برتبةٍ أدنَتْ منَ الكوكب
نوه بى قصْديكَ فى منتدىً	زاحمتُ فيه البدر بالمنكب
صفىّ دارِ خلِتُنى عنده	أزورُ عرش الملك فى موكب
كم رحّب البِشرُ بناَ جهده	والدار لولا البشرُ لم ترحب

تأبين حارّ:

حين انتقل القاياتى إلى رحمة الله، لم تُوفه الصحف حقّه من التوديع، فسكتَ عنه مريدوه، وطالماَ غمرهم بتشجيعه وبره، ولكنّ تأبين مجمع اللّغة العربية للراحل الكريم فى حفل مشهودٍ، قد أحيا ذكر الشاعر خير إحياء، إذ ألقى الدكتور منصور فهمى كلمةً رنانة كان لها تأثيرُها النفاّذ بين الحاضرين جميعًا، وكنتُ أحد مَن سعدوا لسماعها، وحرصتُ على الاحتفاظ بها بعد نشرِها فى مجلة المجمع، لأنّ الدكتور منصور قد كانَ أديباً رائع التعبير، صادقَ العاطفة، قوىَّ الإخلاص، وقد رسمَ صورةً رائعة للشاعر فى سموّه وتعاليه ونزاهته، وذكر فى مطلع التأبين، أنه طلب آثار الفقيد من أهله، فجيء له بمكدّسات من المقالات والقصائد نُشرت

على مدى خمسين عامًا ولم تُطبع فى أجزاء، ثُم قال: على أن الكيفية التى جَمع بها الفقيدُ مخلفاته الأدبيّة قد تدل على طبيعة زاهد، لايتلهّف على شهرةٍ فى دنيا الأدب، ولا يتعّجل منزلةً من الناشرين، فيؤثُر الريث والدعة على الركض الحثيث.

ثم كانَ الدكتور منصور فهمى شاعرًا قوى التأثير حين رسمَ موكبَ الوداع للراحل، إذ كانَ بعضَ شهوده المشيعّين فرأى النعْش الكريم يخِرجُ فى الضّحْوة العالية من منزلٍ أثرىٍّ تتجمع فى أروقته ووجهاته أنماطٌ من الفن الشرقى الصميم، وقد تدافَع المريدون إلى حمله متزاحمين، وقد أخذُوا يتئدون ويتثاقلون حرصًا على أن يصبهم أكبرُ قسط من بركة هذا الرفات، حتّى بلغوا جامع المؤيد ليضعوا الجثمان فى سيارّة تحركتْ عجلاتها بين نشيج الباكين، وصلوات الداعين، ومضَى الركب المتواضع ليصمم شطر القايات، حيثُ كان النّاس فى استقبال الجثمان حُشودًا زاخرة يتِزودون منه بآخر النظرات، ويضعُون رفاته فى رحاب آبائه المباركين، رضوان الله عليهم وعليه أجمعين.

هذا بعضُ ما يحضرنى عن القاياتى، ولصديقى الأستاذ الشاعر محمد مصطفى البسيونى ذكرياتٌ عاطرة عنه فلعله يتحدث عنها، وسيجدُ من يستمع.

* * *

الدكتور عبد الوهاب عزام

تحدثت عن الدكتور عبد الوهاب عزام فى أكثر من كتاب، وقد قلت فيما قلت عنه: إنه كان من دعاة الإسلامية الواعية أينما حلّ، وقد درس لغات المسلمين من فارسية وأورْدية وتركية، لا ليجلس أستاذًا بمعهد اللغات الشرقية، بل ليدرسَ آمال المسلمين وآلامهم فى كل بقعة، وليفصح عنهما بما يملك من بيان وليقدّم أعلام المسلمين ونتاجهم الحافل إلى اللّغة العربية، كما قدم محمد إقبال، ومحمد عاكف، وعبد الحق حامد، والجامى، والعطار، مُترجماً وشارحاً ودارساً، وقد كان رئيسًا لرابطة الأخوة الإسلامية بالقاهرة، وكانت تجمع ممثلين مستنيرين لشتّى الدول الإسلامية، كما كان عميداً لكلية الآداب بمصر، فسفيراً لها بالمملكة العربية السعودية، والباكستان، ولقى الله وهو مدير لجامعة الرياض بالسعودية.

هذا بعض ما قلتُه عن الرجل تعريفاً به، وأريدُ الآن فى حديث الذكريات أن أسرد بعض مايتعلق به من مواقف رأيتُها رأى العيان، وكان لها أثرها القوى لدىّ.

أوّلَ مارأيت الدكتور عزام رأيتُه فى دار الحكمة بالقاهرة، حيث كان يُلقى درسًا من دروس التفسير القرآنى فى حْلقهِ علمية نظمها الحاج يعقوب عبد الوهاب أسبوعيا، وكان موضع التفسير هو الآيات الكريمة فى أول سورة الروم المبتدئة بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الروم الآية ١ : ٥.

حيث ذهب الدكتور فى تفسيره مذهبًا جديدًا لا عهد لنا به، إذ ذكَر أنّ ما قاله جمهورُ المفسرين من أنّ فرح المسلمين بنصر الله سيكون حين يغلب الرُّوم الفُرْسَ بعيدٌ غير محتمل، لأنّ المسلمين لا يعْتبرون نصرَ الروم على الفرُس مصدر فرحٍ وبهجة، وهم عدوٌّ لهم، تحرشُوا بهم، وتعالوا عليهم هازئين، ثم إنّ الآية تقول: «وعدَ الله لا يخلف الله وعده» والوعْد لمـن يعـودُ إليـه الخيـر منـه، ولـم يكـن لا نتصار الروم أدنى خير يعود على المسلمين.

ثم قال الأستاذ الدكتور ما ملخصه، لقد رجّحتُ أن هزيمة الروم التى اهتّم بها العرب حين نزلت الآيات الكريمة وقعتْ حوالى سنة ٦١٥، والنصرُ الذى سيفرح به المؤمنون ويعدّونه نصراً من الله هو انتصارهم فى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة، أى سنة ٦٢٤، وبين سنة ٦١٥، وسنة ٦٢٤ بضع سنين، فكأنّ معنى الآية الواضح هو هذا: حين يتحقق نصرُ الروم سيتحقّق لكم، أيها المسلمون انتصار من عند الله تفرحون به، وقد وَعَدكم الله بهذا، ولا يخلف الله وعده!

هذا لبابُ ما قاله الدكتور فى تفسير الآية، وقد استمَع إليه الخاصةُ من العلماء، فرأوْا فيه ما يدعو إلى التأمل، ومالت الكثرة منهم إلى تأييده، وكانَ من الغريب أن تمضى عشرون عامًا على إذاعته، ونشره بمجلة الرسالة، ثم يقوُم عالم فيدّعيه لنفسه فى حديث إذاعىّ، وقد دَفعنى الواجب العلمى إلى كتابة مقال أردّ به الرأىَ إلى صاحبه، مستندًا إلى مجلة الرسالة، لأنّ الحديث الشفوى فى محاضرة عامة قد يتعذر إثباتُه والاقتناع به عند من ينتحل أقوال سواه، وكمْ رأينا فى هذه الأيام من أقوال تُغتصب بعد رحيِل أصحابها، ولكنّ الحق يعلو فينكشف الزيف.

اللغة الفارسية:

حين تقرّرَ انضمامُ طلبة كلية اللّغة العربيّة إلى معهد التربية، أُضيف بعضُ الموادّ الجديدة إلى المقررات بالكلّية، ومن بينها اللّغة العبرية، ولكنّ الطلاب أَبَوْا دراسةَ العبرية، وأحبوا دراسة اللّغة الفارسية لأنّها لغة إسلامية، وأبناءُ الأزهر جديرون بتعلّمها، فاتجه نفرٌ منهم إلى شيخ الكلية الأستاذ عبد الجليل عيسى، يَعرضون

رأيهم فى ضرورة تدريس الفارسية، فقال: إنّ اللائحة خيرّت الكلية بين اللُّغتين. ولكّن كلية الآداب ليسَ لديها من تُنبيهُ لتدريس الفارسية لدينا، فبعثتْ بمن يدرّسُ العبّرية هذا العام، ولو استطعتم مقابلةَ الدكتور العميد، وإقناعَه بانتداب أستاذٍ للّغة الفارسيّة، فهذا غيرُ مخالف للائحة، وكان كلام الشيخ بَاعثَ توجيه فَوريّ للطلاب، فذهبنَا إلى كلية الآداب، وكُنّا خمسةً من الزملاء، ونحنُ نتهيَّبُ لقاء الدكتور العميد، ولكنَا فوجئنا بأحْسنِ ما يكونُ من الاستقبال، إذ تركَ الدكتورُ عبد الوهاب عزام مكتبه، وجلس معنا كواحد منا، ثم استمعَ إلى ما قلناه فى ابتسام مشجّع، وقالَ بعد أن فهم المراد، أصارحكُم بشئ فى نفسى، هو أنّ اللّغة العبرية الآنَ أصبحتْ ضرورةً قُصوى لنا، لأنّها لغةُ عدوّ يحتل أرضنا، ويشنّ على العرب غاراته الظالمة، ولابد أن نتعلم لغته، ولنسْتطيع أن نفهم إذاعته، ونقرأ صُحُفه، لأنّ من تعلّم لغة قوم أمِنَ مكرهم، ولعله توفيقٌ من الله أن أرسلْنا أستاذاً للّغة العبرية إلى الأزهر، فإذا استمعتْم نصيحتى فقد أَبدْيتُها، ونظَر بعضُنا إلى بعض نظرات المقتنع المؤيد.

ولم يشأ الدكتور عزام أن ينهىَ المجلس، ولكنّه استطرد فذكَر أنّه كان أستاذًا بكلية اللّغة العربية فى العام الأول لإنشائها، وأنّ الملك فؤاد رحمه الله قد زار الكلية، واستمع إلى درْسه بها حين مرَّ بالسّنوات المختلفة مع فضيلة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية حينئذٍ، وأنه آنسَ لدى طلاب الكلية ذكاءً وقدرة على الاستيعاب، وبراعةً فى النقاش، ثم قال إنّه فى العام الماضى كَتَب مقالاً عن البطل الأندلسى المنصور بن أبى عامر، ودعَا الشعراءَ إلى تخْليد بطولته بقصائد تُثير الحميّة وتُلهب الهمّة، فلم يستجبْ غير طالب بكلية اللّغة العربية نَسِى اسمَه، إذ أرسلَ إليه قصيدةً عن المنصور تُعتبر من عُيون الشعر الإسلامىّ، وهو يحتفظُ بها فى أوراقه، وسيعملُ على نشرها! ثم ودّعنا فى اعتزاز.

ذَهْبنا إلى الكلية مقتنعين بقول العميد، وكانَ من هدفى أنْ أبحث عن الطّالب الذى أرسل القصيدة إلى الدكتور العميد، وأنَا أعرف الزملاءَ من شعراء الكلية

معرفةَ مودّةٍ ومسامرة، فأخذتُ أسألهم واحدًا واحدًا حتى علمت أن صاحبَ القصيدة هو زميلى الأستاذ يوسف زاهر، فأحْببتُ أن يطلعنى عليها، فاستجابَ مُرحِّبًا، وأسمعنى شعرًا صادق الإحساس والتصوير، فنقلتُ القصيدةَ مُعتزا، وأذكرُ من أبياتها قولَ الأستاذ يوسف زاهر فى حالِ الأندلس قبل سيطرة المنصور:

ذابتْ مهابتُهم من عينِ واترِهم | كما يذُوبُ بكأس الشارِب الحَبَبُ
لولاَ محمدُ وافاها على عجلٍ | والريُح عاتيةٌ والموج مضطربُ
لغيرّ الريُح مجراها ولارتطمتْ | ألواحها بصخور شادها العطبُ
لم يَثْنِهِ عن حِمَى أعدائه مرضٌ | ولم يثبطه عن نَيْلِ العُلاَ نصبُ
قد يخمدُ الجسمُ من كدٍّ ومن تعب | وجمرة الروحِ فى الأحشاء تلتهبُ

لقاء عابر:

ومضى أكثرمن عام، وصادَف أن مرضتْ عينى بالرمد قُبيل الامتحان بالسنة النهائية، فتألمتُ كثيرًا، ورفّهتُ عن خواطرى بقصيدةٍ تصّور أشجانَ طالب سيتقدّمَ للامتحان بعد شهر، وهو لاَيستطيع أن يقرأ، وبدا لىَ أن أنشرها بمجلة الثقافة التى تُشجعنى تفضلا، فذهبتُ إلى إدارتها بشارع الكرداسى، ومِن حظّى الحسن أنْ وجدت الدكتور عزّام يجلسُ فى حجرة رئيس التحرير وحده، وقال إنه حضر بمقالٍ للنشر، وسألَنى عن مقصدِى، فذكرته أوّلاً بلقائنا فى مكتبه، واحتفائه بنا ثمِ طلبَ أن أُنشد القصيدة التى جئت لِنشرها، فقرأتهُا متهيبا، لأنى أعرفُ أن العميد ناقدٌ دارس، وكان مما قلت:

أعدّ دروسى وَهْى فوقى كصخرة | أناخَتْ على صدرى فَنُؤْتُ بها حَمْلاَ
أصول تلاقت بالفروع فأشكلتْ | وأُقسم لا فرعًا فهمت ولا أصلا
كأنّى منها دوُن ذروة شاهقٍ | أحاول أن أرْقَى فلا أجد السبلا
هب اللّغة الفُصحى ستُلقى زمامها | إلىَّ بما كابدتُ فى فهمها قبلا

فمن لىَ بالعبرىّ وهو طلاسمٌ كما رقمتْ عرافةٌ تضرب الرملا

عجبتُ لهم جاءُوابها أعجّميةً وقالوا بيانٌ يُمتع الروح والعقلا

إذا صحَّ ما قالوا فإنّ انتسابها لصهيون يُلقيها إلى الوهدة السفلى!

وما كادَ الدكتور يسمعُ حتى ضحك، وقال: أنا السببُ فى إقناعكم بتعلّم اللّغة العبرية! قلتُ لو لم تكن العبرية لكانت الفارسية! ثمّ أخَذ منّى القصيدة، وكتبَ عليها متفضّلا، أرجُو أن تُنشر سريعًا، وفُوجئت بنشرها فى العدد القادم بدون إبطاء..

مسجد حلوان:

أنشأ الدكتور عبد الوهاب عزام مسجده بحلوان، ليجمعَ الصّفوة من مفكرى المسلمين، إذْ يتيسر لقاؤهم بعد صلاة الجمعة حين يكونُ صاحب المسجد بمصر، وكنتُ أسعد كثيرًا بلقاء الأستاذ بعد الصلاة، حين يجتمع حولَه أصدقاؤه وتلاميذهُ فيفيض فى أحاديث العالم الإسلامى المعاصر، لأنّ زياراته المتابعة لشتّى ربوع الإسلام الحنيف جعلْته ذا إلمام مباشر بما تموجُ به الأحداث، وقد كتَب رحلاته فى جُزأيْنِ كبيرين يَتَضَمنانِ خُلاصةَ مَشَاهدة بأسلوب رصين لا يَنقُصه البريق الأدبى فى بعض خطراته. ومنِ مجلسه العَامر، عرفتُ تاريخ شخصيّتين نابهتين، إحداهما شخصيةُ الداعية الإسلامى الكبير عبد الرشيد إبراهيم الذى كان نظيرَ جمال الدين الأفغانى فى تجواله ببلاد الإسلام النائية ليرفع كلمة الله، إذْ نشأ الداعية فى حُكم روسيا القيصرية ذات الجبروت العاسف بالمسلمين، فقاومَ هذا الجبروت ما استطاعَ، ثم رحل إلى تُركيا والهند والصين، لنشر كلمة الإسلام، واستقرّ أخيرًا باليابان فاعتنق الإسلامَ على يده عدةُ ملايين، واستطاعَ أن يبنى مسجدًا بطوكيو يكونُ مركز إشعاع لمن يعتنقون الإسلام، ثم دأبَ على أن يؤم الناس فى جماعة الفجر، فإذا فرغَ من الصلاة جمعَ أطفال المسلمين لُيقرئهم كتاب الله، ويعلّمهم فرائض الإسلام، ويراجع الكرّاسات الصغيرة بخطّ التلاميذ! ثم

قالَ الدكتور عزام، أليسَ من العجيب أن يكتب عبد الرشيد إبراهيم كتابًا قيماً عن رحلاته فى بلاد الإسلام، فيترجمَ إلى اللغاتِ الأوربية، ولا يُترجم إلى العربيّة، وهو أجدرُ باهتمامِنا مِنْ رحلة ابن بطوطة التّى اشتهرت فى الآفاق، لأنه يكشف حاضرَ المسلمين، ويرسم الطريق للمستقبل؟!

أما الشخصيُة الثانية فهى شخصية الشيخ خليل الخالدى الذى جابَ جميع العواصم الإسلامية شرقًا وغربًا، ليبحث عن التراث المخطوط فى دُور الكتب، ومنازلِ العلماء، حتّى أصبح أكبر عالم فى المخطوطات، فإذا حدّثْناه عن كتاب ما، ذَكَر أماكنَ أجزائه المبعثرة فى مكاتب الشرق والغرب، فيقولُ الجزء الأول مثلا بمكتبة الآستانة، والثانى بالمغرب، والثالث بالقاهرة، وكل ذلك من مَحفوظه لا من كتابِ بين يديه، وعن طريقه اهتدى الناشرون إلى جمع أجزاء متناثرةٍ من كتب قيمة، وله خبرةٌ بخطوط العلماء فى شتى العصور، إذ عَرف رسمهم الكتابى معرفة الخبير الفاحص، وأذكُر أن الأستاذَ قد كتبَ عنه أكثر من مرة فى المجلات العلّمية، ولكنّه لم يترك الحديثَ عنه فى كثيرِ من مجالسه، وهكذا كُنّا نظفر بالرائق المستطاب من حديث الدكتور فى مسجد حلوان.

أمنية لم تتحقق:

حين عُيّن الدكتور عزام مديرًا لجامعة الرياض ليقومَ على إنشائها بخبرته العلمية، واهتمامه الإسلامى، رشّحَ الأستاذ الزيات للقيامِ بعدّة محاضراتٍ بقسم اللّغة العربية بكلية الآداب هناك، وقد تَباطأ الأستاذ الزيات معتلا بتقدّم السن، وتأخر الصحة، فأشار عليه الدكتور عزام أن يختار من تلاميذه من يقومُ بمهمة المدرس المساعد، فينوبَ عنه فى إلقاء بعض المحاضرات بعد توجيهه إلى المراجع، وطريقة البحث، وشاءَ الزيات أن أكون أنا المدرّس المساعد، فكتب إلىّ، وكنتُ مدرسًا بثانوية أبو تيج، ففرحتُ كثيرًا، وقابلتُ الدكتور عزام فغمرنى بعطفه المشكور، ولكنّ الرياح قد جاءتْ بما لاتشتهى السفن، حيثُ اعترض الأمْن بوزارة الداخلية على اسمى، إذ كنتُ محرّرًا بمجلة الإخوان المسلمين من قبل! ولم

يستطع الدكتور عزام أن يُذلّل الصعوبة القائمة، فقابلنى ليقول إن الغد مخبوءٌ لا يُنظر، وقد يُهيئ الله من الفرص الممتازة مالايخطُر على بال، ومَنْ يدرى لعلّكَ تصبحُ أستاذًا فى جامعتك! قالها، ولا دليلَ يؤكد، ولا بارقة تشير، وكأن السّماء كانت تستمع، فجاء الغد بما يحقّق أملِ الأستاذ! وأذكرُ أن الأستاذ الزيات أُصيب بنوبةٍ من نوباتِ الروماتيزم، فاعتذر آسفًا، ولم تسعدِ الرياض بزيارته.

ثم انتقلَ الدكتور عزام إلى رحمة الله، وقد بَقى حديثه عاطرًا يتردُّد نافحًا بالعبير، أذكر أن الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب كأن أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وكنتُ أزامله بكلية اللّغة العربية هناك، فكنا نتحدّث كثيرًا عن أعلام الفكر فى مصر، وجاءَ حديثُ الدكتور عبد الوهاب عزام، فذكَرَ لى الدكتور يحيى أنّه سعد بالتلمذة له، ثم بزمالته، وكانَ رئيسًا لقسم اللغات الشرقية الذى ينتمى إليه الدكتور الخشاب، فتَقَدّمَ اثنان من الزملاء أحدهما الدكتور يحيى لنيل درجة أستاذ مساعد ليرشح القسمُ أحدهما، وفؤجىء الدكتور الخشاب بأنّ الدكتور عزام قد اختار زميله، فأضمر فى نفسه عتابًا صامتًا، ولكنَّ الدكتور عزام قال له: سأتناولُ مَعَكَ الغداء فى منزلك يايحيى، ثم ذهبَا معًا إلى البيت، فصلّى عزام الظهر، وتناولَ الغداء مع الأسرةِ، لأنّ الدكتورة سهير القلماوى تلميذةُ الدكتور عزام وزوجةُ الدكتور يحيى، فليست غريبة عن أستاذها، وبعد أنْ فرغا من الطعام قال عزام: زميلك يايحيى أقْدَمُ منك فى التعيين بشهر واحد، وأنتما مُتساويان فيما عدا الأقدمّية التى رَجَح بها، وستكونُ أنت المرشح الأول فى وقتٍ قريب، فاطمئن، هذا ما سمعتُه من الدكتور يحيى فجعلته خاتمه هذه الذكريات!

***

الأستاذ محب الدين الخطيب

رأينا في هذا القرن الحافل بأحداثه أناسًا يحملون على كواهلهم أعباء العالم الإسلامى، فما تجد مأساة من مآسى الاستعمار فى شتى ربوع هذا العالم الممتد إلاّ كانوا فى طليعة المناصرين، ومقدّمة المساندين، ومن هؤلاء شكيب أرسلان، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، ومحب الدين الخطيب الذى أعنيه بذكريات اليوم، فعلى مدى ستين عاماً تحفل بالأحداث الكبار كان محب الدين يجاهد بقلمه ولسانه وماله فى إذكاء الروح الإسلامية المتوهجة بالحماس، وقد كتب فى المؤيد ما أراد، ثم انتقل إلى الأهرام فلم يجد المجال الفسيح، فأنشأ مجلتى الزهراء والفتح، ليفسح المجال أمامه فيكتب ما يريد بدون سيطرة من رئيس تحرير يتحفظُ ويجامل ويصطنع الكياسة فى مهب الأعاصير، ثم انتقل فى أخريات جهاده إلى رئاسة التحرير بمجلة الأزهر، وفى مهمته هذه سعدتُ بمعرفته، ونهلتُ من معينه.

عبد الرحمن الغافقى:

كنت قرأت ماكتبه الأستاذ جورجى زيدان فى روايته المبدعة (شارل وعبد الرحمن) مصورّاً فترة من فترات الجهاد الإسلامى بالفردوس المفقود، فأُعجبت إعجاباً رائعاً بسيرة البطل العربى الفذ عبد الرحمن الغافقى، وأخذت أبحث عن دراسة تاريخيّة خاصة بكفاحه البطولى، فلم أجد غير شذور متناثرة فى كتب التاريخ، ولكن إعجابى بالبطل الشهيد دفعنى إلى جمع هذه الشذور، وصنعت منها بحثًا متواضعًا، تقدّمتُ به إلى مجلّة الأزهر، وقابلت رئيس التحرير على غير معرفة، فلما قرأ عنوان البحث أشرق وجهه بالسرور، وصاح بى: لقد أحسنت كل

الإحسان فى اختيار هذه الشخصية المظلومة، فدعنى أقرأ ماكتبتَ أوّلاً، ثم مضى يقرأ المقال ودلائل القبول تكسو وجهه، حتى إذا فرغ منه، قال لى: سأنشره فوراً بدون إبطاء، وأرجو أن تسير فى هذا الميدان الموجّه، فتختار أمثال هذه الشخصيات الرائعة التى تنكب عن دراستها من يجمعون المتعارف عن المشهورين، ولا يسأمون أن يكرروا ما يعرفه تلاميذ المدارس، وكأنهم يتقدّمون بنادر عزيز! إنى أعانى كثيراً من أمثال هؤلاء، وقد طربت لاختيارك عبد الرحمـٰن الغافقى، وأنا أرشح لك أمثال عماد الدين زنكى، وقتبة بن مسلم، وعقبة بن نافع، والسلطان محمود الغزنوى، والنعمان بن مقرن، لتكتب عن كل بطل حلقة أو حلقتين فأسارع بنشرها بمجلة الأزهر. قلت: إنى أعتز باقتراحك وسأفعل إن شاء الله.

ولكن الرجل الكبير أعقب ذلك بقوله: لا تغفل المراجع الأولى، وأهمها تاريخ الطبرى، لأنى أجد بعض الكاتبين يكتفى بالكتب المعاصرة، وهى جدول لايغنى عن النهر، وعليك أن تعلم أن مثل الطبرى فى تاريخه كان ينقل كلّ ما يعلم فى الرواية الواحدة، ليضع أمام القارئ كلّ ما تناهى إليه، وهو بلاشك يعرف أن بعض ماكتب لم يبلغ مبلغ الصواب، ولكنه ذكره مع ما يعارضه من الروايات، ليضع أمام الباحث رسالةً صعبة، هى رسالة التخطئة والتصويب، والترجيح بميزان العقل الدقيق، حيث يختار من الروايات المتعارضة ما تشهد الدلائل بصحته، يقول الأستاذ محب الدين، وقد ابتلينا فى هذا العصر بمن يحتضن الروايات الرديئة وحدها، وينسج منها ثوبًا مشوهًا لأبطال التاريخ، فكن من هؤلاء على حذر، ثم ودعت الرجل، وقد بعث فىّ نشاطاً، وأوقد بين جوانحى همة تتطلّع إلى البحث البصير.

الزيارة الثانية:

كنت حديث عهد بالتخرج من كلية اللّغة العربية، وكنا نستعير من مكتبة الأزهر العامة بعض (الملازم) ونردّها عقب انتهاء العام الدراسى، ولأمر ما نسيتُ أن أرد ملازم النحو من كتاب الأشمونى بحاشية الصبان، فجاءنى خطاب يستعجل الردّ،

وبحثت عن (الملازم) المطلوبة فلم أجدها، فرأيت أن أزور مدير المكتبة فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغى، لآخذ رأيه، واستقبلنى الرجل قائلا: إنه يعرف اسمى، إذ يُطالع ما أكتب، ولذلك سيجعل هذه الملازم من المستهلك، وكنت قد قرأتُ له مقالا بجريدة الأهرام يرثى فيه الأستاذ محمد فريد وجدى بعد رحيله إلى جوار ربّه، فأثنيتُ على المقال، وهو حقيقة يستوجب الثناء، ففاجأنى الأستاذ بقوله: إنه كتب المقال لمجلّة الأزهر، ولكن الأستاذ محب الدين تشدّد فى رفضه، وأبى أن ينشره، فلم يجد بدا من إرساله إلى الأهرام، فسارعت بنشره، على غير ماكان يظن!

دهشت كثيرًا لما كان من رفض الأستاذ محب! وكان مقره على خطوات من مكتبة الأزهر، فسارعتُ إلى لقائه واستقبلنى الرجل مُرَحِّبًا، وقد ظن أنى أحمل مقالا جديدًا، ولكنى قلت له: إننى علمت أنك رفضت نشر مقال فى رثاء الأستاذ وجدى، وهو رئيس تحرير مجلة الأزهر لمدة عشرين عامًا، وجهاده الشاق فى الحقل الدينى يجعله فى مقدمة زعماء الإسلام فى العصر الحاضر، فلماذا؟

تغيّر وجه الأستاذ فجأة، وقال: أنت لاتعرف فريد وجدى، إنه ناصر الكماليين فى تركيا، كما أنه فى بعض كتاباته الأولى قال إن الإسراء كان بالروح ولم يكن بالجسم، فكيف أترك صفحات المجلة للحديث عن مثله، لقد رثيته بالعدد الماضى فى عدة سطور وهذا يكفى!

ولا أدرى كيف انفعلتُ كثيرًا لما لم أكن أتوقع سماعه، فعلاصوتى، وأنا أقول: إن الأستاذ وجدى قد ناصر الكماليين فى مبدأ الأمر، لأنه كان يجهل حقيقة ما يبيّتون، وكذلك كان أحمد شوقى، فقد مدح مصطفى كمال بعدة قصائد، ثم رأى من أفعاله ما دعاه إلى الهجوم عليه، وقال بصدد ذلك:

مالى أطوقه الملام وطالما ... طوقته المأثور من أمداحى

الحق أولى من وَلِيِّكَ حُرمة ... وأحقّ منك بنصرة وكفاح

فهل يُلام شوقى أو يلام وجدى؟ أما الإسراء بالروح فقول ذهب إليه بعض السلف، فإذا قال به الأستاذ وجدى فهو تابعٌ لامتبوع، على أنك قلْتَ إن هذا رأيه فى كتاباته الأولى، ومعنى ذلك أنه لم يعد رأيه أخيرًا، ثم سكتُّ قليلا، فلم أستمع رَدا مًّا من الأستاذ محبّ، فاستدركتُ أقول: لقد ألّفتَ يا أستاذ كتابًا عن الشاعر الهندى (طاغور) ملأتَه بتقريظه، أفلا يكونُ وجدى مثل طاغور، وله جهاده المشّرف؟

ثم إنك تجلس اليوم مكانه بالأمس! واستأذنتُ منصرفاً بدون أن أسمع جوابًا.

حَذَر وارتقاب:

رجعتُ إلى المنصورة، وأنا نادم على لهجتى الحادة، التى واجهتُ بها أستاذًا كبيرًا له حق الرفق والتؤدة، وقلت فى نفسى: كان من الممكن أن تفصح عن وجهة نظرك بغير هذا الأسلوب الذى أثار الأستاذ فبدت دلائل الغضب فى وجهه بدون أن ينطق، ثم أخذتُ أرسل له مقالاتى بالبريد، متوقّعًا أن يتلكأ فى نشرها، ولكنه (شَهِدَ الله) كان يُسارع فى النشر بدون إبطاء، فأدركتُ أنّ روحه عالية، وأن غضبه كان وقتيا فحسب، وهكذا النفوس الكبيرة لاتحفل بما يكون من خلاف مُنزه عن الغرض، إنما يسىء المنقود كل الإساءة أن يعلم أن ناقده مغرض غير نزيه، فإذا انتفى ذلك عنه فى رأيه فإنه سيعفو عمًّا يصحب النقد من شطط متسرع، وهكذا فعل محب الدين.

ثم جاءنى بالبريد خطاب منه، يعلن فيه أن مجلّة الأزهر ستصدر عددًا خاصا بمهاجمة فكرة الدكتور طه حسين التى دعا فيها إلى إلغاء التعليم الابتدائى والثانوى بالأزهر، وسماها (الخطوة الثانية) باعتبارها تالية للخطوة الأولى، وهى إلغاء المحاكم الشرعّية، والحق أن الأزهر جميعه قد ثار لهذا الاقتراح، وشاء رئيس تحرير مجلّة الأزهر أن يصدر عددًا قويا خاصا بمهاجمة هذه الفكرة، فكتب لأُناس من الفضلاء يرجو إسهامهم فى التحرير على وجه سريع، ولا أدرى لماذا تقاعستُ عن إجابة هذا المقترح حينئذ، مع أنى أعارض فكرة الدكتور طه حسين، والحقيقة أن الإنسان فى بعض أحيانه يعانى من الجفاف الأدبى مما لايسمح له بمواصلة الكتابة،

فقد تأتى عليه مدة تطول أو تقصر بدون أن يكتب سطراً واحداً، وقد يؤلف كتابًا جيداً فى شهر واحد، وكان من الواجب أن أعتذر للرجل شاكرًا تكرمه باختيارى، ولكنّى قدرت أنى سأكتب فى آخر لحظة، ومرّ الوقت بدون جدوى، ثم ظهر العدد حافلا بمقالات أكثرها موضوعى، وقليلها استهلاكى، فسعيت إلى لقاء الأستاذ معتذرًا باشتغال الخاطر بأمور خاصة حالت دون الاستجابة، فوجدتُه سهْلاً وديعًا يُسارع إلى قبول الاعتذار فى تسامح، وقد تشقق الحديث حول اقتراح طه حسين، فقال الرجل إن طه حسين أخذ كثيرًا من نشاطه الأدبى، إذ كانت آراؤه فى أكثرها تصدم مشاعره منذ نشر كتابه عن الشعر الجاهلى، ودعا إلى أن تكون مصر مصرية فحسب، ونادى بالتعليم المختلط فى جميع المراحل، ثم ابتسم ابتسامة تنم عن ذكرى سعيدة خطرت له أتبعها بقوله: لقد كتب طه حسين بحثًا ينكر فيه شخصية مجنون ليلى ويعده شخصية أسطورية لا وجود لها، لأن الروايات الأدبيّة تقول عنه أشياء متضاربة، فهو مّرة نجدى، وأخرى تهامى، ومرّة تزوج بليلى، وأخرى حرم لقاءها، ومرة جُنّ وأخرى عقل، وهذه المتناقضات فى رأى طه حسين تدل على أنه غير موجود فعلا، وأن الرواة قد اخترعوا أخباره فجاءت متناقضة، ثم جاء الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى فكتب مقالاً رائعًا يزن فيه طه حسين بميزانه الذى وزن به مجنون ليلى، فقال: سيأتى بعد عدة قرون من يزعم أن «طه حسين» غير موجود، لأنه فى بعض الروايات أزهرى يلبس العمامة، وفى بعضها مطربش تخرج من الجامعة، وهو فى بعض الروايات عالم دين يحفظ القرآن، وفى بعضها متفرنس تخرج من جامعة باريس، وهو فى آثاره السياسية مضطرب الاتجاه، مرة يهاجم حزبًا، ثم فى مرة أخرى يكون داعية له، وكل هذه المتناقضات تدل على أنه لم يوجد، وإنما اخترع الرواة قصّة وجوده، يقول الأستاذ محب الدين ماكدتُ أرى هذا المقال الممتاز حتى ساعدتُ على نشره فى أوسع نطاق، فنشرته بمجلة الزهراء، وبمجلة الفتح، وبمجموعة الحديقة التى أصدرت منها ثلاثة عشر جزءاً، ثم لم يشفنى هذا فنشرته فى صفحتين كبيرتين، ووزعتهما بالمجان مع بائعى الجرائد، لأنّ فكرة المازنى تهدم كل آراء طه حسين إذ قامت على تَصيّد المتناقضات.

أغراض الاستشراق:

ظهر كتاب يتحدث عن التاريخ الإسلامى فى عهد النبوة لمدرِّس جامعى حشاه حشواً بأفكار المستشرقين ممّن لم يسلموا من المنحى التبشيرى، وفيه ما يؤلم الحقيقة، إذ خاض المؤلف بالباطل فى الفتوح الإسلامية، والروح العربية، وقد تعرض الكتاب لنقد موضوعى عصف به، فحبّب لى أن أكتبَ مقالاً عن أغْراض المستشرقين، أشرت فيه إلى نماذج من سقطاتهم المنكرة، وأتبعتها بما قيل فى ردّ هذه المفتريات، وظهر المقال بجلة الأزهر مشفوعًا بتعليق مستفيض كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب، مؤكدًا أن المستشرقين عيون الغرب فى الشرق، وقد قام الاستشراق لتعريف الدول الغربيّة بالنواحى التى لايستطيع الإلمام بها رجال السياسية فى وزارات الاستعمار، وهم يتفاوتون فى اتجاههم التبشيرى، فمنهم القسيس المتعصب، كالأب لامنس اليسوعى، ومنهم من يحارب الإسلام بعواطفه اليهودية، كالمتنصر مرجليوث، وليسوا جميعًا فى هذا المستوى، وأفاض الأستاذ الخطيب فى تعليقه إفاضة تدل على اهتمامه بالمقال، فرأيت من الواجب أن أشكره، وتوجهت لزيارته بإدارة مجلّة الأزهر، فنهض للقائى حين وقعت عينه علىّ، وقال: إنّ مقالى عن المستشرقين يجب أن يُذاع على أوسع نطاق، لأن مجلة الأزهر محدودة الانتشار، وأنه أرسل صوراً منه إلى بعض أصدقائه من رؤساء التحرير فى مكة، ودمشق، والرباط، وبغداد، ليجعلوه من مختاراتهم التى ينشرونها فى صُحفهم! فتأثرت كثيراً بما قال، وشكرته معترفًا بصدق يقينه، وودعته مسروراً مغتبطًا.

إزالة شبهة:

انتقل الأستاذ من رياسة مجلة الأزهر، وتفرغ لعمله الحر بالمطبعة السلفيّة، فمضت مدّة كبيرة لم أسعد بلقائه، ثم صادف أن ذهبت إلى جزيرة الروضة لزيارة صديق يسكن بجوار منزل الأستاذ، فدفعنى حنين إلى لقائه، ووجدته بجلبابه الأبيض يقف بين العمال فى المطبعة، سائلا عن بروفات كتاب يقوم على نشره، وما إن رآنى، حتى صاح: ياأستاذ رجب، تعالَ أُسْمِعْكَ أعجب الأنباء، زارنى اليوم طالب بكلة أصول الدين وأخبرنى أن أستاذه بالمدّرج شتمنى ورمانى بالجهل!

لوكنتُ تعرضت للاهانة فى كلّية إلحاديّة من الكليات التى أحارب أدعياءها، ماتملكنى الغضب، ولكن بعد هذا الجهاد المرير أُسَبُّ فى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر! قلتُ: تأكَّد أن الّذى نقل لك هذا الهراء غير أمين، فكل الأزهريين يعرفون مكانتك الرائدة فى دنيا العلم والصحافة والأدب، وسأبحث الموضوع فوراً وأتصل بك.

وفى اليوم التالى ذهبت إلى كلية أصول الدين، وقابلت الأستاذ الدكتور عبد الغنى الراجحى، وأخبرته بما حدثنى به الأستاذ محب الدين، فقال متعجبًا: لايُعقل هذا، ثم صحبنى إلى حجرة الأساتذة وصاح بصوته الجهورى: مَنْ منكم تعرّض للأستاذ محب الدين فى محاضراته، فرأيت شيخًا مهيبًا يبتسم، وقال: هو أنا، فسارعت أقول له: إن الرجل غاضب لشتمك إيآه، فقلّب كفّيْه دهشًا، وقال: محب الدين بمنزلة أستاذى فكيف أشتمه؟ لقد خالفتُه فقط، إذْ كنتُ أدرس حياة أبى الحسن الأشعرى، وقررتُ أنّه عدل عن مذهب الاعتزال إلى مذهب يجمع بين طريقتى السلف والخلف وإليه ينتسب الأشاعرة جميعًا، فقال أحد الطلاب: إن الأستاذ محب الدين قد قرّر فى بعض بحوثه أنه رجع إلى عقيدة السلف وحدها، فقلت: إنّ الاستاذ محب باحث فاضل، ولكنه غير متخصص فى كُتُب العقيدة، وطالبتُ الطالب أن يعرض علّى ما قال الأستاذ محب، فوعدنى ولم يفعل للآن.

اتصلتُ تليفونيا بالرجل من الكليّة، وأخبرته بما سمعت، فشكرنى، ولكنه قال: إنه يتمسّك بما قاله الطالب من رجوع الأشعرى إلى مذهب السّلف، إذ إنّ آخر كتاب ألّفه وهو كتاب (الإبانة) يدل على سلفيته الخالصة، والآراء بالخواتيم، فرجعتُ الى الشيخ الجليل وأخبرته بردّ الأستاذ، فقال لابدّ من بحثٍ جديد لكتاب الإبانة، مع المقارنة بينه وبين كتاب (اللّمع) الذى يُعتبر أساس المذهبً الأشعرى.

وكانت زيارة المطبعة هى آخر مرة أرى فيها الداعية الغيور محب الدين، إذ انتقل إلى جوار ربه، تَاركاً آثاره الناطقة بفضله، وقد تنوعَتْ ميادينها لتلتقى فى مركزٍ واحد، هوَ خدمة الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى اتحاد بلاد الإسلام.

* * *

الشيخ محمد الغزالى

الشيخ محمد الغزالى من أكبر دعاة الإسلام فى هذا العصر، إن لم يكن أكبرهم جميعًا! فإنه يملك مع روعة البرهان وقوة الإيمان، وصلابة العقيدة أسلوبا حَارا يتوهج حمية، ويلتهب غيرة، أسلوبًا يملك مشاعر المستمع حين يكون الغزالى خطيبًا، ويأسر عواطفه حين يكون الغزالى كاتبًا، وهو من الأستاذ حسن البنا رضى الله عنه بمنزله محمد عبده من جمال الدين الأفغانى، إذ شرح أصول فكرته، وحلّل عناصر دعوته، وأيد مسعاه بالفكر المستنير والرأى الصائب، وقد رزق الله مؤلفاته حظوة بالغة لدى الخاصة والعامة، فكونت مكتبة إسلاميّة تقف فى وجه الطوفان الزاحف من بلاد العداء الصارخ، فتكتسح الباطل وتنصر الحق، وكان من حظى أن أتابع هذه المؤلفات وأن أكتب عنها فى تقدير وإجلال، إذ كنت أستضىء بنورها فى كل اتجاه، وقد نشرت بعض ماكتبت عن مؤلفات الأستاذ فى الجزء الثانى من كتابى (من منطلق إسلامى) ثم عثرت على كتابات أخرى سأحاول نشرها فى مجموعة تالية، ومن بينها ما نشرته بمجلة الرسالة العدد (٩٤٥)، بتاريخ ١٣/ ٨/ ١٩٥١، عن كتابه (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، حيث كان هذا الكتاب صيحة عالية تواجه من يحاربون الشيوعية لحساب الرأسمالية باسم الإسلام، ومن يحاربون الرأسمالية لحساب الشيوعية باسم الإسلام أيضًا، والإسلام ـ كما يقول الأستاذ ـ ينظر إلى الرأسمالية والشيوعية معًا نظرة عداء واحتقار، لأن له نظرته المستقلة التى تعمل على إسعاد البشرية جميعًا فى ظلال صادقة من الإخاء والحرية والمساواة، وأذكر أنى قلت فى الخاتمة: «لقد فهم الأستاذ محمد الغزالى الفقه الإسلامى، وأدركَ أصوله ومنازعه إدراكًا يمده

الذكاء الثاقب، والنقد البصير، كما ألمَّ بمشكلات عصره، وعلل مجتمعه، وأخذ يستلهم السماء فى إصلاح الأرض، ويضمد بالوحى الإلـهى والهدى النبوى جراح الأمة الإسلامية الناغرة».

وأنا أقول الأمة الاسلامية عن قصد، لأن الداعية الكبير يحمل على كاهله هموم المسلمين فى كل مكان، شرقًا وغربا، فما يفجأ الناس حادث فى بلد ما من بلاد الإسلام حتى يكون أوّل الداعين إلى إقالة العثرة، ونصْرة اللهيف، لأن وطنه هو الإسلام حيث امتد ورفرف، وقد قال أحمد شوقى فى تقدير المجاهد الإسلامى الكبير عبد العزيز جاويش أبياتًا رائعة، تصلح أن تُقال فى جهاد الأستاذ محمد الغزالى، إذْ نَعَى الناس عليه اهتمامه بمصائب العالم الإسلامى، والناس هنا هُم الذين فى قلوبهم مرض، ممّن لايشعرون بأخوة الإسلام، وترابط المسلمين حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى، قال أحمد شوقى:

لقد نَسى القوم أمسِ القريب ... فهل لأحاديثِه من معيدِ؟
يقولون مَا (لأبى ناصرٍ) ... وللتُّرك ما شأنه والهنودِ؟
وَقيم تحمَّل همّ القريب ... من المسلمين وهمَّ البعيدِ؟
فقلت وما ضرّكم أن يقوم ... من المسلمين إمام رشيد؟
أتستكثرون لهم واحدًا ... ولّى القديم نصير الجديد؟
سعى ليؤلّف بين القلوب ... فلمْ يعدُ هدى الكتاب المجيد
وللقوم حتى وراء القفار ... دُعاة تغنّى ورُسْلٌ تشيد

فى السعودية:

ولا أستطيع أن ألّم بذكرياتى جميعها مع الأستاذ الغزالى، ولكنى أكتفى ببعض ما يلقى الضوء على ضروب من جهاده المتعدد الأنحاء، حيثُ ألمحتُ إلى مواقفَ

من نضاله فى مقال صادق كتبتهُ لمناسبةٍ ملزمة، فقد جاء الأستاذ الغزالى أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بعد أن اصطدم بأولى الأمر اصطدامًا مدويًّا حين خالف ما يُراد من تشريعٍ يخالف الإسلام فى شئون المرأة، فجهرَ برأيه الناقد، ثم رأى أن يستجيب إلى دعوة السعودية فنزلَ أم القرى علمًا بارزًا، ومصباحًا مضيئًا، وقابلَه ذوو الفضل مقابلة تليق بمقامه الجليل، ولكن نفرًا ممّن يحْسبون كلّ صيحة عليهم قد تحاشوْا لقاء الأستاذ، ظنا منهم أنّ الاتصال به يعنى منابذةَ أولى الأمر فى مصر، وقد علمتُ بذلك وأنا بالرياض أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود، فكتبتُ مقالاً صادقًا أُرحبُ فيه بوفود الأستاذ الكبير علينا بالسعودية، منتهزًا قراءة حديثٍ له بجريدة عكاظ، وبادرتُ بنشر مقالى بجريدة الرياض الصادرة فى ١٣/ ١٢/ ١٣٩٤هـ تحت عنوان (مرحبًا بالشيخ الغزالى) وفيه أقول:

«لقد سُئل الأستاذ عن عدد مؤلفاته فذكر أنها فوق الثلاثين، وأحبّ أن أوضح أن المسألة ليست مسألة عدد، فإن كلّ مؤلف للأستاذ يقوم مقام جامعة حيّة تُمتع العقل، وتلهب الشعور، لأن الكاتب ذو رسالة هادفة، فهو أحد القائمين بقلمه الباتر، ولسانه المؤمن على ثغرٍمنْ أكبر الثغور خطرًا ومهابة. يذود أراجيف الأعداء، فيبددُ أحقاد الصليبية الغادرة، والصهيونية الماكرة، فى عزيمة صارمة لاتعرف المهادنة، وأعداءُ الفكرة الإسلامية فى الشرق والغرب يرونه خصمهم الألد، فيحاربونه بكل سلاح، ولكن الله عز وجل يمده بالنصر، تأكيدًا لقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

نشأ الغزالى مجاهدًا، دائم الحركة، كان فى شبابه الأوّل يقف مع الإسلام أمام الانتهازية التى شوهت معانى الشريعة، فادّعت أن الإسلام يميل إلى الزهد والتقشف، وهؤلاء أُجَراءٌ من عبيد القلم، يؤيدون افتراءهم بالآية المحرّفة، والحديث المفترى، والتاريخ الكاذب، حتى جاءت مؤلفات الغزالى تشرق بنور

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

الإسلام فتوضح سياسته فى المال والعقار، مؤكّدةً حق المسلم فى التمتع بثمار الحياة، وبغى الظالم فى استنزاف الدماء وكسب الحرام، ثم جاء عهدٌ وجدت فيه الشيوعية الكافرة ألسنةً تهتف بمبادئها، ويسَمّى أصحابها بأسماء المسلمين، وقد سيطروا على منافذ الرأى، ووجدوا فى المنابر العالية، والجرائد الكبرى، والإذاعات العامّة ميدانًا لترويج الباطل، ثم رأَوْا من عَون الحاكم المتمكن ما مهدلهم طريق السيطرة والنفوذ، ولكنّ الغزالى حفظه الله يهتف فى الظلام بكفر الشيوعية، ولايجد فى بلده من يجرؤ على طبع مؤلفاته، فيتجه بها إلى غيرها من البلاد العربيّة، ليواجهَ الزحف الأحمر، مبيّنًا خطره على الإسلام، ومستهدفًا لأشق ضروب المعاملة، من مقاطعة، وإرهاق، والرجل صابر محتسَب.

ثم تزيد المسألة خطورة، فيتقدم العملاء بسمومهم القاتلة مرجفين بمبادئ الإسلام، ولكنّ الغزالى يصيح بهم فى أضخم المؤتمرات السياسية ليوضح ماضيهم القذر فى الوصولية والانتهاز، ورئيس الدولة يسمع، والتليفزيون والإذاعة تنقلان كلمة الإسلام على لسان الشيخ، فإذا الحقُد المسموم يدفع بعض الأغرار إلى التهكّم بالأستاذ فى صُور دنيئةٍ ظهرتْ بها جريدة الأهرام، فهاج لها الشعب المصرى أكبر هياج، وقمعت نفوس الأوغاء، حين عرفوُا أن الغزالى يتكلم باسم الأمة الإسلامية، لاباسمهِ وحده، فآثروا الانزواء.

بين محمد عبده والغزالى:

سُئل الأستاذ الغزالى فى حديث عكاظ عن الإمام محمد عبده ورأيه فى الشرق والغرب، فأجاب بما ألهمه الله من توفيق، ولست أناقش هنا كلام الغزالى عن الأستاذ الإمام، ولكنّى أعلن أن الغزالى قد صارَ بقوة الله وتأييده خليفةً للإمام فى الميدان، لقد واجه محمد عبده منذ قرابة قرن حقد الأوربيّين على الإسلام، فى وقتٍ كانت لهم السيطرة الباغية على أكثر بلاد الحنيفية الزهراء، وقد مكنت لهم قوتهمِ السياسية من الإرجاف بالإسلام على أوسع نطاق، فادَّعَوا له المثالب المفتراة، ورأَوْا أنْ لاصلاح للمسلمين إلاّ بهجر مبادئه التى تصادم العقل، وتعرقل أسباب الحضارة، وتصد عن العلم والثقافة، فانبرى الأستاذ الإمام ليبدّد هذه

الأراجيف بحجج نارية، تُلهب المفترين، جتى استطاع بمنطقهِ المفحم أن يوضّح قيادةَ الإسلام للإنسانية فى سبيلها الحضارى المشرق، فكوّن رأيًا عاما إسلاميا يقفُ أمام هذه المفتريات، فإذا هى هواء، ومضَى الأستاذ إلى ربه، فزادَ بغى الغرب، وكثرت فى بلاد الإسلام ذيوله، وعملاؤه، فجددوا الهجوم الآفل بسموم غير السموم التى كشفها الأستاذ الإمام، ولكنَّ الله قد هيأ الأستاذ الغزالى ليكون فى طليعة من يحملون الراية بعد الأستاذ الإمام، وكانت المعركة حامية الأوار، ولكنها انجلت عن ظهور الحق، ودحر البغاة.

ومضى المقال فى مثل هذه المعانى إلى أن قلت: إنى أُباهى بمواقف الغزالى الصّارمة فى وجوه الضلال، إذ هى نماذج تحتذى، وقد اتخذ من المنبر مذياعًا لنشر آرائه التى تحاربها جرائد الوصوليّين فلا تسمح بإذاعتها، مع أنها تُفرد فى الجريدة الواحدة صفحتيْن لأخبار من تجعلهم نجوم الفن والرياضة! إنّ المصريّين جميعًا يعرفون مواقف الغزالى الجبّارة على منابر الجامع الأزهر بالقاهرة، وعمرو بن العاص بالفسطاط، وغيرها من منابر عواصم المحافظات، وهى مواقف ردّت للمنابر الإسلامية اعتبارها، إذْ جعلهاَ الأستاذ ذاتَ رسالة إعلامية ساطعة، وما شُرعت الخطب يوم الجمعة فى الإسلام، إلا لتُؤدى ما أدّاه الأستاذ من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأعجب ما أعجبُ له أنّ هذا الشجاع الصائل فى مواقف الخطر، قد تولّى إداراتٍ شتى بوزارة الأوقاف، فكان بها نسيمًا رقيقًا يهبّ على أرواح الضعفاء مِنْ طالبى العوْن والإسعاف، وكم جلسَ الساعةَ تِلْو الساعة فى مكتبه المحتشد بذوى المطالب، ليعملَ على إنصاف مظلوم، أو تعْيين عاطل، أو معونةِ بائس، وإنّ عينه لتفيض بالدمع حين يجدُ من مظاهر العوز والحاجة مالايملكُ له دفعاً أمام اللوائح والقوانين، هذا الرقيق الباكى قد واجَه أعْتى العواصف جرىء القلبِ، شجاع اللسان دون أن يتهيّب، ومازال موقفُه النّارى مما زعموه حقوقَ المرأة يتردّد فى كل مكان، إذ وقف أمامَ رغبة طاغية تؤيدّها السلطة بما ملكت من نفوذ، وقد كانَ

يؤازرهُ فى موقفه أستاذنا الجليل محمد أبو زهرة رضى الله عنه، فوجّها البحث فى شئون المرأة وجهته الصحيحة، وإنْ ورِمَتْ أنوف، وتقلّصت شفاه.

هذا تركيزٌ لما جاء بمقالى فى الرياض تحية للقادم العزيز، وقد قرأه الأستاذ، وتفضل بكتابة رسالة إلىّ تحمل شذى أسلوبه المبين.

كرّة أخرى:

كان الرئيس أنور السادات قد هاجمَ الأستاذ الغزالى بضراوة، ونسبَ إليه من الجمود وحبّ الظهور والتطرف مالايتصل بالأستاذ فى شىء، وكانَ ذلك على ملأٍ من الأشهاد، حيث أُذيع حديث الرئيس فى التليفزيون والإذاعات المصرية، ونشرتْه الصحف اليومية، وتبرعَ بعضُها بالتعليق المؤلم للأستاذ مجاراةً للرئيس، وتزلفاً له، وهى روحٌ منكرة نعرفُها لدى من يجعلون الملق الرخيص سُلّم الوصول، غير عابئين بتَقزز الجمهور، وانكشافهم المخزى أمامه، وفيهمْ من يسمع ابنَه وأخاه وأباه ينكرون وُصُوليّته ثم لايخجل، لقد راعنى أن يُطمس الحق فى مصر على هذا النحو المتسع، فكتبتُ مقالاً هادئاً، بدأتُه بالثناء على الرئيس، ومباركة جهوده السياسية فى إعادة النّصر، ونجاح العُبور، ثم قلتُ إنه استمع إلى المغرضين الذين يبلّغونه الأباطيل، وهو زعيمٌ مثقف، يعرف دور الغزالى، كما يعلم أن اختلافَ الرأى شىء طبيعىّ، لذلك نرجُو أن يعيد النظر فيما قاله، متحريا تصحيح الحقائق بما تملكه الدولة من أجهزة كلها تأتمر بمشيئته، وذهبتُ مع صديقى الأستاذ الدكتور عبد الستار زموط الأستاذ المساعد بكلية اللّغة العربية بالقاهرة إلى جريدة الأخبار، على أملٍ أن تَنشر المقال، لأنّه يتضمن من الثناء على الرئيس ما يمنعُ شبهةَ معارضته، وقابلت الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف، وهو صديقٌ عزيز أشرفُ بصداقته، فقرأ المقال، ثم طَلَب أن أتركه معه لينشرَ خلال أسبوع على الأكثر، ومضى الوقت المحدّد بدُون جدوى، فذهبتُ إلى الأستاذ فهمى، فقال فى هدوء: لقد أدركتُ منذ قرأتُ المقال ألاَّ سبيلَ إلى نشره، ولكنّك كنتَ منفعلاً، فلم أشأْ أن أُشعل غضبك، وأرجُو أن تعلَم أن نجل الرئيس نفسه لايستطِيع أن

ينشر مقالاً يعارض فيه اتجاهه، ولعلَك تستمع إلى قولى فى هدوء، قلت: وأين المقال؟ قال: سأحتفظ به لدى، ليكونَ بعضَ ما أُدوّنه من ذكريات صحفية فى يوم ما، وقد لمستُ فى حديث الأستاذ روح الإخلاص الودود، فقبلتُ قوله مضطرا، وإن ساءَنى أن أُحرَم من إبداء شهادةِ حقٍّ، أتقدّم بها خالصة لوجه الله.

هموم داعية:

ألّف الأستاذ هذا الكتاب فى الثمانينيات، وأنا أعرفُ أن هذه الهموم ليستْ طارئةً عليه، بل بدأ يكابدها منذ امتشق القلم فى الأربعينيات، ولكنَّ الذى أحار لُه هو أنّ الداعية الكبير لايُحارب فى جبهة واحدة، بل فى جبَهْتَين متباينتين، لأنّ فريقًا من الذين لايفهمونَ الإسلام على وجهه الصحيح يُبيحون لأنفسهم أن يخطئوه بلا هدى ولا كتاب منير، وهمْ بعد ذوو غيرة إسلامية لاتنكر، وقد بذلَ الأستاذ فى نقاشهم جهودًا مضنية، كان الواجب أن يفرغَ منها كيلا تعوقه عن منازلة مَن يلحدون فى آيات الله بدون وازع، ولكن الأستاذ قد اصطلىَ بنارَيْن، وحارب فى معتركين، والله معه! فهو لايضيع أجر العاملين...

* * *

العلاّمة إبرهيم الجبالى

فوجئت بقارىء يكتب لجريدة الأهرام راجيًا أن يغيّر عنوان الشارع الذى يسكن فيه، فيطلق عليه اسم راحل مشهور من رجال الفنّ، وحجته أن الشارع معروف باسم من يُدْعَى إبراهيم الجبالى، وهو رجل غير معروف، ولا أدرى لماذا تسّرع الأستاذ أحمد بهجت فنشر خطاب القارىء الغافل فيما يكتب تحت عنوان (صندوق الدنيا) ونحمد الله أن تواترت ردود القراء تستنكر ما قاله القارئ، وتعلن أن فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم الجبالى رحمه الله، كان من أعلام عصره، فهو عضو جهير بجماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وشيخ لكلية اللّغة العربية بجامعة الأزهر، وبها مدرّج فسيح يحمل اسمه الكريم، وعضو بمجلس الشيوخ المصرى، وصاحب المؤلفات الدسمة فى التفسير والحديث والتشريع الإسلامى! وقد اختير لتحرير بابَى التفسير والحديث بمجلة الأزهر قرابة تسع سنوات صار فيها من أساتذة المجلّة الممتازين، هذا كله قد غفل عنه القارئ، ليؤثر بالشارع الذى يقطنه اسمًا من الأسماء التى ترتزق بالغناء! وهكذا يُغفل تاريخ الأفذاذ من النابهين.

أول لقاء:

كنت طالبًا بكلية اللّغة العربية، والأستاذ الجبالى عميدها، فبهرنا نحن الطلاب أن نجده يوالى زياراته للأساتذة فى قاعات المحاضرات، مُستمعًا ومناقشًا، ومفيضًا فى الشرح والتحليل على نحو يدهش، لأن الأستاذ لم يكن يتخصص فى علم واحد، بل كانت علوم الدراسة جميعها موضع درايته، فهو يناقش فى دروس النحو والصرف، والمنطق، والأصول، وفقه اللّغة والتاريخ، والأدب، مناقشة مَنْ وقف على أسرار كل علم من هذه العلوم، وكان الأساتذة وهم حينئذ من أفاضل

الباحثين يخشون مفاجآته، ويعدون الدروس إعدادًا مثمرًا يُراعى شتى الاحتمالات، كما كانت عادته الطواف بلجان الامتحان الشفوى، ليستمع الأسئلة والإجابة معًا، وإذا كان الأستاذ الممتحن يدقق السّؤال أمام العميد، فلا تسلْ عن موقف التلميذ، على أن الشيخ الجبالى كان عطوفًا رحيمًا، يعرف أن الطالب مبتدئ، ولا يُكلف بما لا يطيق.

وكانت الدراسة دراسة بمفهومها الصحيح، إذ يؤخذ الغياب اليومّى للطلاب، ويحاسب كلّ طالب إذا تأخر بدون عذر، على أن الذى يقبل العذر ويبتّ فى أمره هو شيخ الكلية نفسه، ومِن عادته أن يسأل الطلابَ أسئلةً علميّة، فإذا أجابوا سمح لهم بالتخلّف لأمد محدود، أمّا إذا أظهروا الجهالة فلن يأذن لهم بساعة واحدة، وقد اضطررت للتخلف ذات يوم، فذهبتُ إلى مكتب الشيخ باسطًا العذر فى طلب موجَز، فقال لى: اجلس يابنىّ، وكان معه جماعة من المدرسين، يصغون فى اهتمام، وابتدرنى قائلا: عليك بإعراب هذا البيت:

وكُلُّ رفيقى كل رَحْلٍ وإنْ هُما   تعاطَى القنا قَوْمَاهُما أَخَوان

فابتسمت! وقلت: ياسيدى سأعرب البيت كما تودّ، ولكننى أنا سأسألك عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد العلماء الذى أخطأ فى إعرابه من أئمة النحو، فائتلق وجه الشيخ بالنور، وكأنه يسمع بشرى سعيدة هبطت عليه فجأة، وقال: الله أكبر يابنى، مادمت تعرف مَنْ أخطأ فى إعرابه، فأنت على علم بإعرابه، أما القائل، والمناسبة فأنا شخصيا لا أعرف عنهما شيئًا، لقد جئت بآبدة! لقد جئت بآبدة، فابتدرتُ أقول إن «كلّ» فى أول البَيت مبتدأ، والخبر «أخوان» فى آخره، والقائل الفرزدق، والمناسبة وصف ذئب قابله فى الصحراء ودعاه إلى طعامه، والذى أخطأ ابن هشام فى المغنى.

نهض الشيخ واقفا، ومدّيده الكريمة محييا، فقبّلتها شاكرًا، وقال لى: خذ أجازة كما تشاء يابنى، ولا تستأذن منى، ثم التفت إلى الأساتذة قائلا: نحن

نحرص على حضور المتعلمين من الطلاب ليستفيدوا، أما الطالب العالم، فهو أستاذ يحضر ويغِيب.

فى منزل الشيخ:

مضى أسبوعان، فقابلنى أستاذى الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بالكلية، فقال لى: الشيخ الجبالى حدّثنى عنك مادحًا، فقلتُ له: إنك أديب تكتب فى مجلة الرسالة، فقال لى أحبّ أن يزورنى فى منزلى فى أى يوم يريد بعد صلاة العشاء مباشرة، فقلت للأستاذ: ومن أنا حتّى أشغل وقت الشيخ؟ قال: يابنىّ، هو الذى اقترح، وطلب أن أبلّغك، فلاتبطئ.

ذهبت فى اليوم نفسه إلى منزل الأستاذ، ودخلت حجرة الجلوس، لأجده جالسًا على سجادة طويلة، وقد لبس جلبابًا أبيض، وبيده مسبحته، وعمامته البيضاء تنسجمُ مع الوجه واللّحية والأسنان، وكلها تأتلق بالنور، فقال لى: اجلس مَعِى على السجادة يا بنّى، إن الأرض تريحنى، وهى أمّنا، ومكان السجود فى الصلاة، لقد سمعتُ عنك من الأساتذة ماسرّنى، فرأيت أن أسمر معك.

قلتُ بل أنا الذى حرصتُ على لقائك منذ قرأتُ لك، إذ لاتفوتننى فَائِتَهٌ مما تكتب فى مجلات الأزهر، وهدى الإسلام، والإيمان، وجريدة الأهرام أحيانًا، فقال الشيخ متواضعًا، ولعلّك ترضى، قلتُ: ولِمَ أحرص على تتبّع آثارك إذا لم أكن راضيًا، وعندى سؤال أدّخره من قديم بشأنك، أفتأذن؟ قال على الرّحب.

قلت: لقد ذهبتَ إلى بغداد منذ بضع سنوات مندوبًا عن الأزهر، لتلقى كلمة فى تأبين أحد الكبار من رجال السياسة هناك، ونقلت الصحف حينئذ أنك فى كلمتك لم تخصّ الراحل بتأبين خاص، بل تحدثت بما يشبه المحاضرة العلمية عن الموت والحياة! وعُدّ ذلك خروجًا عن المقام.

قال الشيخ: اعلمْ أنّى حين ذهبت مندوبًا عن الأزهر، أعددت كلمة تخص الفقيد، ولكنّى فوجئت بسبعة خطباء قبلى، يعيدُ كل واحد ما قال سابقه، وفى كلمتى التى أعددتُها تكرار لما سمعت، ولم أَرَ أحدًا من هؤلاء بدأ الكلام باسم الله

وحمده، فقلت أنت مندوب الأزهر فابدأ بحمد الله واسمه، وتحدثْ عن الموتِ وحقيقته التى تجعله انتقالاً من دارٍ إلى دارٍ، ثم انطلقت أعلن أن الفقيد يحيا فى داره الثانية ليحصد ثمرة ما قدّمه فى الدار الأولى، وقد أجمع المتكلمون على تعداد محاسنه، فهو إذن يتلقى جزاءَ هذه المحاسن حيا عند ربّه، وأن على رجال السياسة أن يعلموا أنهم كغيرهم سيلاقون هذا المصير، ولابد أن يُحسنوا العمل، لأن الله لايضيع أجر من أحسن عملا، ثم استشهدت بطائفة من الآيات والأحاديث، داعيًا للفقيد بالرحمة، وموجّهًا السامعين إلى استحضار ما انتهى إليه الراحل من مآل، هذا خلاصة ماكان، وأذكر أن بعض زملائى فى الرحلة قال لى: لقد أشعرتنا حقا بأننا فى حفلة تأبين، وأنك تتحدّث واعظًا باسم الأزهر الشريف.

قلت: لقد استرحتُ لما سمعت، وأستطرد فأسأل سؤالاً آخَرَ؟ لماذا اخترت سور النور، والحجرات، والرعد، ولقمان، مجالا لتفسير كتاب الله بمجلة الأزهر، ولم تبدأ بالفاتحة والبقرة كما فعل صاحب المنار؟

قال الشيخ: وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله، لقد بدأت بتفسير سورة النور، لأن سائلا تقدّم لمشيخة الأزهر راجيا تفسير قول الله عز وجل

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(1).

فحولت المشيخةُ إليَّ السؤال طالبة أن أجيب عنه على صفحات المجلّة، وحين تأملت الآية الكريمة ناظرًا إلى ما قبلها وما بعدها من الآيات وجدت أن السورة الشريفة عقد متناسق الحبات، وأن الصلات المتشابكة بين الآيات تخفى على الكثيرين من المفسرين، بله القراء وعندى اعتقاد بهذا التلاحم العضوى، لأن القرآن رتّب بما شاءه الوحى المنزل، فكان جبريل يجتمع بسيدنا رسول الله ليحدّد مكان كل آية من السورة، ولن يكون هذا التحديد عفويًا كما اتفق، بل لابد من نظام يجمع هذا المتفرق فى تسلسل منسجم، لذلك رأيت أن أبدأ بتفسير السورة جميعها، موضحا أثر ترتيب الآيات فى التئام الوحدة الجامعة، وقد يخالفنى بعض العلماء، ولكنى أتحدث عما أطمئن إلى سلامته، وهكذا بدأت بتفسير سورة النور،

---

(1) سورة النور.

ثم جاء سؤال يسأل عن معنى قول الله فى سورة الرعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١).

وأحالته المشيخة إلّى، ففسرتُ السورة جميعها مستعينًا بتأييد الله، أما سورة الحجرات فهى سورة الأخلاق فى كتاب الله، وتفسيرها مما يقوّى الفضائل الإنسانية، فاتجهت إليها بدون سؤال، بل بوحى من خاطرى الخاص، وكذلك اتجهت إلى تفسير سورة لقمان، وقد أضْطر إلى تفسير آيات مقتطعة من سور كريمة لظروف عاجلة يتطلبها السائل المتسرع، بدون أن أغفل عن إيجاد الرابط بين السابق واللاحق، والله هو الموفّق.

وما كاد الشيخ يصل إلى هذا المقطع، حتى جاء من نَبَّهَهُ إلى زوّار قدموا من بلدة الرحمانية ـ موطنه الأصلى بالبحيرة ـ فخرج لاستقبالهم، وسرعان ما رجع ليقول لى: إننى سأتغدّى معه سمكاً فى الغد، لأن أقاربه قد أحضروا السمك الكثير، وهو يطلب حضورى بعد صلاة العصر مباشرة، لأنه لايتناول الطعام إلا مرتين فى اليوم، الأولى فى الصباح، والثانية بعد العصر، وعلى هذا درج منذ عشرين عامًا! وحاولت الاعتذار فلم أفلح، وانصرفت على ميعاد قريب.

مرة أخرى:

رجعت إلى منزل الأستاذ فشاهدت من مروءته وبشاشته مامَلأنى إعجابًا بتواضعه، ثم اتجهنا بعد الغداء إلى مجلس كمجلس الأمس، حيث جلس الأستاذ على السجادة بجوارى، وابتدأ يقول، إنّه فكّر بعد خروجى في رحلته إلى بغداد، فتذكر رحلتيْن غاليتيْن قام بهما إلى مكانيْن قاصييْن، أولهما مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وثانيهما دولة الهند مندوبًا عن الأزهر مع بعض الأجلاء من العلماء، فقلت: هى ثمرات دانية القطوف، وأنا على شوق زائد لاستماع الطرائف عن هاتين الرحلتين.

فقال الأستاذ: هى طرائف حقا، فقد جاءت رحلتى إلى الحجاز فى زمن كثر

---

(١) سورة الرعد.

فيه الجدل بين علماء مصر وعلماء الأرض المقدسة عمَّا يسمّى بالتوسل، وتطرف كل فريق فى اتجاهه، وفى المتكلمين من أولئك وهؤلاء من يتمسّكون بالنظر الجزئى، دون شمول متسع، وهم جميعًا علماء كرام يجاهدون فى سبيل الله، ويسعون لإعلاء الإسلام، وقد عرف مكانى بعض علماء الحرم المكى، فسارع أحدهم لنقاشى، فأصغيت لكل ما قال، ثم قلتُ له: أنا عاتب عليكم، كما أعتب على من يناقشكم من علماء مصر، لأن المسائل الدينية يجب أن تُنَاقَش فى جو أخوى تضيئه بشاشة الإسلام، ولايزال علماء الإسلام يتفقون ويختلفون منذ جدّت أحوال معيشيّة تتطلب الحكم الشرعى قياسًا واستنباطًا، ورأينا التاريخ يسجّل على أصحاب التُّؤَدَةِ والإنصاف أنهم يسلكون سبيل المتقين، كا رَأَيْنَاهُ يُسجل على مَن تورطوا فى اللجاج والحكم بالتكفير أنهم خرجوا عن الصراط السوى، وأنا أرجو أن يذكر كل مناقش رأيه مشفوعًا بالدليل، فإذا تعرض إلى رأىِ مُناظِره نَقَضَ دليله فى أدب مهذب، وستضيق شقة الخلاف متى صفت الضمائر وسلمت النيات! وكان كلامى موضع اهتمام صاحبى، فشكرنى، وجمعنى بصفوة من رفاقه، فأعدت ماقلت وانقشع غيم ثقيل.

أما الرحلة الثانية إلى الهند، فقد ظللت بها مائة يوم، حيث كنت رئيسًا للبعثة الأزهرية التى كانت استجابة لدعوة الشاعر الكبير محمد إقبال فيلسوف الهند وشاعر الإسلام، إذ لمس انجذاب كثير من المنبوذين إلى اعتناق الإسلام، وقد خوّفهم الهنادك بأمور لصقوها بالإسلام زورًا، فرأى الشاعر الكبير أن يبعث الأزهر بعض علمائه لدراسة أحوال المنبوذين من ناحية، والاتصال بمشكلات المسلمين من ناحية ثانية، مع إلقاء المحاضرات الكاشفة عن تعاليم الإسلام، والمشخصة لأدواء المسلمين فى هذه البلاد، وقد استجاب الإمام المراغى لهذا الاقتراح، ووافق المسئولون على إرساله البعثة، وكان معى الأستاذان الجليلان عبد الوهاب النجار، ومحمد أحمد العدوى، فقمنا بزيارة أكثر من خمسين مدرسة وجامعة، وعقدنا جلسات سياسية ودينيّة مع كبار الزعماء من رجالات الهند المعدودين، وألقينا أكثر من أربعين محاضرة، وكنا نستقبلُ استقبالَ الملوك، فالأفواج تتزاحم، والهتافات

تعلو، وعقود الزهر تهدى إلينا فنلبسها، وهى التحيّة الهندية لكبار الزوّار، وقد امتدّ النقاش فى جلسات طويلة مع كبار المفكرين من أمثال الزعيم الكبير محمد على جناح، والدكتور ذاكر حسين، والأستاذ الفيلسوف محمد إقبال، وهذا الشاعر الفيلسوف كان فى مرضه الأخير، وفى صوته عقدة تمنعه من الكلام، ولكنه تحامل على نفسه، وأَصَرّ على تكرار اللقاء، وكنا نشفق عليه، ولكن حماسته الإسلامية كانت تنتصر على ضعفه فى ساعات الاجتماع، وقد شرح لنا حقائق كثيرة كنا نجهلها من ناحية الإنجليز الذين كانوا يؤيدون الهندوك تأييدًا تاما، ويُعينونهم فى الوظائف الإدارية الهامة ليكونوا عامل حرب على المسلمين، إذ أن الاستعمار لم يكن يخشى من الهنادكة معشار ماكان يحذره من مقاومة المسلمين، وقد أرجف المغرضون كذبًا بأنّ المسلمين يعاونونَ الاستعمار، وهذا ما تنهض الدلائل بتكذيبه، وقد عرفنا عن غاندى ونهرو أمورًا منكرة لم نكن ندريها، لأن الجرائد المصرية لم تكن تُذيع عنهما إلاّ المحامد، أمّا العداء البارز للمسلمين فلم نقرأ عنه فى البلاد العربية شيئًا، وهو ممّا يضج منه المسلمون هناك، وقد صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المسلمين، ووضّحنا مبادىء الإسلام قدر مانستطيع، وكانت مناسبةً سعيدة يوم عيد الفطر، إذ قمنا بالخطبة والصلاة فى أكبر مساجد (بومباى) وعندى مذكرات عن هذه الرحلة أرجو أن تسعف الأيام بتبييضها وطبعها.

قلت: إن طبع هذه المذكرات ضرورى لتسلط الضوء على ظُلُمات تحيط بنا فى مصر بالنسبة لإخواننا هناك، فقال الشيخ: أرجو أن تسعف الأيام بما تريد، وقبل أن أنصرف أكّد علىَّ الشيخ أن أُكثر من زيارته، لأنه يسعد بترداد ذكرياته معى، وقال مبتسمًا: معك مفتاح دقيق يثير ذكرياتى، فلاتمسكه أمدًا بعيدًا، ثم علمت أن الرجل قد مرض، فلم أشأ أن أرهقه بما قد يتعب من الحديث، فقطعت الزيارة مكرهًا غير مختار...

* * *

العلامة عبد القادر المغربى ورواية الحديث النبوى

علاّمة الشام الشيخ عبد القادر المغربى، تلميذُ جمال الدين الأفغانى، وصديقُ محمد عبده، ونائبُ رئيس المجمع العلمى بدمشق، وعضوُ مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وصاحبُ المصنفّات الرائعة فى التاريخ، واللّغة، والأدب، والتفسير، والأخلاق، هذا العلامة الأكبر أشهرُ من أن نُشير إليه بتعريف محدّد، وقد اعتدتُ أنْ أراه بالقاهرة كل عام حين انعقاد المؤتمر السنوى لمجمع اللّغة، حيث يكون فى طليعة المتحدثين والمناقشين، وله فى كل موسم موضوع جديد يجذب الانتباه، وأماكن لقائه متعّددة بساحة المجمع، ودار الكتب المصرية، وندوة مجلة الرسالة، ومنازل الزملاء من أصدقائه الكبار، وهذا فى وقت الطلب، قبل أن تبعدنى الوظيفة عن القاهرة.

وكان أوّل التقائى به فى جمعية الهداية الإسلامية التى كان يرأسها صديقه وزميله العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر فيما بعد، إذ كنت أزور الجماعة ذات عصر مع صديقى العزيز الدكتور أحمد الشرباصى، فرأينا العلاّمتين رئيس الجمعية، وزائره الدمشقى الكبير يتسامران فى حجرة الرئيس، وأشفقتُ أنْ أتطفّل على مجلس لست أهلاً له، وكنتُ إذ ذاك طالبًا بالسنة الأولى بكلية اللّغة العربيّة، ولكن الصديق الشرباصى أَقْدمَ جريئاً، وجرّنى معه، وكان على صلة بالشيخ الخضر، فأفْضَى إليه بما تمّ فى أمرٍ كلّفه به، واستأذن ووجدتُ من بشاشة الرجلْين ما دفعنى إلى المكث لأستمع إلى مايقولان.

نقاش مثمر:

وكان العلاَّمتان رحمهما الله يتناقشان فى معنى كلمة (مُحدَّث) الواردة فى قول رسول الله ﷺ: «إن منكم محدّثين، وإن منهم عمر بن الخطاب» فأفاضَ المغربى فى معنى كلمّه المحدّث وصلتها بالإلهام، وتكلّم كثيرًا فى أمور تتعلق بالاشتقاق والدين والتاريخ، ثم استطرد إلى مواقف تاريخيّه ظَهَرَ فيها إلْهامُ الله للفاروق، وكان الخضر حسين يستمع مبتسمًا، ثم اتسع له مجال التعقيب حين سكت المغربىُّ المُمتْع.

فقال إنه عثر على رواية «مُحْدث» بضم الميم وكسر الدال، وأخَذَ يفسّر المعنى على لفظها. ودارَ نقاشٌ أخَذَ يرتَفع عنْ مستواى، تواردتْ فيه أسماءُ ابن جنى والاستراباذى والشّهاب الخفاجى، ثم سكتَ الخضر، فوجدتُ العلامة المغربى ينظرُ إلىّ مبتسمًا، ويقول: وما رأيُك أنت؟ فقلّبتُ كفا على كفّ، وقلتُ: لا إلـه إلا الله: أأُصدرُ رأيى فى مسألة لغويّة دينيّة يتناولها شيخانِ من أعلام المسلمين! مَنْ أنا؟ حسْبى أن أسمع، فَربتَ الرّجلُ على كتفى بيده الكريمة، وقال: مَن يدرىْ؟ لعلّك تسبق؟ فتشجّعتُ وقلتُ: إنّ هذا النقاش المُثمر يذكرنى بنقاش بين العلامة الإسكندرى والعلامة حسين والى، وكلاهما كان زميلاً لكما بالمجمع، وقْد حضَرَهُ الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم، فقال عنه: والحديث عن حسين والى:

ويومًا مع الإسكندرىّ رأَيْتُه	يُجاذبُه فضلَ الحديث الشيِّقِ
فهذا يرَى فى لفظةٍ غيرما يرى	أخوهُ، ويختار الدليل وينتقى
وأعجبنى رأىٌ سليمٌ ومنطق	يصولُ على رأىٍ سليم ومنطق
وقد لَوَّحَتْ أيديهما فكأنها	إشارات راياتٍ تروح وتلتقى
ولم أرَ فى لفظيهْما نبْر عائب	ولم أر فى لحظيهْما لمح محنق
فقلتُ هى الفصحى بخير، وإنها	بأمثال هذين الإمامين ترتقى

فقال الخضْر رحمه الله: أنشد الجارمُ هذه القصيدة فى تأبين الإسكندرى بالمجمع وقد سمعتُها فى حينها، وسُررتُ بمعانيها قدرَ سرورى بجودة إلقاء الجارم!

ومضتْ برهة، فوجدتُ العلامة المغربى، يقولُ لى فى ملاطفة: عندى موعدٌ خاص بزيارة عالم كبير من كرام أئمة الدين، وإذا لم تمانعْ أكونُ سعيداً بمرافقتك لآنس! قلتُ: وافرحتاه! أَبَلَغ بى الحظّ أن أَسْعَى فى ركابِك، لأَزور أحدَ الأئمة! قال: هيّا!

مفاجأة:

أخذت سيّارةُ المغربى تشقّ الطريق فى شوارع القاهرة، فاجتازتْ أماكن التكدس إلى الضواحى الهادئة، مُروراً بالعباسية والقبّة والزيتون والمطرية حتى وصلْنا إلى «عزبة النخل»، وكانتْ يومئذ أشبهَ بالقرية الصغيرة، قبل أن تَتزاَحم المنازل وتتراكب كما نرى، فأشارَ الشيخُ إلى منزلٍ صغير ليقفَ أمامه السائق، وصَحبنى إلى الباب، ففتحه بهدوء، واتجَه إلى حجرة بالدور الأوّل، فضربَ عليها ضربًا خفيفًا بأصبعه كمن يستأذن، ثم تقدّم، وأنا من خَلْفه، لنجدَ عالمًا مهيبًا يجلس متربعًا على كرسى مربّع، وأمامَه عالم مهيب أيضًا يجلس على الأرض، ومعَه نسخةٌ من كتاب (الموطأ) للإمام مالك رضى الله عنه، يقرأُ مابها فى إجلال، فأخذ المغربى مجلسه فى خشوع خلفَ القارىء الكريم، وأشارَ فأخَذْتُ مجلسى جواره، وجعلْنَا نستمع، وأنا فى دهش حائر، لأنّ المجلس مجلسُ استماع، والشيخُ المتصدّر ينصت بدون أن ينطق، ولم يظهرْ عليهما ما يدلّ على أن زائريْن قد حَلاَّ ضْيفيْن. إذ استرسلَ القارىء، وأنصتَ السّامع، حتى إذا مضتْ قرابة ساعةٍ نهض القارئ فصافح الشيخ الجالس، واتجه إلينا فصَافَح المغربّى فى شوق، وصافحنى فى حنو كمن يسأل عنى لأول مرّة يرانى، ثم تقدمنا إلى الشيخ الكبير، فوجدتُ القارئ والمغربّى يقبلانِ يدَه فى إكبار فقلّدتُهما! ولكنّى لم أفهم شيئًا ممّا أرى!

حان الإياب، فصحبتُ العلاّمة المغربى، وأنَا فى حيرة أتّعجبُ، ورأى الرجلُ الكبير ما يتلبسنى مِنْ تساؤُل، فقالَ ألا تعرفُ فضيلة العالم الجليل الشيخ يوسف

الدجوى، أحدَ جماعة كبار العلماء، إنّه هو الذى يَسمْع، ثم ألا تعرف العالمَ الجليل الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى عهد الخلافة العثمانيّة، إنّه هو الذى يقرأ، وللمجلس معنًى، فإنّ سلسلةَ رواية الموطأ عن مالك لم تنقطعْ إلى اليوم، إذ يقومُ بها خلفٌ عن سلف، حتّى تتّصل بمالك، والأئمةُ الكبار يحرصون على أن يكونُوا حلقات مباركة فى هذه السلسلة النبوية الكريمة، فقد روى الدجوى الموّطأ عن شيخه سليم البشرى، ورَواه البشرىٌّ عن شيخه إبراهيم السقا، ثم رواهُ السقا عن العلامة الأمير الصغير، ومازالتِ الرواية تتصاعد بدون بتْر حتى تصل إلى مالك بن أنَس، وهو يروى عنْ نافع، عَن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ، ثم قال المغربى: استمعْ يا بنى! أمَا شاهدْتَ الكوثرى يُصافح الدجوّى بعد القراءة؟ إنّ كلّ قارىءٍ يُصافح مَن يقرأ عليه، ويعتقدُ المحدّثون أنّ المصافحة تمتد من يد إمامٍ إلى إمام حتّى تصل إلى يد الإمام مالك، وقد صافَح رضى الله عنه نافعًا، وصافح نافع عبد الله بن عمر، وصافَح ابنُ عمر رسولَ الله، فكأنّ سلسلة المصافحة تَشرفُ بكفّ رسول الله، وأنا لم أصافح الشيخ الدجوى، إذ لاتتّم المصافحةُ على وجهها الشرعى إلاّ لمن قرأ الموطأ كاملاً، كما يفعل الكوثرى، ونحن حضرنَا مجلسًا للبركة فقط! وليْتَ الزمن يُتيحُ المداومة، ولكن متى؟ قلتُ للشيخ المغربى: كنتُ أتمنّى أن أُصافح أستاذنا العلامة الدجوى لأدخلَ فى سُلّم المصافحة الممتدة إلى مالك بن أنس رضى الله عنه، وتهيّبتُ أن أقول إلى رسول الله ﷺ، لأنّ مقامَه أعلى وأرفع، فلمعت عينَا الشيخ ببريق ساطع انتقلَ إلى وجهه المشرب بالحمرة فجعلَه قطعةً من الضياء، وقال: ياولدى، هذه أمنية طيبة، ولكنها متعذرةٌ مع العلامة الدجوى لأنّه لايصافحُ إلا من يَقرأُ الموطأ كاملاً دون نقص لحرف واحد، والشيخُ مريض، ولا يُعقلُ أن يبدأ بالسماع لأحد بعد العلامة الشيخ محمد زاهر الكوثرى، لأنّهُ صديقُه الأعزّ، وقد رَجَاه أن يقرأ، فاضطر إلى القبول نظرًا لمرضه الذى يحرمُه من الجلوس ساعاتٍ ممتدة إلاّ بضيق شديد، ولكنْ سأدلك على شىءٍ سار! وسكت مليا، ثم قال:

أعرفُ أنَّ الشيخ منصور على ناصف إمام المسجد الزينبى يعقد حلقةً يُقرأ عليه بها صحيحُ مسلم، وقد قرأه على الشيخ محمد حبيب الشنقيطى رحمه الله، ومن ورائه سلسلةٌ ترتفع إلى المقام الشريف، وتتم المصافحة عقبَ كل قراءة، فاذهبْ إليه بمسجد السيدة زينب، وشاوره!

كنتُ أعرف فضلَ الشيخ منصور على ناصف، وأحتفظُ بكتابه (التاج) فى خمسة أجزاء مشروحة، خاصـة بما جُمعَ فى كُتب السّنة الخمسة، فصَمّمْتُ على أن أذهب إليه فى اليوم نفسه، بعد صلاة العشاء إذ اعتادَ أنْ يؤمّ الناس فى صلاة المغرب، ويجلس فى المحراب ذاكرًا متأملا حتى يؤذّن العشاء، فيؤمّ المصلين، فودعتُ العلاّمة المغربى، وأخبرتُه بما اعتزمت عليه، ورجوتُ أن يسمح بلقائى قبل سفره، فقالَ إنّه سيكون بقسمِ المخطوطات بدار الكتب المصرية غدًا بعْدَ العصر، فإذا شئتُ أن أحضر، فهذا يسرّه.

لقاء الشيخ منصور ناصف:

كنًّا على مقربةٍ من الغروب، فهرعتُ إلى المسجد الزينبى، ووجدتُ الشيخ جالساً فى المحرابِ حيث توقّعت، ينتظر صلاة العشاء، وهو شيخٌ جليل، يغمره وقار الشيب، أبيضُ الوجه واللحية والعمامة وقامتُه فارعة، وابْتسامُه فى اللقاء مُشجّعٌ عاطفٌ، فلما فرغَ من العشاء الآخِرة، أقبلَ الناس جميعًا من خلْفه، على تقبيل يده، وانتظرتُ كيلا أَضيعَ فى الزحام، فلّما تأهبت للخروج دنوتُ منه مُسلّما، فتلقّانى بعطف، وسألنى فى لطف: مَن أنت؟ قلتُ: طالبٌ بكلية اللغة العربية ينشُدُكَ فى أمرِ دينى، فقال: خيرًا، قلتُ أريدُ أنْ أنضَمَّ إلى حلقة الحديث، حين تبدأ مجموعة جديدة.

فجلس الشيخ فجاةً على سجادة المسجد، وكان واقفًا، وقال فى حنو: كم سِنّك يابنىّ؟ قلتُ أربعةٌ وعشرون عامًا، فضحك، وقال: وتُريد أن تكون من رُواة الحَديث فى هذه السنّ؟ انتظرْ حتى تتجاوزَ الأربعين ليحدثَ لك وقار الموقف، وتحسّ هيبة القراءة! إنّه حديث رسول الله يافتى!

فوجمتُ قليلا، ولحظَ الشيخ انقباضى، فقال: أمامك مرحلة أُولَى، قلتُ: ماهى؟ قال ابدأ بقراءة كُتب المصطلح، وأشيرُ عليك بكتاب (شرح علوم الحديث) للحافظ ابن كثير، لأنَّه مقدمةٌ جيدة لمن يريد أن يتشبّع بدراسة حديث رسول الله، وبه كلامٌ طيب عن آداب المحدّث، وإملاءِ الحديث، وسماع الحديث، والإجازة والوصّية، وبيانِ أنواع الحديث، من صحيح، وحسن، وضعيف، ومسُند، ومرفوع، وموقوف، ومنقطع، ومرسل، ومعضل ومدلّس ومنكر!! فقلتُ: يا سيدى درسنَا مصطلح الحديث بالقسم الثّانوى بالأزهر وفيه أكثرُ ما ذكرت، فقالَ فى هدوء: كتابُ الحافظ ابن كثير، كلّه نور، كلّه نورٌ، فَادرسْه وستسعْـدُ بإذن الله، ونهضَ فنهضت.

العودة إلى المغربى:

سارعتُ للقاء العلامةِ المغربى بدار الكتب، ولم يكنْ يتوقّع أنّى سأقابلُ الشيخ منصور بهذه السرعة، فجعلت أحَدّثُه عمّا قال لى، وأناَ أتألّم لقوله: بعد الأربعين!

فقال المغربى، إنّ شيخ المحدثين بالشام أستاذنا بدر الدين الحسينى لم يكنْ يشترط سنا لقراءة الحديث، وقد قرأنَا عليه فى دار الحديث بالأشرفية فى دمشق صحيحَ مسلم، وسنن الترمذى وكنّا عَدداً من الإخوان، فينا الصغير والكبير.

قلت: أذُكر ياسيدى أنّك كتبتَ عنه مقالة بَمجلة الرسالة فى السنة التى انتقل فيها إلى جوار ربه، وقد قرأتُها واحتفظت بها:

فتألّق وجهُ الشيخ، وقالَ ما شاء الله، ما شاء الله، ثم قالَ: إنّ كتاب الحافظ ابن كثير، ليسَ هو الوحيد فى بابه، فكُتُب المصطلح من الكثرة بحيثُ لا تُحدّ، ولكنّ قراءتَه بلاشك ستعودُ عليك بالنفع.

وعلمتُ أنّ المغربّى سيسافر غدًا إلى دمشق، فودعته، ولم يُتح لى أن ألقاه كثيرًا من بعد، إلاّ فى مرات تعد على الأصابع إذ كنتُ أتولى التدريس فى غير مدارس القاهرة من مدُن مصر، وكانتْ زياراتُه للقاهرة لاتصادف كثيرًا موسم

العطلة الصيفيّة، فحرُمت من خيرٍ كثير بالنسبة لما كنت أرجو، ولكنّ لقاءه العابر ذو نفع عميم..

على أنّ مجلسَ الحديث بدار العلامة الدجوى لايزال يملأ نفسيِ جلالاً وهيبة وخشوعًا، وأتمنى أن يعود هذا التقليدُ العلمى المفيد.

* * *

الشاعر الكبير أحمد الكاشف

كنا فى عهد الطلب نسمع اسم أحمد الكاشف مقرونًا باسم أحمد محرم، كما يقرن اسم شوقى بحافظ، وهم جميعًا من تلاميذ مدرسة البارودى الشعرية التى جَدّدتِ الشعر ورفعتْه من وَهدة الركاكة إلى ذروة القوة الآسرة، بحيث أصبح هذا العصر بفضل هؤلاء وزملائهم من أخصبِ عهود العربيّة، وأرقاها، لذلك كان الناشئة من زملائى يحرصون على استظهار روائعهم فى ثقة واطمئنان.

ولم أرَ مِنْ هؤلاء شوقيّاً وحافظًا ومحرماً رأى العيان ولكنّ الحظّ السعيد قد أتاح لى زيارة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف على غير انتظار، كما أتاح لى زيارة مطران ورب مصادفة خير من ميعاد.

كنتُ أحفظ كثيرا من قصائد الكاشف التى ينشرها بجريدة الأهرام، وأكثرها ذات طابع سياسى، لأن للشاعر هوىً خاصا مع بعض الأحزاب عن اقتناع، لاعَن انتهاز، ولكل إنسانٍ أن يميل حيث يطمئن،فكان يرسلُ شعره المؤيد لزعماء الأقلّية، مجافيًا زعيمَ الأمّة الذى أجمعتْ عليه الأكثرية، ومع هذا فلشعره سيرورة ونباهة، لأنّه يمتاز بالصدق، ويتجافى المبالغة، ويجلسُ مجلس الناصح من ممدوحه، يقترح عليه الرأى، ويحذره التورط، فالرجل ناصح مشير، لا مصفّقٌ هتّاف.

وكنت قد قرأت الجزء الأول من ديوان الكاشف، فأُعجبت بمقدمته النثرية الطويلة أكثر من إعجابى بشعره فى الديوان الأول، إذْ أصدرهُ فى عهد البضاعة المتطلعة، قبل أن يستوى على سُوقه ويستحصد، كانت المقدمة تحمل براءَةً كبراءة

الأطفال، حين يتحدثُ الشاعر عن صباه الأول، فيذكُر إخفاقَهُ فى الامتحان المدرسى، وهروبه من الكُتّاب، وضيقَهُ بمواد الدراسة، وليسَ فى هذا ما يؤاخذ، فبرناردشو أكبر أدباء الإنجليز لعهده قد اعترفَ بمثل ما اعترفَ به الكاشف، ولكنّ خيالَ الشاعر لدى الكاشف كان يخلقُ له أوهامًا من أوهام البطولة المستحبّة، فيرَى نفسه قائدًا يحكم الجنود تارة، وقاضيًا يأخذ الحق من الظالم للمظلوم تارة أخرى، ويندفُع لتحقيق ما يتخيّله فيُصاب بالعاقبة المنتظرة، وهى عاقبةٌ لايسترها الشاعرُ عن قرائه، بل يسجلها فى المقدمة محتفلا مؤكدًا، وهو بذلك يُمتع قارئه بصراحته أكثرَ مما يمتعه بقصائده، وأدبُ الاعتراف ذائع مشهور، ولكنّ الكاشف لم يتعمّد الاعتراف ليُضافَ إلى مَن أبدعُوا فى هذا المجال، بل تركَ نفسه على سجيّتها، متدفقًا مع خواطره كما تجيش فى صوره بدون تنميق أو اختيار، ومقدمته هذه تذكرّنى بمقدمة شبلى ملاط لديوانه، لأن النبع واحدٌ، عند الاثنين، براءةً وحماسةً ووثوقًا بالنفس عن رغبة وطموح.

يذكر الكاشف من مواقف الصبا هذه أن قريته الصغيرة تحدثت عن مروءة شاب شجاع رمى بنفسه فى البحر المتلاطم لينقذَ طفلَيْن أوْشكَا أن يَغرقا فى الطوفان، فَعزمَ على أن يأتى بأمرٍ مماثل، ثم واتتْه الفرصة حين علم أن امرأةً من نساء قريته أُهينتْ بالضرب فى قرية مُجاورة، فجمع عددًا من الصبية ممن هم فى سنه، وسلّحهم بالعصىّ والهراوات وتقدّم بهم إلى القرية المعتدية ليهجم على أناسها الكثيرين، وكانت النتيجة أن سقط الجيش المغير فى أيدى خُفراء القرية، ونال من التأديب مايستحق، ولولا أنهم أحداث لواجهوا حكم القضاء.

وموقفٌ أخر دَونهُ الشاعر ذاكرًا أنه علم أن شاهدَ زور شهد فى مجلس القضاء شهادةً آثمة، فرأى أن يقوم بتأديبه، وجَمّع نفرًا من تلاميذ مدرسته، وهجموا على الشاهد فأوسعوه ضربًا ومهانة، وأخذ يستجير ولا من مغيث، وكانت العاقبة مأمونة، لأنّ الرأى العام فى القرية كان مُعجبًا ببطولة الكاشف وزملائه، فحبّذوه، واستفاض له ذكر بالحمّية والبسالة، كما كان هذا الرأى العام ضائقًا جداً بإثم شاهد الزور وُجرمه الشنيع.

طرائفُ كثيرة تدور هذا المدار، ومنها ما يتعلّق بمجابهة المدرسين فى المدرسة، ومشاكسة أدعياء العلم من ذوى السُّمعة البراقة. وهى كلّها تجعل المقدمة مصدرَ ترفيهٍ لقارئها، ولعلّها كانت دافعى إلى الإعجاب بالشاعر وتتبّع قصائده، وبخاصةٍ حين أصبحَ من كبار شعراء عصره، وصارت الصّحف اليومية ـ وفى مقدمتها الأهرام والبلاغ والسياسة ـ تنشر قصائده فى الصفحة الأولى منّوهة شاكرة!

أمّا لقائى به، فقد سمح به الدهر مرّةً واحدة على غير انتظار، إذ كنتُ ذات صباح فى دار الإخوان المسلمين بالحلمّية سنة ١٩٤٦ قبلَ رحيل الشاعر إلى مثواه بعامينْ، فسمعتُ الأستاذ عطية الشيخ ـ وكان إذ ذاكَ مدرسًا بإحْدى المدارس الثانوية ـ يقول لجار له: إنّه مضطَر للاستئذان لأنّه على موعد للذهاب إلى (القرشية) ليقابل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف، فلم أتمالكْ أن تقدمتُ للأستاذ عطية، وليَس لى به صلة مّا أسأله: كيف السبيل إلى رؤية الشاعر الكبير؟ فابتسمَ الرجل فى ود وبشاشة لم أتوقعهما، وقالَ: هيّا، فصديقى الأستاذ الضبع خارج الدّار، ومعه عربتُه الخاصة، وسنذهبُ نحن الثلاثة إذا أردت! قلتُ: إنّها فرصة حبيبة، ومنة لا أستطيعُ القيام بشكرها، فشدّ الرجل الكريم على يدى وصحبنى.

دار الحديثُ فى الطريق عن الشاعر، فعلمتُ من الأستاذ عطية أنّه يعانى من أعباء الشيخوخة، ويشكو انقطاع الزملاء والتلاميذ عن زيارته، حتى أصبحَ فى وحدته غريبًا بين أهله، وفى ساعاتٍ يغلبه اليأس فيتصورُ أنّ جهده الأدبى قد ضاع على مدى خمسين عامًا حفلتْ أمهّاتُ الصحف فيها بروائعه، وأن هذه الزيارة ضروريّة لمن كان يحس إحساسه.. هنا أخذتُ أجمعُ فى ذاكرتى ما أعرفُ من روائع الشاعر، وما أعلم من مواقف فتوته ومروءته، وقلتُ: إذا أَذِنَ الله ووجدتُ الاستعداد الطيب من الشاعر وزوّاره، فسأفيضُ عليهم بما أجعلُ الرجل الكبير يعلم أن شعرهَ طيُّ الصدور، وأن أبناء الكليات بالجامعة يردّدونه ويتدارسونه، وأنه يُقْرَنُ بشوقى، وحافظ، ومطران ومحرم، وأن شعراء اليوم من أمثال الأسمر،

وغنيم، ومحمود حسن إسماعيل، وناجى، وعلى محمود طه من تلاميذه، وهم يذكرون له فضله الكبير . . .

كان الشاعر على علمٍ بالزائرين، فقد تحدثنا إليه تليفونيا، لذلك وجدناه فى غرفة الاستقبال المتواضعة، يلبس جلبابه الأبيض، وعليه عباءته الصيفية، وبيده عكآزه الذى يتوكأ عليه، ولا أكتم القارىء أنى فُجعت حين رأيتُه بين أنياب الكِبَر كطائر جريح، فقد كنتُ أعرف صورته تتصدر الصحف مليئة بالشباب، ناطقةً بالفتوة، فى عينه مضاء، ولَه شارب أثيث، وفى سيمائه صلابةٌ واعتداد، حتى لقد تخيلته فارس ميدان، لا طائر دَوْحَة! فلما صدَمنى الواقع بلعتُ ريقى آسفًا.

اختصنى الشاعر بالحديث بدءًا، إذ كانَ لا يتوقّع مجيئى، فقال حين جلسنا: مرحبًا بالشاعر الشيخ، وكنت ألبس العمامة والكاكولة، فقلتُ: أمّا شيخٌ فنعمْ، وأما شاعر فأنا تلميذ صغير للكاشف الكبير؟

ضحك الشاعر وقال: فى الأزهر أساتذة كبار فكيف تكون تلميذى!؟ فأجبت، إننا جميعًا فى كلية اللّغة العربية نحفظ شر الكاشف فهو قريعِ شوقى، وحافظ، ومطران، ومحرّم! لقد كان (موسم الشعر) الماضى يجمُع أكثرَ شعراء مصر، ولم يكنْ فيهم مَن فاق الكاشف، حيث كانتُ قصيدته عروس الموسم.

هنا قال الأستاذ عطية: لن نتكلم نحنُ يا مولانا؛ لأنّ هذا الزائر النبيه لديه أكثر ممّا نقول، فقال الكاشف: وأنا أحبّ أن أسمعه!

قلت: وكان فى خاطرى أن تكون زيارتى مصدر سرور للرجل، إذ وقع فى روعى أن رواية شعره والإشادة بمكانته قد تُذهب بعض ما يعانى ـ قلت:

حين مات الزعيم محمد محمود رثاه مطران، ومحرم، والجارم، والعقاد، ولكّن قصيدة الكاشف كانت ذات رنين مؤثر!

هنا مدّ الرجل يده إلى يدى، وقال: يا أخى، مطران، ومحرم، أفضل منى بكثير، وأنا أكنّ لهما من الإجلال مالاتعرف، يكفى أن أُذْكَر معهما! جئتَ بشاعرين كبيرين جداً، لا أفوقهما بحال.

قلت إنى لا أزال أحفظ قول الشاعر الكاشف فى الراحل الكبير:

تلقيتُ أنباء الشفاءَ مريحةً ... فلم أُمسِ حتى جاءنى النبأ الصعْبُ

فنحتُ وتاح الطير حولى وماجَ بى ... مكانى وغاص الماء والتهب العشبُ

خلاَ منك بيتُ المجد والفضل والندى ... ونادى المعالى أم خلا الشرق والغربُ

وضمّكَ داج فى ثرى الأرض موحش ... وكم ضاق عن آمالك العالم الرحبُ

أطوفُ به مُسْتَرْوِحًا من عَبيرِه ... وقد صبّحَتْهُ من بواكرها السحبُ

ولو كانَ جُثمان العظيم كذِكْرِه ... لما نالَ من جثمانك الطاهر التُّربُ

أحِنُّ إلى الماضى وما هو راجع ... وقد سار بى فيما أحاذره الركبُ

كأنى حادى الظاعنين يمر بى ... بلا رجعة سرب، ويتركنى سربُ

تهلّل وجه الشاعر وقال: لقد قلت أروع ما فى القصيدة، وأنت فيما أرى راوية كبير، فهل تحفظ شيئاً مما قال محرم فى هذه المناسبة قلت أحفظ لمحرم قوله:

من لى بملء المشرقين بيانًا ... وبما وراء النّيرين مكانًا

رُمْتُ الرثاءَ فما ظفرتُ بمنبرٍ ... يسع الرثاء ولا وجدتُ لسانا

ومن أنفس ما قال قوله:

لمّا سقوهْ النفى مُرا طعمه ... وجدوه حران الحشا ظمآنًا

لذت مذاقته فلولا أنه ... جم الوقار طوى المدى نشوانًا

فقال الكاشف: هذان البيتان استوقفانى كثيرًا وأنا أقرأ قصيدة محرم، وقد نُشرَتْ مع قصيدتى فى صدر جريدة البلاغ، وبينى وبينه من الودِّ ما لا يعصف به الموت ـ لأنّ محرمًا انتقل إلى رحمة الله، وهو أوسع منى ميدانًا، إذ قصرتُ فى

الأغلب على الشعر السياسى، أما هو فقد تكلّم فى كلّ غرض، وراح بائساً معذبًا، مع إباء نفس، ونزاهة ضمير.

قلتُ: هذا ما أعلم، وإنك قد تحدثتَ عن محرم، فما علاقتك بشوقى وحافظ ومطران؟

قال الشاعر أجدنى متفتحًا للحديث معك على غير عادتى! لقد عادانى شوقى كثيرًا مستمعًا لأرباب الوشايات، وقد أُقيمت له حفلة تكريم بقريتى، أقامها كبير وجهائها محمد شوقى الخطيب بك، وقد دَعَا فيها من كرموا شوقى فى القاهرة، وأهملنى وأنا جارُه القريب، ثم علمت أنّ شوقياً قد أشار بإهمالى، فتأثرتُ وعاتبتهُ بقصيدة نشرتها بالأهرام، وحين مات نسيتُ مواقفه ورثيته صادقًا مخلصًا، لأنه أنبغ من قال الشعر من أعلامه المعاصرين!

أما حافظ فصديق أنيس، لم أشهدْ منه ما يريب، وكان لايضنّ بالثناء الجم على زملائه، ويسعى فى قضاء مآربهم قدر مايستطيع، وأنا ليست لى مآرب، فلم أكلّفه شيئاً، ولكنى أحمل له الودّ الجم، وقد رثيتُه مرّتين الأولى عند رحيله، والثانية فى حفل أقيم لإحياء ذكراه بعد سنوات من وفاته، ومطران أبقاه الله وحفظه من أحسن من رأيتُ إخلاصًا ومروءة، تحدّث عنى مقرّظًا مادحًا على غير معرفة، وأذكر أنه قال عنى مشكوراً، : «نارىّ المزاج، زئبقى الخاطر، فخور، لم أعاشره، ولكنى طالعت أخريات قصائده فإذا هو ناصحُ ملوكٍ، وفارس هيجاء، ومقرّع أمم على التقصير، ومرشد الحيارى فى مختبطِ السياسة». .

لقد قال الرجل كثيراً فأحسن الله إليه كل الإحسان!

قلت: لقد قرأت كلام مطران، كما قرأتُ مطارحاتك الكثيرة مع محرم، وقرأتُ مدحتك للخديوى عباس التى عاتبته فيها عتابًا شديدًا على اختصاصه بشوقى وحده، وعدم التفاته إلى غيره من الشعراء!

فابتسم الرجل وقال: ذكَّرْتَنى، لقد كانت هذه القصيدة أسَّ البلاء مع شوقى، فلم ينسها، مع أنى مدحته فيها، وقلت: إن له زملاء يشاركونه الفضل، فكان هذا

كثيراً فى حقه، اذ يؤثر أن يكون وحده! سكتّ، بحيث تناول الأستاذ عطية الشيخ شعر شوقى بالتحليل المعجب، وتطرق القول إلى مناخٍ من السياسة الداخلية والعالمية، وقضية الوحدة العربية، وكان الكاشف فارس القول فى كلّ اتجاه، وقد انقلب متحمساً ثائرًا، كعهدنا به فى قصائده، ثم حان الرحيل، فودّعنى الشاعر باحتفاء كبير لم أكن أتوقّعه، وقال لى الأستاذ عطية ونحن راجعون، لقد كان وجودك ضرورياً. لقد سَعِدَ الشاعر بكَ كما سعدنا بِكَ جميعًا.

* * *

الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

من مِنَّا لايذكر كاتب اليوميات الرائعة بجريدة الأخبار، لقد كان خطًا أدبيا رائعًا أعاد لهذه اليوميات دسامتها المغذيّة حين كان يكتبها عباس محمود العقاد، وإسماعيل مظهر، وزكى عبد القادر، وغيرهم من أفذاذ الأدباء، وقد أظهر الكاتبون تحت هذا العنوان أنهم لايبدعون إلاّ إذا كانوا من رجال القلم، أمّا أن يكون الكاتب موظفًا بالجريدة، ويجدُ مِنْ واجبه الصحفى أن يكتب ليملأ الفراغ، فهذا ماهبط بمستوى اليوميات إلى حدّ مؤسف!

أجل، كان محمد فهمى عبد اللطيف من رجال الْقَلَم، بل من كبار رجاله، ومؤلفاتُه الأدبّية الرصينة، وبحوثه التاريخيّة عن دولة الدراويش، وأبى زيد الهلالى، والفتوة الإسلامية، وماكتبه تحت عنوان (فلاسفة وصعاليك)، والفن الإلهى، وموازين النقد الأدبى، كل ذلك يضعُه فى الصف الأول بين الكرام الكاتبين، وحسبه أنه ظلّ إلى مدى ثلاثين عامًا يكتب المقال السياسى بجريدة المصرى ثم بجريدة الأخبار، لكن بدون توقيع، وكذلك كان يكتب كثيراً من المقالات الأدبّية فى مجلة الرسالة بتوقيع (الجاحظ) ولكن القراء يعرفون جيداً أن الجاحظ هذا هو محمد فهمى عبد اللطيف.

أول لقاء:

كنتُ كتبتُ مقالاً أدبيا عن شاعر البادية الكبير الأستاذ محمد عبد المطلب رحمه الله بمجلة الرسالة، وقلتُ فيه إنه رائد من روّاد المسرح الشعرى سبق أمير الشعراء بما أبدع سنة ١٩١١م حينَ كَتَبَ تمثيليات شعرية عن ليلى العفيفة، وامرئ القيس،

وهى محفوظة بدار الكتب، وقد طبعت فصول منها ببعض المجلات الأدبيّة، وما كادَ مَقَالِي يظهرللقراء حتى تعقبه الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فذكر أنى خالفتُ الحقيقة الأدبيّة فيما ذكرت، لأن شوقياً قد بدأ بكتابة مسرحية على الكبير فى أواخر القرن التاسع عشر حين كان طالبًا بفرنسا، ونشر فصولاً منها إذ ذاك، ثم ترك الأدب التمثيلى حتى عاد إليه سنه ١٩٢٧، وإذن فقد سَبَق الشاعرَ محمد عبد المطلب فى ريادته التمثيلية، على أن شوقياً مسبوق فى هذا المجال. لأنّ الشاعر اللبنانى خليل اليازجى وضع مسرحية تحت عنوان (المروءة والوفاء) قبْل شوقى بعشرين عامًا! وكانت مسرحيةً مبتدئةً بدون شكّ، متواضعةً فى نهجها المسرحى، ولكنّها أول مسرحية على كل حال.

قرأت ماكتبه الناقد، فبادرت بشكره فى مجلة الرسالة، ثم سمحت الظروف بمقابلته عرضًا فى مجلسٍ بجريدة البلاغ، فقدّمتُ نفسى إليه فنهضَ مُرحِّبًا، وقالَ: إن تعقيبى على نقده سيمنعه من تعقّب مقالاتى والردّ عليها، لأنّه تعقيّب مُهذب عفيف، وأنا أتضاءلُ أمام الروح الأدبيّة النزيهة، قلتُ له: ولكن، هبْنى أخطأت فهل تَسْكُت؟ قال: تلك طبيعتى.

ثم اعتدلَ إلى الوراء، وانطلقَ فى الحديث قائلاً، لى موقفان متعارضان، فى هذا المجال أذكرُهما لك لأكشفَ لك عن نوازعى النفسية التى لا أملك عنها منصرفًا.

موقفان متعارضان:

أمّا الموقف الأول، فمع أستاذى الكبير أحمد يوسف نجاتى، أستاذ الأدب بكليتىْ دار العلوم واللّغة العربيّة، حيث نشر عدة أجزاء من كتاب (نفح الطيب) وعلق عليها تعليقًا علميا يدل على سداد بصر، وسعة اطلاع، ولكن المحقق مهما أتقن التحقيق، فسيفوته ما يجب أن يصحح من الأقوال، فنشرت نقدًا غاضبًا تشوبه لهجة التعالى، لأنى كنت لا أزال فى عهد الطلب، ولم أفهم ما يُقال عن تواضع العلماء كما أفهمه الآن، وكان الأستاذ نجاتى أستاذى بالكلية، وكأنى فى

سكرة الشباب أردت أن أقول لزملائى بالكلية إنى أصحح أخطَاء الأستاذ الكبير، وقد قرأ الزملاء ما كتبتُ وطاروا به إلى الأستاذ نجاتى، فصرت أتحاشى لقاءه، ولكنّى فوجئت برده المهذّب النبيل يغمرنى بلطفه ورقّته، مع مناقشة موضوعيّة سلّم فيها ببعض ماقلت، وجادَلَ فى بعض آخر عن إخلاص للحقيقة، فشعرت بارتفاع خُلقه الطيب، وكنت قد كتبتُ مقالاً ثانيًا عن بقية مالا حظت من الأخطاء، فَمَزَّقته لفورى، هذه طبيعتى مهما كانت مواضع الخلاف!

أما الموقف الثانى فموقفى مع الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم، حيث نظم قصيدة رنّانة فى مناسبة سياسة، وقد قرأت القصيدة فلمست فيها احتذاءً واضحًا لقصيدة من وزنها وقافيتها للشاعر الكبير أبى تمام، يمدح بها الخليفة المعتصم، فكتبت مقالاً نقديًا بمجلة الرسالة أقرر هذه الدعوى بالدليل الواضح، والاستشهاد الصريح، ووعدت بتتمَة البحث فى العدد القادم، ولكنّ الأستاذ الجارم ثار ثورة عنيفة، واتّصل بالأستاذ الزيات محتجا على ماكتبت، وغاضبًا أشد الغضب، بدون أن يكتب من النقد سطرًا واحدًا يعارض ماقلت، وذهبتُ بالمقال الثانى للرسالة، فأبى صاحبها أن ينشره، وقال: إن الجارم هائج مائج، وأصدقاؤه بوزارة المعارف قد رجونى أن أراعى خاطره، وهم أيضًا أصدقائى، فأنا مضطر.

سمعت كلام الزيات، فاتجهت بالمقال إلى جريدة يومّية، ونشرته بها، مُوَضِّحًا ما كان من أمر الجارم والزيات معًا، لأنى لا أقبل العنف والاستعلاء.

هذان موقفان لى، أتحدث عنهما كما كانا، وإن خَالَفنى الكثيرون فى موقفى الأول، لأنى إنسانٌ قبل أن أكون ناقدًا.. ولى طبع يستعصى على التغيير.

دولة الدراويش:

أصدر الأستاذ كتابًا تاريخيّاً تحت عنوان «دولة الدراويش فى مصر» متحدثًا عن الولى الشهير «السيد البدوى»، وقد رجع إلى مصادر كثيرة لينتهى إلى أنّ أكثر ما يُقال فى هذه الناحية مختلق لا حقيقة له، وقد صحب ظهور هذا الكتاب دوىّ رنان ببعض المجلات الدينيّة التى تستهوى قراءها بتأييد الكرامات، وتسجيل

الخوارق، وفى الكاتبين من ترك الحقائق التاريخيّة إلى السبِّ والانتقاص، فكتبتُ مقالاً هادئًا، أناقش فيه ما قاله الناقدون بالتى هى أحسن، ورأيت أن أعرضه على الأستاذ فهمى لأعرف وجهة نظره، ولكنّه قابلنى بما لم أتوقّع، إذ أصَرَّ إصراراً شديدًا على عدم نشر مقالى، وقال: أنت لا تعرف ماذا قوبلت به فى قريتى الصغيرة بالشرقيّة، حيث ذهب العامة إلى منزلنا وتحدّث الناس بأنى (كفرت) وشق الأمر على أهلى، فجاءتنى الوفود تلوم، وأنا لا أخشى النقد التاريخىّ، ولكنّ أقاربى يحاصروننى، وأنا فى حاجة إلى استرضائهم، وأخشى أن تنشر مقالك، فيجىء من يرد عليه ويرمينى بالفسوق، فتزيد النار لهيبًا حولى فى القرية، ويتحدث الناس هناك بما يؤلم أسرتى.

قلت: ماعهدتك تخشى النقد هكذا! فصاح الأستاذ: أى نقد هنا يارجب! المسألة مسألة قرية وأهل، وكرامة يظنونها تتحقّق فى بعدى عن المناقشات الدينيّة، وإذن فَمُكْرَهٌ أخاك لا بَطَل!

ثم صفق بيده، وطلب لى تحية ثانية، وقال: لقد كتبتُ من قبل كتابًا (عن أبى زيد الهلالى) فمزقت حقيقته الأسطورية ورجعت به إلى حيّزه الضئيل فى ساحة التاريخ، وهو حيّز لايجعله بطلا تاريخيا، وهو بطل شعبى، يهتم به الريفيّون فى القُرى، ويجلسون لقراءة القصص الشعبى الذى يتحدث عنه فى لذة وسرور، وقد ذاع كتابى فى القرية، وعرفوا أنى أنكرت البطولات الزائفة التى يخلعها رواة السيرة الشعبية عليه، ولكنهم لم يثوروا، ولم يتوجهوا إلى منزلنا لائمين، وذلك لأن أبا زيد الهلالى ليس شخصية دينيّة، أما السيد البدوى فشخصية مبجلة لديهم، وأنا لا أنكر مكانته كرجل، ولكنى أنكر أن يضيف إليه بعض الأدعياء أموراً لا تثبت فى ميزان التاريخ!

قلت: سأطوى المقال آسفًا، كيلا ينبعث الضجيج من جديد . .

طرفة ذات دلالة:

كان محمد فهمى عبد اللطيف بحكم اشتغاله بالصحافة قرابة نصف قرن ذا

اتصال وثيق بكبار المشاهير من رجال السياسة والأدب والفن، وهو يعرف من تاريخ هؤلاء ما لو جُمع لارتفع بأناس وانخفض بآخرين، يعرف ذلك عن عيان ومخالطة، وإذا فاض فى حديثه عن ذكرياته التاريخية فهو نبع متدفق لا يغيض.

أذكر من طرائفه ذات الدلالة الأليمة التى حدثنى بها عن الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم رحمه الله، أنّه أفاض ذات مساء معى فى حديث عن منزلته الشعرية، وأكد أنه كان الثانى بعد شوقى فى مصر، وأن إقامته بدمنهور قد حجبته عن الاتصال المباشر بالسّاسة والصحافة، فلم يأخذ حقه من التقدير.

قال الأستاذ فهمى: لقد أقامت السيدة هدى هانم الشعراوى مسابقة شعرية لأدباء الشباب فى موضوع وطنى، وتألفت لجنة التحكيم من كبار الشعراء إذ ذاك، وهم خليل مطران، وعلى الجارم، وأحمد محرم، واجتمعت اللجنة وأصدرت قرارها، وأقيم احتفال لتوزيع الجوائز المالية للفائزين من الأدباء، وهى جوائز مغرية بالنسبة لقيمة الجنيهات فى هذا العهد، ثم رأت السيدة هدى الشعراوى أن تخصّ لجنة التحكيم بماداليات تقديرية، لأنهم أرفع من أن ينالوا الجوائز المالية، ففرّقت المادليات على الشعراء الكبار، وكان من حظى أن أجلس جوار الشاعر الكبير أحمد محرم، فلمحْتُ فى وجهه دلائل الحسرة والألم، فقلت له فى همس: أخشى أن تكون مريضًا ياسيدى، فقال صامتًا: ماذا أصنع بالمادلية التقديرية يا أخى، وليس فى جيبى أجرة القطار الذى سيحملنى إلى دمنهور، إن مطران والجارم يحمل كل منهما البكويّة ويعيشان فى رخاء وهناءة، لقد كنت أتوقع مكافأة مالية للجنة التحكيم إذ قمت بعمل شاق لابد أن يؤجر، وهـأنذا لا أجد ما أسافر به، وهنا قام الأستاذ فهمى إلى حيث تجلس السيدة هدى هانم الشعراوى، وأسرّ إليها ببعض ماسمع، فدهشت لما فاتها من أمر الأستاذ محرم، وأمرت سكرتيرها الخاص أن يضع خمسين جنيها فى مظروف يحمله فوراً للشاعر الكبير، وفوجىء محرم بما صنع الأستاذ فهمى، فناداه مستفسراً، وقال: أخشى أن تكون قد هتكت ما أستر، فقال أبدًا والله، ولكنّ المال كان مُعدا من قبل ليصلك عن طريق البريد!!

مع يوسف وهبى:

قابلت الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف ذات مساء بمقهى رضوان بالعتبة الخضراء، فوجدته مرحًا طروبًا، وكأن ثروة هبطت عليه من السماء، ثم قال لى: ستتناول معى طعام العشاء فى محل الكاشف الليلة، وهو أقرب مطعم إلينا بالمقهى، قلتُ: لا أعلم أنك من ذوى الثراء والبذخ حتى أستجيب، قال: وهل العشاء يستدعى ثراء؟ هلمّ يا أخى، وسأحدثك عن يوسف وهبى الذى هددنى بالتليفون عصر اليوم بأنه سيرفع قضيّة ضدّى باسم الكرامة المصرية، فقلت له مستهزئًا: والله إنى أتعجل رفع هذه القضية، وأتمنى لو تعقد المحاكمة هذا المساء! فسألته: ما السبب فى هذا كلّه؟ قال: لقد أصدر الأستاذ يوسف وهبى بيانًا باعتباره نقيبًا للممثلين يستعدى وزير الشئون الاجتماعية على الشركات الأجنبية التى أصدرت نسخاً من أفلامها ناطقة باللّغة العربيّة، لأن عرض هذه الأفلام فى دور السينما المصرية سيضاءل من كسب الأفلام المصريّة، وحماية الفنانين بمصر من شأن الوزير، وقد انتقدتُ هذا الطلب المتعسف، لأنه يمنع منافسة الأفلام الجيّدة باعتبارها خطرًا على أفلامنا الضعيفة، وقلت إنى لا أدافع عن الأجنبى بحال، ولكن يجب على الأفلام المصرية أن ترتفع إلى مستوى الفن العالمى، لا أن تكون تهريجًا وزيفًا وإثارة جنسيّة ثم يطالب أصحابها بمنع الفلم الجيد، ومثل يوسف وهبى فى ذلك مثل من يطلب من المؤلفين العرب منع ترجمات المؤلفات الغربيّة لأساطين أدباء أوربا كيلا تنافس مؤلفات طه حسين وتوفيق الحكيم! وهذا مالا يعقل بحال، وما كاد نقدى يذاع حتى ثار يوسف وهبى وكتب يقول إننى أخدم الشركات الأجنبيّة بما أدعو له، وينصحنى أن أرسل مقالى إليها، لتبعث لى بمكافأة سخيّة باعتبارى صديقًا للاستعمار الأجنبى. وهو ردّ زائف يترك نقطة الخلاف إلى تدجيل غوغائى لا قيمة له، فسارعت بالرد المستنكر، وقلت: إن ما قاله نقيب الممثلين شبيه بما يلقيه على المسرح من تشنجات انفعالية تُضحك ولكنها لا تقنع، وأنه أثبت أن إخوانه من الممثلين يتاجرون فى الفن ولاينشدون ارتقاء الجمهور، والجمهور مضطر إلى التخلّى عن موائدهم إذا وجد الزاد الدسم عند الآخرين!

هذا ما قلته، ولا أدرى من أين عرف يوسف وهبى رقم التليفون الخاص بى، ففتح ميكروفونه علىّ، ليعلن أن الأمر سيرتفع إلى القضاء متهمًا إيّاى بمناصرة الاستعمار! وكانت فكاهة بالنسبة إلىّ!

رحيل وفراق:

ظللت أحتفظ للأستاذ فهمى بوثيق الود، وكنا نتقابل كثيرًا لنتحدث عن الأدب والثقافة فى ارتياح، ثم قرأت النبأ الأليم عن رحيله، فعزّ علىّ أن يذهب هذا النابغة الأزهرى بدون أن تُقام له حفلة تأبين، وكنت عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، فوجهت الدعوة إلى حفل تأبينىّ بمدرج الكلية يحضره صفوة الأصدقاء والأدباء من عارفى قدر الراحل الكريم، وتحدد الموعد، وأعلن عنه فى الصحف، فأم الجمهور مدرج الكلية، وجاءت أسرة الراحل ممثلة فى أبنائه الكرام وبنى أعمامه، وأفاض المتكلمون فى مآثر فهمى، بحيث أخذ كلّ متحدّث ناحية خاصة من نواحى نبوغه، ولو قدّر لهذه الكلمات أن تجمع فى سِفْرٍ خاص لكانت ترجمة رائعة لحياة الكاتب واتجاهاته الأدبية، وكانت جريدة الأخبار اليومية قد أرسلت مندوبها لينقل إلى القراء خلاصة الحفلة فى مكان بارزٍ شغل حيّزًا مقبولا، وقد ذهبت أصداء الحفل، وبقيت ذكرى الأستاذ وضيئة مشرقة كأسلوبه المنير.

* * *

الأستاذ نقولا يوسف

كنت أدخل مكتب صديقى الأستاذ الكبير نقولا يوسف ناظر المدرسة الثانوية فلا يخدعنى مظهره الأنيق، ودبلوماسيته الحاذقة، وابتسامته الشفافة عن حقيقة ما أعرفه عنه، فهو فقير هندى، ترك كوخه على شاطىء الكنج ليقيم خطأ بشارع سليمان محمود بالإسكندرية فى قمة بيت هندسى أقيم على النمط الرومانى، وانفرجت شُرفاته الواسعة لتستقبل نسائم البحر المتوسط محملة بعبير الورد المزدهر فى حدائق المنازل المجاورة! وليرى الناظر منها رءُوس الأشجار تتمايل فى الصباح، وثُريات الكهرباء تتألق فى المساء محاولة أن تمتد بشعاعها إلى الأوج، حيث يجلس صديقى مجلسه الهادىء ليسامر النجوم!

فإذا تركت المنزل لرؤية صديقى فى كازينو كليوباتره على شاطىء البحر حيث اعتاد أن يجلس أصيلاً فى بهوه المنبسط على صفحات الماء يتسمع من جدرانه البَلُّورية حديث الموج الثائر ويتلقى الرشاش المتناثر على الزجاج مرسلاً بصره إلى الأفق الأزرق حين يتواضع فيهبط إلى الماء فى عناق مؤثر خفاق! إذا رأيت صديقى فى مجلسه الفنان يدخن لفافته أو يكتب صحيفته فإن جلسته الشاعرة لاتخدعنى عن حقيقة هذا الناسك الهندى الذى يأخذ مظهر (الجنتلمان) الحديث!

إن الإحساس بتناسق الوجود هو الذى يجعل ناسك الهند يعشق الطير والهواء والنبات والصخر، حتى ليخال الوجود بأجزائه المختلفة لحنًا موسيقيا مؤتلف النغمات وحتى ليتخيل البحر والصخر والطير والحيوان أُناسىّ تتآلف وتتعارف!

قال صديقى الأستاذ عبد العزيز جادو الباحث النفسى المعروف: كيف تجعل الأستاذ نقولا يوسف ناسكًا هنديا، وهو الذى أرهق نفسه بالبحث العلمى، فدرس

نظرية التطور، وبنى على أساسها مذهبه الإصلاحى كما رسمه فى كتابه (الحياة الجديدة)، حين أخذ يبحث عن مدينة المستقبل كما يتصورها بخياله المتأمل، ويغوص فى حقائق علم النفس ليوضح أنماط السلوك الإنسانى، ثم يحلم بمدينة فاضلة كتلك التى حلم بها أفلاطون والفارابى وولز! ولم ينس أن يجوب الدنيا ليتحدث عن حركات الإصلاح فى تركيا، وعن مساوئ ازدحام السكان! أفيكون الناسك الهندى هو صاحب العقل المتفتح لحقائق العلوم، الهاضم لشتى الفلسفات المعاصرة، المبشر بمستقبل متفائل للإنسانية! أم يكون الشيخ الانعزالى الذى يخدر شعوره ليكون إشعاعة فى ضوء، أو قطرة فى نهر، أو شذى فى زهرة، أو هباءة فى فضاء؟!

قلت: ياصديقى، لقد خدعك القشر عن اللباب؛ فإن مباحث الحياة الجديدة تتوهج بأضواء التنسك فى كل سطر يخطه المؤلف، ولئن بدا ما يشبه التناقض بين جدية القائل بنظرية التطور والهائم فى فضاء الله مع أنسامه وذراته، فإن المحلل النفسى يزيح الأغطية الكثيفة عن الحقيقة الخالدة التى تجعل من نقولا طيرًا يرفرف بأحاسيسه النابضة بحق الكون، الهاتفة بالتسامح والإغضاء، الراحمة ذوى الطبائع الغُلْف من قساة البشرية الباذلة همساتها الحانية لكل عابر سبيل مهما لقيت من الإيذاء الغادر، وعانت من جنف الصاحب ولؤم العشير!

لقد أخذ الناسك على عاتقه أن يؤلف بين من يعرف من الأدباء فيجمعهم على فترات متعاقبة فى صومعته الناهضة فى أعلى المنزل كما ينهض الوكر فى أعالى الشجر ملتمسًا شتى المناسبات ليسقيهم الود، ويناقشهم الرأى، وليمدّ يد المعونة الأدبية والعلمية لمن يحتاج!

ولكن الثعابين الرقش تتسلل إلى الوكر الهادىء لتثير الذعر فى العش الوادع فتحوك الأراجيف وتثير الأقاويل، وصاحب العش يبتسم فى إشفاق ويقول قولة الهندى الناسك: هكذا الدنيا، يجب أن نستقبل فيها الشر كما نستقبل الخير، فلا حذر ولا ملام!

ويفد إلى الثغر كَبِيرٌ من أدباء القاهرة ينزل من نقولا منزلة الصديق، فيرى الناسك من واجبه الأدبى أن يعقد أواصر المودة بينه وبين معارفه، فيبذل الجهد فى تأثيل الود، وتقوية الوشائج، وبدل أن يجد الشكر الخالص من بعض النكرات التى جعلها معارف فى محفله، فإنه يُفاجأ بأقسى ضروب النكران! إذ هو المسئول الأول عن المصير الأدبى لهذه الإمّعات، فعليه أن يهيئ لها سبيل الظهور لدى عارفيه من كبار الأدباء، ولا عليه إذا كان هذا الإمعة المتطفل فارغ القلب والعقل فذلك شىء، وإرضاء النزوات شىء آخر يجب أن يحسب له ألف حساب! ويشهد الناسك الحالم سحب الجفاء تتراكم مظلمة أمامه، فيقول فى ابتسامة: هكذا الدنيا، ماذا كنت أنتظر؟!

ويهبط عليه فى مجلسه الوادع دَعِىٌّ من أدعياء الفن ليسمعه قصة طويلة مملة جاد بها يراعه الكليل، فيتصبر الناسك ويتجلد وهو يسمع عشرات الصفحات الفارغة تنهال على سمعه بدون أن يقطعها تثاؤبه اللا إرادى، مستعينًا على الصبر بشتى ضروب الاحتمال من قهوة ودخان، حتى إذا انقضت الحقبة المريرة اضطر الناسك إلى كلمات التشجيع مندفعًا فى حنو عاطف إلى تلمس المحاسن، ومتحاشيًا أن يمسّ كرامة الفنان الجديد ببعض مايجب من النقد، ثم تنتهى الجلسة ويذهب الناسك إلى وكره الهادىء فيسمع طرقات خفيفة على الباب فما ينهض للقاء الطارق حتى يجد الفنان الدَّعِىّ يخبره أن المحفظة قد سقطت منه، وأنه مضطر إلى اقتراض بعض المال، فيمد الناسك يده إلى جيبه ليقدم أكثر مابه، فإذا قلت له: هذا احتيال مفضوح، أجابك فى ابتسام وديع: هكذا الدنيا، ماذا كنت أنتظر؟!

وتنتشر مقالات الناسك فى شتى الصحف والمجلات العربية فيخف إليه من يرجون وساطته لدى رؤساء التحرير، فيسارع ببطاقته الرقيقة ليخط عليها ما يرضى الطالب الملحاح، ثم يتأخر النشر لبعض الأسباب، فإذا الثورة المكبوتة تتحول إلى قطيعة، ثم إلى همس راجف بتقصير الشفيع! إذ لو أخلص النية لجعل البطاقة الموجزة رسالة مبسوطة، وتأتى الأنباء إليه فيبتسم ويقول: هكذا الدنيا، ماذا أصنع؟!

ثم يغرق نفسه فى مراسلة الأوفياء من الأصدقاء ليجد فى صمت الغريب عزاءً عن لغو القريب فيجمع الظروف والأوراق ليكتب رسائل تتجاوز أصابع اليدين عدا فى مجلس واحد، وقد اجتمع لديه مما كتب وتلقى مئات من الوثائق الأدبية النادرة، بادَرَ إلى نشر بعضها بمجلة «الأدب المصرية»، وما زال أكثرها يملأ ثلاثة أدراج من مكتبه، وإن أحاسيس الوفاء لترتسم فى ملامحه الناطقة حين يتصفح هذه الرسائل بين الفينة والفينة ليشم منها عبير الشوق، وليتسمع نبضات الوفاء فى دقات فؤاده تسمعًا يعرفه الأوفياء! وإنهم لقليلون!

على أن هذا الوفاء يلقى عليه من الأعباء ما تنوء به الكواهل الشداد! فإذا علم أن أستاذه «عبد الرحمن شكرى» مثلا يشكو الشلل فى مرضه الأخير بادر إلى الترفيه عنه، فسعى إلى إصدار عدد خاص من مجلة «العالم العربى» يتحدث عن الشاعر الكبير، وملأ أكثر الصفحات بما يعنّ له من الخواطر والآراء، فإذا بلغ الكتاب أجله وانتقل الشاعر إلى رحمة الله رأى الناسك الوفى أن يعمل على نشر ديوانه، فبذل الجهد فى جمع المخطوطات وتهيئة الديوان الضخم للنشر ولايزال يبحث حتى يجد بعض الأثرياء من تلاميذ الشاعر يتطوعون بنفقات الطبع، فتزغرد الفرحة فى قلبه ويسعى إلى تهيئة الديوان طبعًا ونشرًا وتصحيحًا حتى يخرج إلى الوجود فتتلقفه وزارات الثقافة والتربية والتعليم العالى، ويكسب الثرى من ثمنه ضعف ما قدم بدون أن يذكر المحقق الجامع والمصحح الساهر بشىء، وتأتى الأنباء إلى الناسك فيبتسم ويقول: هكذا الدنيا! ماذا كنت أصنع؟!

ويموت «صِدِّيق شيبوب» فيرى نقولا نفسه مكلفًا من تلقاء ضميره بجمع مقالاته التى كتبها بالبصير فى مدة تبلغ الأربعين من الأعوام، فيسعى إلى منزل الراحل، ويشير على الأخت الكبيرة أن تحرص على مالديها من الآثار، لينسق منها مجموعات أدبية!

ثم تأتيه الأنباء بأن «خليل شيبوب» شقيق الشاعر قد ترك ديوانًا شعريا تقدم به صديق إلى مجلس الفنون فيواصل المسعى ليحيى آثار الشاعر كما نهض لإحياء آثار

الكاتب، ثم يعلم أن بعض الناشرين تسلل إلى مكتبة «صِدِّيق» وتسلم مخطوطاته لينشرها، فينتظر الأيام لينعم بإحياء ذكرى تراث صديقه، ولكنه لايجد ما يقنع، وتسأله عن ذلك فيقول: بذلت جهدى، فلم أوفق، فماذا أصنع؟!

ويختفى صديقه «محمد أمين حسونة» فجأة، فيضرب الناسك فى حيرة دامسة، ويتساءل عنه فى كل مكان ينتظر منه الجواب، ولا يزال يسأل حتى يعلم أن طائرة سيئة الحظ قد احترقت بركابها ومن بينهم صديقه الأديب، فيسكب عليه عبرات الوفاء، ويكتب عنه فى «العالم العربى»، و «الأديب» ثم يخف إلى زيارة أهله فى ميت غمر متسائلا عن تراثه ومشيراً بطبعه، فإذا خلا إلى نفسه طالعته الذكريات بأشجانها المريرة فيقول فى آهة حزينة، هكذا الدنيا! ماذا كنت أصنع؟!

وإذا كان كل ناسك هندى يؤمن بخلود الروح، فإن كاتب «المجلة الجديدة» و«السياسة» الأسبوعية»، ومترجم ولز ومحلل آرائه يشعر فى أعماقه أن هناك حاجزاً يفصل بين عقله وقلبه، فهو إذ يتحدث عن منجزات أوربا وحضارتها العلمية وآفاقها المدنية، وإذ يرسم الطريق لمستقبل العالم فى ضوء الحقائق المشفوعة بالأرقام إنما يترك لعقله المجال موصدَ الباب أمام هبات الروح ونسمات الوجدان، ولا أدرى لماذا أحسّ أن نقولا غريب عن عالمه وهو يخبُّ ويَضَع فى طريق الثورة الإيجابية، ولكنى أشعر أنه يمثل نفسه أصدق تمثيل حين يتحدث فى مرات كثيرة عن العالمية الإنسانية فيراها المبدأ الأول للتعارف البشرى ويتصور الكوكب الأرضى يتفاهم بلغة عالمية مشتركة، وقد زالت عن العيون غشاوة التعصب الجنسى واللغوى، ثم يهجم على أبطال الحروب من أمثال تيمورلنك، ونابليون، فيحكم بأنهم سفاحون مجرمون، وأن تسجيل تواريخهم مما يعوق التقدم الإنسانى، وأولى بهم فى مجال الذكر أبطال الإنسانية من أمثال لنكولن، وغاندى، وتولستوى، ودُعاة السلام، وإن الروح الهندية لتتجلى فى مثل قوله:

«لنحب الإنسانية كمظهر للحقيقة الخالدة، ولنعلم أن كل بشرى لايخلو من فضيلة أو فكرة أو جمال، ولنعرف أن هذا الكون كله لايساوى فضيلة بشرية، أو

فكرة إنسانية، إن البشرية طفلة جميلة ساذجة تميل إلى المشاكسة، وتنزع إلى الشر، ولكن من ذا الذى ينقم على طفلة جميلة مهما بلغ شرها، إنها مقيدة بقيود الأنظمة وأغلال الجهل والألم، وليست هى المذنبة لأنها طيبة فى جوهرها!»

وإذا كان الناسك الهندى قد ذهب فى حياته الجديدة إلى خلود الروح، فإنه لايتنكر لدراسته المنهجية فى شىء بعد أن تبلورت فى إشعاعة النفس إلى قيم جديدة تمده بالأمن الهادىء والرجاء البعيد، ولقد آمن «هـ. ج ويلز» المادى بالوحدة العالمية، كما آمن «رابندرانات طاغور» الهندى، فتحدث نقولا يوسف عن المفكرين الكبيرين حديثا وامضا لا ينقصه النبض، ولكنه فى حديثه عن الشاعر الهندى كان يحس بالانسجام الداخلى على نحو لم يتهيأ له فى حديثه عن المفكر الإنجليزى، وإن ماكتبه نقولا عن «طاغور» و «كاليداسا» و «بوذا» و «زينة النساء» ليشعرك برنين مؤثر لاتكاد تسمعه فيما كتبه عن غير هؤلاء من أمثال «ملتون» و «هوراس» و «شللى» و «أوسكار وايلد» و «جولد سميث» لأن الأدب الهندى المثالى ـ كما قال نقولا يوسف ـ من أكثر الآداب روحانية، ومن أعمقها غوراً، وأشدها رهبة، والهنود كما وصفهم تاجور تتجلى فيهم الشاعرية والفلسفة بطبيعة نشأتهم ومذاهبهم.

لذلك كان نقولا يوسف الناسك الهندى يعيش فى جوه بدون أن يدرى، وهو يخط خواطره عن ذوى معشره فيما وراء الهملايا من ربوع حالمة تهيم بالوجود المطلق، وتعتقد الخلود اعتقاداً يخفف عنها ما تصطدم به فى الحياة من عقبات لا تلبث أن تزول حين تتخلص الروح من قفصها الضيق إلى حيث تنطلق!

لذلك لا أدهش حين أرى الابتسامة الراضية تضىء على وجه المفكر الحالم فى أحلك ساعات الغضب، إنه يسمع أن زملاءه فى الدراسة والوظيفة قد بلغوا وكالة الوزارة، ودرجات مديرى العموم فى وَثْبٍ سريع، فيبادر بالتهنئة راضيًا سعيداً، ثم تجيئه الأنباء أن تلاميذ تلاميذه يحتلون الصحف الأولى من جرائد اليوم مثلما كان يحتل الصحيفة الأولى من «الأهرام» وهو فى سن العشرين، كما تهيئ لهم

المصادفات من يطبع هراءهم التافه فى كتب، ويذيع تمثيلياتهم الصبيانية فى مسرح وإذاعة وتليفزيون فيبادر بالتهنئة الصادقة، فإذا قلت للكاتب الأصيل: أين أنت بعد جهاد خمسين عامًا أو تزيد؟ قال لك: مالى وللأضواء؟ أنا أكتب مقالى الأسبوعى منذ عشرين عامًا فى جريدة «دمياط» الإقليمية التى لا يقرؤها غير أبناء بلد واحد! وما حدثت نفسى بالانقطاع، على حين أعلم تمام العلم أنى أغنى لنفسى، ثم أنا أواصل النشر منذ أعوام طويلة فى صحيفة «الطالبة» حسبة لوجه الله، لأنى أستحى أن أتخلف عن عادة من عاداتى الثقافية...

ويبتسم الناسك الهندى وهو يقول: ما الفرق بين صحيفة طائرة الصيت ومجلة إقليمية محدودة النطاق، إن الحروف تُرَصُّ، والعجل يدور، والأوراق توزع، ثم تمتهن بعد ذلك فى الأغلفة وحفظ الملابس والأوعية، ولو كان للورق روح كما للإنسان لقلت: إنه يحلم بالخلود! ولكن هنيئًا له فقد عرف فى النهاية أنه سيكون هباءً، ويتحول إلى مادة مغايرة! فلا قصص إذن ولا مقالات!!

ولعل قارئ نقولا فى مجموعاته القصصية «هم وهن» و «دنيا الناس» و «مواكب الناس» يرى الحياة الزاخرة بطوفانها الثائر يرسمها الكاتب الناسك فى هدوء متسامح عطوف، لأن شعور الرحمة لدى الهندى الزاهد لايسمح له بالقسوة على الأشرار، بل ربما تَلَمَّسَ لهم العذر فى إيضاح البواعث واكتناه الدوافع، وهو مما لا حيلة فيه فى طبيعة الكاتب الرحيم! وكثيرًا ما تجد بعض الأبطال يبتدئ شريرًا ثم يسعه عفو الكاتب فيسايره فى رفق متعطف حتى ينقذه فى النهاية مما كان يتوقع قارئ مثلى له من نكبات، وأنا فى هذا العرض الطائر لاأحلل أدبًا، أو أفسر اتجاهًا فأؤيد المؤلف أو أعارضه، ولكنى أسجل بعض انطباعاتى عَمَّا قرأت لصاحبى فى ميدان الأقصوصة، تاركًا البحث المنهجى لساعة أخرى قد تحين فى مجال غير مجال الذكريات!

* * *

الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين

قرأتُ للأستاذ عبد الفتاح أبو مدين قبلَ أن أسعد بمعرفته، فكنت أجدُه ذا حدبٍ بالغ على أدب الناشئين يُتابعهم بالتوجيه العاطف، ويُسدّد خطواتهم بالتشجيع الملح، ولكنّه مع الأدباء المَرْموقين مُرتفع النبرة، يعد عليهم أخطاءهم فى ثبات، فإذا اشتعلتِ المعركة تقدّمَ إليها واثق الخُطوة، وقد أثمرتْ خطته مع الشباب الصاعد من ذَوى الأقلام، فأصبحواُ بمرور الزمن أصحابَ رسالةٍ، وفيهم مَن ولى التدريس فى أرْوقَة الجامعة، فلم يفتهم أن يعترفوا بتوجيهه، أما الذين ضاقُوا بالنقد من الكبار فقد أدركوا بعد حين إخلاصه للحقيقة الأدبّية، وعرفوا أنّه سليم الصدر، صادق الاتجاه، فآثروه بالودّ، وفيهم من جمح وشذّ وأصابع اليد ليست على مقياس واحد كما يقول المثل الذائع.

تلقيتُ ذات صباح رسالةً من الأستاذ محمد عبد الحليم محمود السفير المفوض بوزارة الخارجية المصريّة، يقولُ فيها: إنه قرأ بالصحف السعودية هجومًا حادا على والده المغفور له الأستاذ الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، وقد جاءَ ذلك تعليقًا على مقالٍ لى كتبتُه عن الإمام الراحل، وكاتبُ المقال هو الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين، ويرَى النجلُ الكريم من واجبى أن أسارعَ إلى الردّ العاجل حفظاً لجانب الإمام الأكبر، ورعايةً للحقيقة أن تعصف بها العواصف، فقلتُ فى نفسى إنّ عبد الفتاح أبو مدين كما أعهده لا ينازلُ غير الكبار، فهل ظنّنى كاتبًا كبيرًا؟ إن كانَ الأمر كذلك فهنيئًا مريئا غير داء مخامر لعزّة ما استحلت ـ كما يقول كثير.

ثم راسلت بعض زملائى بجامعات السّعودية كى يرسلوا لى ماكتَب الأستاذ،

فأدهشنى أنه لم يكتب عنى مقالاً أو مقالين أو ثلاثةً بل كتب عدة مقالات متتابعة، إذ وقعَ فى يده الجزء الثانى من كتابى «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» فآثرهُ بالتحليل المتتبِّع، فتعرض لنفرٍ ممّن تحدثتُ عنهم، كالبشير الإبراهيمى، ومحمد الخضرى، وأحمد غلوش، ومحمد رشيد رضا، وسيد بن على المرصفى، وعبد الحليم محمود، فأبدى وجهة نظره الناقدة فيما كتبتُ، وطبيعى من كاتب سعودى ملتزم أن يُعارض اتجاهَ الإمام الأكبر فى منحاه الصوفى، فالخلافُ فى هذه الناحية ممّا تأكدَ وتأصّل لدى كُتّاب المملكة، ولكلٍّ منحاه الذى يثق فى صحته، فرأيتُ ألاَّ أجادلَ فى أمرٍ كثُر فيه الدفع والجذب قرابةً قرن ونصف من الزمن، لأنّ كلتا الوجهتين قد اتّضَحتْ، فما يأتى النقاش بجديد، ولكنّى رأيت الأستاذ أبو مدين يقول فى بعض ما كتبَ: إنه لم يجدْ فى الأسواق غير الجزء الثانى من كتابى فحسب، وأنّه بحث عن الأجزاء الأخرىِ فلم يهتد إليها بالقاهرة، فرأيت من حقه علّى أن أهدى إليه الجزء الأول مع الثالث والرابع والخامس، وتفضلَ فأهْدَى إلىَّ كتابه الحافل «فى معترك الحياة».

نظرة فاحصة:

وقع فى يدى كتاب «فى معترك الحياة» فألفيتُه فى حجمه الكبير سجلاً يتسع لآثار كثيرة تفرقت فى الصحف، ورأى الأستاذ أن يجمعها فى كتاب مستقل، وقد قال فى المقدمة إنه لم يكنْ ليحفل بجمع هذا الفصول، لاقتناعهِ بأنها آثار كُتبت على وجه السرعة، وليس فيها ما يستحق أن يُعنى به، ولكنه رأى فى القراء من يرحب بالمقالاتِ المتفرقة، لسهولة تحصيلها، فاختار أن يُشبع رغبة هؤلاء، ثم اعترف أنّه حذف الكثير مما كتب، لأنه شيء قد مضى مع وقته! وإذنْ فما بقى بعد الحذف جدير بالاهتمام، وهو ما وصلتُ إليه بعد قراءة الكتاب، ولم تكنْ كل أبوابه غريبةً علىّ، فقد قرأت بعضها فى صحف السعودية حين كنتُ بالمملكة أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود، ولكنّ اجتماعَ هذه الأبواب فى مجلد كبير دفعنى إلى القراءة! ووجدتُ فيما قرأت أنّ جميع ماكتبه الأستاذ أبو مدين عن كتابى، قد احتّل صفحاتٍ متتابعة، ومهما اتّفقتُ معه أو اختلفت، فإنّ فى حرصه

على جمع هذه المقالات الناقدة تقديراً واحتفاء بكتاب متواضع، قد يكون غيره أجدرَ منه بالاحتفاء، وأذكر أن الأستاذ قد أخذ عليَّ أن طويتُ بعضَ الأحداث المهمة فلم أشر إليها، وهذا حق، لأن ما طويتُه سبق أن تحدثت عنه فى مجال آخر، كما أخذَ عليّ كثيراً من الرفق مع الأعلام، وأنا أَرى أن التعاطفَ الذى لاتضيعُ معه الحقائق أدنَى إلى الصواب، لأن الكاتب ـ أصلا ـ لم يكن ليترجم لغير مَن قام بجهد رائع يشكر عليه، لاسيما إذا كان من أعلام النهضة الإسلامية، فهل أجد من يوافقنى؟

وما تحدثت عنه فى صدر هذا المقال من قسوة الأستاذ عبد الفتاح على الكبار، يجدُ شواهده الدالة فى صفحات الكتاب، حيثُ تعرض لمحاضرات أدبيّة قيلتْ فى مؤتمر مشهود، فى بلد شقيق وقام بها من رجال الفكر من تصدروا مكانة القيادة فى دولهم، ولكنّ منهم من تساهل فى إعداد محاضرته، وأتَى بسطورٍ تجتمع لتتحدّث عن الخواطر العامة الذائعة بدون حرص على تقديم ما يجذب الفكر، فى مؤتمر حافل أُعدّت برامجه، ورسمت خطواته واختير متحدثوه! وقد أشفقتُ كثيراً حين وجدتُ الكاتب الناقد بقسو على أديب مفكر هو الأستاذ محمد أديب العامرى رحمه الله لأنّه لم يأتِ بجديد، وأنا أعرفُ للعامرىّ أصالةً نادرة، فهو مثقفٌ واسع الاطلاع دقيق النظر، ومن يَدرى، فلعلّه كَتبَ الجيّد، ولم يُوافق القائمون على المؤتمر على إذاعة كل ما قال، لقد حصلَ لى ذلك شخصيا! فماذا أصنَع ويصنع العامرى رحمه الله.

أما الجميلُ حقا، فهو ما ألحّ عليه الأستاذ أبو مدين من ضرورة تكريم الروّاد، روادِ الأدب المعاصر فى السعودية، لأنّ هؤلاء قد حفروا طريقَهم فى الصخر المتحجر، قبل أن تتيسّر الأمور فى المملكة، فقاموا برسالة الأدب باذلينَ من جهودهم الشاقة تأليفًا وطبعًا ونشراً ما لاتسمح به ضَرُورِيّاتهم الملزمة، والفرقُ بعيدٌ جداً بين ما يجدُه شبابُ اليوم من وسائل النشر، وطُرق التشجيع المختلفة، وبين ما قامَ به رائدٌ من هؤلاء كان يجمعُ حروفَ المطبعة بنفسه، ويديرُ العجلات بيده، ثم يرسلُ المجلة إلى القارىء الكبير فى منصبه فيجد الصدود! إنّ اهتمام أبو مدين

بتكريم هؤلاء، والإلحاح فى ذلك حتى استجاب أولو الأمر إلى دعوته، ممّا يُحسَب له فى مآثره الأدبيّة، وهى كثيرةٌ كثيرة كما أرى.

دعوتى للمحاضرة:

يقوم الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين على رئاسة النادى الأدبى بجدّة، وهو يبذل جهده الكبير فى أداء رسالته الأدبيّة على أكمل وجه يراه، وللنادى إصداراتُه العلمية الذائعة فى مختلف فروع المعرفة كما له محاضراته الأسبوعية التى يفدُ لإلقائها جماعةٌ من ذوى الدراية فى ربوع العالم العربى جميعه، وقد تفضّلَ مشكوراً فدعانى إلى إلقاء محاضرةٍ أدبيّة بالنادى، تركَ لى تحديدَ موضوعها، وكان العراك الفكرىّ حينئذ دائرًا على نشر كتاب ألف ليلة وليلة فى صورته المبتذلة وحُكْمِ المحكمة القضائيه بمصادرة النسخة المستهجنة، فرأيتُ أن يكونَ موضوع محاضرتى عن خطورة الأدب الداعر، فكتبتُ بحثًا موضوعيا، يَرصد ظاهرة الأدب المكشوف فى التراث العربى منذ ابتدائه فى العصر الجاهلى حتى اليوم، وطبيعّى أن أعرض أقوالَ المؤيدين لنشر هذا اللون، وأقوالَ المعارضين، لأن القضية عميقة الجذور، تعرض لها نفر من الباحثين منذُ عهد الجاحظ، وتوالت الكتابة تأييداً وتفنيداً على مرّ العصور، وحيرةُ الباحث هنا فى اختيار ما يقدّمُه فى محاضرة واحدة، لأنّ المادة دسمة حافلة! وإذا كنت أُنادى بالالتزام الخُلقى فإنّ طبيعة البحث تدعُو إلى عرض آراء الجهة المقابلة، وفيها من أعلام الفكر قديمًا وحديثًا من يُحسب له حسابه الكبير لاَ فى دوائر الفن الخالص فحسب، بلْ فى داوئر الدين المتشدّد، لأنّ فريقًا من علماء العصر الحاضر قد أيّد وجهة النشر، مشيراً إلى انّ الكتبَ القديمة يجب أن تُنشر بدون حذف رعايةً لحق المؤلّف، فإذا وُجد اعتراضٌ فليكن فى الهامش مع الحرصِ على ماجاءَ بالأصل مهما انحدر إلى الهاوية، ! لقد اتسعتِ المحاضرة للمناقشة الهادفة، وكان مَن عادة النادى الأدبى أن يفسح مجالَ التعليق لَمن يريد، فتقاطرَ المتحدثون ما بين مؤيد ومعارض، وفيهم من خرَج عن طبيعة البحث فذكرَ أموراً شاذة لاتجد موضعها فى هذا المكان، ثم عنّ لى أن أعقب، فوجدتُ الأستاذ عبد الفتاح يقترُب من أذنى لأغضى عما قد يحدثُ

البلبلة فى التعليق، مكتفيًا بالخلاصة الدقيقه المتركزة فى جوهر الموضوع، وهذا ماكنتُ أريده، وأذكر أن صديقى الإذاعى اللامع الأستاذ فاروق شوشة كانَ من السامعين، وقد أسعدَنِى بتعليقه الصائب، كما اتسع المجال لعرضٍ نماذج من شعره المبدع، صادفت ارتياح الجمهور، وقضت على ما تركه النقاش من احتدام.

نقد هادف:

أتاحتْ لى زيارةُ النادى، أن أقف على مطبوعاته المتعدّدة، وأن أقرأ مجموعةَ المحاضرات التى جُمعت فى أجزاء كبيرة بلغت العشرة، فعنّ لى أن أبدىَ رأيًا فيما قرأت، إذ رأيتُ بعضَ المحاضرات تنحوُمنحى التخصص الدقيق، فتعرض مصطلحاتٍ علمية، ونظريات فنيّة أكثرهُا موغل فى التعقيد، وجمهورُ النادى - ككل نادٍ أدبىّ فى الشرق والغرب - جمهورٌ مثقف، لاجمهورٌ متخصص، ومثلُ هذه البحوث الأكاديمية العويصة مجالُها القاعاتُ الجامعيّة فى الكليات المتخصصة، أما أن يأتى الجمهور المثّقف، ليستمع فى دائرةٍ خاصّةٍ محدودة مالا يهضمه من الآراء التى وفدتْ إلينا ولم نستقرّ معها على رأى، فإنّه لاشك سيشعر بملل يدعوه إلى العُزوف عن المحاضرات، لذلكَ رأيت أن أُشافه الأستاذ أبو مدين - وهو رئيس النادى - بما دار فى خَلَدى، مُراعيًا حق الجمهور الأدبى فى الاستمتاع والإشباع! وقد استمعَ إلىّ الأستاذ فى بشاشة تدلّ على رحابة الصدر، وسعة الحلم، ثم قال: إنّ من الممكن أن تُعلن رأيك فى صحيفة أدبيّة، ليكونَ موضع نقاش فى مجلس إدارة النادى، فهو الذى يحسم الموضوع على وفق ما يطمئن إليه، ولا أدرِى لماذا تقاعستُ فلم أفعل، وربّما وجدت من آداب الضيافة الكريمة ألاّ أكونَ مصدر مناقشةٍ ومخالفة، وحسبى أن شافهت صاحبى بما رأيت.

تكريم أديب كبير:

فى زيارتى الأولى لجدّة مضيتُ لزيارة أديب كبير بمكة، له مقامه المشهود فى المجتمع الأدبى، فوجدتهُ فى مرضه الأخير يُعانى آلام الشيخوخة، وخرجتُ باحثًا عمّاً عساه أن يرفّه قليلاً عنه، فحدثتُ الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين عمًّا اتّجه إليه

خاطرى نحو تكريم هذا الرائد الكبير، فأعلنَ اغتباطه الزّائد بقيام نادى جدة الأدبى بهذا الواجب، وتلقيتُ بعد عودتي إلى المنصورة خطاباً منه يدعونى إلى إلقاء محاضرة أدبيّة عن صاحبى، تُلْقى الضوء على آثاره الفكرية، ونشاطه الصحافىّ، وإبداعه الفنى، فسارعتُ بإعداد محاضرةٍ مستوفاة، إذ كنت أظن أنّى سأقومُ وحدى بملء الفراغ فى أمْسية حافلة، وذهبتُ إلى النادى فوجدتُ برنامجًا واسعاً يضمّ نفرًا من أصدقاء المحتفل به، وكلهمْ قد أعدّ كلمة التكريم، وفيهم شعراء هيئوا ما يقولون، ولو كنتُ أعلم أنّ الاحتفال عام، لحددّت موضوعى فى نقطة خاصة من نقاط المحاضرة أسلّطُ عليها الضوء، فتبلغُ غايتها السريعة بدون ملل، وقلت للأستاذ: ماذا أصنع؟ فقالَ: ستَبْتدئ أوّلا، وعليكَ أن تُوجز، وتحيّرتُ فيما أقول وما أدع، ثم رأيت أن أقرأ الصفحات الأولى مكتفيا بها، وهذا ماكان، وتابعتُ كلمات التكريم فصادفتْ منِ نفسى أعظم القبول، لأنّ أكثر المتحدثين من زملاء الأستاذ، وتلاميذه، وقد ألَمُّوا بكثير مما أجهله، وفيهم من توسّعَ فى الحديث عارضًا شتى الذكريات، مع أنّ المدة الزمنيّة قد حُدّدت لكل قائل، ولم يستطع الأستاذ أبو مدين أن يعترضَ من أفاض، لأنّه ذُو جهاد حافل فى مضمار الأدب، وليسَ لمثله أن يُجابهَ بمن يدعوه إلى الإيجاز، وكانتْ أمسيةً مثمرة حقا، وقد ذهبتْ أشرطةُ الندوة إلى الأديب الكبير، فاستمع إليها راضيًا، ثم شاءَ الله أن يلقى ربّه بعد أيام، فخرجت الصّحفُ نادبّة فضله، معددّة مآثره، وأكثر ما قيل كان من وحى الندوة الأدبية فى نادى جدّة، فكان هذا الاحتفال ذَا أثر ملموس، ولولا جهدُ الأستاذ أبو مدين لما نهض على وجهه الحميد.

تأثر نبيل:

طالعتُ فى «معترك الحياة» فصلاً جميلا كتبه الأستاذ عبد الفتاح تحت عنوان «موقف رائع للفضل بين الربيع»، وفيه يتحدثُ الكاتب عن مكرمة نفسيّة أسداها الفضل لرجل استغل معرفته بتوقيعه، فكتبَ خطابًا مزوّرًا إلى وكيل الفضل كى يمنحهَ ألف دينار، وصادفَ أن حَضر الفضلُ ساعة التسلّم، فقرأ الخطاب المزور، ولمح من فزع صاحبه ورُعبه ما جعله يعترف بأن الخطاب قد صدرَ منه حقيقة، وله

أن يتسلّم الألف؟ ذكر الأستاذ هذه المكرمة بتفصيل كاشف، ثم قال: «أى قصة هذه؟ إننى حينَ قرأتها اهتزتْ جوارحى، وكدتُ أبكى لإنسانيتها الرائعة!».

وتأثُّرُ الأستاذ إلى درجة البكاء مما ينبئ عن إحساس رقيق، وليستْ هذه القصة فريدة فى بابها، فأناَ أعرف لها بعض النظائر، وأخْشَى أن أدلّ الأستاذ على مراجعها، فأدفعهُ إلى البكاء من جديد، ولكنّى أبادله شعوره الحى، لأنّ المكارم النادرة ترتفعُ بالقارىء إلى أعلى المستويات، وكم يجدر بأساتذة الأخلاق أن يَبحثوا عن هذه الفرائد، لتكونَ تطبيقًا واقعيًا، لما يقرّرونه من النظريات العلمية، فالَمثَل الواقعى برهانٌ لايكذب، وله من التأثير الجاذب ما يدفعُ بعض النفوس إلى البكاء، وأقُول بعض النفوس، لأن منها مايفوق الحجارة تصلّبًا وصلادة، ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة!

وبعد فهل قلُت كل ما أكّن من ذكريات نحو الأستاذ عبد الفتاح؟ كلاّ! فلدىّ ما ادّخره إلى مناسبة قد تحين!

* * *

الأستاذ محمود تيمور

مكانةُ الأستاذ محمود تيمور فى عالم القصّة لاتجحد، فقد كان ذا جدّ، مُثابرا، لايتركُ وقتًا مّابدون أن يكتب وأن يقرأ، أو يتصّل بزملائه الأدباء متحدثًا عن القصّة والقصّاصين فى الشرق والغرب، وله رحلات دائمةٌ إلى الغرب لم تكن رحلات ترف وفراغ، ولكنّها كانت رحلات عمل دائب، فهو يرحلُ ليشاهد وليصوّر، وليقرأ ويستفيد، وقد يتفرغُ شهراً فى منعزل آمن هناك، ليكتب قصّةً كان يفكر فى أحداثها وأشخاصها طيلة العام، حتى إذا اكتملَ نموها فى نفسه، حرص على تسجيلها فى هدوء وأناة.

وأولُ ما عرفت الأستاذ الكبير كان عن طريق المراسلة، وأقوُل المراسلة تجاوزاً، لأنى لم أكتب له بادئ ذى بدء رسالةً طويلة، بل كتبتُ عدة أسطر أطلبُ فيها أن يتفضّل بإرسالِ كتابٍ لأبيه المغفور له العّلامة الكبير «أحمد تيمور» رحمه اللّه، حيث أقومُ بدراسةٍ موجزة عنه، فسرَعان ماكانَ الكتابُ بين يدى، ثم ظهر بحثى المتواضع عن العلامة الكبير بمجلة الكتاب سنة ١٩٤٨، فتلقيتُ رسالةً شاكرة من ولده الأستاذ محمود تيمور، يعلنُ فيها أنَّه يتابع آثارى فى الرسالة والثقافة، وأنّه يسعد كل السعادة بلقائى! ولم أتعجلِ الزيارة لخجلٍ أعرفه فى نفسى، إذ كنتُ لا أزالُ طالبًا بكلية اللّغة العربية، وأرى ثقافتى فى فنون القصّة المعاصرة دون ثقافتى فى فنون الشعر، فخشيتُ أن يتشقق الحديث مع الرائد الكبير بدون أن أستطيع ملاحقته! فرددتُ عليه شاكرًا مترقبًا ميعاد زيارة قادمة.

ثم رحلت إلى الصعيد، فقابلت أحد وجهاء أبى تيج، وهو الأستاذ محمود

عامر رحمه الله، فشاهدتُ عندهُ مكتبّة كبيرة زاخرة بروائع الآثار الأدبية، ومن بينها قصصُ الأستاذ محمود تيمور مهداةً إلى الأستاذ محمود عامر، وبواجهة كلّ قصة إهداءٌ متواضع، فظننتُ أنّ صداقةً حميمة ربطت بين الرجلين، ولكنّ المهدى إليه ذكر أنه لم يسعد بلقاء الكاتب الكبير، ولكنّه احتاج ذات يوم إلى قصّة «نداء المجهول» بعد أن سمعَ ملخصًا لأحداثها فى بعض الإذاعات، ففاجأته غرائبَ كثيرة فيما سمع، وبحثَ عن القصّة فى أسيوط فلم يجدْها، ثم كتبَ للأستاذ راجيًا أن يتكرم بإرسالها، ففُوجئ بطرد يصله عن طريق البريد، مُلئ بعدة كتب قصصية لتيمور، ومن بينها قصّة نداء المجهول، وعلى كلِ قصّة إهداءٌ يدل على نُبل وفضل، قال الأستاذ: فتحيرّتُ فى نبل هذا الرجل، وعزوته إلى عراقة محتده، وكريم حسبه ونسبه!

فى الإسكندرية:

وقد اتفق أن ذهبت إلى مصيف الإسكندرية ذات عام، وكنتُ ذا صداقةٍ حبيبة مع الأستاذ صديق شيبوب المحرر الأدبى بجريدة البصير، فحدثنى أن الأستاذ تيمور فى الإسكندرية، وليسَ كعادته القديمة فى استقبالِ أدباء الثغر، ومَن قدموا عليه للاصطياف، كما كان من قبل، لأنه لمس تغيّرا من بعض النفوس منذُ قيام الثورة، فأكثر الذين انتفعوا بجاهه وماله قد انقلبوا عليه، يهاجمون أدبه، ويعدّونه إقطاعيا مستغلا، لايحسّ بمشاعر الجماهير الكادحة، وقد نشأ مترفًا لايهتم بغير نفسه، وقد تألّم الرجل كثيراً لما يقرأ ويسمع فى هذا الاتجاه، وحاولَ المشاركة فى التيار الجديد فأصدر بعض القصص الهادفة بدون أن تجد صدى يُذكر، لذلك آثَر الانزواء فى المصيف إلاّ عن بعض الخاصة، وسأزورُه الليلة مع الأستاذ إبراهيم المصرى، فقلُت للأستاذ شيبوب: أرجُو أن تستأذنه فى زيارة لى إذا قابلته، فابتسَم الرجل وقال: لِماذا الاستئذان؟ تعالَ معنا فى المساء.

وفى مجلس الأستاذ طوّقنى بكثير من كرمه، وقد حدثتُه عن مقالى عن الده، وكتابته إلىّ طالبًا أن أزوره، فقال فى ابتسام: لقد تأخّر موعد الزيارة كثيراً، فقلت باسمًا: كنت أهابكَ ياسيدى، وأخذت أتسلح بالاطلاعِ الدائب لأصلَ إلى مستوى

يسمح بمحادثتك، فابتسمَ تيمور ونظر إلى صاحبيْه قائلا: عجيب أن أسمع هذا الآن، وأكثر ما أسمعه من غيره يضايقنى.

فانتهزُت هذه الكلمة إذ تذكرتُ ماقاله الأستاذ شيبوب، وقلُت فى اندفاع: ياسيدى إن ما يُقال عنك اليوم حسدًا وبغيا قد قيل عن أحمد شوقى أمير الشعراء، وموهبُة شوقى وريادتُه فى عالم الشعر، كمرهبتك وريادتك فى عالم القصّة، ولم تتأثر مكانة شوقى بما قيل عنه فى مضمار السياسة، وظل شامخ الرأس حتى نُودى به أميراً للشعر، وأنتَ أمير القصّة القصيرة بدون نزاع من مناوئيك، فدع الغبار يهبّ لحظاتٍ فإنه لن يحجب نور القمر فى السماء! وقد تكرّم الأستاذ فطلب عنوانى بالفيوم ليرسل إلىّ بعض نتاجه الجديد، وما ذهبَ إلى القاهرة حتّى فعل.

مع الدكتور جرمانوس:

كنتُ أعرف أن صلة وثيقة قد انعقدت بين محمود تيمور، وصديقى الكبير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس، إذ قرأتُ من آثار الرجلْين مادلّ على حبّ متبادل، وإعجابٍ مشترك، وقد حضَر الأستاذ جرمانوس لزيارة القاهرة فى بعضِ المناسبات الأدبيّة، فكتبَ إلىَّ كى أنهض للقائه، وكان مقيمًا بفندق سميراميس، وسريعًا ماتوجهتُ إليه على شوق، وقد دار الحديث الأدبىّ عذبًا رائعًا من فم الأستاذ جرمانوس، ثم فوجئتُ بالأستاذ محمود تيمور يفدُ إلى زيارة صديقه محييًا، وقد بدأه بعناقٍ حار، وتكّرم بمعانقتى، وكأنّى صديقه أيضًا، وقدّم لنا الأستاذ عبد الكريم بطاقتين من سفارة المجر تحملان دَعْوةً للغداء على مائدة السَّفير بعد أيام، فى حفل أدبى يقام تكريمًا للزائر الكبير، فُقلت من فورى: إنّى لم أتعود احتفالات السفراء، وقد تكونُ لها ضوابط دبلوماسية لا أحذقها، فأرْجو أن تقْبل عذرى، وسمع الأستاذ تيمور ما قلْت فقال: تُعجبنى هذه الصراحة الواضحة، وإن كانتِ المسألة لاتخرجُ عن حساسية مفرطة، وسأعوّضك عنِ غداء السفارة، بغداءٍ آخر هنا فى فندق سميراميس، مع صديقك جرمانوس! وذلكَ غدًا قبل أن أنسىً! وأسرعَ جرمانوس فأعلن قبوله وَقبولى معًا، ولم يسعنى إلاَّ أن أستجيب!

وقد رأيت أن أشغلَ الأستاذ تيمور بحدثٍ يخصه، فقلت له: إنّ قصته عن امرئ القيس قد لقيتْ إعجابًا كبيرًا من القراء، ولكنّى وازنت بينها وبين قصّة الأستاذ محمد فريد أبى حديد عن الملك الضِّلِّيل، فوجدُت أبا حديد حريصًا على تجلية امرئ القيس، كما كان، فيما سجله عنه التاريخ، ولكّن قصّة تيمور قد قذفْت به إلى أحاسيس ومشاعر ومواقف لانعلمها عنه! فقال تيمور: أنا أقصد دائمًا تجليةَ المشاعر الإنسانية كما يمكن أن تتفق، ولايهمّنى إن كانت قد اتفقت بالفعل لامرئ القيس قدر مَا يهمنى أن أصوّر انطباعى الخاص عنه كما أحسّه، وذلَك مذهب فى القصّة يعرفه الدكتور عبد الكريم جرمانوس، فابتسم جَرمانوس وقال فى لهجة جميلة: أنا عندك أعرف كل شىء دائمًا، مع أنى بشَر.

حملة ظالمة:

أصدر الأستاذ حبيب الزحلاوى كتابًا سماه «شيوخ الأدب الحديث» بدأهُ بهجوم صارخ على أدب الأستاذ تيمور، واستطرَد إلى مسائل شخصية لايتطلبها النقد الأدبى، والأستاذ حبيب قصاص مجدد، ومفكرنابه، ولكنّه فى النقد الأدبى يميلُ إلى التنقص والتحامل، بحثُ لا يلمح غير الهنات، وهو إذا لمحها أخذ يجوفها تجويفًا يبعدها عن الواقع، وقد استغلّت بعض الصحف حملة الأستاذ حبيب الزحلاوى على أدب تيمور فجعلتْ تَصِمُ الكاتب الرائد بما ليس فيه، وكأنَّ الزحلاوى قد أشعل ثقابًا فى برميل من البترول فامتد اللهيب إلى أبعد مدى، وكنت أقرأُ ما يقال عن تيمور، وأنا فى غايةِ الدهشة، لأن النقد ليس هجاءً وليس تجنيا، ثم إذا اشتطّ ناقد مّا فيجبُ علينا أن نردّه عن شططه، لا أنْ نتخذ ما يقال وكأنه حق لامرية فيه.

حملتنى قدمى إلى القاهرة، وسارعتُ إلى لقاء الأستاذ تيمور لأعلنَ لهُ استهجانى لنقدٍ زائف لايعتمد على الواقع الأدبىّ الملموس، واستمع الرجل مُنصتًا لكل ما قلت، ثم قالَ فى هدوء: للأستاذ حبيب أن يُبدى رأيه فى أدبى كما يشاء، وله أن يعدَّه زيفًا لا أصالة به، له أن يقول ذلك ولو لم يُبدِ أدنَى دليل، ولكن

ليس له أن يتعرّضَ لحياتى منذ الطفولة، فيتحدّث عنها بالكذب الصريح، لقد نشأتُ فى رعاية والد يُعتبر من زعماء الإسلام فى هذا العصر، وله تقاليدُه الخُلقية فى التحفظ والاحتشام، ومراعاةِ الكرامة الإنسانية، قبلَ أن تكون كرامةً إسلامية بالذات، مع الحدب البالغ على الفقراء ومَن يتطلبون العون القليل أو الكثير، فإذا جاءَ ناقد ليظهرنى فتيا وشابا فى صورة تتنافَى مع تقاليدنا العريقة، فأنا أبرأ إلى الله ممّا قال، ثم إنّى أذكرُ حقيقةً سابقة لامجال للشك فيها، هى أنّ المرحوم الأستاذ سيد قطب قد تعرّضَ لقصصى الأدبيّة بالنقد القاسى على صفحات مجلة الرسالة، فلم أتأثرْ بما قال، ولم تسقطْ منزلته لدىَّ، لأنه ناقد يتحدث عن وجهة نظرى: كما تراءتْ له، وهو لم يتجاوزْ حديث النقد إلى مسائل تتعلق بالسلوك الشخصىّ، وهو سلوكٌ مفترى على من الزحلاوى، لذلك كنت حريصًا على مودّة سيد قطب لأن النقد الموضوعى لايفسد العلاقة بين الأديب والناقد، وأذكرُ أن الأستاذ صلاح ذهنى قد خالف سيد قطب فى اتجاهه، واستمّر الجدل بين الكاتبيْن عدة أسابيع، ومع ذلك فقد كنتُ أوثر للأستاذ صلاح أن يترفّق بسيد قطب، ولكنه واجهَ إعصاراً بإعصار، أما الّذين قد انطلقوا يذيعون تخرصات الزحلاوى فما أعلُم فيهم من يستأهل الرد عليه، لأن أكثرهم لايعتصمون بموازين عادلة ترعى الحقوق الأدبيّة، وتحفظ الكرامة الشخصية، وأحمد الله أن الذين احتجوا على كتاب الأستاذ حبيب كثيرون، ولستُ أنا وحدى الذى احترقْت بافتراءاته، فقد قال فى الأستاذ توفيق الحكيم، وفى الدكتور بشر فارس، وفى الأستاذ سلامة موسى مايخالف كثيرًا من الحقائق، وجمهرة الناقدين من مُلابسىِ الحركة الأدبيّة يعرفون الدوافع والنزوات! وقد سمعتُ كل مّا قال تيمور موافقًا ومُؤيدا لأن النقد شىء والهجاء شىء آخر، ولا أنكر أن للأستاذ الزحلاوى نظرات صائبة، ولكنها ضاعت فيما اصطنعه من الضجيج.

بعد الوفاة:

أثارَ بعض رجال الصحافة بعد رحيل الأستاذ تيمور لغطًا حول مؤلفاته، إذ نقلَ ما يفيد اشتراك الأستاذ شوقى أمين فى تأليفها، وقد رأيت من واجبى نحو الحقيقة

أن أُدلى بما اتّضح لى إزاء هذه التهمة، فكتبتُ بمجلة الثقافة مقالا تحت عنوان «اتهام مسرف» قلت فيه بصدد هذه الأحدوثة:

«لقد بدأ محمود تيمور إنتاجه الأدبى قبل أن يتصل بالأستاذ شوقى أمين بأكثر من عشر سنوات، إذْ بَدأ حياته الأدبيّة بنشر مجموعة «الشيخ جمعة» سنة ١٩٢٤، ثم أصدر مجموعته الثانية «عم متولى» سنة ١٩٢٦، وتلتها مجموعة «الشيخ سيد العبيط» سنة ١٩٢٨م، وكان الكاتب يؤلف للفن لا للكسب، فكانَ يُهدِى مؤلفاته بسخاء لمن يطلب، ولمن لايطلب، وكانَ فى أسلوبه مؤاخذات لغوية وأسلوبية لابدّ أن يقع فى مثلها مَن تخرج فى مدرسة الزراعة العليا قبل أن يتم الدراسة بها، ولم يكنْ والده اللغوى المكينِ بقادرٍ على أن يميل به نحو الفصاحة الآسرة، لأن نفوذ أخيه محمد تيمور كانَ أقوى من تأثير والده، وقد لهج النقاد بمالاحظوه من ضعفٍ فى عبارات تيمور، فهداه حظه إلى الأستاذ شوقى ليصحح التركيب الإنشائى فى قصصه، فأخذَ يراجع مايكتب الفنان، ليصوّبه بتسديد العالم المتمكن لغة وتركيبًا، ثم امتدّ الزمن بتيمور قارئًا وكاتبًا ودارسًا حتى أصبح ذا أسلوب متمكن نعرفه فيما يكتب لأصدقائه من رسائل رصينة، وإذن فقد كان شوقى يُصحّح أسلوب الكاتب بَدْءا، كما كان يدلّه بمساعدة أصدقائه على المراجع إذا أراد أن يكتب قصّةً تاريخية كقصص الحجاج وامرئ القيس وعنترة! وليسَ فى ذلك مايُواخذ عليه تيمور فالدكتور طه حسين نفسه وهو من أعظم الباحثين فى العالم العربى كان يسأل شيوخ اللّغة والأدب والتاريخ عن بعض المراجع، فيجيبونَ بدون أنْ يكون فى سؤاله عن هذه المراجع ماينقص قدره العلمى الجهير! وإذن فقد قام نتاج الأستاذ تيمور القصصى على جُهده الجاهد، وابتكاره المبدع، ووقفتْ مهمة الأستاذ شوقى عند تصويب العبارة الأدبية فى فترات معلومة! والأستاذ شوقى عالم أديب، وليسَ له جهد قصصىّ ما، فكيف يؤلف قصص تيمور ويعزوها إليه، مع أنه لم يكتب قصّة واحدة؟.

هذا بعض ماقلته فى هذا الصدد، وأذكر أنى فى المقال نفسه فنّدت ما يُقال عن أحمد محرم، وأحمد مخيمر، وصياغتهما أشعار عزيز أباظة، وهى مّما ينحو

المنحى التيمورى، بدون تقدير فنّى لأسلوب أباظه ومقارنته فى سماته الفنيّة بأسلوب الأحمديْن، وكلاهما أيضًا ذو أسلوب منفرد، بحيث لايشتبه تعبير بتعبير!

ومؤرخ القصّة العربية لن يهتم بأقاويل تُساق بدون تحديد، وقد قرأنا فى الدراسات الحديثة عن القصّة المعاصرة ما أكد ريادة تيمور، وحقق سبقه الظافر فى دنيا الإبداع القصصى، إذ لايصح غير الصحيح!

* * *

فقيد الأزهر والصوفية
الشيخ محمود أحمد هاشم

لم تشهد الشرقية مأتمًا يغص بآلاف المشيعين عن حسرة كاوية، وفجيعة كارثة كما شهدت مأتم فقيد الإنسانية، ورجل المروءة، وخادم الإسلام، فضيلة العارف بالله الأستاذ محمود أحمد هاشم، فقد ترامت الجموع الغفيرة إلى قريته (بنى عامر) حتى امتلأت الدروب، واكتظت الشوارع، وشرد المتزاحمون إلى الأراضى الزراعية يلتمسون فيها مواضع لأقدامهم، بعد أن ضاقت بهم القرية الحزينة، وما تزاحمت الجموع منقادة وراء داع خارجى يدفعها للمشاركة اضطرارًا، كما نشهد فى بعض الجنازات الرسمية التى تُعَبَّأُ الجهودُ ساعاتٍ وأيامًا لتكون بحشودها المتراصة دليلَ الوفاء، وقد سيق إليها الناس سَوْقًا بشتى المُغريات، وأعدت السيارات والقطارات لتجبر من لايريد التشييع على أن ينهض، لم تتزاحم الجموع فى توديع الراحل النبيل وراء داع خارجى، بل ساقها سائق اللوعة الجارفة، والتقدير الحار لإنسان بذل حياته فى إغاثة الملهوف، وعون السائل، وتضميد الجراح، تقديراً لمسئولية إسلامية يعرفها حق معرفتها مَنْ قَدَّرَ رسالة العَالِم فى الإسلام تقديرها الصائب، فهو مشعل هداية، وطريق عون ورعاية، وموضع آمال ورغائب، يُنادِى فَيُسْمَع، ويُدْعَى فيجيب، وقد لخص السيد محافظ الشرقية مآثر الراحل الكريم فى بيان موجز نشره بالأهرام عقب رحيله ناعيًا مؤبنًا، فقال صادقًا غير مبالغ:

«إن الفقيد لقى ربه بعد حياة حافلة لخدمة الإسلام والأزهر، فقد تمثلت فيه القيم العليا فى الإيمان بالله، إذ كان مثلاً للكرم والمروءة والوفاء، فتح قلبه

الكبير، وبيته العامر بالمحبة للغريب والقريب، كما أسهم بجهود جليلة فى خدمة العلم والدعوة الإسلامية، ورعاية مصالح المواطنين، وقد كان قدوة يُحتَذَى بها فى العلاقات الاجتماعية، وفى التعبير عن كرامة العلم والعلماء، فاحتل فى قلوب أبناء الشرقية، ومحبيه من سائر البلاد المكانة السامية، واستطاع بجهوده ومثابرته وإخلاصه وتواضعه أن يعبر أكرم تعبير عن كرامة العلماء، وبلاغة الفصحاء، وشهامة الأوفياء».

وهذا بعض ما يؤدى جانبًا من حقيقة هذا الإنسان الكبير، لأن عارفيه وأصدقاءه ومريديه يعرفون من مآثره مايجب أن يُدَوَّنَ ويذيع، ليكون القدوة الحسنة لرجل العلم والتصوف، قدوة يراها الناس كتابًا حيا عامرَ الصفحاتِ بالمآثر، وهو بعد أصدق من كل كتاب يمتلئ بالحِكَمِ والمواعظ بدون أن يعطى المثل المشاهد، ويقدم الدليل المتحرك، أى كتاب يستطيع أن يقدم فى مضمار المروءة والهمة والمشاركة الوجدانية ما تقدمه سيرة الأستاذ محمود أحمد هاشم رضى الله عنه، وقد شغل حياته بنفع قاصديه، وكان فى طوقه أن يصبح من أصحاب الثروات لو منع يده عن البذل الدافق، والعطاء المدرار، فإذا أعوزه المال فى بعض مواقف المروءة استدان واقترض ليأسو جراح محتاج، ويمسح دمعة مسكين.

لقد خصص الفقيد يوم الجمعة للقاء كل وافد يؤم ساحته العامرة، فما تحين الساعة التاسعة حتى يجلس مجلسه بين أتباعه ومريديه، وتنظر فتجد عشرات الراجين فى انتظاره، فصاحب المَطْلَبِ النقدى يجد الإسعاف لوقته بدون انتظار، وقد تأهب الشيخ للموقف، فأحضر معه من المال ما يظن به سداداً من عوز، وإشباعًا من جوع، وبرءاً من فاقة، ويعجب زائره المتابع لمواقف الشيخ أسبوعًا بعد أسبوع، كيف يجد من أبواب المال ما يعينه على مروءات تتوالى وتَتَتَابع، أما أصحاب المآرب الأخرى فما أكثر، وما أغزر، هذا فقير يطلب التعيين فى عمل حكومى، وهذا مريض يريد الالتحاق بمستشفى مجانى، وهذا طالب يتلمس موضعًا فى المدينة الجامعية إذْ عز عليه أن يعيش فى منزل مستقل بدون مورد، وهذا مُتَّهَم ينشد محاميًا يترافع عنه، وليس فى طوقه أن يدفع المال، وهذا وفد من

قرية يسأل المعونة فى بناء مسجد، أو إنشاء مدرسة، أو ترميم مستشفى، وهذه أرملة ستعقد قران ابنتها ويشرفها أن يتولى الشيخ كتابة العقد لتسمو به بين الناس، حين عدمت الأب والعم، وهذا موظف أرهقه رئيسه، ودفعه إلى تحقيق قضائى لهفوة هفاها بدون قصد، ويطلب من الأستاذ أن يزيل ما بنفس الرئيس! كل هذه الحاجات وأكثر منها تعرض أمام الشيخ الرحيم فى مجلسه وهو يفحصها حالة حالة ليحدد لكل طالب ساعة من يوم فى الأسبوع القادم يلقاه فيها بإدارة الأزهر بالزقازيق لينهض معه حيث يريد، وقد ألفت الزقازيق أن ترى الشيخ على رأس وفد من طالبى الحاجات يتقدمهم إلى المصالح الحكومية رائحًا غاديًا، وقد يكون مريضًا يعانى من خبيث الداء مالا طاقة له به، ولكنه يستجيب إلى هواتف الأريحية، ودواعى المروءة فينهض متحاملا على نفسه، سائلا الله العون، ولابد من يوم أو يومين فى الأسبوع للقاهرة كى يقضى مصالح من تتم مسائلهم فى العاصمة الكبرى، ثم عليه أن يزور فى المساء مَنْ دَعَوه إلى قراهم فى شتى المناسبات الاجتماعية بدون أن يكسر خاطر امرأة ضعيفة أرادت أن تتباهى بمقدمه، كما عليه أن يمد يده بالعطاء لتلك التى دعته عن قصد لتسعد بوجوده الشخصى وخيره المادى، وهكذا يعود الرجل إلى منزله بعد طواف متواصل، وقد يكون الرجوع فى منتصف الليل مرهقًا مكدودًا متعبًا، لايقدر على الكلام، وعليه أن يستيقظ فى الفجر ليؤم أهله فى الصلاة، ويعد واجبات عمله الإدارى العلمى بالأزهر، فإذا خرج من عتبة داره، وجد عشرات السائلين فى انتظاره، ونحن فى مصر وفى غيرها من البلدان النامية لانرحم رجلاً من رجال الخير حين نلح عليه بما يرهق، لأن ندرة هذا المعدن النفيس تجعل الإقبال عليه فى تحقيق المآرب، وإجابة المطالب ضرورة لابد منها! وكم يتحمل صاحب المروءة فى بلد قلت فيه المروءات، إذ يكون هدفًا لمشاق لاتنقطع ولا تبيد.

أجل، يجلس الأستاذ فى مجلسه الأسبوعى يوم الجمعة ناظرًا فى شئون الناس، حتى يحين موعد الصلاة، فينتقل إلى مسجده الكبير وقد زخر بجموع المصلين، فتؤدى الصلاة وتسمع الخطبة فى خشوع، ثم تقام حلقة الذكر مدوية

بالصلوات، رنانة بالتسابيح، فإذا فرغ الذاكرون جلسوا يستمعون إلى آيات من كتاب الله فى هيبة وخشوع، وعيونهم للأستاذ متطلعة وامقة، ولا تشبع من رؤية وجهه السمح، ومشهده المهيب، ثم ينهض المصلون جميعًا إلى الغداء مهما كثف العدد! فتتجدد الموائد كلها بدون انقطاع يلتقى عليها أكثر من مائتى طاعم! يتوالى ذلك وكأنه شىء هين لايكلف شيئًا!! لوكنت سمعت ما رأيت ـ والله ـ ماصدقت، ولكنى أرى وأشهد وأطعم، وليس الخبر كالعيان!

أذكر أن الكاتب الأستاذ محمد كرد على نشر بحثًا فى كتابه «أقوالنا وأفعالنا» يقول فيه: إنَّ الكَرَمَ المفرط ليس ممدوحًا، وإن الجُود السخى من أخلاق البادية، ولا محل له الآن، لأنه يُودِى بالبيوت ويدكها دكا، ولايوجبه شرع أو عقل، ذكر الأستاذ محمد كرد على فى كتابه هذا الرأى، فوقفت عنده طويلا، وكتبت تعقيبًا عليه بالجزء الرابع من كتابى «النهضة الإسلامية ص ١١٢» أقول: ملما ببعض مآثر الأستاذ محمود هاشم:

إن قول الأستاذ محمد كرد على يتجاهل أن وجود الكرماء ضرورة محتومة ليصونوا وجوه المحتاجين، وإذا قَلَّتْ مظاهر الكرم اليوم، فليس المراد أنه انقطع عن الناس نهائيا، فأنا أعرف فى هذه الشدة التى تأخذ بأكظام الناس رجالاً يبذلون عن سعة لاتعرف الضيق، وليسوا من ذوى اليسار المفرط الذى يدعوهم إلى الاتساع الممتد بدون حرج، فهم قوم مستورون آووا إلى كرم الله ورحمته فأمدهم بالنفس الخيرة، وسهل لهم سبل الكرم، وقد يكون من باب الاعتراف بالحق أن أذكر من بين هؤلاء أخى البر العارف بالله الأستاذ محمود هاشم، إذ أن جميع المصلين يوم الجمعة بمسجده فى قرية «بنى عامر» لابد أن يتناولوا طعام الغداء لديه، وقد يتجاوزون المائة والمائتين، فتسع لهم المآدب الحافلة دون ضيق، وهذا ما اعجب له، وأراه لغرابته الزائدة فوق التعليل.

هذا ما قلته من قبل، وأنا أكرره لأؤكد أن تسجيل المآثر الإنسانية فى الصحف والكتب، يدعو إلى احتذائها وتقديرها، وفى كتب التراث روائع خارقة للأجواد

من الأسخياء، فلماذا لانسجل فى كتبنا المعاصرة أمثال هذه الروائع كيلا يظن ظان أن الإنسانية فقدت أمثلتها الصادقة فى عصر المادة الذى سيطرت فيه الأنانية والأثرة، وكادت تمحى المروءة والأريحية! لولا أن ذرارى حاتم طيئ، ومعن بن زائدة، وأبى دلف العجلى، وعبد الله بن جعفر لايزالون يتناسلون، ولن أسكت عن بعض ما فى نفسى جبنًا من قوم يولعون بتكذيب الأحاديث إذا اتصلت بكرامات الملهمين، ويعدون مايذكر فى هذا النطاق حديث خرافة، وهو أمر واقع نلمسه باليد، فقد شوهد الأستاذ يحادث من يفد إليه من المرضى حديث المشجع المستبشر، فيدعوهم إلى الصبر، ويعدهم بالشفاء، لأن رحمة الله قريب من المحسنين، ثم يقرأ الفاتحة داعيًا آملا، ويرجع المريض من ساحته وقد هدأت نفسه، وانفرج باب الأمل لعينه فترتفع روحه المعنوية ويتعاطى الدواء فى ثقة وبشر، ويجد من القوة ما يساعده على تحمل الصعاب، ويكون من أثر ذلك كله أن يأذن الله بالشفاء فى كثير من الحالات! فكان لقاء الشيخ قوة دافعة، وحافزاً موجهًا، وبه اعتصم المريض بالصبر مكافحًا حتى بلغ ساحل الشفاء! وهذا بعض ما رأيناه عن مشاهدة، وما شهدنا إلا بما علمنا، فليهزأ من يهزأ بما نقول إن أراد، ولكن عليه ألاَّ ينسى أن ارتفاع الروح المعنوية للمريض سلم للشفاء، ودواء ناجح يسعف بالعلاج.

لقد زاملتُ الشيخ محمود هاشم ابتداء من عهد الطلب بمعهد الزقازيق، فكان منذ نشأته الغضة كريم النفس، مبتسم الثغر، يدعو زملاءه يومى الخميس والجمعة إلى قريته، فيشملهم والده الكبير مولانا الشيخ أحمد هاشم رضى الله عنه بكرمه الغامر، فهو يوقظهم فى الفجر لأداء الصلاة، ثم يدير عليهم أكواب اللبن الواسعة بيده، فيخدمهم بنفسه وهو سيد، ولايزال يرعاهم ويخصهم بما لديه من المآكل والفواكه متسائلا عن أحوالهم، وقد ورث الابن عن أبيه هذه المزايا، فَممَّا أعرفه أن أحد الطلاب لم يستطع أن يكمل التعليم بالقاهرة لضيق ذات اليد، وآثر الاكتفاء بالشهادة الثانوية، فعز ذلك على الشيخ محمود، وألح على زميله إلحاحًا متواصلا كى يسافر معه ويسكنا فى منزل واحد ليتولى هو عنه ما يلزم من

النفقات، وهكذا وفَّى محمود بعهده لصاحبه، فتخرجا معًا فى كلية الشريعة الإسلامية بعد الانتهاء من سنواتها الأربع، ثم عُيِّنَ الأستاذ محمود هاشم مدرسًا بالمعاهد فكان يختص الطلبة باهتمام غير عادى، يتساءل عن أحوالهم المعيشية، ويقدم للمحتاج مايريد من النفقات والكتب عن سماحة لاتعرف الحدود، وإذا توسم صفاء الروح فى بعض الطلاب، قدم إليه كتب التصوف وحثه على العبادة والخشية، ودفعه إلى الجد فى المذاكرة ليكون فيما بعد عالمًا عاملا يجمع بين العبادة والعلم، فيعطى المثل الحى لرجل التصوف الصحيح!

ولا أجد أفسح رحابة من صدر الراحل الكبير، فقد طُبع على أن يتبهج عند الإساءة المقصودة كاظمًا غيظه، إذا يمر باللغو مر الكرام، كنا فى مجلس يعمر بالتسبيح والذكر، فشذ زميل متسرع، وانطلق يسب الذاكرين ويقول إنهم أعباء على المجتمع، وتهور الزميل اللجوج فقدح فى كبار الصوفية من أمثال الغزالى، وابن عطاء، وابن الفارض، فسكت الشيخ محمود طويلا، فلما لم يجد صاحبنا ردا يتيح له أن يشقق الحديث، تخاذل وأقبل يسأل الشيخ محمودًا عن رأيه فيمن ذكر من الصوفيين، فقال محمود فى تواضع: أنا أَقَلُّ من أن أَفِيَهُمْ حَقَّهُمْ من التقدير، وإنك لاتهدى من أحببت! فشرد الزميل قائلا: وهل نسيت خرافات الشعرانى؟ فابتسم الشيخ وقال: إنى أؤلف عنه كتابًا، وسأهديه إليك عند طبعه، ومع عزوف الشيخ عن التأليف إلا فيما ندر، حيث تَتَنَاهَبُ أوقاته شواغل الناس، فقد صمم على أن يكتب عن الشعرانى، كتابة من يتكلم عن التصوف الصادق فى سيرة بعض أقطابه! فأخذ يتحدث عن الارتباط بالشريعة، والقيام بفرائض الله ومسنونات العبادة ليكون العمل بالشريعة سلمًا للحقيقة! مؤكدًا أن التصوف سعى فى الأرض، وخدمة للناس، وكدح للرزق، وليس اتكالا وانعزالا، وقد جاء الشعرانى فى كتابه صورة صحيحة لإمام متصوف مكتمل، تمثلت فيه خصائص الزعامة الروحية والقدوة الشعبية، إذ أعطى الحياة مثلا للمتصوف العامل الذى يشارك إيجابيا فى ازدهار الحياة، ونفع الناس بدون أن يلجأ إلى الانزواء، كما كتب فصلاً ممتعًا تحت عنوان «رسالة الشعرانى» جعله تفسيرًا واقعيا لقول

الشعرانى: «حاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف، وعقائد أهل الفكر حسب طاقتى» وأهل الكشف هم المتصوفة، وأهل الفكر عنده هم الفقهاء.

وللفقيد مقالات سهلة نشرها تباعًا بمجلة منبر الإسلام، وهى تخاطب الوجدان بنفحات من قصص القرآن وتحليل لبعض الآثار النبوية، تعمد كاتبها أن يصل بها إلى قلوب العامة بدون إرهاق بكد عقلى، أو تخريج فلسفى، كما أن له أشعاراً تنحو هذا المنحى الدمث جمع بعضها فى ديوان سماه «الهاشميات» وكتب مقدمته الإمام الأكبر عبد الحليم محمود رحمه الله، وما قاله فى ديوانه من الشعر شبيه بما يقوله مولانا الشيخ على عقل ومولانا الشيخ صالح الجعفرى ممن يرتجلون الشعر فى مجالس الذكر على إيقاع النغم، وأستاذهم السباق فى هذا المجال هو العارف بالله عبد الرحيم البرعى! ولهؤلاء المتصوفة مشاعر رقيقة تتأثر بالشعر الواضح تأثراً تجرى به الدموع، لقد أنشدتُ الشيخ صالح الجعفرى ذات مرة قول الشاعر:

فيا نجد لو كان النوى منك مرة صبرنا ولكن النوى منك دائم

فردده باكيًا، وصادف أن أنشدته الشيخ محمود هاشم فطرب وتواجد، وأوصى أن أجمع له ما ينحو نحوه من هذه «النفحات» كما سماها، والتعبير بالنفحات له رمزه الدال، وفحواه الدقيق.

إن مشيئة الله فوق كل مشيئة، وقد اصطفى محمودًا إلى جواره بعد مرض ضاعف من حسناته ومحا من سيئاته، واذا كانت ألسنة الخَلْق أعلام الحق فإن ما شُوهد من حسرة الآلاف على رحيله، وما سمع من بكاء عارفيه، وتفجعهم على فقده ينطق بما كان له من مكانة قد احتلها بسلوكه الممتاز، وسعيه الحميد، فهؤلاء الريفيون الذين بكوا حول نعشه يذكرون زياراته المتصلة للقرى، وقيامه بالصلح بين الأسر المتنازعة حين يستفحل الشر، وتطول جلسات المحاكم فى ساحات القضاء بدون جدوى! وإذ ذاك يحضر الأستاذ فى مَلأ من صحابته، ويجلس بين المتنازعين مستمعًا إلى كل فريق، ثم يقرأ فاتحة الكتاب، ويشير بما يَرْأَبُ الصَّدْعَ،

ويجمع الشمل، فإذا نشز فريق ترضَّاه الشيخ بابتسامته ودعائه بالرحمة والخير، فيتحول النشوز إلى طاعة وقبول، ويعود الرجل الكبير وقد عصم دماء كادت تُراق، وبقلبه فرحة مبتهجة أن أطفأ النار، وحال دون اندلاع الحريق. هذا بعض جهاده، فلم لايأسف المحزون تلهفًا على فقده، ولعل مما يهدئ من شجونهم أنه انتقل إلى جوار ربٍّ كريم، أخبر عباده بأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ولن يضيع أجر المحسنين.

* * *

الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

شاعر كاتب ناقد، غزير الإنتاج، بحيث لم يكد يمر عليه يوم بدون نتاج فكرى، أو إبداع أدبى، وقد كانت قصائده فى الأهرام، تحتل الصفحة الأولى وهو طالب بدار العلوم، حتى عُرف بشاعر الأهرام، وكان أستاذه الكبير أحمد الإسكندرى يقرؤها باهتمام، ويتحدث عنها فى مدرج الكلّية للطلاب، ويرى أن فيها روحًا شوقيّة ستنمو وتزدهر فيما بعد.

دأبت على قراءة ما يقع فى يدى من آثار الأديب المطبوع بدون أن أشرف بمعرفته، وفى يوم من الأيام قرْأت له قصيدة بمجلة الرسالة العدد (٩٦٠) ٢٦ / ١١/ ١٩٥٠ تحت عنوان على طلقات المدافع يقول فيها بمناسبة اعتداء الإنجليز على المجاهدين فى محافظات القناة، وقد جعل العروض فى الشطر الأول على وزن (فاعلن)

اطلقوا المدفع من معقله ... واملئوا الجو دخانًا وقتامًا

القناةُ اليوم مَنْ روّعها ... بالخطوب السود غدرا وانتقامَا

أطلق الغاصب فيها طبعه ... كوحوش الغاب فرسًا واهْتضامَا

ثم يقول فى القصيدة ذاتها جاعلا عروض الشطر الأول على وزن فاعلاتن.

قد شبعنا يا أخى فيكم نداءَ ... وشبعنا يا أخى فيكم كلامَا

هذه الأقوال لاتحمى شهيدًا ... من ضحايا الحق أو تشفى أوامًا

الكلام اليوم لايحمى حقوقًا   والبيان اليوم لايرعى ذمامًا

مع أن المقرر فى علم العروض أن العروض يلزم حالة واحدة إلا عند التصريع، فتتبع الضرب، ولكن الشاعر يزاوج بين فاعلن وفاعلاتن، وهو مما ينكره العروضيون ويعدونه عيبًا صريحًا، فسارعت بكتابة تعليق يوضح هذا الملحظ. ونشر فى العدد التالى (٩٦١)، وقد قرأه الأستاذ فسارع بكتابة رد فى مقال ضافٍ تحت عنوان (بين العروض وطلقات المدافع) نشر بالعدد (٩٦٣) حاول فيه أنْ ينص على أن تنويع العروض فى بحر الرَّمَلِ مما يجوز، وقد استشهد بقصيدة لمهيار الديلمى، وقع فيها الشاعر الديلمى فيما وقع فيه الشاعر المصرى، ولكنى لم أقتنع بما قال الشاعر، فكتبتُ ردا بالعدد (٩٦٥) أعلن فيه أن ماورد من شعر القُدماء هو القياس، وأن مهيارَ قد أخطأ كما أخطأ سواه، ولم يجد العروضيّون قصيدة ما فى عصور الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى - وهى عصور الاستشهاد الصحيح - قد ازدوج فيها العروض حَذفًا وتمامًا فى قصيدة واحدة من بحر الرَّمَل، وسيظل دفاع الأستاذ ناقصًا حتى يأتى بالشاهد الدال، ولم يعقب الأستاذ مرة ثانية على ماذكرت، ولا أدرى هل اقتنع أوْلا؟

دفاع فى مجلس:

كنت أسمر مع صديقى الأستاذ طاهر أبو فاشا ذات ليلة، فأخبرنى أن الشاعر العوضى الوكيل قد نشر ديوانًا خاصا بمعارفه من الشعراء، وقد رفع قومًا وخفض آخرين، وممّن هوى بهم فى حكمه النقدى محمد عبد الغنى حسن، حيث قال عنه العوضى الوكيل:

يدور على محور واحد   ويشدو على مزهر واحدِ
طريف قصائده قابس   معانيه من سنى التالدِ
ويخلق من صفره عسجدا   تألقه ليس بالخالدِ
أخو فطنة وأخو حيلة   وَسَعْيٍ إلى مجده راصدِ

فقلت للأستاذ طاهر: إنى قرأتُ ماكتبه العوضى فى ديوانه (رسوم وشخصيات) فاتّضَح لى أنه ذُو هوى، لأنه أشادَ بفُلان وفلان، وهمْ دون الشاعر محمد عبد الغنى حسن إشادةً تامّة، وهَوَى بأحمد مخيمر صديقه اللدود وبمثل عبد الغنى حسن بدون مراعاة للحيدة التامة، ولا أنكر أنّ عبد الغنى يكرر بعض معانيه، لأنه يقول كل عام قصيدة فى المولد النبوى والهجرة وبعض المناسبات الوطنية، ومثله لابّد أن يقع فى التكرار، ولكنّ عبد الغنى له مع ذلك انفرادات امتاز بها، وأعتقد أنه لو تفرغ للشعر كما تفرغ العوضى ونظراؤه لأبدع وفاق، ولكنه ينقد ويبحث ويقص ويؤرخ، وذلك كله مما يستهلك طاقته الفكرية، فإذا أقبل على النظم أقبل بخاطر مكدود، ونَفَس متعب، ولأمر ماترك المازنى وشكرى والرافعى الإكثار من الشعر حين اتجهوا إلى المقالات، على أنى ألمس فى كثير مما قال عبد الغنى ابتكاراً يدل على سعة الخيال، وجيشان الخاطر، وأضرب المثل بما ذكره فى مناسبة من مناسبات المولد النبوى حين دعاه الزيات إلى إرسال قصيدة للعدد السنوى الممتاز، فكتب مسرحية رائعة فى فصل واحد تحت عنوان (هو النبى المنتظر) جعل من أبطالها جماعة من أعلام الشعر الجاهلى يلتقون فيتحدثون عن الواقع المؤلم فيما قبل البعْثة، وفيهم زهير، وحسان، والأعشى، وقس بن ساعدة، وابتدأ الأعشى فتحدث عن المرأة والخمر واللذة، ورد عليه زهير بحكمته الخالدة التى تدعو إلى الارتفاع عن الملذات الهابطة، وجاء دورُ قس بن ساعدة فسفه ما قال الأعشى ودعاه إلى التفكّر فى ملكوت السمٰوات والأرض، وما يدل عليه اختلاف الليل والنهار من وجود خالق مدبر لابد أن ينقذ الكون من أرجاسه، وتطلّع إليه زهير معجبًا يثنى على حكمته وبارع اتجاهه، وكذلك أشاد حسّان بنباهة قسّ وارتفاع تفكيره فيما حكاه محمد عبد الغنى على لسانه إذ قال.

إنى وجدتُ فى السماء خبرا   كما وجدت فى دجاها عبرا
استقرئ الشمس بها والقمرا   وأقطع الفكر إليها سفرا
رأيت فيها الخالق المصورا   وقد تجلّى وجهه وأسفرا

ويعمق الحوار ويَرْصُن، حتى يهتدى الفكر إلى قرب ميلاد نبى ينقذ الكون، فهو الرسول المنتظر، هذا إيجاز مخل لمعان دافقة، وخواطر سامية ترتفع إلى مستوى عالٍ، والمسرحية بهذا الاتجاه قد بشرت بالنبى المنتظر وكأنه حلٌّ محتوم لإنقاذ البشرية من الضلال، وصاحب هذا النمط من الشعر لايُقدّم النحاس على أنه عسجد! بل يقدم الذهب النضار! هذا ماقلته لأخى الأستاذ طاهر أبو فاشا، وله ذاكرة واعية حفظته فأدته إلى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، على أكمل وجوهه، بل ربّما جعلته فى ثوب زاه لا أستطيع نسجه، فجاءنى خطاب رقيق من الشاعر الكبير يثنى على بما فوق مقدرتى، ويدعونى إلى كتابة مقال عنه يجمع كلّ ما حدثه به الأستاذ طاهر، ولا أدرى لماذا تباطأت فلم أسارع إلى تلبية هذه الرغبة! ولكنّ هذا ما حدث.

مواساة كريمة:

امتحنت بفقد زوجتى العزيزة فى رونق شبابها الناضر، فسالت دموعى شعرًا أخذتُ أنشره فى المجلاّت الأدبية متتابعًا، وقد قرأ الأستاذ محمد عبد الغنى حسن قصيدتين ممّا نشرت، فبادر بإرسال خطاب كريم، ينم عن مواساته النبيلة، ومعدنه الطيب، وقد قال فيه بعد الديباجة:

«رفقًا بنفسك وبنا، وبكل جريح أصابته سهام الزمان، وصروف الحدثان، مرثيتاكَ الرائعتان للمغفور لها زوجتك الكريمة تثيران أحزن المشاعر، وأعمق المواجع ولولا أنى أشم فيهما بقيّة من إيمانك لقلت إن فيهما آثارًا من الإصرار على الحزن، والإبقاء على الجزع، والاستسلام إلى الهلع، وأظنك يا أخى أكبر من أنْ تقف هذا الموقف، الذى يتنافى مع جميل صبرك. ويتعارض مع ما نرجوه من عظيم أجرك، إنك يا أخى قد أثريت ديوان الشعر العربى بقصيدتَيْك الحزينتيْن، وأضفت بهما بعض دموع الوفاء إلى ما أُثر فى باب رثاء الزوجات من وفاء، وبهذا قضيت الحق، ووفيّت الديْن، وكنا نطمع ـ وكلنا نشفق عليك ـ أن يهبك الله من جميل الصبر ما يندمل به جرحك، ويهون معه قدر مصابك، وما تعود به حياتك، وقد آمن الله سِربَكَ، وجَبَر قلبَك.

كنت أتذاكر ليلة أمس مع الصديق الدكتور أحمد الشرباصى أمرك، ونعرض شئونك وشجونك، وذكرتك له فى مرثيتك الأخيرة «بأديب مارس» وأن تخشى أن تنزل مطار القاهرة وحيدًا، وقد فاتك أيها الأخ المؤمن أن الله جارك فى غربتك، وأنيسك فى وحدتك، ورفيقك أينما كنت، وحيثما حللت.

فاطرحْ عنك عوامل الجزع، والله يجعل من دعوات أولادها الطيّبين الصالحين مالا ينقطع به عملها فى الدنيا، ويجعل من مواساتنا الصادقة لكم، مَا يجمل به عزاؤكم وتخف به أحزانكم، والله معكم».

هذا ماكتبه الأخ النبيل بنصه بدون زيادة أو نقص، وقد أشار إلى بعض أبيات ذكرتها فى مرثيتى الثانية وهى قولى:

أسفى أن أجىء مصر وحيدًا ... حيث لاننزل المطارَ سويًا

ويخف الصحابُ حولى حيارَى ... ويعزوننى فَأُغْضِى شجيًا

وتقول العيونُ عاد ولم تأْ ... تِ فأغضى محوّلاً مُقلتيًا

ويصير اللقاء نعيًا كأنى ... لم أكابد يوم الوفاة النعيًا

قدر الله أن أعوذ حزينًا ... (إنه كان وعده مأتيًا)

فى منزل الدكتور الشرباصى:

عدتُ إلى القاهرة بعد انتهاء بعثتى إلى السعودية، وفى إحدى الليلات هاتفنى صديقى الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى، طالبًا أن أزوره مساء الغد بعد صلاة العشاء لأمر ثقافى، فذهبت إلى منزله فى موعده المُحَدَّد، وهالنى أن أجد كلبًا ضخمًا وراء السور يرسل النباح المزعج، فتوقفت متسائلا، ولكن الدكتور سارع إلى نجدتى وهو يبتسم قائلا: ماذا أصنع واللّصوص يهاجمون المنازل خفية فيخيفهم هذا النابح الوفىّ؟ وصحبنى إلى حجرة الجلوس، فسررتُ برؤية الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، وشكرت الشرباصى أن أتاح لى هذا اللقاء الأثير، ومضى

الوقت فى سمر علمى مستطاب، ولكن الأستاذ محمد عبد الغنى قد شكا من مؤلف سورى سطا على كتابه (بطل السند) فكتب مؤلَّفًا اغتصب فيه ما ذكره جميعه دون أن يذكر اسمه، ولو مرّة واحدة، ولم يستطع المؤلف الدعى أن يبدّل من ترتيب كتابه، وتبويب أحداثه، بحيث يخفى معالم اغتصابه عن القارئ العادى، فضْلا عن القارئ الناضج، وهذه سرقة بَلْقَاء لا نزاعَ فيها، وقد لاحظت انفعال الأستاذ، فألهمنى اللّه أن أقول له: أنا أحمد الله أن كانت السرقة خاصّة بكتابك عن بطل السند، لأن هذا الكتاب بالذات قد طبع أربع مرات فى سلسلة اقرأ التى تصدر منها دار المعارف بضعة آلاف فى الطبعة الواحدة، كما أن هذا الكتاب قُرّر عدة أعوام على طلاب المدارس الثانوية ومعنى هذا أنه يوجد فى أكثر منازل المصريّين على نحو ذائع بالغ أقصى آماد الاشتهار، ومعنى ذلك كله أن أكثر قُرّاء الكتاب المغتصب، سيعرفون الأصل الذى نُقِلَ منه، وسيكون المؤلف موضع السخرية والاستهزاء بدل أن يحوز منزلة المؤرخ الصادق، وكأن الحق قد ساعد على فضيحته حين اختار هذا الكتاب بالذات من بين مؤلفاتك القيّمة، وما كدتُ أنتهى من هذا القول، حتى أشرق وجه الأستاذ سرورًا، وقال لى: واللّه لقد هَوّنْتَ على الأمر بما ذكرت من أمور لاجدال فيها! وبدَل أن كنتُ ألعنُ هذا الدعى، أصبحتُ الآنَ أرحمه من موقفه الذى ارتطم فيه ساقطًا حيث لا يعذر الساقط، فالحمد للّه، ومضت الليلة كأسعد ما تكون.

عودة إلى العروض:

لا أدرى لماذا دفعنى شيطانى إلى أن أراجع الأستاذ على صفحات مجلة الثقافة فى مسألة عروضية، أوحت بها قصيدة له نُشرت بالعدد (٥١) ديسمبر سنة ١٩٧٧ من مجلة الثقافة وفيها يقول:

وَنَفَحْتُمْ بطيبكم أردانى   وغمَرتُم من الشّذا أبرادى

لأن قوله (أرْدانى) على وزن فعْلاتن، وقد دخله التشعيث، والتشعيث لايجىء فى عروض البيت، إلا إذا كان مُصَرَّعًا، ولا تصريع هنا، ووقّعتُ المراجعة بإمْضاء

(أبو حسام) لتنشر بالعدد (٥٢) وما كاد الأستاذ يقرأ هذا التعقيب حتى رد عليه بالعدد (٥٣) بكلمة هادئة قال فى مطلعها: «وقبل أن أعقب على أبى حسام أود أن أذكّره بأنه أراد أن يخفى هويته فدل عليه فضله، ونمَّ عليه أدبه، وأشارت إليه طريقته المهذبة الناعمة فى الاعتراض والتتبّع، فقد عرفناه وفيّاً للأدباء والشعراء والعلماء، ومنصفًا للموتى من الأحياء، ولولا أنه آثر إخفاء نفسه، وكتمان فضله، لأزحت عن شخصه الحجاب، ورفعتُ عن وجهه النقاب، أعزه الله مُسْفِرا ومنقبًا وأعلى به الأدب ظاهرا ومحتجبًا» ثم أخذ يلتمس تبريرات لاتستندُ إلى نصوص ملزمة، وقال فى النهاية إنه يترك الترجيح لرئيس تحرير الثقافة، وهو الصديق الناقد الكبير الدكتور عبد العزيز الدسوقى، فعقب بما يفيد موافقته لى، ورأى أنه لا داعى للدخول فى مناقشات أخرى حول هذه المسألة الجريئة، وحسنًا فعل الدكتور عبد العزيز، لأن المسألة ليست من الخطورة بحيث يتشعب حولها النقاش!

وكان آخر لقاء لى بالأستاذ محمد عبد الغنى حسن بمجمع اللّغة العربية، إذ حضرت مؤتمره السنوى، وقد ألقى به الشاعر الكبير قصيدة رائعة، فنهضْتُ للتسليم عليه مثنيًا على إبداعه الموفق، وأخذت أطالع ما أجده فى الصحف ممهوراً باسمه الكريم، إذ أنه كان وافر الزاد من الثقافة الأصلية، وقد أحيط علمًا ببعض ما يكتب، ولكنى أجد نفسى دائمًا أضيف إلى معلوماتى المتواضعة الجديد الطريف من فكره الأصيل.

* * *

خليل مطران

كنت فى سنوات القسم الابتدائى بالأزهر أجد أسماء الشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران تتردد على الأفواه، وكان لدىّ ديوان الشوقيات وديوان حافظ، أما ديوان مطران فقد قيل لى حينئذ إنه طُبع فى أوائل هذا القرن، وقد أصبح العثور عليه شاقا، فجعلت أرقب ما يُنشر له فى الصحف إذ كان مُمتَّعًا بالحياة، ثم وقعتْ فى يدى مجلة الهلال، فطالعتُ بها قصيدةً ممتازة، تحت عنوان (إنّ من البيان لسحرًا) تتحدثُ عن عَذارى فى سن العشرين حذرتْهن أمهاتُهن عن لقاءِ ساحرٍ بضاعته الشعر، فخالفن النصيحة، وسعيْن لاستماع شاعرٍ وَصفَ فى شعره معركةً حربيّةً بين فتىً عربىّ شجاع، وفتًى آخر مُلثّم، وقد انتهت المعركةُ بفوز الفتى الملثّم، الذى اتّضح أنه فتاةٌ جميلة ذات بسالة ، ثم انتقل الشاعرُ إلى قصّة قيس العامرى فأبدع فى سرْد مأساته، ولم يكَدْ ينتهى من حديث قيس حتى مَلَكَ ألبابَ السامعات وجذبهن إلى حبّه بما نفثَ من سحر، وجاءَ فى ختام القصيدة عنهن:

فبكَيْن قيسًا ترحةً . وحبَبْنَهُ ملء الضمائرْ
ثم انثنيْن مكفكفاتٍ دمعَهنّ عن المحاجِرْ
كلٌّ تقولُ بلحْظها ياقيسُ إنى بنت عامرْ
تاللّه أنْصَفَتِ النّوا صحُ ليسَ هذا غير ساحْر

قرأتُ القصيدة فوجدتُ نمطًا من التصوير الشعرى لا عهد لى به، إذ تحدثَ

الشاعرُ الكبير عن تأثير الشّعر من خلالِ قصةٍ عاطفية سحرت ألبَاب الآنسات فهمْن به، وكذلَك يكونُ السحر من البيان، والقصائد التقريرة مهما أطَالتْ فلن تبلغَ مبلغَ هذا الإيحاءِ التأثيرى تدليلاً على مكانة البيان وشدة أثره فى النفوس!

مختارات الزهور:

أخذتُ بعد استمتاعى بهذه القصيدة أبحثُ عن آثار الشاعر الكبير ما استطعت، ثم اهتديتُ إلى كتابٍ يجمع مختاراتٍ لأعيان الشعر المعاصر تحتَ عنوان «مختارات الزهور» والزهورُ مجلةٌ كان يصدرها الأستاذ أنطون الجميّل، وقد ضمّتْ قصائد ممتازة لكبار المعاصرين من أمثال شوقى، وصبرى، وحافظ، ومطران، ومحرم، وبشارة الخورى، وشبلى ملاط، وولى الدين يكن، وغيرهم، ثم رأى الأستاذ الجميّل أن يختار من شعر هؤلاء قصائدَ فى مجموعة خاصّة سَمَّاها «مختارات الزهور» وقد جَمعتْ عدة قصائد ممتازة للشاعر الكبير خليل مطران، فأقبلتُ على استظهارِ كلِ ما جاء فى المختارات، ووجدت مطران هو مطران فى إبداعه القصصى النادر، وكانت قصيدة «الوردة والزنبقة» مماً مَلَكَ على إعجابى بالشاعر، حيث أراد أن يتحدث عن حبيبين متجاوريْن فى المسْكن، ولكنها متباعدان فى اللقاء، فلْمَ يَقُلْ مثلما قال الصُّولى مثلا:

وإنّ مقيماتٍ بمنعرج اللوى ... لأقربُ من ليلى وها هى دارها

ولامثل ما قال أبو العلاء:

فيادارها بالحزن إنّ مزارها ... قريب، ولكن دون ذلك أهوال!

ولكنّه جاء بوصف تصويرىّ خالب، لوردة جميلة تُجاور غُصنًا يحمل زنبقة، فكانا يتعانقان إذا هب النسيم، ثم صَلُبَ العودُ فلم يَعُدْ يميل إلى حبيبته الوردة، وقَاسَى الجاران مِنْ هول الصدِّ مقاساةً عبَّر عنها والدُ الفتاة حين خاطَب ابنتَه بقوله على لسان مطران:

فقد جاورت هذى الوفيّةُ إلفها ... إذ الإلْفُ ميّاس المعاطف أميلُ

فكانَ إذا مرّتْ به نسمة الصبا ... يُسرّ إليها سرًّ من يتغزلُ

يُداعيُها جُهد الصبّابة والهوى ... ويُعرض عنها لاعبًا ثم يُقبلُ

ويَرشف كلٌّ مِنْ جَبين حبيبه ... دمُوعَ الندى خَمرا رحيقًا فيثمل

ولكنّه لم يلبث الغض أن جفا ... فلم تَثْن عِطفَيْه جنوبٌ وشمأل

وعَمَّا قليل يقضيان من الأسى ... وإنْ صَحَّ ظنى فَهِىَ تهلكُ أوّلُ

وما سمعت الفتاةُ قولَ أبيها حتى قالتْ فى خاطرِها الملتاع:

فوَارحْمتَا هذى حقيقة حالنا ... رآها أبى فى الزّهرتيْن تُمثّلُ

بكى جزعًا للزهرتيْن ولوْ دَرَى ... لصاَن لنا الدمعَ الذّى راح يبذل

هما صُورتَانَا فى الهوى وحَدِيثُنَا ... حديثُهما بين الأزاهر يُنْقَلُ

أجلْ ملكتْ علّى هذه القصيدة منافذ شعورى، فأصبحُت أرى مطران شاعر العصر الأوّل، وجعلتُ أترصَّدُ شعرَه فى مظانّه الحقيقية، وأقوُل الحقيقية، لأنّه اضطُر فى سنواته الأخيره أن يلّبى دعوات التأبين والتكريم فكان يتكّلفُ فى بعض الأحيان، ولَه عُذرُه، لأنّ مثلَهُ فى سماحته كان لا يَرفض رجاءَ راجٍ يأملُه، أمّا المظان الحقيقية فهى مجلاّت الأدب، وديوانُه الذى صَدرَ فى الأربعينيات فى عدة أجزاء حافل بروائعه، وقد جَمعَ كُلَّ ما قال مُخْلصاً ومجاملاً، وعلى القارىء أن يختار.

حفلة التكريم:

حين التحقتُ بكلية اللغة العربية أُقيمت حفلة تكريمية كبرى لمطران تقديرا لجهده الرّيادى فى دُنيا الشعراء، وجاءت وفودٌ من العراق ولبنان وسوريا تُشارك شعراء مصر فى هذا الاحتفال، وقد ساعدنى الحظّ ببطاقة أرُسلت للأستاذ الزيات كى يَحضُر الاحتفال، وكان متوعكًا، فآثَرَنى بالبطاقة، وذهبتُ إلى دار الأوبرا

الملكية، لأرى الشاعرَ لأوَّل مرة، وسمعتُ فى كلمات التكريم ماوَافَقَ اعتقادى فى سبَقْه التجديدى، كما سعدت برؤية شاعر لبنان الكبير الأستاذ شبلى ملاّط، وقد جاءَ ممثلا لبلده، وكنت أحفظ كثيرًا من قصائده، وأرى فيه بطولةً عنْتريّة تتجلّى فى حماسته الدافقه، وقد ألْقى قصيدةً عن مطران قال فيها:

أخَا الصّفحات بيضًا نَاصعات ... وربَّ النثر والشعر النضيد
أرىَ سِمةَ الشّباب إليكَ عادتْ ... فياسمة الشباب إلىَّ عودى

أما الأستاذ عباس العقاد فقدْ وفَّى الشاعر حقه حين قال:

لماّ سبقتَ إلى الجديد ... سبقتَ فيه إلى كمال
أتعبت خلفك مَنْ سَعَى ... فى العدْوتين على ضلال
لم يدركوك وإن جَرَوْا ... مِن بعد شوطك فى المجال
حرّرتَ أوْزانَ القصيد ... فزادَ فى الميزان وزناَ
وتوسعتْ فيه البحور ... فأرسلتْ دررُا ومُزْنَا
هذى الثلاثياّت حقّك ... مِن لَدُنْكَ ومن لَدنا

ولا قول بعد العقاد، فقد اعترف بما حاول التغاضى عنه من قبل.

لقاء الشاعر الكبير:

ظللتُ أحْتالُ للقاء الشاعر الكبير دونَ أنْ أعرف الطريق، لأنّى محدودُ الصلات بنابهى العصر وأعلامه، وكان من التوفيق الكبير أنّ الدكتور زكى مبارك جَلسَ يتحدّث فى دار جريدة البلاغ، عن صلته الوثيقة بمطران، وعن إعجاب مطران به، حتى نظمَ قصيدة فى تقريظ كتاب (النثر الفنى)، وقال مبارك: إنّه حين نظمَ قصيدة (مصر الجديدة) لم يجدْ جديرًا بسماعها قبل النشر غير خليل مطران، وأفاضَ الدكتور فى هذا المَنحى إفاضة شافية، فقلت له: لى رغبةٌ حارّة فى لقاء

الشاعر الكبير، ولا أجد سواك مَن يتفضّل بتقديمى إليه، فقالَ إن مطران يستشفى بحلوان حيث يجلسُ فى المياه المعدنية كلّ يوم قرابة ساعتين، وأنا على موعدٍ من لقائه، فلو أحببتَ أن تجىء معى غداً، فلامانع، فانتهزت الفرصة وسارعت بالموافقة.

لقيتُ الشاعر الكبير فى ثوبِ مرضه، وأشفقتُ بيْنى وبين نفسى من لقائه فى وَضْع لايسمح بالتبسط الأدبى، ولكنّ الدكتور زكى مبارك قد ابتدأ الحديث مقدمًا إيّاى فى تشجيع أبوىّ هو إلى العطفِ أقربُ منه إلى الحيدة، وكانَ مما قال: إننى أحفظُ ديوان الشاعر، وأعدّه شاعر العرب منذ أمرئ القيس، فأشْرَقَ وجه الشاعر، وكنُت حينئذٍ أرتدى العمامة والكاكولة، وقال: الشعرُ عريق بين أصحاب العمائم، ومن زملائنا الكبار الذين سبقونا إلى رحمة الله الكاظمى، وعبد المطلب، وعثمان زناتى، وممّن لايزالون بيننا القاياتى، والأسمر، والأستاذ، وأشار إلىّ.

قلتُ ـ صادقًا ـ إنى لا أرى مثلاً أحتذيه غير شاعر الأقطار العربيّة، لأنّه افتتح بابَ التجديد المعاصر، ومن ورائه تتابعت خطوات شكرى والعقاد والمازنى والمهجريِّين، وهذا تسجيلٌ لواقعٍ لاينكره أحد، وقد سمعتُ قصيدة العقاد فى حفل التكريم فَسرنى حديثُه النقدى بها، وكنتُ قرأتُ ما قاله عن الشاعر الكبير فى كتاب «شعراء مصر وبيئتهم فى الجيل الماضى»، فأدركت غَبْناً واضحاً سّرنى أن أجد تصحيَحه الآن، فنظر مطران الىّ وطلبَ أنْ يسمع منّى بعض ماقلت، فقلُت على أن أُسمعك بعضَ ما أحفظ من روائع شعرك، فقال يكفى أن تذكر بعضَ الأسماء، قلت! بعض مؤرخى الأدب الحديث، يتناقلون قصيدتك «المساء» ويسْتشهدون بها وينسون مئات القصائد التى ترتفع عن «المساء»، مثل الجنين الشهيد، وفتاة الجبل الأسود، والزنبقة والوردة، والمراثى التاريخية لكبار العظماء مثل سعد زغلول، ومحمد فريد، ومصطفى كامل، وملحمة نيرون، وقصيدة عصفورة مغتربة التى أُردّدها كثيرا لأنعم بترويحِ نفسى ساعة الضيق، ومضيتُ أذكر بعض القصائد، فبسَطَ الشاعر يده إلىّ مصافحًا وقال: لا أدْرى كيف أشكرك، ثم طلبَ منى أن أسمعهَ قصيدةً من نظمى، فاخترتُ قصيدة تتحدث عن الصداقة،

وكنت معتزاً بها حينئذ، فاستمع إليها الشاعر فى ابتسام، ثم قال لى: إنك شاعر حقا، وعندك النّول الجيّد الذى تنسُج عليه، ولكنّ الفكرة تتطلب امتدادًا فى التحليل، وعمقاً فى النظر، لايكفى أن تعبـّر عن مشاعرك نحو الصداقة، فهذه مرحلةٌ أولى، والمرحلة الثانية أن تُعمّق نظرتك إلى الصداقة وتمتدّ بها إلى الوجود بأجمعه فتجدها سرّ الانسجام فى الكائنات الحيّة، وتجدُ للذرات المتجاذبة فى الجماد شبه صلةٍ بالصداقة فى التودُّد والتجاذب، وتجد الكونَ سعيدًا بالصداقة، وشقياً بالعداء، لو امتددتَ بنظرتك إلى هذه الآفاق ستكون مبدعًا كبيرًا، ولا أدرى لماذا سكتّ دهشًا، فاستدركَ الشاعر يقول: أنت تقولُ مثل كثيرٍ من المشتهرين بالشعر، ولكنى أريُد أن تحلّق وترتفع! ولعلّى ذكرتُ اسم الشاعريْن الكبيريْن الأسمر وغنيم فى حديثى، فقالَ الخليل: هما شاعران، وأنت مثلهما، ولكنّك تستطيعُ أن تمتدّ إلى مجال أوسع، وسكتّ ليتفرد الدكتور مبارك بحديث مع الشاعر، دار أكثره عن القدماء لاعن المحدثين، وعن السهولة التى تواتى الدكتور حين ينظم.

فى الإسكندرية:

بعد عشر سنوات من رَحيل الشاعر الكبير سعدتُ لصداقة الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، وكان من أخلصِ أصدقاء مطران، وللشاعر صلةٌ وديّة بأقاربه، إذ كانَ يزورهُ فى منزله، وقد يقضى معه أيامًا، وقد قالَ لى ذات مرّة، إنّى كنتُ أزورُ مطران بالقاهرة مع أخى الشاعر خليل شيبوب، حين علمناَ شدّة مرضه، فارتاحَ لزيارتنا كثيرًا، وشعر معنا بنشاط لايعهده، وكانَ ممّا قاله لنا: إنّ الدكتور زكى مبارك قدّم له شاعراً أزهريا يحفظ أكثر ديوانه، وأنّه شعَر بسرورٍ زائد حين قابل الأزهرىَّ الشاب، وأسمعهَ بعضَ ما يحفظ من شعره، على حينَ كانَ يظُن أن قصائده التجديدية لاتجد الترحيب الكبير عند أساتذة الأزهر، فتبدّل هذا الظن.

قلت للأستاذ شيبوب: أنا ذلكَ الشاب الأزهرى، وقد صحبتُ الدكتور زكى مبارك إلى زيارته بحلوان وأنا سعيد كل السعادة إذ أعلُم أنّهُ تحدّثَ عن لقائى معه، وما كنتُ أتوهّم أن زيارتى العابرة ستعلقُ بخاطر هذا الرجل العظيم.

* * *

الأستاذ إبراهيم الترْزِى

سعدت باختيارِه عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر، لأنّه قد كافح كثيرا فى مجال الفكر العربى، وكان كفاحه فى عدةِ جبهات مختلفة، فى البرامج الإذاعية، وفى الكتب المدرسية، وفى التحقيقات العلمية لكتب التراث، وفى المسُلسلاتِ التليفزيونية، والذين يفرّقون أعمالهم فى اتجاهاتٍ شتى يضيعُ أثرهُم الضّخم على تنوعه جوار الذين يُحاربون فى جهة واحدة، لأنّ الترزى لو اقتصرَ على مجالٍ واحد، لبلغ فيه الشأو البعيد، وليس وحده الذى تَناهَبَتْهُ شتى الاتجاهات، فله أمثال.

أعتبرُ إبراهيم الترزى رفيقَ حياتى العلمية زمنَ الصّبا والشباب، فقد كنّا طالبين بمعهد الزقازيق الدينى، وكنتُ أسبقه بعدة سنوات، إذ كانَ فى القسم الابتدائى بالمعهد، وأنَا فى السنة الثالثة بالقسم الثانوى حين بدأ تَعارُفنا المتّصل، وأذكر أنّه قرأ لِي قصيدةً فى مجلة الإخوان المسلمين تحتَ عنوان «على قبر حمزة»، فسعَى إلىّ منوّهَا، وتناقشْنا فى شئون من الأدب والسياسة، وفى اليوم التالى دعَانى إلى منزله بقسم يوسف بالزقازيق، وحينَ وَافَى الموعد، وجدتُ خمسةً من زملائى الطلبة لديْه، وفاجأنى إبراهيم بأنه دعانا فى جلسة خاصة للاحتفال بذكرى مصطفى كامل، لأنّ اليوم يوم ذكراه، ثم أخرج من جيْبه ورقةً قرأها، فإذا هى موجزٌ دقيق لحياته وأعماله، و طلب منا أن نتحدثَ عنه، وَفْقَ ما يخطر على بال كلّ متحدث، وكان الموقفُ صعبًا، ولكننا استْمعنا إلى سمرٍ يدور حول الزعيم، وخرجتُ وأنا أقول فى نفسى: طالبٌ بالقسم الابتدائى يهتم بذكرى الزعماء، ويقفُ على

سِيرهم، ويُنَبِّهُنا إلى الاحتفال بهم، وقد سبقناه بسنوات بدون أن نلتفت إلى شيء!! هذا جميل!

وتوثّقتْ علاقتُنا الأدبية توثُّقا أكيدًا، فكنّا فى يومى الخميس والجمعة نسير عصرًا على شاطىء بحر مويس الذى يمتد إلى مدًى فياح مظلّلا بفروع الصفصاف وغدائر النخيل، نسير لنتحدّث فى شئون الأدب والسياسة والعروبة والإسلام، وأذكرُ أنى بعد أربعين عامًا جعلتُ أسيرُ فى هذا الطريق مُتّجهًا إلى كلية اللّغة العربية بالزقازيق إذ كنتُ عضواً بمجلس الكلية، فكنتُ أنظرُ إلى البحر الممتد، وفى خيالى مسَيرتُنا بالأصيل فى عهد الصبا، كان الترزى يتجسّم أمامى وأنا أقطع الطريق، ولكنّى كنتُ أرى البحرَ غير البحر، والشجر غير الشجر، والنخيلَ غير النخيل، إذ كانَ زهو الصبا وحلاوةُ الأمل مما يخلعُ رونقًا خلابا على المنظر الساحر، فيزيده بهاءً فوق بهاء! أما اليوم، فوا أسَفى، لقد ماتت الأحلام، وتجسد الواقع فى صخره الصليب.

ولا أنَسى أننى زُرْتُ إبراهيم ذات مساء، فوجدتُ معه زائرًا مهيباً، عرفّنى به، فإذا هو خالُه الأستاذ الكبير أمين بَسْيُونى المستشار بمحكمة الاستئناف، وبادَرنى إبراهيم فعرضَ علىَّ كتاب (المنتخبات) للأستاذ أحمد لطفى السيد، وقال إنّ خاله المستشار قد أهداه إليه اليوم، وسكتّ لأسمع الأستاذ أمين بسيونى يقولُ فى هدوء: الأستاذ لطفى السيد من كبار الكتّاب فى عهد تلمذتى، وهو من أصحاب الأفكار لا أصحاب الأساليب، فهو معلّم أكثر منه كاتبًا، وكذلك كان زملاؤه أحمد فتحى زغلول، وقاسم أمين، ومحمد مسعود، وقد رأيت ابن أختى إبراهيم يهتمُ بأصحاب الأسلوب فقط مثل المنفلوطى، والبشرى، والزيات، والرافعى، فأردتُ أن أوقفه على لون آخر، ليمزج بين الفكرة الجيّدة والتعبير البليغ! وكنت أسمع كلام السيد المستشار بمزيد الانتباه. وفى اليوم التالى قال لى إبراهيم: سأعطيك كتاب «المنتخبات» لتقرأه أوّلا، ثم أقرؤه أنا بعد ذلك، ونحكمُ عليه معًا بما نراه! وهكذا كانت أكثر قراءاتنا مشتركة وأقولُ أكثر قراءاتنا، لأنّنا مع اهتمامِنا بزعماء الأدب المعاصر، كالمازنى، والعقاد، وطه حسين، وهيكل، والزيات، وزكى

مبارك، وأحمد أمين، فقد كنتُ أهتمّ وحدى بكُتّاب الفكرة الإسلامية، مثل محمد فريد وجدى، ومحب الدين الخطيب، ومحمد الخضر حسين، وكان الترزى يهتم بكتّاب الأدب الشعبى، مثل بيرم التونسى، وحسين شفيق المصرى، وأبو بثينة، ومعَ ذلك فقد كان يشترى الكتب المختلفة فى كلّ اتجاه، ويتفضّل علىّ بأن أقرأها قبله، وهذا مالا أنساه!

كانتْ دائرة اتصالى بأدباء الزقازيق محدودة، فأنا لا أعرف غير الشعراء من أبْناء العاصمة، مثل عبد العزيز عفارة، وتوفيق العوضى، وأحمد مخيمر، ومحمد الصادق سعود، أما إبراهيم فكان على صلة بالكثيرين، ذهبتُ إليه ذات مساء، فوجدته ينسخُ قصائد مختلفةً قال إنها للشاعر الضرير الأستاذ محمد العلائى، وكانت بعثتُه إلى إنجلترا قد أبطأتْ، فكتب قصائد طويلة جداً، كان يُمليها على الترزى لينشرها فى الرسالة تباعا، وأذكُر أنى جلستُ معه فى مقهى صغير، فقدّمنى إلى شاب أديب هو الشاعر الكبير الأستاذ صلاح عبد الصبور فيما بعد، وقال إنه تخرج هذا العام من كلية الآداب، وأنّ الأستاذ أمين الخولى يضنّ به على التدريس بالمدارس، ويبحثُ له عن عملٍ أدبى، كما صحبنى مرة لزيارة الشاعر الغنائى مرسى جميل عزيز، وكان حينئذ لايزالُ يبيع الفاكهة بجوار سينما أبو لون بالزقازيق، وإذا حاولتُ أن أتذكر جميعَ من عرّفنى بهم إبراهيم فى دراستى بالمعهد فلن أقدر، لأنّ ما يغيب عن الذاكرة اليوم أكثر مما يَحضر، فلا مَلامَ.

ثم انقلتُ إلى القاهرة، وبدأتُ أنشر بالمجلات الأدبيّة قصائدى ومقالاتى، فكانَ الترزى أوّلَ قارئ لما أكتب، وكان يراسلُنى ناقداً لا مقرّظًا، وأنا أرحّب بكل ما يقول، لأنى أعلم صفاء قلبه، ونزاهة حواره، وقد لاحظَ كثرة ما أكتب بمجلاّت سياسية، فكتَب يقول: لنْ أرضى عنك حتى تكتبَ بالرسالة والثقافة، وكنتُ أجدنى دون ما يأمل، ولكنه أجبرنى على مراسلة المجلّتين، وقد حظيتُ بقبولهما، فكانتْ فرحة إبراهيم تصوّر لى أنّه هو الكاتب لا أنا، ثم دارت الأيام فالتحق إبراهيم بدار العلوم، وانصرفَ إلى دروس الكلية وحدها، لأنه ذُو أسرةٍ، فقد تزوّج وهو طالب، فأصبح يكابد همّه وهمّ غيره، وكنتُ أحثّه أنا على الكتابة

بالرسالة، فيقول: وأين الوقت؟ ثمّ فاجأني بمقال رنّان نشره بالرسالة تحت عنوان (مصر واليونان) تحدّث فيه عن الصلة الفلسفيّة بين الوطنين العريقين، وذهبَ مذهب من يرى انتقال الأثر الفلسفي من مصر إلى فلسفة اليونان، بالدليل المقنع، والبرهان الملزم، رادا على من يقول إنّ الفلسفة لم تجدْ منبعًا تنفجرُ منه غير صخور الإغريق، وقد قرأتُ بحث إبراهيم فوجدتُه أكبر من أن يكتبه طالب جامعي، إذ كانت أكثرُ حقائقه غائبةً عني، فتركتُ عملي بالمنصورة، وسافرتُ إلى القاهرة لأهنئه بما كتب، ولم أنسَ أنه قال لي: لقد كنتُ أخشى أن تنقدني، أمّا إذا زكّيت فهذا ما سيشدّ أزري.

تخرج إبراهيم من دار العلوم متقدّمًا. سابقًا، والتحقَ بالدراسات العليا، فنالَ الدبلوم بكفاءَة، وجاء موعد التسجيل لدراسة الماجستير، ولكنّ رئيس شعبة البلاغة والنقد قد ألزمَه بشخصية ناقد مغربي، هو عبد الكريم النهشلي، قائلاً: إنه أستاذُ ابن رشيق والحصري، ولا بدّ من البحث عنه، وليس للنهشلي غير نُصوص مبتسرة في كتابٍ أو كتابين لايستقيم معها تصوّر عملٍ جامعي يجلو صحيفة ناقد جدير بهذا الوصفِ، فكنتُ إذا قابلتُ إبراهيم جعلَ يسألني عن عبد الكريم النهشلي وكأنّه وحده الذى بقي في التراث النقدي دون بحث، وأنا لا أدري من أمره شيئًا، ثمّ كرت السنون، وما زال النهشلي مجهولا، لأن الكتاب الذي طُبِعَ منسوبا إليه، قد دار الشّكُّ حول نسبته إلى صاحبه، بأدلة مُلْزِمَة تتطلب الردّ، أفلو كان الترزي قد اتّجه إلى غيره أما كان سيُجلّي في بحثٍ يختار موضوعه بنفسه؟ كنت أودّ ذلك! ولكنّ الأقدار تجري بغير ما نريد..

جعلنا في هذه الفترة نتراسلُ كثيراً، حيث نتحدثُ في شئون الأدب وحده، وكانت المجلاّت الأدبيّة قد احتجبت ففترَ نشاطي الأدبي، إذ لا أجُد الدافع للكتابة، حيث امتنَع المنبر المذيع، ولم أنسَ ذات يوم جاءني فيه خطاب من إبراهيم يبشّرني فيه بأنّ الأستاذ أمين الخولي قد أصدر مجلّة تحملُ اسم الأدب، ولابد أن أجدّد عهد الرسالة بها، فقمتُ بنشر كثيرٍ من قصائدي على صفحاتها، ووجدتُ إبراهيم يتجه إلى جريدة المساء لينشرَ فيها بحوثًا أدبية وتاريخيّة متّصلَة، وكان

يستشيرُنى فى بعض ما يختار من الموضوعات، وأذكُر أنى اقترحت عليه أن ينشر بحثا عن سلطان العاشقين عمر بن الفارض! لأنّى أُوثره بحبٍّ جمّ، فسألَنى عن المصادر، فدللتُه على الشرح المبسوط للديوان، إذ فى مقدّمته ما يَحسن النظر إليه، واقتباس مايروق قارىء الصحيفة اليومية من طرائفه، وقد قابلتُه قبل أن يحرر المقال، فقال لى: يا أخى أنا أحبّ الشعب المصرى الطيّب، المؤمن على مدى عصوره، إن عمر بن الفارض قد أدركَه الوجد ذات يوم فخلَع ثيابه، وصاَح، يردّد ذكر اللّه متواجدًا، ونظرَ الناس إليه، فهاموا وراءه، وخلُعوا جميع ثيابهم ولم يُبقوا غير مايستر العورة، وكلما مروا بشارع تكاثر الجمعُ وتزايد حتّى بلغوا ساحة الأزهر، فتحول المشهد إلى موجٍ يفيض بالناس، وكأنّهم فى تجرّدهم يقفون فى يوم المحشر، وأصواتهم تدوّى بذكر الله! ما أطيبَ هذا الشعب يا أخى! قال لى إبراهيم ذلك، ونظراتُه تشع ببريق مبتسم صاف، فكنت لا أزورُ مسجد ابن الفارض إلا تمثلتُ إبراهيم وهو يصفُ ما قرأ، بل أزيد فأتمثّل بخيالى الجمع المحتشد، وكل واحد يلقى ثوبه وعمامته ويسيرُ فى موكب ابن الفارض، ويخيّلُ إلىّ أنّ الزمن لو كان قد سبق بى وبإبراهيم إلى عصر ابن الفارض لكنّا بين هؤلاء!

وفى يومٍ من الأيام جاءنى خطاب من إبراهيم يعلن أنّه على موعدٍ مع الأستاذ إبراهيم عابدين مع مجموعة من أساتذة الجامعة والمدارس الثانوية لتأليف عدة كتب مدرسية فى فروعِ اللّغة العربيّة، ولابدّ من حضورى، لأنه صمّم على أن أكون بين المؤلفين، ولم أُرَحِّبْ بالفكرة بينى وبين نفسى، ولكنّى صممّتُ على الذهاب لأشهدِ الاجتماع فحسب، وكان بين الحاضرين الدكتور محمد غنيمى هلال كما أذكر، وشَرَّقَ الحديثُ وغَرَّب، ثم حادثت صديقى بأنى جئتُ متفرّجًا فقط، لأن التأليف المدرسى مع آليتّه عبءٌ ثقيل، إذ ليست المادة العلمية وحدها بكافية لنجاح التأليف، بلْ لابدّ من مراعاة الأسلوب التربوى تبسيطًا وتوضيحًا، وأسئلة وأجوبة، مع مراعاة مستوى الطالب، ورغبات الحاضر السياسى والوضع الاجتماعى، كما أنّ بين مَن تكتب أسماؤهم على المؤلفات مَن لا يكتبون كلمة واحدة، ويعتزّون بصلاتهم مع ذوى الأمر، فلم يشأْ إبراهيم أن يجبرنى على

شيء، واندفع فى الشوط إلى أقصاه، فأصدَر مع بعض الزملاء كتبًا كثيرة، ويخيّل إلىَّ أنه أنفق جهدًا جاهدًا عاد على التلاميذ بالنفع، وفى هذا بعض العزاء، أما الجزاء المتكافئ فعند الله.

وقد ألفت مسرحية شعرية عن موقعة المنصورة أثناءَ الحروب الصليبية، تقدمتُ بها إلى جائزة شوقى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، تحتَ عنوان «انتصار» وأذنَ الله فنالت الجائزة، ورأى إبراهيم أن يكتب عنها كلمة تحليلية بمجلة (المجلّة) التى كانتْ تصدرها وزارة الثقافة من قبل، وطالعتُ كلمة صديقى فوجدتُه قد أبرز حسناتٍ كثيرةً، وأشارَ إلى مآخذ يراها من وجهة نظره، ولا أدرِى لماذا تعجلتُ فرددتُ عليه، وعلم الترزى بما فعلتُ، فسارع إلى رئيس التحرير يرجوهُ أن ينشر نقدى بدون إبطاء، مع أنّه يخالفه، وكتب إلىَّ يؤكد أنه حرصَ على نشر الرد، وإنْ خالفه، ليقفَ القارىء على الوجهيْن المختلفين، ثم ليختار مايشاء، وتلك نبالة أعْهَدُها فيه، ولم تكن غريبة علىّ.

على أن هذا الصدق فى النقد قد كان ديدنى معه، إذْ جعلت أتابع البرنامجَ الثّانى فى أول نشأته، وكان إبراهيم يكتبُ فيه قصصًا حوارية عن رجالات الأدب، كالجاحظ وغيره، حيث تحتل القصّة وقتا طويلا يشبُع السامع، ويمتعه، فكنتُ أستمع إلى البرنامج، وأكتُب إلى صاحبى بوجهة نظرى، ثم يكونُ النقد مجالَ حوارنا حين نلتقى، وقد نشر مرّة بحثًا طويلا عن أبى خليل القبانى بمجلة المجلة، وطلبَ رأيى فيه، فقلُت له: لا أعلم شيئًا عن القبَّانى، فكيف أبدى غير الاستحسان! قال أنت تجاملنى؟ قلت: وهل تعتقد!

رأيت الترزى ذات يوم ومعهُ كتاب (الاعتبار) للأمير أسامة بن منقذ، وهو مذكراتٌ عن حياته كتبَها بطريقه سهلة فسجّلَ طرفًا من شجون عصره المائج بأحداث الحروب الصَّليبيَّة، وقد وَضع إبراهيم عليه هوامش كثيرة، وميّز بعضَ سطور بخطوط تدل على اهتمامه بمضمونها، ثم تبينتُ بعد ذلك أنه كتب عن البطل الشاعر العالم قصّةً أدبية تحت عنوان «الحلم الكبير»، وقد اختارتها وزارة

التربية للقراءة ذات الموضوع الواحد، وأتبعهَا بقصة ثانية عن بلاد اليمن ذات السدود، ولم أعجبْ لاتجاهه القصصى، لأن بذرةَ الفنّان تكمُن فى نفسه منذ عرف طريق القلم، ولكنّى عجبتُ حين رأيتُه يصعدُ فى وعورة التحقيق العلمى لكتب التراث، وكأنّ وظيفَتُه بمجمع اللّغة العربية قد جذبتْه إلى أن يتصعد فى جبلٍ وَعْرٍ، لم تكن بشائر أعماله تتنبأ به، وقد قرأت بارتياحٍ ما حققه من أجزاء السيرة الشامية للصّالحى، المعروفة بسبل الهدى والرشاد، لأنّ كتب السيرة النبوية حتى فى العصور الهابطة تجد من القراء كل ترحيب، أما الذى لم أصبْر على قراءته فهو ما حققّه من أجزاء «التاج» لأنّ قراءة مختار الصحاح تُضايقنى، فكيف بشرح القاموس، وجُهد المحقق فيه شاق عسير، وقد اجتازَه الترزى مرْهقاً كما أتصورّ، إلاّ أن يكون طابع العالم فى نفسه قد سيطَر على طابع الفنان، ولست أرى تحقيق التراث فى كل أحواله مما يُرهق، ولكن تحقيق «التاج» ونظائره ليست كتحقيق ديوان شعر، أو رحلة أديب.

لقد تحدثتُ عن الترزى كما اتفق الحديث، فجرى القول فى شجون تفترق وتأتلف، ولو تعمدت الترتيب المنطقى لكان أولى وأجدر، ولكن هكذا اطرد السياق فعذرًا، وإن أنس مواقف كثيرة لى معه، فلست أنسي كُتبه التى تحتل مكانا فى مكتبتى المتواضعة، فقد تعوّدتُ أن آخذ منه ويأخذ منى، ثم انقطع لقاؤنا لشواغل كثيرة، فكانت كتبه تذكّرنى به دائمًا، ومنها كتب قيمة لزكى مبارك ومحمد كرد على، ونقولا زيادة، كما أذكر أن من كتبى لديه أثرًا نفيسًا من آثار الأستاذ محمد عبد الله عنان، وهو كتاب أعتزّ به، ثم كان من سرورى أنه جلس فى مجمع اللّغة بمكانه الذى خلا بوفاته، فكدت أكتب إليه قائلا فى تهنئتى تذكر يا إبراهيم أننا كنّا نتحدث عن الأستاذ عنان كثيرًا، وأننى أنا الذى بدأتُ فعرفتُك به وأنت طالب بمعهد الزقازيق، فهل كان هذا إرْهاصًا جميلاً لما سيحدث فى مستقبلك إذ تجلس مكانه جلوس الواثق المطمئن، أقول إنى كدت أكتب إليه ذلك، ولكنى لم أفعل، إذا لايجوز أن أهنئ نفسى حين أهنئه، فكلانا يعرف موضعه من أخيه، وللنفوس إيحاءات تهمس فتترجم، وهى أصدق من كلّ بريد.

***

الأستاذ عبد القدوس الأنصارى

فى زيارة خاطفةٍ لصديقى الأستاذ محمد سعيد العامودى بالمنيل، حيثُ كان يقَضى عطلة الصيفَ بالقاهرة، أخبرنى أنّ أمسية أدبيّة ستكون الليلة القادمة بمنزل الباحث الموسوعى الكبير الأستاذ أحمد عطية اللّه بالمعادى، وسيؤُمها نفر من كبار الأدباء فى السعودية ومصر، وهو يدعُونى إلى مشاهدتها، قلت: ولكنّ صاحب المنزل لايعرفنى، قال: بلْ يعرفك، وقد حدثته عنك، فأذعنت.

وفى هذه الأُمْسِيةِ الجميلة، بحديقة المنزل، وتحتَ الشجر الأخضر الزاهى، دار الحديثُ عنْ مسائل أدبيّة وتاريخيّة كثيرة، وجاءَ ذكر الإمام مالك رضى اللّه عنه، وكيف عُذبَ فى ذات الله، لأنه أفتى بأنّ طلاق المُكره لايقع، فاكتفى المتحدّث عنه بذكر ما كوفئ به الإمام من التعذيب، ولكنيِّ وجدتُ أستاذًا يأخذُ بالقضية من وَجْهها الفقهى، فيعرضُ آراءَ الأئمة فى طلاقِ المكرَه، فذكَر من غيب صدره وكأنّه يقرأ فى كتاب، أن فُقهاء السلف قد اخْتلفوا فى طلاَق المكره فَرُوِىَ عن إبراهيم النخعى أنه يقع، وذكر الشافعى أنّه لايقع، بدليل أنَّ الذى يُكرهُ على قول الكُفر، وقلبُه مطمئن بالإيمان، لايُعتدّ بما أُكْرِهَ عليه، وذلك فى الإيمان، وهو أقْوى أثرًا من غيره، فكيفَ بالطلاق، وأيّد الشّافعى منحاه العقلى بما رُوِى عن عمر بن الخطاب وابن عباس وعلى بن أبى طالب، وناهيك بهم، ثم أفاضَ المتحدث فى خلافٍ كبير بين المالكية ذكَره العلاّمة الشّيخ أحمد الدردير فى شرحه على مَتْن خليلٍ. والحق أن إلمَام المتحدث بمسألة فقهيّة جاءَتْ عرضًا فى الحديث، يدلّ على أنه فقيهٌ كبيرٌ من رجال التشريع! وقدَ سألْتُ عنه فقيل إنّه الأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب المنهل، فزاد عجبى لأنّى أقرأ آثار الأستاذ

الأنصارى وأجدُها موزّعةً بين الأدب والتاريخ والآثار! وهَا هُو ذا الآن يدلّ على تبحرّه فى مسائل التشريع!

الحديث الأول:

وقد دفعنى ما سمعتُ من الأستاذ إلى أن أنتَقِل إلى جواره لأُسعد بمعرفته، وأعلن إعجابى بتبحره الفقهى على ذُيوع شهرته فى عالم الأدب، فابتسمَ الرجل، وقال إننّى تلقيت علوم الشريعة، بجوار علوم الأدب على يد أستاذى وعمّى الشيخ محمد الطيب الأنصارى، وكانَ الرجُل الكبير لا يُفرقُ بين مواد الثقافة الإسلامية، إذ هىَ لديْه فى مستوى واحد! وقد قامَ على تدريس موادّ مختلفة بمدرسة العلوم الشرعية التّى كنتُ من أوائل طلبتها، ثم صرتُ أستاذًا بها! فكان درس الأدب لديه يُجاور درسَ الفقه والحديث، وإنّى لأدعُو رجال التعليم فى الكليّات الإسلاميّة ألاَّ يَفْصِلُوا هذه المواد، لأنّ الفقيه لايكون عالمًا إلاَّ إذا درس علوم العربية، كذلكَ لايكون الأديُب أديبًا إسلامياّ إلاَّ إذا درسَ عُلوم الشّريعة! ولاَحَظَ المجتمعون ما امْتَدَّ بيننا من الحديث الهامس، فاستفسروا عن جَليته، فانْبرىَ الأستاذ الأنصارى يتحدّث بلسانه المبين عن وَثيق الصلة بين العلوم الثقافية، التّى يجبُ أن يلمَّ بها الأديب العربى، ثم أعلنَ أنه يشكو من مقالاتٍ تجيئه من بعض أساتذة الفقه تحتاج إلى تقويمٍ فى الأسلوب، كما أنه تحدّث عن أُدباء كبار فى مصر والشام والعراق فوجد فيهم من لم يقرأ كتبَ التفسير والحديث، وهو عيبٌ خطير، إذ لايجوزُ للأديب الجدير بهذا الوصف أن يزهو بقراءة الروايات الغربية المترجمة! ثم لايعرفُ شيئًا عن رسالةِ الشافعى، وموطأ مالك، ومسند أحمد، والحقّ أَنَّ الأستاذ الأنصارى قد دافع عن قضيةٍ علمية هامة، وقد انتصَر فى دفاعهِ انتصارًا حَازَ به إعجاب السّامعين وكلّهم من الفضلاء.

فى منزل العامودى:

حين قمتُ بالحج لأول مّرة، كانَ من سعادتيِ أن يُلازمنى الأستاذ العامودى فى أوقاتٍ كثيرة، وقد قال: إن الأستاذ عبد القدوس الأنصارى سيزورُه هذه الليلة،

ومَعهُ العددُ الجديد من مجلّة المنهل، ولا مجلسَ أشهى من مجلسه، فقلت: إننى لا أنسَى مجلسهُ بالمعادى فى منزل الأستاذ أحمد عطية الله، وإنى حريص على لقائه، فابتسم العامودى قائلاً: ولذلك حددتُ الموعد معه..

وفى المساء توجهتُ إلى منزل الأستاذ، فأسعدنى أن يكون الأستاذ الأنصارى قد بكَّرَ بالحضور، فأشرقت البهجة فى وجهى، وقُلتُ له: لقد جئتُ لأستمع فقط يا سيدى، فقال الأستاذ وأنا أيْضًا جئتُ لأستمع، فقال العامودى: وهل يكون السّمر بدون استماع؟ ثم سألنى الأستاذ الأنصارى: أيْن أُقيم بمكة؟ فقلتُ له: بالحجون، قريبًا من الحرم الشريف! فقالَ الرجل على البديهة، حَيّرَنى يا أخى موقعُ الحجون بمكة، لأنّ من المؤرخين مَن جعله علَى بُعد ميل ونصف من مكة، ومنهُم، من جعلَه على بعدِ فرسخين أوأقل، ومنهْم من قال إنّه يبتدئ منِ طريقٍ بين جبلين صغيرين، ويمتدَ حتّى يصل إلى آخر مكة، وإذْن فكلُّ مكة حجون!

قلُت: إننى كُنْتُ مطلعًا على كتُب الآثار المكيّة، ولكنّى أعرف أنّ الشاعر القديم قد قال:

كأنْ لم يكن بينَ الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامُر

وهو قولٌ يدل على أن الحجونَ كانَ قريبًا من الصفا، ومعنى ذلك أن مجلسَ السّمر والأُنس الذى يفتقدُه الشاعر القديم كان محْصورًا فى مجال لا يتجاوزُ قدرًا محدودًا، فقالَ الأستاذ العامودى، قد يكونُ ابتداءُ الحجون من الصّفا، ثم يمتدّ إلى حيث اختلف المؤرخون، وشاء الأستاذ الأنصارى أن يُعلق على البيت السابق فقال: إنّه يتصلُ بأبياتٍ رواها المؤرخون ليستْ عليها ديباجُة الشعر القديم، ويظُن أن القصيدة قد زيد فيها كثيرًا، وهذا ما يلحظه فى أبياتٍ جاهلية، تختلف قوة وضعفًا!

قلت: إن البيتَ قد شاع أولا وحْدَهُ، وتناقلتْه الرواةُ، وليسَ من المستبعد أن يتَباهى راوٍ بأنّه يعرف القصيدة بأكملها فيزيد ويمتد، ونَهضَ الأستاذ العامودى فأحْضَرَ مُعجم البلدان لياقوت، وجَعلنا نقرأ مادة «الحجون» فوجْدنا مُوجزًا دقيقًا

لما قال الأنصارى بزيادةٍ رواها المؤلف تقول: إنّ الحجونَ هُوَ الجبلُ الذى يقع جوار مسجد البيْعة على شعب الجزّارين.

ثم انتقلَ الحديث إلى طائفة من الكتّاب المأجورين، يبدّلون آراءَهم السياسية والاجتماعيّة وَفق الظّروف المختلفة، دُون أن يكونَ للكاتب عقيدة ينفحُ عنها، وقالَ الأنصارى: إنّ مثل أمين الرافعى، وفريد وجدى، وعبد العزيز جاويش، ومحب الدين الخطيب، يقلّ نظيرهم الآن، لأنّ كثيرًا من أدعياءِ الصحافة يَرَوْنَ اتجاهَ الريح فُيسايرونها مهما خالفوا هذا الاتجاه فى أعماقهم.

قلتُ: وفى مثل هؤلاء يقول الشاعر محمد الأسمر:

وكم كاتب همُّهُ كَسْبُهُ ولو كسبَ العارَ فيما كَسَبْ
يُرى أَبَدًا مُسْرَجًا مُلْجماً رَهين الإشارة تحت الطَّلَبْ
فياضيعةَ الحق بين العبيد عبيد الهوى وعبيد الذهب

فاستعادَ الأنصارى هذه الأبيات، وأخرجَ من جيبه مفكرةَ لتدوينها، ثم رأيتُها منشورةً فى المنهل وَمعزوّة للأسمر كبعض الطرائف الأدبيّة المنتقاة التى يختارها الأستاذ لقرائه المعجبين.

عن الكاظمي:

اختلافُ الرأى لايفسد قضية الود عند الأحرار من المفكرين، وقد أهدى إليَّ الأستاذ عبد القدوس الأنصارى كتابَه الرائع عن عبد المحسن الكاظمى، وذكَر فى مقدمته أنّه كتبه فى أربعة أيام فقط، هى إجازة العيد، والحقّ أن الأنصارى كانَ يَختَزِنُ فى ذاكرِته أشياءَ كثيرةً عن الكاظمى تكونتْ بدراساته المستأنية لأنّ الكاظمى شغل الأدباء أمدًا غير بعيد، بقصائده الرنانة، فلّما اعتزم الأنصارى تأليفَ كتابه، كانت ذاكرتُه القوية مددًا لاينفد، وهذا تعليلٌ منطقىّ لهذه السرعة الفائقة التى نشأ عنها عملٌ أدبى رائع، لم يكُن ليصدرَ فى غير مدًى تطاوِل، وقد اشتهرَ الكاظمى

بارتجالِ الشّعر، إذ كانَ يرُسل القصيدة الطويلة فى مجلسٍ واحد وكأنه يقرأ من غيب صدره، ولعل ارتجال الشعرِ قد دفع الأنصارىّ إلى ارتجال البحث على هذا النحو السريع!

قرأتُ كتاب الأنصارى عن الكاظمى، فكتبتُ عنه بحثًا ذكرتُ فيه حسناتهِ الكثيرةَ التى لاشك فيها، مِن حسن التعليل ودقّة الاستنباط، وبراعةِ الاختيار، وصدْق الموازنة، ثم عقبتُ بمخالفته فيا ذكره عن قلّةِ مبالاة مصر بأدباء العرب، وشكوىَ رشيد رضا من ذلك! فقلت: إنّ السيد رشيد رضا كان ذا قلم قاسٍ، وقد تناولَ بالتجريح شيخَ الأزهر الأستاذ الظواهرى والشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، فما اعترضَهُ أحد، وظلّ يُصدر المنار أكثر من خمسة وثلاثين عامًا حافلة بنقدِ المشاهير من كُتّاب مصر، فما وجد مَنْ يقف فى وجهه! فكيف يشكو فى غير مجال للشكاة، ثم استشهدتُ باختيار الشيخ محمد الخضر حسين شيخًا للأزهر وهو تونسى، والشيخ نور الحسن وكيلاً للأزهر وهو سودانى، والشيخ عيسى منون شيخًا لكلية الشريعة الإسلامية وهو شامى! فمكانة العلماء والأدباء لَدَى المصريين لاتنكر، وإذا أحسَّ الكاظمى قلقًا فى حياتهِ المعيشية بمصر، فليسَ وحده، لأنّ زملاءَه الكبار من شعراء مصر أنفسهم كانُوا يشكون الحرمان والفاقة، وفى طليعتهم شاعر الإسلام أحمد محرم الذى يقول:

ظمئتُ وفى فمى الأدب المصَفَّى وَضِعْتُ وفى يدى الكَنْزُ الثمينُ
لقومى ما علمتُ وعند ربى ديونى حين تُلْتَمَسُ الديونُ

ولم يكن الكاظمى بأقوْى شاعريةً من محرم! ولكنّ القدر كَتَب للأدباءِ الأحرار أن يناموُا على مهاد الفاقة، لأنهم قادة محاربون.

نشرتُ النقد فى جريدة (الدعوة) السعودية، فقرأهُ صديقى الأستاذ محمد سعيد العامودى، وكتبَ يقول: إنه سيناقشُ الأستاذ الأنصارى فيما جاءَ به، وأنه يتفق معى فى وجهة نظرى التى ذكرتها عن الكاظمى والسيد رشيد رضا، وهو يعلم من

أخلاقه الترحيب بالنقد الهادف، إذا لَمسَ روُح الإخلاص فى سطوره، وهى واضحةٌ فيما كتبتُ لايستُرها نقاب.

فى الرياض:

بعد قرابة شَهْرَيْن، كنتُ فى منزلى بالرياض، فسعدتُ بزيارةِ الأستاذ الأنصارى مع الأستاذ عبد الرحمٰن المعمر، وهو الذى دلَّه على البيت، فكَانَ سُرورى بزيارته عظيمًا، وبدأ صاحب المنهل حديثَه قائلاً: إن رَدِّى عليه كشف عن أمور يجهلها بشأن المحرومين من أدباء مصر، وإذْن فالكاظمى لَه نظراءُ وأمثال، وعلَّةُ العلل فى ذلك أنَّ الشَّاعر يعتمدُ فى رزقهِ على شعره، وهُو لايُغنى شيئًا، إذْ لا بَد من عملٍ مُرْبح حكومى أو غير حكومى، ولكنّ السؤال التّالى: ماذا يعمل الأديب؟ وليس لديْه إجازة علمية تفتحُ أمامَه أبواب العمل الحكومى؟ أيكونُ مُحررًا فى جريدة؟ ورئيس التحرير من فوقهِ يُوحيِ إليه بما شاء!

فأردتُ أن أنتقل إلى نقطةٍ أخرى فقلت: إن الأستاذ الأنصارى مثلٌ حاضر يدلُّ على اهتمام الصحف المصريةِ بأدب الأشقاء، لقد أفردَ الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى بمجلة الأزهر ثلاث صفحاتٍ للحديث عن كتابه القيم (آثار المدينة المنوّرة) كما أنّ الكاتب الكبير الدكتور محمدٍ حسين هيكل قد فسح لآرائه الصائبة جانبًا من كتابه القيّم (فى منزل الوحى)، وأثنى عليه بما يستحق، ولا أَنسَى أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد ناقشه بالرسالة نقاشَ المُقدرِ العارف، وأنّ الرسالة نشرتْ للأستاذ مابعث إليها من آثار! فعلامَ يدل ذلك؟!

قال الأستاذ مُبتسمًا: شكا إلىَّ زملاء كثيرون، لهم وزنُهم الأدبى عند الخاصة، أنهم يرسلون مقالاتهم إلى صُحف مصر، فقد تُنْشَر، وقد تُهمل، وربما كان الإهمال كثيراً.

قلتُ: إن الإهمال يخص كُتَّاب مصَر فى كثير من الأحياء أيضًا، لأنّ لرئيس التحرير نظرّة قد تفوتُ صاحبَ المقال، فيضطرّ إلى التريثِ، وقد يضيعُ المقال فى أوراقِ المكتب سَهْوًا بدون عمد، فيتأخّر نشره، لأمرٍ غير مقصود.

فوافق الأستاذ على رأيِى، ثم قالَ: لقد ذكّرتنى بأمورٍ صادَفتُها شخصيا، فإنّى أغضبْتُ صديقًا عزيزًا لتأخر النّشر بالمنهل، بدون أن أقصد، إذْ أرسَل إلىَّ الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطار مقالاً يرد فيه على زميل صديق، وكانتْ بالمقال حدّة نسبيّة، فأخّرْتُ نشره لأحذفَ منه ما يسبب الحساسيّة بين الصديقيْن العزيزين، ولَا أدرى لماذا نسيتُ المقال جملةً بعد ذلك، وترقّب الأستاذ العطّار ظهور المقال فلمْ يجده، وكانَ عليه أن يكْتبَ إلىَّ مُذَكّرًا، ولكنّه توهَّم أنّى أقفُ فى الجانب المقابل، فتألّم بدون أن يُفصح، ومضتْ أشهرٌ، فقابلتُه مصادفه، فرأيتُ لقاَءه على غير ما اعتدت، ثم اتضّح أن السبب يرجع إلىّ، فاعتذرتُ بالنسيان وأنا صادق! وكان الصفاُء العقلى قد رجع للصديقين فتصاَلحا، ولم يبقَ داعٍ لنشر المقال، ولكنّ الشاهد فى ذلك كله أنْ العمدَ ليس دائمًا، وأن السهو موضع الاحتمال..

ثم امتد الحديث إلى نقاطٍ كثيرة، وخرجنَا من المنزل لنؤم منازِلَ أخرى لأصدقاء الأستاذ الأنصارى فمتّعنا اللهُ بالعَذْبِ من السمر، والكرم فى الاستقبال، وأتاحَ لى صداقاتٍ جديدةً لا عهد لى بها من قبل، وذلك بفضل الأستاذ الأنصارى ومَقْدَمِهِ الميمون.

* * *

الدكتور عبد العزيز الدسوقى

يمثل عبد العزيز الدسوقى قِلَّةً من ذوى الرأى الحر، فهو لايكتب إلا عن اعتقاد جازم، ويقين سديد، لذلك تجد مقالاته النقدية والسياسية جياشة موارة، تحسّ فيها وهج الدم، ونبض العروق، وقد تخالفه أو توافقه، ولكنك تعرف أنه صادق مخلص، لا يستملى غير ضميره، ولا يستمع إلى غير هتاف وجدانه، ومثل هذا الكاتب يعانى أزمة من أصدقائه قبل أن يعانى أزمات خصومه، لأنه حين يندفع إلى معارضته أستاذ عزيز عليه، أو صديق يثق بإنسانيته، يكابد حرجًا بينه وبين نفسه، ولكنه يحسم الصراع سريعًا بكتابة ما يعتقد، وفى يقينى أن أصدقاءه يعرفون معدنه الحر، فيقابلون اعتراضاته بالترحيب أمّا معارضوه فيحارون فى أمره، لأنهم يحبون المعارض السياسىّ الذى يلجأ إلى الدروب والمنحنيات، ويتثعلب ويتذاءب، أمّا الشجاع الذى يقف فى الميدان ليقول ما يعتقد فهذا ما لايطيقون دفعه، لأن فيهم خفافيش لاتحب غير الظلام.

نشأ عبد العزيز صاحب رأى وهو فى عهد الطلب، وقد فهم فى عمره الباكر أن الأدب رسالة لا حِرْفة، لذلك كان أول كتاب ألّفه وهو تلميذ فى المعهد الأزهرى عن حياة البطل المفترى عليه أحمد عرابى، إذْ آمن بزعامته، وعشق بطولته، وقد ساءه مالقى حينئذ من اضطهاد ظالم، حيث لم ينصفه إلاّ أفراد معدودون، فى طليعتهم الأستاذ الأديب محمود الخفيف، فرأى أن يكتب عن هذا البطل الخالد كتابًا، كان تنفيسًا عن أوارٍ حبيس فى صدره، وقد جال ببصره فى مجتمع ما قبل الثورة حين أصدر كتابه الأول، فرأى أن الزعيم أحمد حسين أقرب الزعماء إلى قلبه، فآثره بحبّه، وظلّ وفيا لمبادئه، وكَتَبَ مؤلّفه الثانى فى عهد الطلب عنه

أيضًا، وقد جدت أحوال وتغيّرت ظروف، واضطر الزعيم الفدائى إلى الانزواء قانعًا ببحوثه الإسلامية، وقصصه الأدبية، وتباعد عنه مَنْ رأوا الحظوة فى هذا التباعد، زلفى لمن بأيديهم الائتلاق والذيوع، ولكنّ عبد العزيز آثَر الالتصاق الحميم بأستاذه، فكان يستحثه أن يكتب، ثم إذا ظهر مؤلفه إلى النور سارع بالحديث عنه محلّلا مدقّقًا، وقد قرأتُ فى مجلة الأديب اللبنانيّة مقالات تحليلية لآثار أحمد حسين كادت تكون منفردة فى ميدانها، لأن المرتزقين لم يجدوا عنده نفعًا فى اعتزاله، فابتعدوا عن التنويه بآثاره، وقد نهض عنهم عبد العزيز بعبء يرونه ثقيلاً، ويراه أخف من النسيم.

صلة وثيقة:

قَامَ الدكتور عبد العزيز عَلَى تحرير مجلّة الثقافة، فكنت أقرؤها بشغف، ثم رأيت بعد عدة سنوات من صدورها قصيدة تحت عنوان «رحيل مفاجئ» منشورة باسم شاعرة أخذ اسمها يتردّد فى ندوات القاهرة، فعجبت أكثر العجب، لأن القصيدة من قصائدى التى نشرتُها بمجلتى العربى والأديب فى رثاء زوجتى الراحلة، ولم تزد الشاعرة عن أن جعلت ضمير المؤنث مذكرًا، وكان مصدر العجب أن القصيدة المسروقة نُشِرت فى العدد السنوى الممتاز من مجلة العربى، وهو عدد يُطبع منه أكثر من مليون نسخة، فهو ذائع مشتهر، فكيف يقع هذا السَّطْوُ دون مبالاة، ثم جاءنى اعتذار من الشاعرة تعلن فيه أسفها، وتدعونى إلى السكوت بدون تعليق حرصًا على اسمها، وكتبتُ للدكتور عبد العزيز أعلمه بما كان، فردّ على بخطاب أعتز به غاية الاعتزاز، لأنه حدثنى عن نفسى كثيرًا بما أجهله عنها، ويعرفه هو بذكائه، وفراسته، ثم دعانى إلى المشاركة فى تحرير الثقافة، إذ لايجوز أن تنشر أكثر مقالاتى خارج مصر، ثم لاتظهر فى مجلة يقوم على تحريرها! وقد استجبت لدعوته سعيدًا مرتاحًا، ولكنّ الدسوقى أصّر على أن يعلن عن جريمة السّرقة، إذا أن من حقّ القراء أن يعرفوا النسبة الصحيحة لأثرٍ أدبى طَالَعُوهُ، كما أنّ واجب الردع للسارقين والسارقات جزاء طبيعى، وليس فى المسألة هنا قطع يد جزاء بما كسبت، نكالاً منه، ولكنه إعلان يحذر من تسوِّلُ له

نفسه أنْ يعيد الكَرَّة غير عابئ بجريرته! وجاءنى خطاب تالٍ من الشاعرة تستعطف، وترجو أن أَحُولَ دون الإعلان، فكتبت ثانية أرجو الدكتور عبد العزيز أن يهمل هذه المسألة فاستجاب على ضيق، وجاءته قصائد أخرى من الشاعرة فواجهها مواجهة قاسية، وأصرّ على أن تكون بمنأى من مجلة الثقافة، وهذا حقّه الطبيعىّ فلا نكران.

مجلة الثقافة:

ظهرت مجلّة الثقافة تحمل اسمها الدال على هدفها، فهى استمرار لمجلة سالفة قام على إصدارها فريق من أعلام الفكر الأُصَلاء، وهم بعد نخبة من كُتّاب الرسالة آثروا الانفراد فى مجلّة خاصة بهم، والرسالة والثقافة معًا مجلتان رائدتان تؤصلان تراث العرب، وتستقبلان النافع السديد من فكر الغرب، لذلك حرص الدسوقى على أن يكون من محررى الثقافة مَن بقى من أعلام المجلتين مثل الأساتذة محمود شاكر، وطه الحاجرى، وعبد الغنى حسن، ومحمود البدرى، وعباس خضر، وكانت رئاسته التحرير إلهامًا صائبًا من القَدر، لأن الدعوة إلى الحرية فى ظل الأصالة والمعاصرة تحتاج إلى مكافح قوى الشكيمة يعيد ما طمسه الانتهازيون على مدى عشرين عامًا أو تزيد، حين اندست الألغام الناسفة لتدمر الحياة الروحية والسمو الأدبى على أيدى من يسمون أنفسهم بالماركسيين، أو الناصريِّن، أو المكافحين ادِعاءً فقط عن حقوق العمال والفلاحين، وقد احتلوا منابر الإذاعة والصحافة ودور النشر والطباعة ليحاربوا كل اتجاه إسلامى، وليشنوا الحرب على الدين باسم الفن الحر، داعين إلى الانحدار الخُلقى مباهين بالإلحاد والزندقة، وقد حصروا حرية الفن فى تصوير العلاقات الجنسيّة، وتهوين الرذائل الخلقية، فإذا عرفوا قلمًا مؤمنا لفّقوا له التهم، ورموه بالرجعية والعمالة، ومن ورائهم مايسمّى بمراكز القوى تشد الأزر، وتمهّد السبيل، لأن أصحاب هذه المراكز فى حاجة إلى مأجورين يزيفون، وانتهازيين يباركون!

كان العبء ثقيلاً لايطيقه غير كاهل قوى، ولاينهض به إنسان مجامل يحذر

المواجهة الصريحة، فهيأت الأقدار عبد العزيز الدسوقى ليجابه كل هؤلاء بصراحته الرنانة، وأقول الرنّانة عن قصد، لأنه لايعرف الهمس العاتب، أو التورية ذات الوجهيْن، وقد تتبع هؤلاء فى كتاباتهم المنتشرة على مدى العالم العربى، فكان يعقِّب على كل مقال يخالف منهج الثقافة، واصطدم بمن يحملون الأسماء المدويّة ذات الطبل الناهق، ولهم مكاناتُهم العلمية، ومراكزهم الجامعيّة، وأشياعهم المغرورون، اصطدم بكل هؤلاء، وفيهم من بلغ أرذل العمر سنا بدون أن يفكر فى غَدِه القريب، وقد ارتاع هؤلاء إذ تعودوا على مدى ربع قرن أن يقولوا بدون معارضة، وأن يتهموا البُرَءَاءَ فى أمْنٍ مِنْ أَنْ يُجَابَهُوا بالنقد الهادم! كما أنّ من براعته الفائقة أن عمل على جذب الكبار من أصدقائه السياسيين ليسهموا معه فى ميدان الكفاح، فكانت المجلة تحفل بمقالات أحمد حسين، وفتحى رضوان، وحافظ محمود، وهم أصحاب رسالة قبل أن يكونوا كُتّابًا فى الصحف والمجلاّت! لقد جاء نصر اللّه والفتح فيما ناضل به الدسوقى على صفحات الثقافة! وهو جهد لن يضيع..

أساتذة الأدب:

ذكر لى الأستاذ الدسوقى فى بعض خطاباته، أنه يلمح توافقًا كبيرًا بين ما أكتبه ويكتبه، حتّى إنه ليقرأ لى ما كان يود أن يقوله كثيرًا، وقد أرجعت ذلك إلى اتحاد المنبع الثقافى الذى ارتشفنا منه معًا، وقد ذكر فيما كتب عن نفسه أنه تأثر فى مطلع حياته الأدبية بالدكتور طه حسين، والدكتور زكى مبارك، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، فكانت آثارهم موضع اهتمامه إلى حد الكلف، ولَعَلّى أكون قريبًا منه حين أعلن أنى تأثرتُ أيضًا بالدكتور زكى مبارك، والدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين، وأحمد أمين قريب من مصطفى، لأن الذى يقرأ كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية) للأستاذ مصطفى عبد الرازق يشعر بجوٍّ مشابه لجو فجر الإسلام، وضُحى الإسلام، مع فارق لابد منه هو أنّ مصطفى عبد الرازق يكثر من النصوص، ويعيش فى ظلها، أما أحمد أمين فيقرؤها ثم يأخذ منها ما يشاء فيصوغه بأسلوبه تارة، وينقل النص تارة أخرى! والأستاذان عالمان أزهريان نسير

على نورهما المضيء، وقد فسح الدسوقى جانبًا كبيراً من صفحات الثقافة لدراسة الأعلام الثلاثة، وكان صادقًا كل الصدق مع نفسه حين دافع عنهم بإخلاص، دافع عن الدكتور طه معارضًا ماكتبه أستاذاه الكبيران أحمد حسين، ومحمود محمد شاكر، حيث ألح الأول على الحديث عن اتجاه طه حسين المستغرب فى شبابه الأول، وانطلق إلى أمور ذات حساسية، رأى الدكتور الدسوقى أن أحمد حسين قد تجاوز بعض الحدِّ فى سردها، فأقر الحق فى نصابه، وعقب عليه أستاذه بما يعد تقاربًا والتئامًا، لا بُعْدًا وانفصامًا! أما الأستاذ شاكر فقد شك فى قدرة طه حسين على التذوق الأدبى للنّص، وأبدى من الأدلّة ما أقام به وجهة نظره، ولكنّ الدسوقى عارضه حين قرر أن كتب طه المختلفة ـ إذا صرفنا النظر عن كتاب «المتنبى» ـ تنطق بقدرة فائقة على تحليل النص الأدبى ترتفع بطه إلى الذروة، كما أذكر فى هذا المجال أنه عارض فى رسالته الجامعية «تطور النقد الحديث فى مصر» رأيًا للأستاذ فتحى رضوان فى اتجاه طه الاستشراقى، فأكد فى لباقة أن الأستاذ فتحى رضوان لايريد أن يطلق حكمًا عاما على أفكار طه حسين كلها، ولكنه يصف المرحلة الأولى من مراحل فكره، وهذا حق.

أما الدكتور زكى مبارك فقد حباه الدسوقى بمقالات جيّدة تصوّر مالقيه من العقوق والجحود، وتحلّل مأساته تحليلا يردها إلى أسبابها الصحيحة، كما اختص كتاب «عبقرية الشريف الرضى» بدراسة كاشفة، وواصل الحديث عنه فى مناسبات مختلفة، ولم يشأ أن يترك مصطفى عبد الرازق إذْ خصّه بفصل من رسالة الدكتوراه، وماكان مصطفى عبد الرازق نفسه يظن أنه سيحتل فصلاً نابهًا فى مجال الدراسات النقدية، لولا أن فطن الدسوقى إلى كتاب «البهاء زهير»، فحللّه تحليلاً مثيراً يدل على يقظه واعية، وقال فيما قال: إن انشغال مصطفى عبد الرازق بتدريس الفلسفة والفقه وعلم الكلام، وتوليه الوزارة ومشيخة الأزهر قد أضعف دوره المنتظر فى النقد، وهذا حق، لأن كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» يحمل من بوارق النقد المبكر ما يهيئ لمستقبل منتظر، وقد حلّلت هذا الكتاب فى بعض أعداد مجلة الثقافة، فراسلنى الدسوقى مباركاً، أما أسلوبه الأدبى فيسمو إلى مستوى بلغاء العصر كالزيات والبشرى.

مقالات الثقافة:

أخذتُ أتابع بحوثى الأدبية فى مجلة الثقافة بدون انقطاع، وقد اعتدتُ أن أرفق كل مقال أرسله للدكتور الدسوقى بخطاب شخصى أتحدث فيه عن مقالات العدد الأخير، وأكثر ما أتجه إليه وجهة النقد، إذ أنا فى هذه الرسالة الشخصيّة أمثل كاتب السيئات عتيدًا، لاكاتب الحسنات رقيبًا، وكان ارتياح الدسوقى لهذه النقدات، وتعقيبه عليها فى حديثه ومراسلاته دافعًا لمواصلاتها، ولكنها أصبحت لديه سلاحًا ذا حدْين، إذ أخذ يهددنى بنشرها لو توانيت عن مقالات الثقافة، ولو نشرت لأغضبت فريقا أكثرهم فى مرتبة أساتذتى، لأن الكاتب كائنا منَ كان لايبدع فى كل مايكتب، بل ينحدر حينا وفقًا لحالته الخاصة حين كتابة المقال، وربما تعجل فساق الكلام بدون أناة، فوقع فيما يوجب النقد.

على أن عبد العزيز كان يدعونى لنقده شخصيا، وما كنت أسكتُ عمًّا أراه موضع نقد، إلا أنى كثيرًا ما أحترم وجهة النظر المخالفة فلا أشتط فى المعارضة، أذكر أنى قرأتُ له فى رسالته الجامعية عن حركة «أبولُّو» الشعرية رأيًا فى تجديد مطران الشعرى لم يرجح لدىَّ، إذْ ذهب إلى أنه ليس بقائد حركة التجديد فى الشعر المعاصر، تلك الحركة التى تبلورت فيما يُسمى بجماعة الديوان، ثم ماوليها من الشعر المهجرى، وشعر جماعة أبولُّو، مع أنّ التاريخ المؤكد بحقق سبق مطران، إذْ وَاصَلَ النشر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان شكرى والمازنى والعقاد فى سن الطفولة، ثم شبَّ الثلاثة ليقرءوا إبداع مطران متواليًا فى الصحف الذائعة، والمجلات الأدبية قبل أن يجمع الجزء الأول فى ديوان خاص، فكيف لايتأثر به نفر من أيفاع المتطلعين إلى السبق الشعرى وهم يطالعونه بدون انقطاع، قرأت رأى الدسوقى فى سبق مطران، فلم أشأ أن أناقشه فى مقال جديد، ولكنى أخبرته فى محادثة عابرة بإدارة مجلة الثقافة أن لى بحثًا خاصا بتجديد مطران نشرته منذ عشر سنوات فى مجلة (الأدب) ولعلّه فطن إلى ما أريد.

متابعات:

كان الدسوقى يكتب المقال الافتتاحى بالثقافة، ومعه بحث أدبى مبسوط ينشره فى وسط المجلة، ثم يختمها بباب المتابعات، حيث يترصد ما يشذ من الآراء فى مجلات العالم العربى، ليعقب بتصحيح قوى، قد ترتفع حرارته فيصبح نقضا هادمًا، إذا كان المجال يتطلب الهدم المكتسح، وله فى هذه الجولات فروسية ممتازة، لأنه ثبت كالطود فى مهب الأعاصير الجارفة، مع احترام مؤكد لأساتذة كبار كالدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور لويس عوض، والدكتور فؤاد زكريا، قد اضطر إلى مخالفتهم بالمنطق الملزم، والحجة الدامغة، وأذكر أنى حاولت أن أكون ذا تعقيبات متواضعة أكتبها بتوقيع (أبو حسام ـ المنصورة) ففسح لى الدكتور الدسوقى مجالاً طيبًا، وكان من المصادفات أن تابعت أستاذنا محمد عبد الغنى حسن فى تحقيق مسألة عروضية تتعلق بشعره، فرد الأستاذ ردا كريماً، ولكن الأستاذ الدكتور الدسوقى رجح ما ذهبتُ إليه، فكان طريفًا من الأستاذ محمد عبد الغنى حسن أن يعقب على ذلك بقوله: ماذا أصنع وقد وقعت بين شيخىْ طريقتيْن صُوفيتين ـ يريد الطريقه الدسوقية، والطريقه البيومية؟! وأنا وأخى عبد العزيز لانعرف شيوخَ هاتيْن الطريقتيْن، ولكن الاسم تمّام.

إن لعبد العزيز محلَّهُ الكريم لَدَى من يتبعون أحسن القول، ومن يقدرون معارك الرأى النزيه.

* * *

الأستاذ عبد العزيز الربيعى

أحرص على قراءة واجهة مجلة «الأديب» أول ما أقرأ منها، فأنا أعلم أن صاحبها الملهم يختار لها من روائع الإيجاز اللامح، وطرائف الأدب الحى ما يقوم فى كلماته القليلة مقام مقالة رنانة لكاتب جهير، وقد وقع فى يدى عدد مارس من هذا العام، فإذا واجهته العزيزة كلمة هادفة عن المروءة من كلمات أخى عبد العزيز الربيعى! فيالله! لقد كنت أطلق عليه فيما بينى وبين نفسى فَتَى المروءة! وهاهى ذى مجلة «الأديب» تنقل عنه ماكنت أريد أن أتحدث به مجلوا فى سريرته، أفيجوز لى بعدها أن أسكت؟! ثم مضت بى الشواغل قرابة يومين نسيت فيهما عبد العزيز وواجهة «الأديب» حتى وقع فى يدى عدد الجمعة الموافق ٢ مارس سنة ١٩٧٣ من مجلة (الجديد) اللبنانية، فتصفحته على عجل، فإذا صورة عبد العزيز الربيعى فى أعلى صحيفة منه، وقد تصمنت حديثًا واقعيا عن مروءته؛ حيث وجدت الكاتب معترفًا بفضل الرجل الأريحى عليه، إذ كان يعمل مدرسًا بإحدى مدارس المملكة العربية السعودية، ثم تناولته الوشايات الكاذبة، فَفُصِلَ من عمله، وتحير ماذا يصنع وهو فلسطينى ضاعت أرضه، ولا يدرى أين يتجه؟ فأُشِيرَ عليه أن يذهب إلى عبد العزيز الربيعى، فهزته المروءة لمأساة زائره، وانطلق به إلى معالى وزير المعارف كى ينصف المظلوم فى محنته، وقد استمع المسئول الكبير حتى عرف مكان الحيف، فرد المدرس إلى مكانه، وأنهى المقال بحديث عن مروءة الربيعى التى أعرفها جيداً، أفيجوز لى بعدها أن أسكت؟!

لقد كانت كتب الأدب القديم تحفل بروائع الأريحيات الصادقة، إذ تفيض صفحاتها بأحاديث عن همامة النبلاء ومروءة الشرفاء، فتهز الأعطاف للمجادة،

وتقود النفوس للشهامة! حتى وجدت لدينا كتب خاصة تنحو هذا المنحى من مثل «المستجاد من فعلات الأجواد» و «المكافأة وحسن العقبى» وأشباههما، ولكن طريقة التأليف العصرى قد حالت دون تسجيل ما يجد من طرف الأريحيين وهمامة الفاضلين، حتى ظنّ الناس أن حديث المروءة قد فُقِدَ! وأن الناس فى القديم غيرهم فى الحديث، فضاع موضع الأسوة الحسنة التى يجب أن تكون فى ملتقى أنظار الناشئة، أفيجوز لنا ـ مرة ثالثة ـ أن نسكت!

إن المروءة لدى عبد العزيز الربيعى مروءة دين أولا، ومروءة عروبة ثانيًا، ومروءة أدب ثالثًا، فهى مثلث ذو أضلاع متنافسة، ولابد لكل ضلع من حديث.

فمروءة الدين لديه تدفعه إلى أن يقول دائمًا ما يعتقد مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصعاب، كنت أعلم حديثه فى ذلك من زملائى بالقاهرة قبل أن أفد على الرياض، ثم تلاقينا فى عاصمة السعودية، فإذا الصدق الصادق لما كنت أسمع، نكون فى المجلس الجامع فيتشقق الحديث، وتند عبارة من متحدث مرموق يعرف مكانه الرسمى أو العلمى، فيغضى السامعون فى تحفظ، ولكن عبد العزيز يرفع عقيرته بالنقد فى قوة، وقد يتعرض بعض ذوى اللجاجة إلى معارضته، فيصطدم الإعصار بإعصار، والرجل لايزيد إلا صلابة وشَماسًا حتى يتضاءل معارضه، إذ يتأكد أن عبد العزيز صريح أبِىٌّ لايستكين.

وقد يجمعك المجلس الحاشد إلى سماع محاضرة يلقيها مسئول لامع، ثم يأتى دور التعقيب فتجد الإطراء الراغب من أناس تعرفهم بسيماهم قبل أن يتحدثوا، ويأتى دور عبد العزيز فلا تجد إلا الصراحة الصريحة فى إيجاز واضح، وتلك مروءة دين قبل أن تكون زلاقة حديث.

ثم تسأل عنه إذا اشتقت إليه فتهاتفه فى منزله، فتعلم أنه خارجه يسعى فى حاجة غيره، وقد تمتحنه المحرجات فى أصعب الأوقات إذ يدق الهاتف بمنزله فى منتصف الليل، فتكون الإجابة العاجلة كما سمعتها أنا منه: أبْشِرْ، أنا إليك فى الطريق!

والمؤسف الآسف أنك تحدث الناس عن ذلك فيتألمون، وفيهم من يضيق بحديثك أكبر الضيق، وكأنك تنتقص من تحدثه حين تسمعه ثناءً يُساق إلى سواه وتلك خيمة لئيمة لا أدرى كيف تمكنت من نفوس هؤلاء الذين لايعملون، ويؤذيهم أن يعمل الناس، ولا والله مادفعنى إلى تسجيل هذا الثناء الصادق على عبد العزيز سوى أناس ضاقوا به فى مجلس خاص! فليت شعرى كيف يصنعون إذ يجدوننى ـ طلبًا للأسوة ـ أنشره على القارئين.

هذا بعض الحديث عن مروءة الدين، إذ إن الدين الصحيح سلوك وتربية ومعاملة قبل أن يكون رسومًا وشعائر وصلوات، أما بعض الحديث عن مروءة العربية فإليك.

يعتقد الأستاذ عبد العزيز الربيعى أن العروبة شرف وكرم وإباء، وأن العربى الصريح معدن من معادن الأخلاق المثرية والعطاء السخى، والرفاء الحى، وأن التاريخ العربى فى جاهليته وإسلامه يعطى النماذج الحية بشجاعة السيف، ورجولة القول، وعفاف النفس، وكرم الفؤاد، وإذا وجد من بنى العرب من تنكب هذه الفضائل فهم أقلية لئيمة قد انحدرت عن أصول طاب مفرعها وخبث ثمرها لأسباب لاتمت إلى أصالة الجذور ببعض الصلات، لذلك تجد فتى المروءة ذا حمية عاصفة تكاد تحمله من مكانه إذا غضب، وقد رأى ـ ولا أدرى لماذا ـ أن شعر أبى الطيب يرسم الأنموذج الحى للفتى العربى فجمع فى مكتبته كل ما استطاع العثور عليه من دواوين المتنبى ذات الشروح المختلفة للعكبرى والبرقوقى واليازجى وابن جنى وعزام، ثم التفت إلى كل كتاب يعلم أنه يتحدث عن المتنبى فى القديم والحديث فآثر شراءه وتولى دراسته، ثم ضمن له أطيب مكان فى مكتبته، أما الأعداد الدورية من المجلات العربية، فى مصر والشام والعراق مما يتحدث عن أبى الطيب فى أجزاء خاصة أو فصول متتابعة، فقد وَالَى التنقيب عنها قَدْرَ ما استطاع، وإنك لتلمح زهو المنتشى، ورضا المطمئن، وصلابة الواثق حين تجد عبد العزيز يتحدث عن أبى الطيب ويروى شعره، وأذكر أنه وجد صاحب مكتبة فى مصر يشكو إليه كساد بضاعته، ويطلب أن يبحث له عن عملاء بالسعودية، فصاح به

الرجل بديهة، سمّ مكتبتك مكتبة المتنبى، وستجد من بركة هذا الاسم مايجلب إليك القراء من شتى الأصقاع، وقد استجاب التاجر لاقتراح صاحبه، ولا أدرى أتحقق لمكتبته الرواج أم أن عبد العزيز رأى أن ينتهز الفرصة ليشيد بالمتنبى فى واجهة محل يطرقه الصفوة من القراء؟

وإذا كان الشيء يذكر بالشيء فأنا أروى عن نفسى أنى تحدثت فى إذاعة الرياض ثلاث مرات عن أبى الطيب، وقد بدا لى فى شعره وسلوكه ما لايرضى عنه عبد العزيز! ولم أكن أتصور أن صاحبى سيعد ذلك هجومًا ظالمًا يتحيف كل فتى عربى قبل أن يتحيف المتنبى، فظل معى ثلاث ساعات فى فندق اليمامة يجاذبنى النقد مجاذبة غاضبة، ويروى من قصائد الرجل ذات الحِكَم والأمثال ما أعلم وأحفظ، ثم احتدّ فقال: إننى لم أقرأ ديوان أبى الطيب! فلم أجد غير التسليم بعد أن امتد النقاش واستطال، وإنى لأهمس فى أذن صاحبى الآن بعيدًا عن مجلس النقاش، فأقول له: إننا ورثنا جميع شعراء العربية من طراز المتنبى ونظرائه، أمثال أبى تمام، والبحترى، وأبى العلاء، والشريف، فلماذا نقصر إعجابنا الخالص على فرد واحد دون سواه؟ قد يكون المتنبى شاعر العربية الأكبر عند أكثر الناس، فلماذا تحتم أن يكون كذلك عند الجميع بدون استثناء؟ إن هيام صاحبى بالعروبة قد حمله على أن يجسد مثالها فى صورة شاعر قوى الشخصية كالمتنبى، وله أن يفعل ما يريد، ولكن ليس له أن يُخضع أصدقاءه لما يشاء.

هذا بعض القول عن مروءة العروبة لدى عبد العزيز، تلك التى اتخذت مصادرها الوثيقة من التاريخ العربى ثم رأت فى شعر المتنبى ما يمثل هذه المروءة فى معرضها الخالب ومنظرها القشيب! وهى بذلك قريبة لصيقة من مروءة الأدب، ذلك الضلع الثالث من أضلاع المثلث لدى الرجل الماجد، ذى الإنتاج المتحمس، والقول المتدفع؛ إذ طالعت كثيرًا مما كتبه فى جرائد السعودية اليومية ومجلات لبنان الأدبية، فوجدت مقالاته تحمل طابعه وتنادى عليه، ولو رأيتها غفلاً من إمضائه لعرفت صاحبها بقوة دفاعه، وشدة إخلاصه، وحسن تهديه! وهل كانت آثار عبد العزيز غير صرخات ناقدة فى سبيل العروبة أو ومضات خالبة فى مجالى الأدب؟!

أذكر أن مجلة «العرفان» اللبنانية قد خصصت واجهتها الأولى لفرائده النضيدة مرات عدة، فقدمت لقرائها قطعًا مركزة دقيقة من بيانه، تتجه أول ماتتجه إلى الهيام بالمجد العربى، والحذر من المتربص الأوربى مما يصلح أن يكون حُدَاء القافلة ومنار الطريق كما أذكر أنى قرأت له بحثًا ضافيًا تحليليا عن أحمد الصافى النجفى شاعر العرب الكبير! وهو بحث أشمتنى فى الكاتب وأضحكنى منه كثيرًا لا لشىء سوى أنه قال:

«يستحق الشاعر الكبير ـ أحمد الصافى النجفى ـ لقب متنبى عصره، فشعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب المتنبى يرحمه الله! فهو يقول هنا وليس قوله هذا عن نبوة «إنى والمتنبى على خط واحد»:

يوحدنا فى الروح دارٌ ومَهْجَرُ ... ويجمعنا فى الشعر فن وَحُسَّدُ

أتى متنبى الشعر والروض أَجْرَدُ ... وجئتُ وروض الشعر منه مُوَرَّدُ

ولندع رأى النجفى فى نفسه، فله أن يقارن بينه وبين المتنبى، بل له أن يرفع نفسه عنه، فمالنا الآن نقاش مع الشاعر الكبير! ولكننا نقول للأستاذ عبد العزيز: يا أخى كيف جاز لك فى أحاديثك أن تنكر مقارنة المتنبى بأبى العلاء وأبى تمام، والثلاثة قريب من قريب من قريب! ثم تقول فى حديثك عن النجفى: إن شعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب رحمه الله!! أنا لا أنكر أن الأستاذ أحمد الصافى النجفى شاعر كبير، وأنه فنان أصيل، وأن مقامه جهير فى الشعر المعاصر! ولكنى أنكر أن يقرنه عبد العزيز بأبى الطيب، ثم يرفض أن يجعل المتنبى مقارنًا لأمثال أبى تمام، وأبى العلاء، والبحترى، والشريف؟ أهى مروءة الأدب قد بسطت أريحيتها الواسعة على النجفى فى ساعة صفاء حتى لفته مع المتنبى فى دثار واحد، وحرمت على غيره أن ينعم بدفء الكساء، وإنه لغال ثمين؟

وقد تَأَثَّلتْ صداقتى مع عبد العزيز من أول مجلس تحدثنا فيه، لأنى خرجت بانطباع قوى يدفعنى إلى مَوَدَّته إذ تمثل فى ذهنى فى صورة العربى الوافد من

عصور العزة الظافرة فى دنيا بنى أُمَيّة وبنى العباس، تمثل لى فى صور معن بن زائدة، وأبى دُلَف العِجْلى، والأسود بن قنان، وغيرهم من ذوى الهمم الشمَّاء، وأذكر أن صداقتنا كانت من نوع غريب بالنسبة إلىّ، إذْ طالما حدثنى عن أمور كنتُ أريد أن أتحدث بها إليه، وطالما سبق إلى خواطر أراها مدوّنة فى صدرى، فأعجب لهذا التماثل الموافق، وكنت أعده شاذا فى بابه، ولكنى وجدت له نظائر فى صداقات الرجال، وأقربها إلى ذهنى ما ذكره أبو حيان التوحيدى فى كتاب «الصَّداقة والصديق» عن مودة متأصلة بين أستاذه أبى سليمان المنطقى وصديقه ابن سيار القاضى.

قال أبو حيان التوحيدى لأستاذه أبى سليمان: إنى أرى بينك وبين سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقيّة، فمن أين هذا؟ وكيف؟

فقال أبو سليمان: يا بنى لقد اختلطت ثقتى به بثقته بى، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا، لايرثّان على الدهر، ولايحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع مشاكلة عجيبة، حتى أننا نلتقى كثيرًا فى الإدارات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بينى وبينه، أو كأنى هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها، فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

قال أبو حيان: فسألتُ أبا سليمان، هل تجد عليه فى شىء أو يجد عليك فى شىء؟

فقال: وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى، على أنه يكتفى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، وأكتفى أنا منه أيضاً بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على سبيل الكناية كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون فى ذلك لنا مقنع، وقل ما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت من

ضميرى إلى شفتى، ولا ندَّت من صدرى إلى لفظى، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والله ما يسرنى بصداقته حُمْرُ النعم، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا، فكذلك أعشق كل ما وَصَلَ الحياة بالحياة، وجنى لى ثمرتها، وجلب إلىَّ روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها»

وبعد... فأذكر أنى حين كنتُ طفلا صغيراً بمكتب القرية المتواضع، كان معلم المكتب، يخط على السبورة هذين البيتين لنتعلم من رسمهما الخط:

مررتُ عَلَى المروءةِ وهىَ تبكى فَقُلْتُ: عَلامَ تَنْتَحِبُ الفتاةُ؟

فَقالَت: كيف لا أَبْكِي وأَهْلى جميعًا دُونَ خَلْقِ الله مَاتُوا؟!

وكان يقرؤهما متغنيا رافعًا صوته بإنشادٍ ساذج، فيخيل الىّ حين ذاك أن المروءة فتاة صغيرة على سبيل الحقيقة، وأن أهلها ماتوا فبكت عليهم، فمن يدلنى الآن على هذه الفتاة كى أذهب بها إلى قريبها الحبيب عبد العزيز الربيعى؟

* * *

النجم الذى هوى
الأستاذ محمد سعيد العامودى

شعرتُ بِلَوْعةٍ أليمة حين فاجأنى نَعْىُ الأديب الكبير الأستاذ «محمد سعيد العامودى»، لأنَّ الراحل الكريم، كان نادرَ المثال فى خُلقه الرفيع، فما أعرفُ أديبًا مثله اجتمعت القلوب على تقدير مِثَالِيَّتِهِ الرفيعة، وسلوكه النبيل، إذْ كانَ من الترفّع عن الصغائر، واحتمال المشاكسات المغرضة، بمنزلة تُقدمُ النمط الأعلى لذوى الخُلق الرفيع، وأصحابُ الأقْلام الهادفة، لا يخلونَ من خصومٍ ينصبُون لهم المكايد، ويؤوّلون الصريح من القول على غير نهجه السليم، وذلكَ ممّا يغيظ ويرهق، بل مما يدفع إلى الردّ القامع، والقولِ القارص، ولكنّ سماحة الأستاذ العامودى كانت بردًا وسلامًا على عارفيه، مُقرظين وناقدين، لذلكَ ضَمِنَ تقديرَ ذوى الفكر من جميع الاتجاهات، وهذا التقدير لاينشأ عن فراغ.

وأذكرُ أنّى سعدتُ بزيارة الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودى للمنصورة، مع صديقه الشهير الأستاذ عبد القدوس الأنْصارى، مؤسّس مجلة المنهل، وقد أَصرَّ الأديبان الكبيران علَى أن نجْلس تحت الكافورة التى كانت المكانَ الأدبىَّ العامر بمندى الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة وكانَ المجلسُ عامرًا بالأنصارى والعامودى، إذْ تشقّق الحديثُ عن أفكار عميقة فى السياسة والدين والأدب والاجتماع، وكادَ الليل ينتَصف، والسامعون منبْهرون، والأديبان السُّعوديّان يتوليان قيادةَ الحديث، والعواطفُ المشتركة، والأمانى المتحدة، والإخلاصُ المتفق، كلٌّ ذلك يجعلُ من الليلة السعيدة ليلة عيد، وأُمسية مهرجان.

الصديقان الكبيران:

وقراءُ المنهل، بل أدباءُ العربيّة جميعًا يعرفونَ مدى الصداقة المُثْلى التى ربطت بين قلبَى العامودى والأنصارى، وأذكُر أنّى ألمعتُ بإيجاز إلى هذه العلاقة الأخويّة المثاليّة بين الرجلَيْن الرائدَيْن، فقلتُ فى مقالٍ متواضع نشرتُه بمجلة المنهل بعددها الصادر فى ذى الحجة سنة ١٣٩٨ :

«. . . وأنا أقّدس الصداقة الفكرية، وأعتّدها أقوى أسباب المودّة، وقد شاهدت بيْن الأستاذيْن الكبيرين عبد القدوس الأنصارى ومحمد سعيد العامودى صداقةً مثاليةً، لبابُها الأدبُ الخالص، ومحورُها المثلُ العالى للخُلق الكامل، وقد امتدت هذه الصداقة أكثر من أربعين عامًا، ولا تزيدُها الأيام إلاّ قوةً وتأثيلاً، وبَيْن العامودىّ والأنصارى اختلافٌ كبيرٌ، يذكّرنى باختلاف ما بين المازنى والعقاد من سماتٍ فكرية، فهو اختلافٌ مثمر نافع، لأن كلا الصديقيْن يجدُ فى هذا الاختلاف مجالاً للنقاش الأدبى والحوار الفكرى».

فالعامودىّ مثل المازنى، ذاتى أكثرُ منه موضوعيا، يعتمدُ على عواطفه الخاصّة أكثَر مما يعتمدُ على اطلاعه ويميلُ إلى التّشجيع والتغاضى عمَّا يؤلم منقوديه، وقد يَلتمسُ المعاذير لأكثر هذه الأخطاء وكذلك كان المازنى.

أمَّا الأنصارىُّ فكالعقاد، موضوعى يستشير المراجع، ويفصلُ ما بين الآراء، وفكرهُ مَجاَلُ تبريزه الأوّل، وإذا نَقدَ فلابد أن يكشف كلَّ المآخذ بدون نقاب، وهكذا كانَ العقاد، وإذا كان الاطلاعُ الدائب دَيْدَنَ الكاتبيْن المصريّيْن، فهو أيضًا ديدنُ الكاتبين الحجازيّيْن، ونأمل دائمًا أن تكونَ صلة الأدباء جميعًا هكذا، مع اختلافِ النزعات، وتنوع المشارب».

آفاق مختلفة:

وقد كتبَ العامودى القصَّة والمقالة والقصيدة والبحثَ، ووالَى النقد الأدبى طيلَة مراحل عمره الأدبى، ولنْ يستطيع مقالٌ واحدٌ أن يُلم بأثر الرّاحل الكبير فى هذه الميادين، ولكنّى أقتصرُ على ناحية الذكريات فى هذا المجال، وأذكُر أنَّ من

الإلهام الصادق فيما يخص الأستاذ العامودى أن قام النّادى الأدبى بجدّة بحفلة تكريم كُبرى للأستاذ الكبير، جمعتْ صفوةً من أهل الفضل. فألُقيت البحوثُ الخاصة بتحليل أدب العامودى شعرًا ونثرًا، وتدَافَع أصدقاؤه الكبأر من روّاد الأدب السعودى يتحدّثون عن نُبوغه الأدبى، وسموِّه الخُلُقىّ، بما شَفَى الصدور، ورنّح الأعطاف، ثم ارتحل الأستاذ العامودى بعد قرابة شهرٍ من هذا المهرجان الحافل، وكَأنَّ اللّه عز وجل شاءَ أن يُسْمِعَ الرجل ما تنبضُ به قلوب مُحبيّه قبل أن يُفارقهم، فيعلم أنّ غرسَه الطيب قد أثْمر، وأنّ أصدقاءَه وتلاميذَه يعرفون أنّه القدوة المثلى لذوى الترّفع النبيل، والحياء الوديع! لقْد كاَن الأستاذُ الكبير عبد الفتاح أبو مدين مُلهَمًا حين دعا إلى هذه النّدوة لتكونَ الشفقَ الجميل الذى يُزَرْكِشُ وجَه الأفق بأصْباغِه الفاتنة قَبل الغروب! وإنْ كنّا نعلمُ أن غروبَ ذوى الفكر، كغروب الشمس، ما تلبثُ أن تَذْهب فى المساء حتى تُشرق فى الصباح! والأديب الهادفُ ينتقلُ بجسده من عالـم الأرض، وتبقَى آثارُه الأدبيّة مشرقةً فى نفوس قرائه، فهى شمسٌ تتجدد، وضياءٌ يتوهج بدون انقطاع!

على أنّى وأنا الخبير بنفس الأستاذ العامودى رحمه اللّه، أعرفُ أنّه زاهدٌ كلّ الزهد فى مواقف التكريم، ولو رجَع الأمر إليه لأوْصَى بعدم الاحتفال، أعرفُ ذلك لأن مقالاتٍ كثيرة كُتبتْ عن أدَبه، ووصلتْ إليه، فحالَ دون نشرها، ومن ذكرياتى معه أنّى كتبتُ مقالاً أدبيا عنه يُنشر فى مجلّة (المنهل)، وانتظرتُ أن أقرأَ المقَال، ولكنّى فُوجئتُ بخطابٍ رقيقٍ من العامودى يُعلمنى فيه أنّ رئيس تحرير المجلّة ـ وهو صديقه الحميم ـ قد أطلعه على المقال قبل نشره، فوجده أكثَر ممّا يستحق، لذلك يستحلفنى أن أنزل عنْد رغبته فى عدم النشر مع جزيل شكره، ووافر تقديره! ولم أُوافق العامودى على اتجاهه، فبادرتُ بإرسال المقال إلى مجلة الأديب اللبنانية فنشرَتْه فى افتتاحيتها، وكتبتُ للرجل أُعلمه بما فَعلْتُ، فكتبَ إلىَّ خطابًا طريفًا تحت عنوان «أمرى إلى اللّه»، وإذا أرادَ القارئ أن يرجع إلى هذا المقال فسيجدُه بعدد فبراير سنه ١٩٧٢ من مجلة الأديب.

فى رحلة الحج:

كان الأستاذ العامودى يتفضّل بصحبتى فى أكثر مراحل الحج إيناسًا لوحدتى، ثم يدعونى مساءً إلى منزله العامر لنلاقى صفوةً من أدباء المملكة، حيث يدور الحديث عن الأدب والتاريخ، وما يلم بالعالم من أحداث، وأذكر أُمْسِيّة لطيفة حضرها الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطار، فتحدث كثيراً عن ذكرياته بمصر، وَوَازَن بين أدبائها الكبار، ولم يَرض مُنافسًا للعقاد من بينهم، حيث جعله أمة وحده، ثم جاءَ حديث التحقيق الأدبى للتراث العربى، فقال: إنه يَنْعَى على بعض علماء الأزهر الكبار كثرة تحقيقه فى شتّى فنون العربية بدوُن اتئادٍ مطمئن، فأدركتُ أنه يعنى أستاذنا الكبير الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد، فقلت: لعلّك تعنى فلانًا، فقالَ: أجل !؛ قلت ياسيدى، إنّ لكلّ وجهة هو موليها، فمن المحققين منَ يكون هَدَفهُ إخراجَ نصّ صحيح للقارئ، وهوَ فى سبيل ذلكَ يُعانى نقدًا ذاتيا حين يوازن بين الكلمات المطموسة وما يجب أن يحل محلّها، حتى يستقيم النَّص على وجه صحيح، وهذا ما يفْعله الأستاذ محيى الدين فى غير كتب النحو والبلاغة والصرف، حيث يُضيف شروحًا مستفيضة على هذه الكتب تُنبئ عن علم غزير، ومن المحققين من يُراجع ماعثر عليه من المخطوطات، فإذا وَجدَ اختلافًا فى حرْف عطف أو مايشابهه أخذ يكاثر فى الهوامِش بتسجيل هذا الخلاف على عُقْم جدواه حتى يتضخم الكتاب! وهذا سبيلٌ استشراقى أخذ الكثيرُ منًّابه.. فقال الأستاذ أحمد عبد الغفور: إنّه السبيل الذى لا معدى عنه! قلُت: أقرأتَ ما أصدرَه الدكتور سامى الدهان حين حقّق ديوان أبى فراس الحمدانى؟ إنه نشرهُ فى ثلاثة أجزاء ضخام، وكلُّها ذات عناء فى ذكر ما جاء بالمخطوُطات حين يتَغير حرف واحد فى بيت عن مثيله فى مخطوطةٍ أخرى، ثم جعل الثمن أضعافَ ما كانَ ينتظر، فلم يَحُز الكتاب غير نفر قليل، واضطرت دارٌ أخرى إلى إصدار الديوان فى جزءٍ واحد ذى حجم لطيف، فلاقى الذيوع! ولعلّ وجهة أستاذنا محيى الدين هذه الوجهة التى يقصد بها النفع العميم، فقال الأستاذ أحمد: وأنا لا أقبلها!

فابتسمَ الأستاذ العامودى، ثم قالَ: أنَا أَرى التّدقيقَ فى تحقيق الكتب الدينيّة، لأنّ اختلاف العبارة فى حرفٍ واحد قد يتغير معه حكم شرعى، أما تحقيقُ دواوين الشعر وكتب الأدب والتاريخ فمبالَغة الدكتور سامى الدهان فى صنيعه بديوان أبى فراس إغراقٌ لا معنى له! والأستاذ محيى قدّم كتبًا كثيرة أفادَ منها الناس، كنفح الطيب، ووفيات الأعيان، ومعاهد التنصيص، ومروج الذهب، وحُسن المحاضرة، وهذه وأمثالها يُغْنى فيها النّص المستقيم، وحسْبه مالاقى من صعوبةِ القراءة الأولى. فعجل الأستاذ العطار يقول فى ابتسام: كان أستاذنا العامودى أستاذِى بمدرسة الفلاح، وأنا منذُ عهد الطلب أحترم رأيه، وأراهُ فوق ما أُبدى من الآراء، ولعلّه قد وَفّقَ بين الاتجاهين على نحو حميد. وانتهى المجلس فى بهجة وسرور.

سرقة فاضحة:

كانَ الأستاذ العامودى يسألنى عن كتّابٍ فى مصر يتجهونَ الوجهة الإسلامية، ليسهموا فى نشر بحوثهم بمجلّتى التضامن الإسلامى، ورابطة العالم الإسلامى، اللّتْين يقوم على رئاسة تحريرهما، فَدَلَلْتُه على نفرٍ من كرام الكاتبين أشرقت مقالاتهم الجادّة على صفحاتِ المجلتين الأثيرتيْن، وكان مَن قدَرى أن أُغَرَّ فى كاتب يشتغل بالمحاماة، وينشرُ مقالاتِ تشريعية بجريدة «البصير» التى تصدر بالإسكندرية، وقد حدّثنى أنُه يريد النّشرَ فى مجالٍ أوسع ليخرجَ عن حيّز مكانه المحدود، فطلبتُ منه بحثًا تشريعيا يُناسب مجلةَ «التضامن»، وقرأته، فأيدتُه شاكرًا، ثم بعثتُ به إلى الأستاذ العامودى، فعجل بنشره، ولم يكدْ يرى النور حتى توالتِ الرسائل على المجلة تُعلن سرقة المقال جميعه من كتابٍ ألّفه أحدُ الأساتذة بكليات الحقوق المصرية، وكتبَ إلىَّ الأستاذ، لا ليُؤاخذنى حينَ زكيّتُ مَن لايستحق، بل ليقولَ إنّه يعتذرُ حين يبلّغنى ما ارتكبه (فلان) فى حقّى أنا، إذ خَدعَنى فى أمره، وما كانَ له أن يُخبرنى بذلك لولا أنّه يخشى أن تستمرّ الخديعة فأزكيه فى ناحيةٍ أخرى، وإذا كان السّارق مُحاميًا درسَ القانون والشريعة، فإنّ فى وسعه أن يَبْحث، بدون أن يَسرق مادام راغبًا فى النشر والتأليف!

قرأتُ ما أرسله إلىّ الأستاذ، فشعرتُ بالحرج، وأخذتُ ألومُ نفسى أن خُدِعتُ هكذا، وجعلتُ من شأنى أن أناقش كلّ من يدعى البحث فيما يقع فى يدى منه، لأعلم أسَرق أم صَدَق، ثم راسلتُ الأستاذ معتذرًا عن ذنب لم أرتكبه عامدًا، وإنّما جاء عن طريق الظّن الحسن بالمسىء! فردَّ على الأستاذ بِطُرْفَةٍ نادرة، رددتُ عليه بمثلها، وهما هاتان:

طرفتان نادرتان:

ذكر الأستاذ العامودى فى كتابه الرقيق، أن طرفةً من نوادر السرقات، وقعتْ له شَخْصِيا، إذ كتبَ مقالاً بمجلةِ قافلة الزيت عن رحلة باحث إنجليزى إلى مكة حاجا بعد أن أَسلم، ومضتْ سنواتٌ، وجاءه المقالُ بعينه من كاتب يتعلق بالأدب لينشره باسمه فى مجلة التضامن، فوقَع فى حيرة سببها أنُه من غير المعقول أنْ يُرسل إليه كاتبٌ عاقلٌ بمقال كتَبَه رئيسُ التحرير نفسه، لِيُنشر بصحيفته! لأنّه بدهيا أولُ من سيكشف السِّرَّ، ثم أَخَذ الأستاذ يبحثُ بعضَ الدوريات حتى عثر بمقاله المسروق فى صحيفة لبنانية منسوبًا لكاتب جديد! فتأكّد أنّ صاحبَ المقال قد نقلَه عن صحيفة لبنان، فهو سارقٌ ينقل عن سارق، قال الأستاذ: وجاءَنى الكاتبُ يسألُ عن مقاله، فخجلتُ أن أخجله بمكتبى، وقلتُ: إن الموضوع مشتَهر، يعرفه القراء ولا دَاعى لنشر المشهورات!

جَاءَتْنِى منه هذه الطرفة، فرددتُ عليه بطرفةٍ مناسبة، خُلاصتها أن أحد ملوك الطوائف بالأندلس جلسَ يوم عيد الفطر ليسمَعَ مدائح الشعراء فى هذه المناسبة، وكانَ عدتهم عشرةَ شعراء، فأخذوا ينشدون القصائد فى تهنئة الملك بالعيد، ولكنّ أحدهم اعتذر عن إلقاء قصيدته، بعدَ أن سجّل اسمه فى القائلين، وهمَّ بالخروج، فناداهُ صاحب الأمر، وسألَه عن سرِّ امتناعه بعد أن سجّل اسمه، وإذا كانت القصيدة ضعيفة بالنسبة لما قيل فسيُجازيه متفضّلا، فقالَ الرجل: لقد سرقْتُ القصيدة من ديوان مَشْرِقى، ولكنى فُوجئت بسارقٍ آخر يتقدّمنى وينشدها بين

يديك، فلم أَشأْ أن أنطق، فتعجب الملك، وقال: هذَا تواردُ خواطر فى السرقة الكاملة، وكانتْ فكاهة اليوم.

هاتان نادرتان، وقد يكون لهما أشباه ونظائر، لأن اللصوص كثيرون.

* * *

الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق

عرفت الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق من آثاره الفقهيّة، قبل أن يتولى منصب الإفتاء بأمد واسع، إذ كنت أقرأ له فى مجلات القانون والقضاء مقالاتٍ فقهية ذات بصر نافذ، وأذكر أنه كتب فى الستينيات بحثًا قانونيا يعُارض فيه حكما أصدرته محكمة النقض مخالفةً ما أصدرته محكمة الاستئناف حين حتمتْ وجود الشاهدْين فى قضية تطليق، ورأتْ محكمة النقض الاكتفاء بشاهد واحدٍ، لأمورٍ نَقَضهَا الأستاذ جاد الحق، وكان حينئذ قاضيًا بمحكمة الأحوال الشخصية فى مصر الجديدة، فأبَدى آراء الحنفيّة فى ضرورة وجود الشاهدين، وذهبَ إلى أنّ حكم النقض المتأثر بالقانون المدنى لا اعتبارَ له أمام المذهب الحنفى الذى تأخذُ به المحاكم فى الأحوال الشخصية، قرأتُ ماكتبه القاضى الشاب مواجها حكم الهيئة القضائية العليا فى زمنٍ أكثرتِ الصحفُ اليومية من هجومها على المحاكم الشرعية غبَّ إلغائها الجائر، فرأيتُ شجاعةً واثقة تواكب التضلّع الفقهى الرصين، ومنذُ قرأت هذا المقال، وأنا أجتهدُ فى متابعة هذا القلم الأصيل حيث أجدُ أثره الرصين.

وحين عُين الشيخ مُفتيًا للديار المصرية، أخذتُ أتتبع فتاواه الهادئة، إذ كان ينشرُ آراءه العميقة فى غير صَخب أو ضجيج، وقد أُتيح لى أن أقرأَ المجموعة الحافلة لهذه الفتاوى بمجلداتٍ ثلاثة أصدرتها دار الإفتاء، فقرأتُ ما أعهد من غزارة العلم، وأمانةِ الفتيا، وهدوءِ النفس، وسرّنى أن أجد المفتى الأكبر لا يحدّ بصرهُ فى مذهبٍ واحد، بل يلم بجميع المذاهب الفقهية: من حنفيّة، وشافعية، ومالكية، وحنبليّة، وزيدية، وإمامية، وأباضية، ويعتمُد الرأى الصحيح حيثُ

وجده بدون تحيز إلى مذهب معيّن، وهذه الأصالةُ فى الفتوى امتدادٌ لمنحى الأئمة الفضلاء، من أمثال محمد عبده، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، وهمْ من أعلام الفتوى فى العصر الحديث.

وكان أول لقاء سعدتُ فيه بمحادثة الإمام الأكبر بكلية اللّغة العربية بالمنصورة، حيث كنتُ عميدًا لها، وحضر الإمامُ لافتتاح مصرفٍ إسلاميّ مع وكيل الأزهر إذْ ذاك فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود، ورَأَيَا معًا أن يزورَا كلية اللّغة، فرحّبتُ بالزّائريْن الكبيريْن، وألقيتُ كلمةً قلت فيها: إنّ المنصورة فى حاجة إلى كلية للبنات تختص بالدراسات الإسلامية والعربية، وإن الإمام الأكبر من خيرة أبناء الدقهلية، ويسّرهُ أن ينتشر التعليم الدينى للبنات فى محافظته، كما ذكرتُ أن سَلَفَهُ الكبير الأستاذ مأمون الشناوى منذ ثلاثين عامًا زار المنصورة وهو شيخ الأزهر فاحتفلتْ به، وسمع من يرجُوه أن يعملَ على إنشاء معهدٍ دينى بالمنصورة، فرحَّبَ بالفكرة، وقال: «إنها مدينةُ أهلى وأبنائى،» وها هى ذى الفرصة تسنح لتقديم رجاءٍ مماثل للشيخ الأكبر، وهو جدير بتحقيقه، وما انتهيت من كلمتى المتواضعة، حتى نهض الإمام شاكرًا، وواعدًا بالعمل على تحقيق الرجاء، وفى غضون سنواتٍ قليلة أصبحت كلية الدراسات العربية والإسلامية للبنات بالمنصورة حقيقةً واقعة، بفضل جهودٍ متضافرة تُضاف إلى جهد الشيخ الأكبر، وفى قمتها جُهدا لمحافظ النشيّط اللواء سعد الشربينى، وأنا هنا أقرر حقيقة ولا أمدح أحدًا. . .

وفى ذات صباح دعانى الإمام الأكبر للقائه، وحَدثنى عمًّا يقابله الأزهر فى الصحف من هجوم ظالم يقومُ به أعداء التعليم الدينى من العلمانييّن، وأنه يأمُل أن ينشط كُتَّاب الأزهر لردّ هذه الحملات الظالمة، لأن صوت الحق لابدّ أن يرتفع، ثم قدّمَ لى عددًا من جريدة الجمهورية، يتضمن مقالاً متجنياً على علماء الدين، وقد قرأتُ المقال فعجبت لمن نشره أكثرَ من عجبى لمن كتبه، لأنه يتضمّن معَ هجومه المنكر جهالاتٍ لايمكن أن يقَع فيها صاحب قلم يكتبُ عن كفاءة واقتدار، وحسبُ القارىء أن يعلَمَ أن هذا الكاتب ذكر فى مقاله أنّ العلم الدينى لايجبُ أن

يُؤْخذَ فى معهد، وأنّ أبا حنيفه والشافعىَّ ومالكًا و ابن حنبل لم يتعلّموا فى معهد دينى، وصارُوا علُماء، مع أنّ أصغر طلاب الأزهر فى المعاهد الإعدادية يعرفونَ أن المساجد لعهد الأئمة كانتْ معاهد دينيّة تُدرسُ فيها أحكام الشريعة وعلومُ اللسان كما كانَ نظام الأزهر فى مطلع هذا القرن، وأن أبا حنيفة قد درَس فى مسجد الكوفة، والشافعّى فى مسجد مكة، ثم درَّس فى مسجد الكوفة، ثم درَّس فى مسجد الفسطاط، ومالكًا قد عكف على المسجد النبوى فلم يبرحْه لغير الحج ليكونَ موضعَ تدريسه ورواية الحديث عنه، وابن حنبل قد درسَ فى مسجد بغداد، وأمْلى المسند به، وهكذا يتصدَّر مثل هذا الكاتب إلى الافتيات على العلم والعلماء، ويُوالى نشر مقالات لاتخرج عن دائرة الجهل الصريح، وما قرأتُ المقالَ حتى سارعتُ بالرد عليه، ونَشَرت الجمهوريَةُ الردَّ فى مجموعه لاجميعه، ولكنّه كشف الحوار، وبيّن الانحدار.

وفى زيارةٍ تالية للإمام الأكبر قدَّم لى سلسلةً من الكتب التى صدرتْ باسم «التنوير» وهى تحملُ الإظلام، لأنّ التنوير الحقيقى مصدرُه القرآن، وقد قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

أمّا الكتبُ التى تُهاجم الشريعة الإسلامية وتعَدها غير صالحة للزمن المعاصر، وأمّا الكتبُ التى تتجنّى على التراث العربى وتعدهُ حطامًا بائدًا فات أوانه، فليستْ من التنوير فى شىء، وقد اخترتُ من هذه الكتب كتابيْن هُما: «الإسلامُ وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق، و «مستقبل الثقافة فى مصر» للدكتور طه حسين، لأقومَ بالرد عليهما، وقد نشرت مجلة الأزهر رُدودى الصريحة بدون إبطاء، والحق أنّ الذين قاموا بنشر كُتُب فات أوانُها فى هذه الفترة بالذات، لا يجهلون أن الشعب لايقرأُ ما يأفكون، لأنه يعلُم أن دعْوى التنوير اليوم كدعوى

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ ـ ١٦.

التقدمية بالأمس حين سئمنا ما ادّعاه الشيوعيون من تقدميتهم الزائفة، بحيثُ أصبح كلّ يسارىّ تقدميا، وكل مؤمن يلتزم بشريعة الله رجعيا! وطال عواء القوم حتى سقطتِ الشيوعية وافتضحَ مازعمتْه من التقدم الزائف، وخجل اليساريّون أن ينطقوا بالتقدمية، فلجئوا إلى كلمة التنوير، وأنا أسأل: هل الإسلام بشريعته مصدر تنويرٍ أم مصدر إظلام؟ وإذا كان القائمون بالتنوير الزائف يجهلون كل شىء عن الإسلام فَلِمَ يتحدثون عنه، ثمّ ألا يخجلونَ وقد نبذَهم القُرَّاء فَبَارَتْ كُتبهم، وزادَ التفاف الجمهور المسلم فى مصر حول ذوى الأقلام المؤمنة، ودُفن التنوير فى لحده السحيق!

ومما يؤسف له أن الإمام الأكبر يُجابِه من يُسيطرون على الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وأكثرُهم يَنْشرون لأعداء الشريعة كلّ ما يقولون، فإذا تقدّمَ للردِّ كاتبٌ مخلص وجد الإهمال المتعمّد، بل إن مقالات الإمام الأكبر تُبتر وتُجتزأ، ويُكتفى بمقدماتها، فإذا أصدر الشيخ بيانًا فى مناسبة كالهجرة أو المولد أو رمضان، وبدأهُ بذكر المناسبة، ثم تطرق سريعًا إلى معالجة مسألة هامة تشغل المسلمين، فأبدى حكم الإسلام صريحًا غير مُقْتَضَبٍ، فإنّ القائمين على هذه الصحف يُغفلون ما يقولُه الإمام، ويكتفونَ بذكر المقَدمة التى يعَرف مضمونها القرّاء سلفًا، وما هى إلا تمهيد لما يجب أن يُقال! لَقد أصدر الشيخ رأيَه فى كلّ ما يعرض فى الساحة المصرية جريئًا واضحًا، ولكنّ ذوى المرض والغرض ألجئُوه إلى الشكوى من هذا الحيف الظالم، ولعلّ من الأسف القابض للنفس، أن تُصدرَ الجريدة اليوميّة صفحتيْن كبيرتين دائمتيْن للرياضة، وصفحةً أو صفحتين للسينما والمسرح، وصفحة للأدب لاتحمل مقالاً توجهيا، بل تضمّ أخبارًا سقيمة حولَ من يلوذون بالجريدة، وإن انقطعتْ صلتهم الحقيقية بالأدب والأدباء! تُصدر الصحف كلّ هذا الهباء فى آفاقه المتسعة الفسيحة وتضيقُ عن كلمةٍ يصدرها إمام المسلمين فى يوم كريم!! أليسَ هذا هو العبث بعينه؟!

لمْ ينته الإرجافُ بالشريعة إلى حد، فقد نشرت جريدةُ العروبة خلاصةً لمحاضرة ألقاها الأستاذ جمال بدوى، جعلتْ عنوانها ينمّ عن عدم صلاحية القرآن الكريم

للتشريع فى العصر الحاضر، وكان من عناصرها أنّ آيات الأحكام فى القرآن قليلة، وأنّها لاتكفى النّواحى المتشعبة فى قوانين العصر المختلفة، وأن ما صدر عن رسول الله ﷺ لايُعد وحيًا، وأقوالُ الأسلاف من أئمة التشريع لاتُعتبر حجة، والاعتمادُ على العقل هو أساس التقنين، وعبارةُ ألاجتهاد مع النص تتطلبُ إعادة النظر، والمعتزلة لايعترفونَ بالأحكام النَّصّية، هذه هى العناصرُ المهمة، ومنها ما هُو مَسلّمٌ به، وما هو مشتط جائرٌ لاصوابَ فيه، وقد زُرت الإمام الأكبر بناء على طلبه، ليعرضَ على خطاباتٍ شتّى من المسلمين تطلبُ الردّ على محاضرة الأستاذ جمال بدوى، وقد استغربتُ أن تكونَ هذه الآراء صادرةً عنه، لأن مؤلفاته ومقالاته تنم عن اتزانٍ وحصافة، فكتبتُ ردا على هذه الأقوال، وصرحتُ فيه بأتى أعتقد أنّ كلام الأستاذ جمال بدوى قد حُرِّفَ، ونشرتْه الصحيفةُ على غير وجهه الصحيح، فالردّ إذن لايكون على الأستاذ جمال، ولكنْ على الذى حَرَّف وبَدَّل، ثم رأيتُ من المجاملة الأخويّة أنْ يُنشَر الردّ بجريدة الوفد التى يرأس الأستاذ تحريرها، فأرسلتُه إليها واثقًا من حرية النشر، وبخاصةٍ وأنا من كُتّاب الجريدة، ولى بها أكثر من خمسين مقالاً، ولكنّى فوجئت بعدم النشر، فلم أجد بداً من نشر الرد بمجلة الأزهر، فصادف ارتياح الكثيرين.

وقد تقدَّمْتُ إلى الإمام الأكبر بكتابٍ لى تحت عنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثتُ فيه عن جهاد الأزهر السياسى منذُ العصر العثمانى حتّى الآن، ولم أُطل الحديث فى هذا الاتجاه لأنّ غيرى قد تحدّث عنه بإشباع، أمّا الذى اهتممتُ به فموقف الأزهر من حرية الفكر التى يدَّعى بعض الأغرار معاداة الأزهر لها، فعرضتُ لمواقف العلماء من آراء على عبد الرازق، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وغيرهم مّمن خالفوا المقرّر الصحيح إلى مشبهاتٍ واهية كانتْ فى نظرهم جديرةً بالاعتبار، وأوضحتُ بطلان هذه الآراء مُبَيِّنًا رأى الأزهر الصحيح فى أخطاء كتاب الشعر الجاهلى، وكتابِ الإسلام وأصول الحكم، وغيرهما ممّا ثارَ حوله الضجيج فَوضح للعيان أنّ الأزهر يُدافع عن الحقائق الأصيلة بلسان المنطق، ومن حقّهِ أن يقولَ لمن أخطأ فى حق القرآن أو الشريعة أنتَ مخطئ، ويُبيّن

أسبابَ الخطأ، وإلا فما مَعْنى بقائه حارسًا للإسلام، وشارحًا لتراثِ الأئمة الأعلام؟ وقد قرأ الإمام جاد الحق كتابى باعتناء، وأمر بطبعه، فتناولته الصحف بالتعليق، كلّ حسب اتجاهه، ولكنّ حقائقه المركزة لم تجدْ من يقف أمامها مستندًا إلى دليل..

لقد كان فى طوقى أن أتحدث عن مسائل معاصرة كثيرة شاهدتُها عن عيان، ولمستُ للشيخ الأكبر فيها نضالاً مثابرًا لايعرف الكلَل، ولكنّ الزمن لايُواتى كل المواتاة، فيسمح بنشر ما يُغضب قومًا يرونْ أنفسهم أصحاب الحق، ومن خَالَفهم مخطئًا غير مصيب، ولهم شيعةٌ تضرب لهم الطبول بدون تعقّل، وتملك من وسائل النشر مالانملك، فسكوتًا حتى يعتدل الميزان.

* * *

الأستاذ ألبير أديب

حين احتجبت مجلات الأدب فى مصر بدءًا من الثقافة، فالرسالة، فالمقتطف، فالكتاب، شعرت بوحشة تملك علىّ أقطار نفسى، وجفت موارد الإلهام فى خاطرى؛ إذ لاأجد الحافز الدافع للنتاج، مادام النشر مُوصَد الأبواب، وقد بقيت الهلال تصدر شهرية كعهدها، ولكنها انتقلت من الخاصة إلى العامة، بمعنى أن البحوث الأكاديميّة أصبحت ثقيلة الهضم فى وضعها الجديد، وهى لاترحب بالبحث المتسلسل ذى الحلقات المتوالية، كدأبها فى عهدها السالف، وقد أولانى مدير تحريرها الأستاذ طاهر الطناحى مزيدًا من عطفه، فكان يتكرم بنشر ما أرسله، وهو فى أعماقه يأسف لوضع الهلال الجديد، لأن الطناحى قد عاصرها فى أخصب عهودها الزاهرة، ثم اضطر إلى مجاراة الوضع الجديد، فخضع لماجدّ آسِفًا غير سعيد.

وفى إحدى جلسات دار الهلال دار الحديث بينى وبين الأستاذ إبراهيم المصرى على انحسار المجلاّت الأدبيّة المتخصصة، فشكوت له غربتى بعد الرسالة، فقال: إن مجلة الأديب بلبنان تحكى مجلة الرسالة فى أمور كثيرة، وهى ترحب بالبحوث المستفيضة، وستسر بها إذا تابعتها، وكنت أعرف أن معهد الدراسات العربية يضم مجموعة من مجلة الأديب، فبدا لى أن أقضى يومين فى مراجعتها، وارتحت إلى طابعها الأدبى كثيراً، فصممت على أن أوالى قراءتها شهرياً، ودفعت بمقالٍ لى إلى صاحبها الأستاذ ألبير أديب، فمالبث أن نشر المقال، وأهدانى المجلة شهريا، فواصلت الكتابة فى شغف، وبدأت أنشط.

مميزات الأديب:

ولقد لاحظت أن مجلة الأديب عالمية الذيوع، فهى تنشر لجميع الأدباء شرقًا وغربًا، وقد أقبل شعراء المهجر وكُتَّابه على النشر بها حين احتجبت مجلاتهم العربية هناك، فكانت صلة وثيقة بين الشرق والغرب، كما رأيت المجلة تفرد أبوابًا للبحوث العلمية الجديدة، والاكتشافات الحديثة، وتعنى بما يجد فى عالم السياسة فتنشر أخبارًا موجزة فى خاتمتها عن أهم مايشغل المسرح السياسى، كما أن ماينشر تحت عنوان مكتبة الأديب يدل على أمثلة من المؤلفات الحديثة، تعرض عرضًا مشجعًا فى حين، وناقدًا فى حين آخر، وهذا غير أبواب القصة والقصيدة والمقالة والبحث العلمى، أما باب البريد الأدبى فيشمل ردودًا مقتضبة أو مطيلة على أفكار نشرتها الأديب، واتسع المجال لمناقشتها وهذا الباب يذكر (بالبريد الأدبى) بمجلة الرسالة، ولكن مع فارق واضح، لأن باب الرسالة كان خاصا بالنقد والتعقيب المخالف، أما باب مجلة الأديب فقد اتسع كثيرًا لما يجب أن يضيق عنه، إذ أولع نفر من الأدباء بنشر ما يصل إليهم من رسائل التقريظ المتبادل، أو التشجيع العاطف، وبعض هذه الرسائل مجاملات اضطرارية يكتبها الأديب الكبير حين يُفاجأ بكتاب أرسل إليه، فلا يجد من اللائق أن يهمله، بل يكتب رسالة مشجعة لصاحبه، وكان من حق الرسالة أن تُطوى مادامت لاتحمل مضمونًا فكريا هاما، ولكن من أرسلت إليه يودّ أن يقرأ الناس ما قيل له، ولا فضاء يتسع غير باب البريد فى مجلة الأديب.

أذكر أنى كتبت للأستاذ ألبير أديب أعلن له مايجب من إهمال هذه الرسائل، لأنها ليست ذات موضوع، وقد ردّ الأستاذ علىّ قائلا: إنه يعتقد أن الصواب فيما أقول، ولكنه يجد من الحرج المتواصل مايدفعه إلى نشر مالا يرغب فى بعض الأحيان، ثم قال: إن قارئ الأديب إنسان ناضج، وأنه سيدرك لامحالة ما أعانيه من الحرج وسيغفرلى، وهنا نجد الفارق بين الأستاذ الزيات فى الرسالة، والأستاذ أحمد أمين فى الثقافة، وبين الأستاذ ألبير أديب فى الأديب، فالأولان متشدّدان لايعبآن بتشجيع من لايستحق، والثانى غفور رحيم.

افتتاحية الأديب:

جعلت أنشر فى الأديب على اتصال غير منقطع منذ عرفت طريقها، وقد أبطأت شهرًا واحدًا، وتبعه شهر آخر، فوجدت الأستاذ الكبير صاحب المجلة يرسل إلىَّ برقيّة يقول فيها: «حجزت لك افتتاحية العدد القادم»، ولا أدرى لماذا هزتنى هذه البرقية هزا، لأنى أعرف قدر نفسى جيدًا، وأعلم أن مقالى ليس من القوة بحيث يسأل عنه صاحب المجلة، وينص على أنه حجز الافتتاحية، ولكنى من ناحية أخرى صممت على أن أواصل المجلة شهريا بدون انقطاع، وإذا كنتُ أزهريا أحتفل بمسائل التاريخ الإسلامى، فإن الأستاذ قد فسح لى المجال، وقد ذكر فى خطاب له أنه يرحّب بالبحوث التاريخية، وأن على أن أواصل البحث بدون أن أتلكأ، أذكر هذا لأرد على من اتهموه بالطائفية بغيًا بدون حق، فالأديب الأصيل دائمًا إنسان لايعرف التعصب، وما رزئت الأقلام إلاّ بفئات من الطغام ينتسبون إليها زورًا وبهتانًا، وهم عن الإخاء الراحم بمكانٍ بعيد.

وقد عانى الأستاذ كثيرًا مما يعترضه فى هذا الطريق، أذكر أن أستاذى الدكتور عبد الحسيب طه قد أهدانى كتابه (أدب الشيعة)، وهو رسالة علمية نال بها درجة الأستاذية فى الأدب والنقد، فكتبتُ بحثًا تحليليا عنها، وبعثتُ به إلى مجلة الأديب، ولكنى تلقيتُ رسالة من صاحبها تعلن أن الحديث فى مجلة الأديب عن الشيعة يفهم منه بعض الناس أن الثناء عليهم ذم لسواهم، وقد صُودِرت بعض الأعداد من مجلة الأديب فى بعض الأقطار لهذا الفهم البعيد! ثم نصحنى أن أنشر هذا البحث بمجلة العرفان اللبنانية لأنها خاصة بالبحث الأدبى بنوع عام، والأدب الشيعى بنوع خاص! وقد عجبتُ لما ذكر الأستاذ، لأننا فى مصر بعيدون عن هذه الحساسيات!

هذه واحدة، ولها ثانية تشابهها، فقد أرسل إلىَّ الشاعر اللبنانى الكبير الأستاذ (فارس سعد) ملحمة شعرية رائعة تحت عنوان (طوفان النور)، وهى من القوة تصويرًا وتعبيرًا وفكرًا بحيث تضع صاحبها فى مصاف الكبار من أعلام الشعر

المعاصر، وقد قرأت الملحمة معجبًا، وكتبت عنها بعض ماتستحق، وأرسلتُ ماكتبت إلى مجلة الأديب، لأن الأستاذ فارس سعد من كبار شعراء لبنان، ومن أفذاذ شعراء مجلة الأديب بالذات، ولكن الأستاذ ألبير أديب بعث بالمقال معتذرًا عن عدم نشره، لأن الملحمة تتضمن هجومًا على قوم إن لم يذكروا بأسمائهم، فهم معروفون بأوصافهم وملامحهم، وسيؤوّلون القول كما يشاءون، وفى مقدورهم أن يسيئوا لمجلة الأديب، ولم أجد بُدا من نشر المقال بمجلة «المنهل» السعودية؛ لأن الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصارى لايرى مايرى صاحب الأديب، فهو يصدع بالحق بدون قيد.

اعتراض وردّ:

ولا أدرى لماذا لم أسكت عن هذا الاتجاه، حيث أرسلت إلى الأستاذ أقول له: إن كل الناس يعلمون أن مجلة الأديب لاتعبر عن وجهة رئيس التحرير وحده، بل تفسح صدرها للرأى المخالف، وصاحب المقال هو الذى يتحمل تبعته مادام منشورًا باسمه، وفى هذا الفهم الواضح مايمنع مؤاخذة صاحب المجلة، ثم أفضت فى هذه المعانى إفاضة شافية، فجاءنى رد سريع من الأستاذ يقول فيه: إن جميع ماقلته فى خطابى مُسَلَّم به، بل بدهى لايحتمل الشك، ولكن مايصنع صاحب المجلة حين يجد الأعداد تُصادَر فى عدة دول؟ وهى فى وضعها الراهن لاتغطى نفقاتها إلا بمجاهدة جاهدة، إن الذى يحنى رأسه للعاصفة قد لايكون شجاعًا، ولكنه قد يتلافى الموت ليواصل النضال، وهذا أحسنُ من وجهة نظرى!. هذا بعض ما قال.

رثاء زوجتى:

انتقلت زوجتى إلى رحمة الله، فأرسلت عدة قصائد فى رثائها جاوزت العشرين، نشرتها تباعًا بمجلة الأديب، على مدى عامين، ثم تلقيت من صاحبها كتابًا يقول: إنه حائر فيما يقول لى، لأن قصائد الرثاء المتوالية تدل على لوعة حارة، وزفرة ملتهبة، وكان الظنّ أن مرور الوقت سيطفىء قليلا من هذه الجذوات

المشبوبة، لذلك يرى مع إعجابه الفنّىّ بما يكتب أن أحاول الصبر قليلاً، والله معى.

ولا أدرى لماذا فهمت من الخطاب فهمًا آخر، فهمت منه أن القصائد قد فترتْ فى مضمونها الفنّى، وأن صاحب الأديب قد عبّر عن ذلك بلباقة حصيفة، فكتبت أشكره على اهتمامه بحالتى النفسيّة، وأعلن أنى فهمت نقده الصائب، ولمحت بوادر الإخلاص فيما كتب فاقتنعت به، فجاءنى رد عاجل من الأستاذ يقسم أنه لم يقصد ما استنتجته إطلاقًا، وأنّ ما أقوله جميعه فى مستوى واحد، بل إن القصائد الأخيرة بها مايفوق القصائد الأولى فنّاً وإتقانًا، وإن لديه رسائل عدة من القراء تثنى على هذه القصائد، ولم يشأ أن ينشرها لكيلا تدعونى إلى معاناة نفسية فأستمر فى عذاب الألم كما يتصوّر، أما إذا كان الاستمرار مصدر تنفيس عن هذه المعاناة فهو يدعونى إلى الاستمرار مُرَحِّبًا، وكان خطاب الأستاذ بردًا وسلامًا على نفسى.

حىّ بن يقظان:

جاءنى خطاب من الأستاذ يدعونى إلى كتابة فصل عن القصّة الأندلسية (حى بن يقظان) لمؤلفها الفيلسوف الشهير ابن طفيل؛ لأن قارئًا عزيزًا قد كتب إلى المجلة يسأل عن هذه القصة، طالبًا أن تنشر الأديب بحثًا تحليليا عنها، ولم يشأ أن يعلن السؤال بالأديب، كيلا تتعدد الأسئلة من هذا الطراز، ولايجد من يُجيب عليها بإفاضة شافية، فتقع المجلة فى الحرج، وكان من بواعث التوفيق أن مقال (حىّ بن يقظان) مخطوط لدىّ، كتبته فى كتابى (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) ولم أنشره بعد، فسارعت بإرساله إلى المجلّة، وقد تلطف صاحبها فبعث بخطاب شاكر، ووعد ألا يرهقنى بمثل هذا الطلب، قائلا: إن البحوث المفروضة تكلّف الكاتب رهقًا، لأنه يبدأ من نقطة مجهولة، أما البحوث النابعة من تفكير الكاتب نفسه فتجد طريقها ممهدًا من خواطره، وتلك وجهة نظر لها صوابها، وأذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قد ذهب إلى مايخالفها، إذ

ذكر فى بعض مقالاته بمجلة الهلال أنه يسرّ بالمقال المقترح سروراً زائدًا، لأنه يفتح أمامه باب البحث عن موضوع لم يكن يفكر فيه غالبًا، فيكسب خبرات جديدة فى اكتشاف عناصر الموضوع، وكثيراً ما تؤدى هذه الخبرات إلى غيرها، فتتولد بحوث جديدة هى ثروة للكاتب والقارىء معًا، هذا ما قاله العقاد، ولكن من الذى له طاقة العقاد العلمية، ومقدرته النفسيّة، وشجاعته الرائدة فى اكتشاف المجهول؟!

سرقة واضحة:

نشرت مجلة الأديب قصيدة لشاعر عراقى وجدت معانيها جميعها مأخوذة من قصيدة للشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل، يقول فى مطلعها:

مرّت على النهر وقالت له ـ وموجه فى خشعة الساجد:
يانهر، قاسمنى الأسى مرة وهات أخبارك عن عابدى
طال على الشّجو من بُعده والصمت من قيثاره الزاهد
نبى أحلامى وشادى الهوى بمعجزات النغم الخالد
أضاقت الدنيا بتغريده فطار عن موطنه الجاحد؟
ام راح يلقيه فيمضى كما مرّ الصدى بالكفف الهامد؟
يانهر، أسمعنى حديث الهوى وهات عن بلبلى الشارد

والقصيدة تحكى قصة تتوالى مواقفها مشهداً خلف مشهدٍ، ولم يزد الشاعر عن أنه نظم القصّة بألفاظ تقرب من ألفاظ الأستاذ محمود حسن إسماعيل، ولم يأت بجديدٍ مّا يشفع له فى هذا السطو، وتوقعت أن ينشر الأستاذ ما أراه من نقد هادف، فالمسألة موضوعية لاذاتية، لذلك بادرت بإرسال مقال يكشف هذا الاختلاس الجرىء، ولكن الأستاذ ألبير صاحب القلب الرقيق، كتب إلىَّ يقول: إنه صُدِمَ صدمة عنيفة من هذا السطو القبيح، ولكنه علم من بعض زائريه أن الشاعر مريض جدا، وقد اعتزل فى مستشفى خاص بحيث لايزوره إلاَّ قلة من

أقاربه، ويخشى حين ينشر نقده أن تصل إليه المجلة بطريق ما، فيتضاعف ألمه فى هذه المحنة، لذلك يؤثر أن يحتفظ بالمقال حتى يعاود المريض شفاءه. ولم تمض أسابيع حتى لحق الشاعر بربه، فحمدت للرجل الكبير رقته الحانية، وطلبتُ منه أن يهمل النشر، مع أنه حق أدبى لا اختلاف عليه، ولكن هذا ماكان.

حرب لبنان:

قامت الحرب الأهلية بلبنان، فحجبت الأديب عن الظهور لمدة عام وأكثر، ثم استطاع صاحبها أن يعيد إصدارها على فترات متقطعة باذلا أقصى الجهود المضنية فى أداء رسالتها، وقد صادف أن توقفت المجلة وأنا بالسعودية، ثم جئت إلى مصر فاستأنفت صدورها، ووصلت أعدادها إلىّ بالسعودية تباعًا بدون أن أعلم، ثم علمت مصادفة باستئناف ظهورها، فأرسلت إليها مقالاتى الجديدة، وأخبرت الرجل بانتهاء بعثتى للسعودية، فأرسل ماسلف من الأعداد إلىّ، ثم صعب الأمر عليه، فكان فوق احتماله أن يوالى الإصدار... ودهمته العلة، ففارق الحياة تاركًا أحسن الذكرى لدى أصدقائه ومريديه؛ إذ كان مثلا نادرًا فى صفاء النفس، وسعة الصدر، وأداء الواجب.

* * *

الأستاذ كمال النجمى

بدأ الأستاذ كمال النجمى حياته الأدبيّة شاعرًا مبكرًا، حيث نشر بالصحف أوليات شعره فى سن الرابعة عشرة، ومازال يقرض الشعر حتى بلغ عهد الشباب، ثم انقطع فجأة عن النّظم، مع أنّه نال الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر بمجمع اللّغة العربيّة عن استحقاق جدير، ومن يبلغ هذا المبلغ الفنى الرائع، ثم يصمت فجأة لابّد أن يترك أكثر من سؤال..

لقد كنتُ أقرأ للأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه اللّه الدواوين الشعرية التى تقدّمت لنيل الجائزة، إذ كانت عينه حينئذ تشكو الرمد، وكان شعر الأستاذ كمال يسبق سواه سبقًا جليا، فآثره على غيره، ثم مضى إلى رفيقيْه اللّذين كانا يشاركانه الحكم، فلم يختلف الأمر بل كان الاتفاق مجمعًا عليه، لأنّ سبق الشاعر كان من الوضوح بحيث لايُزاحَم، ومن قصائده الرائعة بالديوان قصيدة (يقظة النيل)، وقد ابتدأها شاكيًا عهد الغفوة قبل الصحوة فقال:

دهى النيل ليلٌ فاستطال هُجوده ... وأورث جنبيْه كلالا رقودُهُ

بساتينه باتت نواعس حوله ... وأغفت بها أطياره ووروده

فلا صادحات الأيْكِ فيه صَوادِحٌ ... ولا الورد لذ النفح ريان عوده

ولا النبت مطراف على الأرض يانع ... قشيب ولا صوب الربيع يجوده

ولا النخل مزهو من العجب ناهض ... على النيل سمر فارعات قدوده

ولا النيل تأتيه إذا نصل الدجى ... صباياه يملأن الجرار وغِيدُه

والقصيدة أكثر من سبعين بيتًا تنحو هذا المنحى البحترى الرائع، وأقول البحترى لأن السلاسة العذبة، مع رقة التصوير تشهدان للشاعر بأنه ينتمى لمدرسة البحترى التى انتمَى إليها كبار الشعراء فى هذا العصر، وكان من العجب العاجب أن يصبح كمال بعد هذا السبق (مازنيا) يهجر الشعر نظمًا، لانقدًا، لأنه تِمشق سلاح الناقد إلى هذه اللحظة محاربًا مايسمّى بشعر التفعيلة، ومقالاته فى الهلال، وفى مجلة المجلّة، وفى مجلة العالم العربى، تجمع هذه النقدات الهادفة، ولعلّه يضمها فى مؤلف خاص، لتكون صوت النذير.

سبب الهجران:

وقد جعلت أسأل عن هجر الشاعر لفنّه، حتى علمت أن حالة نفسيّة قد صدمته، فامتنع، إذ كان الشاعر ينشر قصائده فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام، فى المكان البارز الذى ينشر فيه الجارم، ومطران، وعلى محمود طه، والأسمر، وكان الأستاذ أنطون الجميّل يراه فى شبابه الباكر يشير إلى مستقبل مرموق فى دنيا الشعر، فيحرص على تقديم شعره فى أسطع معرض، وأول ما نشره الأستاذ كمال النجمى بالأهرام قصيدة فلسطين التى مطلعها:

علت صيحة كالرعد دوًى هزيمها ... تحامى صداها واتّقاه غريمها

ألّمت بأسماع الطُّغاة فزلزلت ... وحز قلوب المؤمنين أليمها

هفت من فلسطين إلينا فنبهت ... نيامًا قلاها كهفها ورقيمها

تقاعس عنها حين ضيمت وليها ... وأسلمها للحادثات حميمها

والقصيدة تتجاوز الخمسين من الأبيات بهذه القوة المتماسكة، والانفعال المتوهّج، ومازالت قصائد الشاعر تشرق بالصفحة الأولى بالأهرام، حتى رحل الأستاذ الجميّل إلى جوار ربه، وخلف بعده من تنكّر للشعر بعامّة، فلم تعد الجريدة المرموقة تحتفى بهذا الفن الأوّل من فنون العرب، وضاق النجمى بما صادفه من نكران لم يكن فى حسابه فابتأس.. هذا ماكان.. ولا أدرى كيف ناء تحت

هذه الأزمة، ولم يتجاوز الأهرام إلى سواها، مع أنه نال جائزة المجمع بعد رحيل الجميّل، لقد كتب لى مُفصحًا عن هذا السبب، حين سألته عن امتناعه المباغت! وله نظراء قد هجروا الشعر بعد سبق، كالمازنى، والرافعى وشكيب أرسلان، ولكلّ علّة خافية تحتاج إلى إفصاح.

بدء الصلّة:

كنت أقرأ مايقع فى يدى من آثار كمال النجمى، وقد كان من التواضع بحيث يرمز إلى توقيعه كثيرًا بدون إفصاح، وقد كتب سلسلة من الخواطر النقدية والاجتماعية بإمضاء (ابن زيدون) فى جريدة يومية، وعرفت أنه الكاتب لأنه أشار إلى قصيدة كتبها والده الشاعر المظلوم ـ علىَ فَضْلِه الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى فى تحية صديقه الشاعر إبراهيم الدباغ، والقصيدة من محفوظاتى الخاصة، فأدركت حلا للغز (ابن زيدون) ثم عنّ لى أن يكون الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النجمى موضع دراسة للماجستير بجامعة الأزهر، ولكن أين الديوان؟ لقد اهتديت إلى أن يذهب الباحث (الدكتور عبد الحميد شعبان فيما بعد) إلى الأستاذ كمال ليستعير الديوان مخطوطًا، وقد رحب الابن الوفى أكمل ترحيب، وأمدَّ الباحث بكل ما طلبه عن حياة والده وشعره، حتى استوت الدراسة تامة ناضجة! ومن أطرف ما حيّرنى فى هذا المجال أنى قرأتُ للأستاذ كمال بمجلة العالم العربى فى الخمسينيات دراسةً مستوفاة عن والده فى مقال كاشف وضىء، فعنّ لى أن يعيره للطالب الباحث كى يكون بعض المراجع التاريخيّة عن الشاعر المدروس، ولكن الأستاذ كمال ذكر أنه لايعلم شيئًا عن هذا المقال، ولا يتذكر أنه كتبه، وهى عجيبة جدا فى رأيى، وأدعوه إلى أن يبحث عنه فلابّد أن يكون مخبوءًا فى مكان مُهْمل من الأضابير، لأنى قرأتُه واثقًا، ولو كنت أعلم الغيب لاحتفظت بالعدد.

وللأستاذ كمال حياء مفرط يدفعه إلى حساسية بالغة، فقد سمعته فى حديث إذاعى امتد إلى ساعة كاملة يتحدث عن نشأته الشعرية، وآثاره الفنيّة، فتكلم عمن تأثربهم من الشعراء، ولم يذكر اسم والده الذى ترك أربعة أجزاء من عيون الشعر

العربى الأصيل، وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان متعجبًا أن لايدوّى اسمه فى آفاق العالم العربى كما دوت أسماء شوقى، وحافظ، ومحرم، ولعلّ من أسباب خفوت ذكره، أنّه كان ملتزمًا أشد الالتزام، فَوَجَّه شعره إلى اليقظة الإسلامية وأبطال الكفاح والنضال، واتخذ من مجلات النضال مذياعه المتواضع، فبرّز كل التبريز فى هذا المجال! لقد كتبتُ للأستاذ النجمى بعد سماع الحديث الإذاعى أسأله: كيف أهمل ذكر والده، فكتب يقول: والله إنّه كان يملأ خاطره أثناء الحديث، ولم يغب لحظة عن باله، ولكنه استحيا من ناقد جرىء يقول: مالنا ولأبيه! وأنا أقول للأستاذ كمال: إنك أوّل من يجب أن يؤلف كتابًا عن الشاعر الكبير، فأنت به أَدْرَى وأعلم، وللتاريخ حق عليك، أما أن يلغط لاغطٌ بما يهذر، فليس لنا أن نقيم له وزنًا مّا، وقد علمت أن الدكتور عبد الحميد شعبان قدهيأ ديوان الشاعر للطبع، وسيرى النور عن قريب.

القلم الصوّال:

على أن هذا الحَيِيَّ الخجول ذو قلم صوال، لايملّ العراك، وفى أعداد الهلال المتوالية لذعات نقدية تدل على مقاومة صلبة لمن لا يَنْتَحونُ منتحاه فى الشعر والفنّ، وأذكر أنه كتب مقالاً بعدد مارس سنة ١٩٨٩ من الهلال ينكر فيه شعر الرافعى والمازنى والعقاد وعبد الرحمٰن شكرى لأنه يجمع بين الفلْسفة والشعر، فيستغلق على القراء، وقد أنكرت هذا الرأى إنكارًا شديدًا، وكتبتُ مقالاً فى معارضته، ولكنى وجدت الأستاذ كمال يبدأ مقاله بقوله تحت عنوان (الحب شعراً والحب نثرًا):

«إذا وجدت أيها الصديق القارئ تفاوتاً فى هذا الكلام فالسبب أننى لا أكتبه بل أمليه، ولست معتاداً الإملاء، فقد عشت سنين لاتحصى أكتب بيدى، وقد وضعتُ القطن على عينى الاثنتين، وفوق القطن الضماد، ورقدت، فقد مرضت عينى فجأة!» قرأت هذه العبارة ومابعدها، فشاركت الأستاذ ألمه، وطويت المقال، وبعثت أحد تلاميذى لزيارته سائلاً مواسياً، إذ لا أطيق لقاء مريض عزيز، ثم مَنَّ اللّه

على الأستاذ بالشفاء، وأنا أبحث الآن عن المقال لأنشره، ولكنه اختفى متحديا، ولا أستطيع أن أكتب مقالاً سبق أن حرّرته، لأن الفورة الأولى قد هدأت، وكانت مبعث جيشان وهدير.

جانب الفن:

لا أقول إن جانب الفنّ قد استولى على كمال النجمى لأنه رأس تحرير مجلّة (الكواكب) عدة سنوات، كما لا أقول إنّ جانب الأدب قد استولى عليه لأنه رأس تحرير مجلة الهلال عدة سنوات، فالأدب والفن قد استوليا على الأستاذ وهو يافع ناشئ، وإذا سجل ديوانه المطبوع بعض مانظم من الشعر، فإن مؤلفاته فى عالم الفنّ تحتل مكانتها المرموقة، ولم يقصر حديثه الفنى على عهد واحد، بل تكلم عن الغناء العربى فى القديم والحديث تكلّم البصير العارف، وحين ماتت المطربة الشهيرة (أسمهان) رثاها أبدع رثاء، وكانت قصيدته زميلة لقصيدة أخرى لعلى أحمد باكثير رثى بها أسمهان، وأذكر أنى حدثتُ الأستاذ كمال عنها فى خطاب خاص، فأرسل يطلبها، لأنه قرأها فى حينها ثم ضاعت منه، وقد أرسلتُها إليه، فكتب مقالاً عن مراثى أسمهان بعدد سبتمبر سنه ١٩٨٢ من مجلة الدوحة يتضمن من الذكريات الفنيّة مايدل على الكثير..

لقد تحدث الأستاذ النجمى عن الغناء فى كتب متوالية تحت عنوان، الغناء المصرى، سحر الغناء العربى، أصوات وألحان عربية، ومطربون ومستمعون، كما أفاض فى مقالات الهلال عن عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وفايزة أحمد، وسيد درويش، وغيرهم من أعلام الفن، وحديث الشاعر عن الفن لايشبه حديث المؤرخ الأكاديمى، لأن كثيرًا ممن كتبوا فى مجال الدراسة العلميّة تخلوا عن مشاعرهم، ونسوا أنهم يتحدثون عن فنانين لاعن علماء، أما كمال فقد كان فنانًا فى حديثه، لذلك كانت كتبه تُستوعب بدون سأم، لايكاد يبدأ القارئ الصفحة الأولى حتى ينتهى إلى الصفحة الأخيرة فى غير انقطاع، وما تركه الأستاذ فى مختلف الصحف من المقالات، والدراسات يؤلف مجموعة أخرى من الكتب

الفنية، وفى متناوله أن يخرجها للناس، لتكون تاريخًا يُروى، تاريخًا مؤيدا بالوقائع، لأن بعض الكاتبين فى هذا المجال يخترعون.

حكايات الأغانى:

شغل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جمهرة الدارسين على مَرِّ العصور، وفيهم من قام بتجريده، ومن قام بتهذيبه، ومن قام باختصاره، ولكل منحى فيما قصد، ولكنّ الأستاذ النجمى قام بنوع جديد فى خدمة هذا الأثر الضخم، إذ شاء أن يضم ما تناثر من أخبار الشاعر أو المطرب فى أبواب كثيرة تمتد إلى ما فوق العشرين جزءًا فى حيّز واحد، بحيث يقدم صورة وافية عن المتحدث عنه فيماسماه يوميات، وقد جاءت هذه التسمية موفقة، لأنها تضم الأحداث المختلفة متسلسلة فى اليومية الأولى، فالثانية، فالثالثة، حتى التاسعة، كما فى يوميات إسحاق الموصلى، وبهذا النحو من التأليف صار كتاب الأغانى سمرًا للعامة والخاصة، بعد أن كان وقفًا على الخاصة وحدهم، وهو جهد مستتر لايدركه غير من كابَدَ قراءة التراث فى مَنَازِعه المتباعدة، وحاول أن يجعل من أمشاجها جسمًا ملتئمًا متماسكًا! ولم يقف الكتاب عند أخبار المغنين والجوارى، إذ اتصلت الأحداث بالخلفاء والوزراء والولاة والشعراء، ولكل حدث دلالته التاريخيه والنفسيّة والاجتماعية، أذكر هذا لأقول: إنّ ضجة فى الصحف قامت حول كتاب الأغانى لأمدٍ قريب، حيث شن بعض الكاتبين حملة على حفلات الطرب غير الملتزم بالجامعة! وهى حملة صادقة لها ما يبررها، ولكن بعض ذوى الأهواء كتب يهجّن هذه الحملة مستندًا إلى أقوال أبى الفرج فى الأغانى استنادًا شرعيا لا أدبيا، وكأنَّ أبا الفرج صار أحمد بن حنبل أو الشافعى أو مالكًا أو أبا حنيفة، فكتبت مقالاً بجريدة الوفد أضع كتاب الأغانى موضعه الصحيح، فهو جملة أسماء وأحاديث وأشعار بعضها صحيح وبعضها مختلق، إنْ لم يكن أكثرها، وإذا جاز أن يكون أحد مصادر الأدب فلا يعقل أن يكون مصدرًا للأحكام الشرعية! كتبتُ هذا المقال، ولا أدرى لماذا توهم الأستاذ كمال أنى أنتقص كتابه كما أخبرنى بعض مَنْ حادَثَهُم فى ذلك، فالكتاب عملٌ أدبى جيد لاشبهة فيه، وما كتبتُ مقالى إلا نقدًا لمن يحاولون أن

يجعلوا أبا الفرج الأديب الراوية فقيهًا مُشَرِّعًا فيأتون البيوت من غير أبوابها، ولعلى أكون قد أوضحت ما أريد بدون التباس.

مع العقاد:

تحدث الأستاذ كمال النجمى فى مقالات كثيرة عن العقاد، والعقاد كالمتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس، وللنجمى رأى فى شعره، سبق أن أشرت إليه بإيجاز، وقد قرنه مع المازنى الشاعر فى اتجاهه، وهذا ما أخالفه لأن للمازنى فى شعره رِقَّة وسَلاسة تنأى به عن صاحب الفكرة الفلسفية فى الشعر، كما أن هناك فرقًا بين المنطق العقلى والمنطق الوجدانى، وشعر العقاد وشكرى أقرب إلى المنطق الوجدانى، ولكن إحساسهما العميق يرتفع بهما عن المُشاهَد المألوف لدى الشعراء السطحييّن، وما أريد أن أستفيض فى ذلك الآن، ولكنى أذكر أن النجمى تحدث عن غراميات العقاد، فذكر أن صِلَتَهُ بمىّ كانت من طرف واحد، وهذا ما أميل إليه، لأن الآنسة مىّ لم تحب من صميم فؤادها غير جبران خليل جبران على تنائى داره، كما أخبرنى الأستاذ طاهر الطناحى بذلك، ولكن الذى لم أرتح إليه فى مقال النجمى عن غراميات العقاد ذكر بعض العلاقات الخاصة التى يحسن استتارها تكريمًا لذكرى الراحلين، وإن كان النجمى قد أدّى حق المؤرخ الصادق فى رأى من يميلون إلى التتبّع الدقيق والاستقصاء التام.

* * *

الدكتور محمد يوسف موسى

كان معهد التربية العالى للمعلمين بالإسكندرية يُقيم ندوات تنظمُ عدة محاضرات ثقافية يُدْعَى إليها كبار الأساتذة من الجامعات، فيلقون كلماتهم الموضوعيّة فى شأنٍ من شئون التربية والتعليم، ليعقبها نقاش هَادِفٌ تتمحص فيه بعض الحقائق، ثمّ تنتهى الندوة بعشاء متواضع، يقبل عليه المستمعون ليواصلوا سمرهم المؤنس فى هشاشة وابتهاج.

وقد دُعِيَ الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر فى موسم العام الثقافى سنة ١٩٥٠، ليلقى محاضرة شاء أن يكون موضوعها، «لِنكُنْ قوةً تفعلُ لامادّة تنفعل» وهو موضوع ثقافى تربوى، لأنه عرض فى دقة شذوراً من تاريخ المسلمين حين كانوا قادة الأمم فى عصورهم الزاهرة، فأحدثوا فى العالم انقلابًا فكريا واجتماعيًّا وسياسيا قفزت به الإنسانية أكبرقفزاتها فى طريق التقدم الحضارى، فكانوا بذلك قوة فاعلة، ثم انتقل إلى الحاضر المؤلم، فأوضح كيف صاروا يتلقون عن الغرب ما يحدث من أقوى مظاهر الاكتشاف العلمى، والابتكارالصناعى بدون أن تكون لهم مشاركة فى هذا الاكتشاف، فصاروا مادة تنفعل، ولم يُغفل تحديد الأسباب التى دعت إلى هذا التخلف، منتقلا إلى المجال التربوى ليبيّن أن الطفل فى مشرق حياته كالأمّة فى أولى خطواتها، لابدّ لهما من التقليد الواعى، فيقلد الطفل أباه الرشيد، كما تحاكى الأمة المتخلّفة من تقدّمتها فى ركب المدنية، حتى إذا بلغ الطفل أشده وكان صحيح التربية ترك التقليد إلى الابتكار، وكذلك تبلغ الأمة رشدها فتسهم فى بناء الحضارة تعطى وتأخذ. ثم ختم حديثه بقوله: « إن من الواجب ونحن فى نهضة

وطنيّة واجتماعية ألا يكون الواحد منا مادّة تنفعل بغيره، بل يجب أن يكون فى نفسه قوة تفعل لتؤثر فى سواه».

وقد قُدِّر لى أن أتولى تقديم المحاضر الكبير، إذ كنتُ إذْ ذاك طالبًا بمعهد التربية، واتحاد الطلاب هو الذى يدعو الحاضرين، وهو الذى يتولّى تقديمهم دون أساتذة المعهد، وكانت لى صلة ثقافية بمؤلفات الدكتور ومقالاته، كما كنتُ أعرف من تاريخه العلمى دقائق قد تغيب عن غيرى، فعرضت إلى نبوغه فى التأليف موجزًا الإشارة إلى اتجاهاته العلميّة، ثم انتقلت إلى الحديث عن درجة دكتوراه الدولة التى نالها الدكتور من جامعة السوربون بباريس، وكان ممّا قلت:

«لقد شهدت قاعة «ريشيليو» الكبرى بجامعة السوربون مناقشة فلسفيّة لرسالة علميّة كتبها الدكتور محمد يوسف موسى تتضمّن بحثًا عن الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط. وكانت لجنة المناقشة مكونة من خمسة أساتذة من السوربون، والكوليج دى فرانس، وقد رأس المناقشة البروفسور ليفى بروفنسال، كما شهدها الدكتور طه حسين مع نخبة من دارسى العلم فى باريس عربًا ومسلمين، واستمرت المناقشة خمس ساعات كاملة ظفر بعدها الدكتور محمد يوسف موسى بأرقى درجة علمية تمنحها جامعة السوربون، وهى دكتوراه الدولة فى الفلسفة بدرجة مشرف جدا، ثم أعلنت الجامعة دعوة الدكتور محمد يوسف لإلقاء المحاضرات عن فلسفة التشريع الإسلامى باللّغة العربيّة».

وبعد انتهاء الحفل، أرسل الدكتور محمد يوسف من يدعونى للقائه، وسألنى عمن أخبرنى عن احتفال الدكتوراه بالسوربون، فقلت: إن الجرائد اليومية أشارت إليه فى مصر، وعنها قلتُ ماقلت، فابتسم شاكرًا، وطلب منى أن أسهر معه فى الفندق حيث يقم هذه اللّيلة، فقلت: إنى أرحبُ باللقاء وأعْتزّ به، ولكنك مجهد بعد هذه المحاضرة الدسمة، فقال: لقد ارتحت للقائكم ارتياحًا أزال عنى التعب، فهل تصحبنى؟ قلت: تلك فرصة علمية أغتنمها، فكيف أتخلّف؟

فى سكون الليل:

امتدَّ بنا الحديث طويلا طويلا فى هدوء الليل الساكن فى شتاء الإسكندرية، فخضنا فى مسائل كثيرة من مسائل الثقافة والتربية، وقد تحدث الدكتور عن البيئة الثقافية فى أوربا، وكيف أنّها تُساعد على تكوين الباحث تكوينًا مثمرًا سريعًا، وقال: إنه مثلاً حين يدخل قسم الدراسات الإسلاميّة بإحدى مكتبات الجامعة الأوربيّة باحثًا عن مسألة معينة، يجد من الفهارس المتعدّدة ما يُسرع بتحقيق رغبته فى أعجل وقت، كما يجد من القائمين على أمور المكتبة مَن يفهم الموضوع بوجه عام، فيشترك معه فى إعداد مايرغب من الكتب عن دراسة واختبار، وهذا فى مسائل إسلاميّة لاتحتل المكانة الأولى لدى أصحاب المكتبة، فما ظنك بفروع الطبيعة والكيمياء والفلسفة الأدب والتاريخ الأوربّى؟ وأنتَ لدينا فى مكتبات مصر لاتجد من الموظفين غير المتخاذل المثبط، وإذا طلبت كتابًا غير الذى فى يدك تضايق ونَفَرَ كأنك تكلفه بغير ما أعدّ له، هذا بالنسبة إلى الكتب، أما بالنسبة للأساتذة فسأذكر لك حادثة لها مغزاها، لقد أردت فى أوّل مقدمى إلى باريس أن أزور كبار المتخصصين فى البحوث الإسلامية من أساتذة جامعاتها، فبدأت بالأستاذ الكبير ماسّينون، وهوذ الشهرة المستفيضة فى مسائل الفلسفة وبحوثها، وحدثته تليفونيا عن رغبتى فى لقائه، فأبدى من السرور مالم أتوقع، وبادر بتحديد الموعد فى صبيحة الغد، فلما سعدتُ بلقائه انتظر معى قرابة ساعتين فى حديث موضوعى ينم عن رغبة منه مخلصة فى الإفادة والتوجيه، ورجانى أنْ أتكرّم - كما قال - بتكرار زيارته، ثم فوجئت بزيارته لى فى اليوم التالى بمسكنى المتواضع ليشكرنى على ابتدائى بزيارته، وفى صحبته عدة مؤلفات ومجلات تساعدنى فى مهمتى الثقافية، وكان من المصادفات أن أجد الأستاذ الدكتور طه حسين يزور باريس فى هذا الوقت، فأردت أن أسعد بلقائه، ليرشدنى إلى أوجه النشاط الثقافى بباريس كما يعلمها أحسن العلم، وعرفت موضع إقامته، فاتصلت تليفونيا بسكرتيره فأخبرنى أنه خارج الفندق، وعاودت الاتصال فقال السكرتير إنه جاء ليستريح لا لمقابلة الباحثين من الطّلاب! ولا أدرى لماذا أكثرت من المقارنة بين مسلك الأستاذ

ماسّينون ومسلك الدكتور طه حسين معى، وهى مقارنة تدل على الفرق الشاسع بين الروح العلمية لدى الأساتذة هناك والأساتذة عندنا.

قلت فى شبه اعتذار عن الدكتور طه حسين ربما كانت ظروفه الخاصة لاتسمح، فقال الدكتور محمد يوسف موسى: أفلا أقّل من رد جميل؟ ثم تطرق الحديث إلى كفاح الطالب المبتدئ فى مصر والشرق، فقال الأستاذ إن الطالب الطموح يكافح وحده بدون معين، وقد ضرب المثل بنفسه، فقال: إنه بعد تخرجه من الأزهر عمل محاميًا شرعيا لوقت ما، ولم يسترحْ لعمله، فأرادأن يكمل دراسته فى أوربا على نفقته الخاصة، وحين ضاقت به الأزمة فى الحرب العالمية الثانية حاول أن يجد من الأزهر ـ وقد التحق به مدرسًا فى بعض كلياته ـ من يسمح بانتظامه فى إحدى البعثات التى تنفق عليها الجامعة الأزهرية، فلم يجد أُذُنًا تصغى، واضطر إلى أن يدبر النفقات على حساب أسرته الخاصّة، وقد أعانه الله فَوُفِّقَ إلى ما أراد! وليس وحده فى هذا المجال، فهناك الكثيرون من أبناء الأزهر والجامعة المصرية يدرسون بجامعات الغرب بدون أدنى معونة ماديّة، وسيظفرون، لأنهم يقدّرون قيمة الوقت، ويعلمون أنهم يصارعون الأمواج بدون نصير غير رعاية الله.

مقال خطير:

انتهت الزيارة على أحسن ما يُرْجَى لها من التوفيق،وودّعت الأستاذ، وأنا أعتقد أنى كسبتُ صديقًا و أستاذًا فى آن واحد، وتبادلنا الرسائل فى إخلاص وحب، ثم حدث أن نشر الدكتور مقالاً خطيرًا بجريدة الأهرام عن السياسة التعليميّة بالأزهر، دَعَا فيه إلى أن يكون القسم الابتدائى بالأزهر مشتركًا مع المدارس الابتدائية بمصر، بحيث يختار طالب القسم الثانوى بالمعاهد الدينيّة من طلاب المدارس الابتدائية بعد أن تكثر بها المواد الدينيّة المناسبة،وذلك لكى يكون الطالب الأزهرى فى المرحلة الثانوية مهيئًا لدراسة لغة أجنبيّة ألمَّ بها من قبل، ومستعدا لدراسة الضرورى من فروع الثقافة المختلفة فيتساوى مع زميله فى

المدارس، ولا ينقطع إلى الدراسة التخصصيّة انقطاعاً تاما إلا فى مرحلة الكليات. ولم يكن الدكتور محمد يوسف موسى أول من أشار بذلك، فهى فكرة قديمة دعا إليها الأستاذ إسماعيل القبانى، والأستاذ أحمد حسن الزيات، وغيرهما، ولكنّ صدورها من أستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر قد أهاج عليه مجموعة كبيرة فى محيطه الأزهرى، وانتقلت المناقشة إلى صحف دينيّة تعتمد على الإثارة العاطفية والتهيج الخطابى بدون دراسة موضوعية، وفى كتّابها من يترك الموضوع إلى الحديث عن قائله فيرميه بسوء النيّة وخبث الاتجاه، ثم يقول إنه صنيعة مَنْ تلقى عنهم الفلسفة فى باريس! وهذا كلّه دَجَل غوغائى لايمت إلى البحث النزيه، إذ أن كل أزهرى حريص على جامعته ويعدّها مبعث فخره، بل كل أزهرى حريص على إصلاح معهده، فإذا تعدّدت وجوه الإصلاح بتعدد الدراسين، فلابد من الاستماع الجيد، والحوار الهادف، والموضوعية البريئة من الشطط والجموح.

لقد أزعجنى أن أقرأ بعض ما تورّط فيه المتسرعون بشأن الأستاذ، فعجّلْت بزيارته فى منزله بجزيرة الروضة، وكنت أظنّه ضائقًا بما قرأ، شاكيًا مالحق به من تهجم يتغلغل إلى الضمائر فى خفة طائشة، ولكن الأستاذ فاجأنى بابتسامه الهادىء، وثباته المطمئن، وقال: إنه قبل أن يكتب اقتراحه، كان يتوقع ما حدث، لأنه رَمَى بالحجر فى البئر فلابد أن يحدث اضطرابًا فى الماء، ثم غمره الروح الفلسفى، فامتد بالموضوع إلى آفاق إنسانية نبيلة، وأذكر أنه قال فى خاتمة حديثه: إنه إذا لم يجد أذنًا تسمع ما يقول وتستجيب، فحسبه أنه لفت الأذهان إلى ضرورة الإصلاح الأزهرى، إذ يجب على المسئولين أن ينظروا فى المناهج التعليمية بالقسم الابتدائى والقسم الثانوى فيضيفوا إليها ما يقرّب الطالب الأزهرى من ثقافة العصر، وإذا تمّ ذلك فلا اختلاف! قلت له: ولماذا لم تتجه هذا الاتجاه فى مقالك لتحفف من حدّة المعترضين؟ فقال الرجل: إن القوم نيام لايوقظهم الصياح المتّصل، فلابد من الإزعاج باقتراحٍ مدوٍّ يجلجل صداه حتّى يتجه المسئولون إلى التعديل والتحوير.

إلى كلية الحقوق بالجامعة:

لم تصفُ الحياة بالأزهر للدكتور محمد يوسف موسى بعد مقاله بالأهرام، فناوأ من لايُقدّرون حرية الرأى، وعدوه خصمًا لدودًا، وماهو به، وصادف أن عرضت عليه جامعة فؤاد أن ينتقل إليها أستاذًا مساعدًا بكلية الحقوق، فقبل العرض، وكان لذلك دوِىٌّ فى المحيط الثقافى عبر عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات حين كتب فى مجلة الرسالة تحت عنوان (ثروة من ثروات الأزهر تنتقل إلى جامعة فؤاد) قائلا:

«قرر مجلس جامعة فؤاد الأول بجلسة ٣٠ يونيو تعيين الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أحد علماء الأزهر وخريج جامعة باريس أستاذًا مساعدًا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وقد كان الأزهر أولى بهذه الثمار الناضجة التى تفتحت فى جوّه، وعاشت بروحه، وتعمقت فى ثقافته، ثم أخذت بنصيب موفور من العلم الحديث بلغته وفى موطنه، فاكتملت لها الأداة لتجديد البالى، وإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، مما كثرت الشكوى منه، وطال الجدل فيه من أنظمة الأزهر ومناهجه وكتبه، ولكنّ الأزهر ـ لأمر يعلمه الله ـ لايريد أن يغيّر ما بنفسه، ولايحب أن يعترف بالفضل لأهله، والكُفاة إذا لم يجدوا الإنصاف فى بيئتهم ومن عشيرتهم تَحَوَّلُوا إلى النظام المنصف، والعلماء إذا لم يجدوا الحقل مَهَّيأ للغراس تركوه إلى المكان الطيب».

بين الفلسفة والشريعة:

كان المظنون أن ينتقل الدكتور إلى كلية الآداب ليدرّس الفلسفة، التى نال فيها دكتوراه الدولة بباريس، وقد انتقل إلى كلية الحقوق ليدّرس الشريعة التى لم يؤلف فيها من قبل، ولكنه وهو العالم الأزهرى الضليع، لم يكن بعيدًا عن الحقل الجديد، وقد أثبت جدارته الفائقة حين بهر طُلابه بغزارة معارفه، وشمول نظرته، ثم أصدر من الكتب العلمية فى محيط الفقه الإسلامى ما سامَى به نظراءه من الأساتذة الكبار بكلية الحقوق، ولم يقتصر على النهج التقليدى المتّبع، بل دعا دعوات حرة إلى التجديد فى الاجتهاد والتحليل والتطبيق، وكان شجاعًا حين كتب

مقالاته الهادفة تحت عنوان (أزمة الفقه الإسلامى) التى تتمثل فى انصراف أُولى الأمر عن قوانينه، فيما تأخذ به المحاكم الأهلية من تشريع، ثم فى هذا الهجوم الملح المتكرر على من ينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية وكأنهم يقترفون منكرًا ولا يأمرون بمعروف، ثم فى غفلة أساتذة الشريعة عن مجاراة الأسلوب العلمى المعاصر فى تدوين المواد التشريعيّة على النسق المتّبع فى كتب القانون الوضعى ذات الاستجابة الدقيقة إلى منهج التأليف العلمى المعاصر، كما أن هناك تعمدًا مقصودًا لإغفال ما يُسمّى بالفقه المقارن، إذْ يجب أن تنشر البحوث القانونية موازنة بين آراء التشريع الإسلامى، وأحدث ما اهتدى إليه أرباب القانون الوضعى لأن الكفة ستكون راجحة للفقه الإسلامى متى استقامت أدوات البحث، وخلصت النيات من الغرض، أمّا تدريس أصول الفقه على نحو يتجاوز ضيق المتون والحواشى إلى فضاء التحليل المتسع، والاستنباط الدقيق، فمما يتطلب جهودًا مشتركة، إذ تؤلف لجان علميّه لإعادة تحرير مادة الأصول كما دُوِّنت أُسسها فى كتب الفطاحل من أئمة المجتهدين، بعيدًا عن مؤلفات العصر المملوكى وما تبعه من عصور الجمود، ولم يكتف الأستاذ بالدعوة الملحة، بل بدأ النتاج العملى فأصدر بحوثًا مستقلة فى أهم فروع البيوع والمعاملات، وكان فى هذا المجال محققًا لآمال المخلصين، وعونًا يشد الأَزْرَ، ويضىء الظلمات.. وكم كانت فجيعة زملائه وتلاميذه فى رحيله العاجل أليمة قاسية، ولكنها سبيل مورود...

* * *

الأستاذ طاهر أبو فاشا

أظرف مَن اشتهروا بالظرف ممن شهدنا فى هذا العصر، فقد اجتمعت له حلاوة الروح، وسرعة البديهة، وبراءة النفس، فإذا قصد إلى المعابثة فهى التى تسر ولا تسىء، وذكاؤه من النوع اليقظ الذى يلمح المكمن المستتر فى الفكرة الغامضة فيسلط عليها الضوء، لتتضح دون لبس، فى بساطة لاتكلّف معها، وهو بهذا الذكاء يحيل المسألة العلمية المعقدة إلى مايشبه القصّة الطريفة، وقد عهدنا أرباب النوادر يستثقلون البحوث الفكرية، ولكنّ طاهرًا كان فريدًا فى إتقان مسائل النحو واللّغة والصرف على نحو يدهش، وقد كان دائمًا من أوائل الطلبة المتقدمين مع قلة انصرافه إلى التحصيل، إذ يكفيه أن يستمع الدرس من الأستاذ ثم يعاود قراءته مرّة واحدة، ليظل مطبوعًا فى خاطره، فلا يحتاج إلى تحصيل جديد، ولك أن تعجب حين ترى طاهرَ أبا فاشا لايترك سهرات الأندية الليلية كل مساء مع فريق من أدباء جيله، ثم يأتى الامتحان فيفوق من لاهَمَّ لهم سوى المذاكرة والتحصيل طيلة النهار وزُلَفًا من الليل على مدى العام الطويل.

وأذكر أنّ الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد قال عن الشاعر الفكاهى الظريف الأستاذ حسين شفيق المصرى رائد الشعر «الحلمنتيشى» فى مصر: «لو تقدّم به الزمن لكانَ نديمًا على بساط هارون الرشيد». وهو قول ينطبق على طاهر أبى فاشا كما ينطبق على حسين شفيق، بل ربّما كان انطباقه على طاهر أتم وأوفى، لأنّه عالم، راوية، مؤرخ، ومجلس الرشيد كان يرحب بذوى الرواية والعلم كالأصمعى، فأبو فاشا أديب عالم نديم.

وناحية هامّة فى طاهر أُشير إليها، هى أنه كان ذا حساسية شديدة فيما يتعلّق بكرامته الشخصية، على غير المعهود ممن نعرف من ظرفاء عصره، فمحمد مصطفى حمام، وعبد الحميد الديب، ممن اشتهروا بالظرف والشاعريّة، ولكن حَمام كان يسأل أصدقاءه المعونة، فإذا لم يستجيبوا سكت وعف، والديب كان يلح ويلحف، فإذا وجد إعراضًا هجا وأسف، ولا يغنيه أن يُعطَى مرّةً ومرّة، بل يثقل حتى يغيظ، أمّا طاهر فكان سيّد نفسه، وكان من الوزراء والكبراء من يخلصون له المودّة والحب بدون أن يسمح لهامته أن تخفض دون هاماتهم، وهم يعرفون ذلك عنه، فيزدادون له إكباراً، وبه إعجابًا، فهو مضرب المثل فى الترفُّع والإباء.

على أنّى ألحظ مشابهة كبيرة بين حافظ إبراهيم وطاهر أبى فاشا، فقد كان حافظ أمير الظرفاء فى عصره، يملأ المجلس طربًا وأنسًا، ويتهافت الأدباء على لقائه فى الندوات الخاصّة، ليظفروا بما يطربهم من الفكاهة الحلوة، والنادرة الرقيقة، ولكنك تقرأ شعره فتجده - إلاّ فى الأقل الأندر - بعيدًا عن الفكاهة الطريفة، متسربلا بلباس الجد الصارم، وكذلك طاهر أبو فاشا، يملأ المجلس فكاهة وطربًا، ثم تقرأ دواوينه الشعرية فتجد الفارق البعيد بين النديم والشاعر، ولعل الشاعرين كانا يحسّان ألمًا دفينًا يحاولان التنفيس عنه فى مجالس السمر، فإذا خلا أحدهما إلى نفسه، وواجه الصمت الكئيب، والعزلة القاسية، غلبه أساه، وإذا كان الشعر الجيد لاينظم إلا فى الخلوة الهادئة، فإن روح الشاعر الحقيقية هى التى تسيطر عليه حينئذ، ولست أعنى أن الرجلين كانا يلبسان غير لباسهما فى مجالس السمر تزويراً وتدليسًا، ولكنهما كانا يحاولان الهروب من الضيق المتأزّم، فلا يجدان غير التنادر والظرف، وهما ممتّعان بوسائلهما الأصلية من عذوبة الروح، وسرعة البديهة، وإتقان القفشات.

قصيدة مرحة:

ومن القلة النادرة التى تحمل رُوح الفكاهة فى شعر أبى فاشا (قصيدة بحر مويس) المنشورة فى ديوانه (راهب الليل) وبحر مويس يشق مدينة الزقازيق التى

كان أبو فاشا طالبًا بمعهدها الدينى، وقد زارها بعد ربُع قرن من أيام الطّلب، فتذكّر أمسه الغابر بالمعهد الثانوى، وطاف بخياله طيف أساتذته الفحول أيام كان أساتذة المعاهد الدينية شيوخًا أجلاَّء يقرءون الحواشى، ويشرحون المتون، ويتحدثون بالعربيّة الفصحى، كما تذكر حياة التقشف الزاهد التى عاشها الطُّلاَّب، إذ يكتفون بيسير الزاد، وأشهى ما يُطْعَمُونَهُ هو الأرز المفلفل ينصبُّ عليه الطلاب قبل أن يبرد فيلتهمونه ساخنًا لا ذعًا! وإذا حان موعده تركوا حاشية السعد، ومتون الفقه والنحو، وعجّلوا بالتهام الطعام قبل الفوات، إن روح الفكاهة تشيع فى القصيدة ولكنّ نسجها البحترى ألبسها جمالاً رصينًا تهفو إليه النفوس، ولنستمع إلى طاهر إذ يقول:

ياسقى الله بالزقازيق أيّا	مَ صباى النواضر العطراتِ
مَنْ تُرى أيقظ الخواطِرَ حولى	وأثارَ المطوىّ من صفحاتى
وأعاد الأيّام والمعهد السّا	مق مسروجا بالنجوم الهداةِ
الفحِول الأعلامِ أمثلة الزهد	و شيخانهِ العدول الثقاتِ
ورفيق كأنه هامش الشّرح إذا صا	ت يمضغ القافاتِ
السرّاج العليل يشهق فى محر	ابه والبلى يروح ويأتى
ونضِيج مفلفل لاذع الطعمة	يشوى أصابعى ولهاتى
هوزاد المسافرين بلازادِ	وقوت المحتاج للأقوات
يتصبّى المجاورين فنصبّ	عليه كالفاتحين الغزاة
اترك المتن، واطوِحاشية السّعد	وأدرك شيخون قبل الفوات
أنا مِن مازن، ومازنُ منّى	والليالى القمراء من صدحاتى

طاهر والشعر:

نشأ طاهر شاعرًا مطبوعًا، وأخرج من الدواوين عدة أجزاء فى عهد الطلب، وانتشرت له سمعة ذائعة فى آفاق الشعر، وكان المظنون أن نفسه الشعرى سيمتد حتى يصبح من أعلام الشعر البارزين، ولكنّ حلقات ألف ليلة وليلة التى استهلكت أوقاته على مدى ثلاثين عامًا فى الإذاعة ثم فى التليفزيون قد صرفته إلى المكسب الرابح، والصيت المدوّى، ولا أنكر أن ليلات أبى فاشا ذات فن ناقد، وتصوير معبّر، إذ كان يعالج شئون الحاضر فى قصص الماضى معالجة ذكية بارعة، وماحازت هذه الحلقات إعجاب السامعين إلا لحيويتها الدافقة، وصورها الحيّة النابضة، ولكنّ ذلك كلّه لايفى بما خسره طاهر حين ترك رياض الشعر، وهو بُلْبُلها السّاحر، وقد سجّل هذه الحقيقة أكثر من مرّة فى أحاديثه الإذاعيّة، والفنان لايملك أمره فى أحيان كثيرة، حيث تسيّره الأقدار.

وطاهر ظريف بمَايفعل، وبما يروى معًا، فهو قبل كل شىء قارئ ناقد يحفظ تراث العرب فى النوادر، ويروى مايحفظ فى مجلسه بأسلوبه الخاص، فيزيده رونقًا على رونق، وأذكر أننا تداولنا ظرفاء الماضى ذات ليلة فذكرت له فيمن ذكرت أبا السائب المخزومى، فعضّ على شفته بناجذه، وقال: لقد تردد اسمه أمامى فى صفحات متفرقة، وإياك أن تبحث عنه لتجلوه قبلى، لأنه صديقى، ومضت الأيام، وتشاغل طاهر عن أبى السائب، وتركتُه له فلم أخصّه بدراسة، فهل أعود؟

هذا عن روايته الأدبيّة وظرفه بما حفظ، أمّا ظرفه بما فَعَلَ من النوارد فأغربُ وأعجبُ، لأنّه نشأ مرحًا بفطرته، يكاد يطير من خفة روحه، وما صاحبه أحد إلا شهد من طرائفه العملية ماتبتسم له القلوب قبل الشفاه، فليت أصدقاءه يحرصون على تسجيل ما يعلمون، إذ لم يكن هذا النديم الفكه متكلفًا يتصنع، بل كانت موافقه الضاحكة، ومفارقاته الباسمة فيض فنان مطبوع، تصدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس، والعطر عن الورد، وقد صحبته فكاهته من فجر حياته حتى حان قطافه، وسأحاول أن أتتبع نذرًا منها وفق ترتيبها الزمنى، وهى محاولة تقدّم الضئيل القليل ليدل على الكثير الحفيل، وحسبى ذاك.

في معهد دمياط:

كان والد طاهر تاجرَ أحذية يريد أن ينشأ فتاه كما نشأ، ولكن الطفل الناهض تعلم القراءة سريعًا، وحفظ القرآن، ثم التحق بجامع البحز، مقر المعهد الدينى بدمياط، فلفت إليه الأنظار بتفوقه الذى لم يفارقه طيلة حياته، وكان الطلاب يجلسون بالمسجد على الحصير، فأراد أحد الأثرياء أن يُحضر لولده الطالب (شلتة) يجلس عليها، ورأى فضيلة شيخ المعهد الأستاذ الكبير عبد الله دراز أن ذلك امتياز فريد لايليق، فعرض الوالد الثرىّ أن يحضر أربع (شلتات) تُوزّع على من يختار شيخ المعهد من النوابغ، وكان طاهر فى السنة الأولى أول فرقته فاختير، وسُلّمت له (الشلته) ولكنه فى اليوم الثانى لم يحضرها، وجلس على الحصير، فاستجوبه المسئول عن النظام، فقال طاهر: إنه باعها وصرف الثمن!! وأحضره شيخ المعهد، وكان أبًا عطوفًا فسأله: كيف تبيع ماليس لك؟ فقال طاهر: لقد قلتم إنّها لى، وتسلمتها لتصبح ملكى، فأردت أن أتثبت من ذلك؟ لأعرف مبلغ صدقكم! وكانت النادرة الأولى للطالب الصغير.

فى معهد القاهرة الثانوى:

أتمّ طاهر تعليمه الابتدائى، وقد ظهرت بواكير شاعريته، فذهب إلى المعهد الثانوى بالقاهرة، ولم يمض نصف عام حتى مات شوقى أمير الشعراء، فاجتمع طلاب المعهد بالفناء، وخطب فيهم طاهر داعيًا للذهاب كى يشيعوا الشاعر الكبير، وفوجىء شيخ المعهد بما عدّه خروجًا على النظام، فرفع الأمر إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، طالبًا فصل الطالب، واستجاب الشيخ الظواهرى، فصعب الأمر على طاهر، وتوسّل بالدكتور محمد غلاب صاحب مجلة النهضة الفكرية، فشفع ملحا، ولكن شيخ المعهد أصر، فكان الحلّ أن ينقل طاهر إلى معهد الزقازيق.

وفى أيامه بالقاهرة، ذهب الشاعر الناشئ لزيارة الأهرام وأبى الهول، فصادف

أن رأى سائحة أمريكية حسناء تقف أمام التمثال متعجبة، فبهره منظرها، وأنشأ قصيدة قال فيها:

يكاد أبو الهول لولا الجلال يُعربد مِمّا رأى حولَهُ
وكم سبُعٍ قُدّ من صخرة يحبّ الجمال ويصبو لَهُ
وأوهمها أنه كالجماد لتأمنه فتطيل الوقوفْ
ولولا مخافتهُ أن تخاف لقام يدقّ لها بالدفوفْ

والتصوير فى البتيين الأخيرَيْن رائع، وقد عرض طاهر قصيدته على بعض زملائه فحسدوه، ورموها بالضعف، فسألَ مَن أكبرُ شاعرٍ فى مصر بعد شوقى؟ فقيل: إنه خليل مطران، فسارع الشاعر المبتدئ للقائه وعرض عليه القصيدة، فصفق شاعر القطرين معجبًا، فقال له طاهر: اكتب بخطك أن القصيدة جيّدة، فاستجاب الشاعر الأكبر، ونشأت بينهما علاقة أدبيّة ممتازة، كان من أثرها أن كتب خليل مطران مقدمة ديوان (الأشواك) الذى أصدره طاهر فيما بعد.

فى معهد الزقازيق:

انتقل طاهر إلى معهد الزقازيق، وطارت له شهرة فى الأدب نظمًا ونثرًا، ولكن عبثه الفكاهى لم يتركه، فقد تقدّم يؤم الطلاب بمسجد المعهد فى صلاة العشاء، وعثر به القول، فأخطأ فى الآية الكريمة التى تلى الفاتحة، ثم أخطأ فى الركعة الثانية، فشغب عليه بعض السامعين، فاندفع مغيظًا وترك الصلاة، وبلغ الأمر شيخ المعهد فأنب الطالب دون أن يسيئه بعقاب، ولكن أحد المدرسين بَرِمَ بما صنع المصلّى النزق، وتوعده بالسقوط فى الامتحان الشفوى آخر العام، وفوجئ طاهر بأنه سيمتحن فى لجنة هذا المتوعد المغيظ، فامتثل، ولكنّه وقف على الكرسى دون أن يقعد، وجعل يصرخ بالإجابة، فانزعج الحاضرون، وأقبل الأستاذ محمود أبو العيون شيخ المعهد إذ ذاك، فقال له طاهر: هذا الشيخ قد حلف أنه سيسقطنى،

فأردتُ أن أجيب بصوت مرتفع ليسمع الناس جميعاً ويعرفوا صحة الإجابة، فضحك أبو العيون، وحضر النقاش جميعه، إذ أجاب الطالب ببراعة، وفاز فى الامتحان.

فى القاهرة ثانياً:

عاد طاهر إلى القاهرة بعد أن نال الشهادة الثانوية، والتحق أوّلا بكلية اللّغة العربية حيث قضى بها عامًا قبل أن يغادرها إلى دار العلوم، ومن طرائفه المتواترة أنّه ذهب ذات صباح للكلية، وهو يلبس الجلباب والطربوش، فأنكر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية خروجه على الزى المألوف، وألزمه بأن يحضر غداً بالعمامة والكاكولة، وفوجىء الطلاب فى الصباح التالى بطاهر يأتى إلى الكلية وقد لبس الكاكولة على جسمه العارى، ووَضع العمامة على رأسه قائلا: إن الشيخ حمروش طلب حضورة بالكاكولة والعمامة فقط ولم يذكر شيئًا من الملابس الأخرى، وعلا الهرجُ، وأحسّ الطالب أن الشيخ سينتقم من هذا العابث، فخرج سريعًا قبل أن يمثل بين يديه.

وفى دار العلوم ذاع له صِيتٌ بالأدب والفكاهة، وقد جاءه زميله الطالب محمد هارون الحلو حزينًا يعلن أنه رسب فى الامتحان ويخاف غضب والده، والطالب دمياطى كطاهر، وكانت أسماء الناجحين من الطلاب تنشر حينئذ فى جريدة البلاغ اليومية، ولطاهر صلة بها، فقال له طاهر، لابأس، فسأحضر من الكلّية قائمة الطلاب، وسأدرج اسمك بين الناجحين، قبل أن أذهب بها إلى جريدة البلاغ، فرحّب الحلو بالفكرة، وكتب طاهر اسم صاحبه زاعمًا أنه سقط سهواً، واستدركته إدارة الكلية، وظهرت البلاغ لتنقذ الطالب من غضب أبيه، ويضيق المقال عن سرد دعاباته مع أساتذته فى دار العلوم، ومن أظهرهم حينئذ الأديب الكبير محمد هاشم عطية الّذى ازدحم صدر طاهر بذكرياته عنه.

فى منزل القاياتى:

يتحدث طاهر دائماً عن أستاذه الشاعر الكبير الأستاذ حسن القاياتى، لأن منزله

العامر بالقاهرة كان مأوى الطلاب وذوى الحاجات، كما كان ندوة كبرى يؤمها كبار رجال السياسة والأدب والفن، وفى هذا المكان الرحب عرف طاهر أساتذة مصر الكبار، من أمثال منصور فهمى، وعبد العزيز البشرى، وزكى مبارك، والهراوى، وأحمد الزين، وأحمد ماهر، ومحمد صبرى أبو علم، وقد روى طاهر عن الشاعرالقاياتى نوادر رائعة لوجمعت لأمتعت وبهرت، فالقاياتى عَلَمٌ فى جيله، وكان عضواً نابها بمجمع اللّغة العربية، وعضواً بمجلس النواب، وله بزعيم مصر الرئيس الجليل مصطفى النحاس صلة وثيقة.

يقول طاهر - فيما يرويه عن القاياتى - لقد كان الأستاذ الكبير حسن القاياتى فى زيارة الزعيم الجليل بمقر مجلس الوزراء، فحضر بعض الوجهاء، وقَدَّمَ للزعيم خاتَمًا يحملُ صورة رمسيس فى فصّه، وكانت الهدية تحفة فنية رائعة ذات مدلول تاريخىّ، فخطر للقاياتى أن يرتجل أبياتًا قال فى نهايتها مخاطبًا مصطفى النحاس:

أيملكُ رمسيس هذى البلاد وتملكُ رمسيسَ فى أصبعك؟

ولكنّ النحاس قال بصوت مرتفع: أستغفر الله ياشيخ حسن، المُلك لله وحده! مَنْ نحن؟

قال القاياتى وقد أعجبنى نقد الزعيم لأنه أصاب سداداً، وصحَّح خطأ، هكذا قال طاهر.

أصدقاء كثيرون:

لطاهر أصدقاء كثيرون يعتزون بصداقته، ويعرفون من نوادره الضاحكة المضحكة ما نود أن يُسجّل قبل أن يضيع، ومن طرائفه معى أنه كان يزور المنصورة سنويا ليقرأ الفاتحة على قبر زوجته الراحلة، فَفوْجئت به يأتى إلى كلية اللغة العربية حيث أعمل، ويقول فى ابتسام: «المشوار راحْ أوَ نْطَة» قلتُ: لماذا؟ قال: حضرت لزيارة قبرها كما تعلم، فوجدت شابا وشابّة يتناجيان على مقربة من الضريح، فرفضت أن أزعجهما، وقلت: لقد ضاقت بهما المنصورة، فلم يجدا غير

المقبرة، ثم آتى من القاهرة لأجعل المقبرة تضيق بهما أيضًا! مستحيل، فقلت: هوّن عليك، سأزور القبر نيابة عنك، فقال فى جدّ: احلف باللّه، فحلفت، فقال إذن أسافرَ وأنا مستريح!

وطرفة أخرى: ذهبتُ ذات ظهيرة إلى منزله بالعباسيّة، والوقت وقت غداء، فأحضر كيلو من التفاح، وقال هذا غداؤك، أما أنا فعندى رُبع دجاجة صغيرة سآكلها مع نصف رغيف، فقلت: موافق. وبعد أن أكلنا وتناولنا الشّاى، سألنى قائلا: أينا الكاسب؟ أنا أم أنت؟ قلتُ: أنا، قال: كلا، لقد ضحكتُ عليك، أنت ستجوع بعد خمس دقائق لأن التفاح لايشبع، أما أنا فلن أجوع إلا بعد العشاء!

هذا قليل من كثير! وقد أعود إلى حديث طاهر فى غير هذا النطاق.

* * *

الشيخ محمود أبو العيون

كنت أقرأ مقالاته الاجتماعية فى أمهات الصحف، وأرَى قيامه بالمناداة بالإصلاح الاجتماعى، ساعيًا إلى الجهات المسئولة، وكأنّه وحدهُ جماعةٌ ذاتُ أعضاء ولجان، كنتُ أرى ذلك فأتمنى أن أحظى بلقائه على شوق، ثم جئتُ إلى القاهرة طالبًا بكلية اللغة العربيّة، فتوثقتْ صلتى بالأستاذ الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب بالكلية، ومن حديثه علمتُ أنه صديق حميم للشيخ أبى العيون، إذ كَانَ من خُلصائه فى معهد الزقازيق الدينى، ثم انتقلا معًا إلى القاهرة فزادتِ الرابطة الأخوية توثّقا واستمساكًا، فقلت له: إنّى أريد أن أسعد بزيارته معك، فقال: إن عليه الدور فى زيارتى، وحين أُطالبه وأحدد الميعاد سأدعوك.

وحانَ اللّقاء، فوجدتُ الأستاذ أبا العيون سهلاً وديعًا، يسألُ عن أبناء الأستاذ واحدًا واحدًا، ويُقَبِّلُ الطفل الصغير، ثم لايطلب غير الشاى بدون سكر، وهو يسترسُل فى حديث عن مشكلات الأزهر، إذ كان حينئذ سكرتيرًا عاما له، وله رأيُه المستقل الذى يلقَى معارضات جمّة، فيضيقُ بهاحينًا، ثم يتساهل، وقد جاءَ ذكر الحج إلى بيت الله الحرام إذ كُنّا فى موعده بشهر ذى الحجة، فقال الشيخ: كم صَمَّمْتُ على الحج، وأخذتُ أدّخِرُمن راتبى الشهرى ما يتجمع شيئًا فشيئًا لأستطيع الرحلة، ثم تأزفُ مناسبة شاقّة فيضيع المال المدَّخر فى الضروريات، فصبرًا صبرًا، إذ لاحج لغير القادر.

وحين انتهت زيارة الأستاذ وخرجَ مُوَدَّعًا بالحفاوة والإجلال، قلتُ للأستاذ أحمد شفيع: كنت أظن الأستاذ أبا العيون يكسبُ فوق راتبه مما ينشُر فى الأهرام

وصحف دار الهلال، ومختلف المجلاّت الذائعة، وها هوذا يدّخر من راتبه، فقال الأستاذ أحمد شفيع: إن الرجل مجاهدٌ مصلح، يسعى إلى نشر دعوته الإصلاحية، ومثُل هذا الداعية لاينافق ولا يداهن، وقد يأتى بما يخالف منحى الجريدة، ولكنها تنشر مقالاته استجابةً لحبّ الجمهور، وفى هذه الحالة لايكسب شيئًا، وهو سعيدٌ مغتبط، لأن الأجر الأخروى مضمون غير ضائع.

فى مصر الفتاة:

قرأتُ دعوةً عن محاضرة تدور حول الزواج وحقوق المرأة للأستاذ أحمد حسين، فسعيتُ إلى استماعها، وأنصتُّ إلى معلومات غزيرة قالها الأستاذ أحمد حسين فى فصاحةٍ مؤثرة، لأنّ له مؤلّفًا فى هذا المجال كتبه تحت عنوان (الزواج والمرأة)، وبعد انتهاءِ المحاضرة نهض أحد السامعين مُعقّبًا، فقال: إنّ الأستاذ أبا العيون هاجمَ كتابَ (الزواج والمرأة) وهو لايدركُ مرمى المؤلف، ولا يصلُ إلى مستواه! وما كادَ المتكلم ينطقُ بذلك، حتّى قامَ الأستاذ أحمد حسين وقال معترضًا: ماذا تقول أيها الأستاذ: إننى تتلمذت على مقالات الشيخ أبى العيون، وأعدّهُ من زعماء الإصلاح الاجتماعى المستنيرين، وإذا كانَ فضيلته قد خالفَ فى أمورٍ لا يراها صوابًا فى رأيه، فهو عالمٌ من علماء الإسلام الكبار، وهو أستاذٌ وأنا تلميذ!

كانت لهجة الأستاذ أحمد حسين تدل على نُبْلٍ وفضل، فحمدنا له جميعاً، إنصافه وسماحته، واضطر المعّقب إلى أن يقطع حديثه منسحبًا، ولكنّى - وأكثر السامعين - لم ندرِ شيئًا عن اعتراضات أبى العيون ولا نعرف أقالَها فى ندوةٍ ليلية، أو نشرَ عن الكتاب مقالاً فى صحيفة لم نطالعها، فظلّ فكرى مشتغلا بذلك، لأنّ حديث الأستاذ أحمد حسين فى محاضرته لم يخرجْ عن المنحى الإسلامى، فهو إذن يلتقى مع الشيخ فى طريق واحد! ففى أى نقطة تحدد الخلاف؟

وكان من عادتى أن أفضى إلى الأستاذ أحمد شفيع بما يجذبُ انتباهى من آراء أسمعها فى الندوات الأدبيّة، التى لايسمح وقته بحضورها، فذهبتُ لأحدّثه بما كان

فى ندوة مصر الفتاة، ثم أعلنتُ رغبتى فى لقاء الشيخ ليفضى إلينا ببعض مايراه، فابتسَم الأستاذ أحمد شفيع، وقال: وجبت زيارته، وسأحدد الموعد معَه، لأن الدور عليه!

وفى منزل الأستاذ دار الحديث فى شتّى اتجاهات، ورأيت أن أسأله عن اعتراضاته على مُؤَلَّفِ الأستاذ أحمد حسين، فقال فى حزم، الكتابُ جيّد، جيد، وهو من خير ما قرأتُ فى موضوعه، وقد نشرتِ عنه مقالا أؤيدهُ فى أكثر اتجاهاته، وأعارضه فى مسألة أو مسألتيْن.

قلت: ماهما؟ فقال الشيخ: أتذكّر يا بنى أن الأستاذ تشدّد بعض الشىء فى مسألةِ تعدد الزوجات حتى كاد يجعلُ التعدد من المحرمات، وأقولُ كاد لأنّه أباحه حيثَ يجب أن يكون، ولكن القارئ المتعجل قد يفهم من الأستاذ مالايُريد، فأردتُ أن أوضّح أمرَ الإباحة بجلاء، ليكونَ رأى الأسلام واضحًا لا لبس فيه، كما أنّه أوجب أن يكون الطلاق أمام القاضى، بحيثُ لاينعقد بدون محكمةٍ ترى وجه الصواب فى الفراق، وذلك سلبٌ لحق أكّده الشارع لأمور اجتماعية لامَناصَ من مراعاتها، إذ ليسَ كل ما يقع بين الزوجين مما يجب أن يُذاع فى محكمةٍ ذات قاض ومحامين وشهود! والحقّ أحقّ أن يُرَى.

ثم قال الأستاذ: وإنى بعد هاتيْن المسألتين أرحّب بكتاب الأستاذ، وأدعو إلى ذيوعه وانتشاره، لأن بعض القراء لايرحبون كثيرًا بآراء (المشايخ) فإذا قامَ الأستاذ أحمد حسين بإذاعةِ ما يقول (المشايخ) وتأكيده، فهذا مغنم كبير.

لقاء طريف:

كان بعض طلاب الماجستير بكلية الآداب قد تقدّم برسالة إلى قسم اللّغة العربية بالكلية تحت عنوان (الفنّ القصصى فى القرآن الكريم) وقد أخطأه الصواب فيما انتحاه، حيْث ذهب إلى أنّ القصص فى القرآن عملٌ فنى خاضعٌ لما يخضع له الفّن من خَلْق وابتكار، من غير التزامٍ بصدق التاريخ، ومحمد ﷺ فنّانٌ بهذا المعنى، ثم ذهبَ بناءً على هذا الرأى إلى أنّ الإجابة التى يوجهّها القرآن ردا على

أسئلة المشركين لَيْسَتْ واقعيّةً ولا تاريخية، وإنّ استماع الجن للأخبار السماوية مما ينحوُ منحى القصة كذلك قصّة موسى وصاحبه فى سورة الكهف لم تعتمدْ على أصل واقع من الحياة، وأمثال هذه الاستنتاجات الخاطئة المخطئة تثيرُ النفوس، فرفضَ الأستاذان الفاحصان الرسالة، ودافَع عَنها الأستاذ المشرف فى الصحف اليومية بما تركَ صخبًا و ضجيجًا، وكنتُ ذات ضحى أمام إدارة الأزهر، فوجدتُ لفيفًا من طلاب الكليات الأزهرية فيما يشبه مظاهرةً، يهمّون بدخول الإدارة، فسألتُ فقيل إنهم يطالبون شيخ الأزهر بالاحتجاج على الرسالة التى أحدثتْ لغطًا فى المجتمع المصرى، فتوجهتُ مع الزملاء، لأرى ماسيكون، فلم نجد شيخ الأزهر بمكتبه، حيثُ خرج مع الوكيل والمدير، إلى اجتماعٍ طارئ، ولم يبق إلا سكرتير الأزهر فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون، فتوجه إليه الطلاب ثائرين، وأحسّ الشيخ بالتجمع قبل أن يدْخلوا عليه مكتبه، فانتظرهُم على الباب، وقالَ فى بشاشة: مكتبى صغير لايتحمّل أكثر من عشرة طلاب فانتخبوا من بيْنكم مجموعةً تتحدّث عَمّا تريدون، وقد لمحنى الأستاذ بينهم، فأشارَ إلىَّ، فتقدمتُ إلى مكتبه مع الزملاء الآخرين، وتهيأ الشيخ للحديث فقال:

أعرفُ غيرتكم على القرآن أوّلا، وعلى الحقائق العلمية ثانيًا، وهذا مصدرُ اعتزازى بكم، وترحيبى كلَّ الترحيب بهذا الاجتماع العلمى المفيد، وأحبّ أن أخبركم أنى بحثتُ الموضوع من كافة وجوهه، .إذ أرسلت إلى صديقى الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب أستوضحُه الأمر، واثقًا من دينه وعدله وتحرزه من شبهات الإلحاد، وأعلنُ إليه أنّ الأزهر ينتظر نتيجةَ الموضوع، على أحر من الجمر. ثم فتحَ دُرج المكتب، وقرأ لنا صورةً من الخطاب، منتقلا إلى ردّ الدكتور عزام على فضيلته، فى خطاب آخر يقولُ فيه الدكتور العميد ما ملخصه: إنّ طالبًا مُخطئاً تقدّم برسالةٍ ذات شططٍ إلى الجامعة، فأدرك الدكتور ان الفاحصان ما بالرسالة من شطط جاهلٍ، ورَفَضا قبولها، ومِن هنا أصبحَ الطالب راسبًا فى مادته! والجامعةُ قد لزمت طريقَ الصواب حين تركتِ الجمهور أمامَ

تقريرين علميّين يرفضان الرسالة بأسانيد لاتقبل الجدل، فهل فعلت الجامعة ما يُلام حتى تُواجه بالنقد، وتعد مسئولة عن جهل طالب أوقعه تسرّعه فى الشطط، فسقط فى الامتحان؟!

سمعنا ردّ الدكتور عزام، فأدركنا أن الأمور قد وُضعت فى نصابها العادل، وأنّ الثورة على كلية الآداب ليستْ فى موضعها، وقد انتهزَ الفرصة شيخنا أبو العيون فقال: أنتم نُبهاء، وفيكم من يستطيع البحث العلمى، فهل أجدُ منكم من يقرأ تقريرى الأستاذيْن الفاحصيْن، وهما يتضمنان بعضَ التخاريف المخطئة ليقومَ بدحضها فى مقال نقدىٍّ أنشرُه له بمجلة الأزهر! هنا يكوُن الاحتجاج العلمى على وجهه الصحيح! لا أن نقتصر على التجمع والهتاف.

ثم قالَ الأستاذ أبو العيون: أذكر لكم طرفة مماثلة وقعت منذ سنوات، فقد أخرج الدكتور زكى مبارك كتابًا زعم فيه أن كتاب (الأم) الذى ألّفه الإمام الشافعى رضى الله عنه، ليس من تأليفه، وإنما هو تأليف تلميذه البويطى، وجاءَ الكتابُ الكبير الضخم منسوبًا للإمام الشافعى على سبيل الخطأ، وقد أبدى الدكتور زكى مبارك من الأدلة ما يقبل النقض، وما شاع كتاب الدكتور، حتّى تجمهر طلاب القسم العالى بالأزهر محتجين، وذهبَ فريقٌ منهم إلى مشيخة الأزهر، وكانَ الأستاذ الكبير الشيخ حسين والى رحمه الله موجودًا ساعتئذ، فاجتمع بالطلاب، وصاح بهم: هيّا لنتناقش. واستمعَ فى اهتمامٍ إلى كل ماَ قالوه، ثم واجههم بقوله: أنتُم تعرفون أن الدكتور مبارك قد أخطأ! وأريُد من نبهائكم أن يقرءوا الكتاب بعناية، وعلى من يقدر على الرد أن يأتينى بنقد يعصف بالكتاب، وسأنشره عاجلاً فى الصحف اليومية، هذا هوُ السبيل، يا أبنائىَ! ثم قال الشيخ أبو العيون: وقد انتظر الشيخ حسين والى فلم يجدْ ردا قُدِّم إليه، فقام هو بكتابة تحقيق علمى رائع نسف ما اتجه إليه الدكتور مبارك، وجعل المسألة فى خبر كان! استمعنا للرجل الكبير، وانصرفنا حائرين..

حادث مشهود:

فى سنة ١٩٤٧ حصل تصادم حَادّ بين طلبة معهد القاهرة الدينى ورجال الشرطة، وأتى النبأُ إلى الشيخ أبى العيون، وكان بمكتبه بإدارة الأزهر، حيثُ

يعمل سكرتيراً عاما للجامع الأزهر، فأسرعَ إلى تهدئة الموقف والتحم بالبوليس، ليزجرَه عن مُلاحقةِ الطلاب، ولكنّ بعض الضبّاط لم يعرفوا مكانة الشيخ، فهجموا عليه، وارتمَتْ عمامتُه على الأرض، وسقط لهول ماجُوبهَ به، ثمَّ حضر وزير الداخلية، فعلم بما كان فأمرَ بانسحاب الشرطة، ورجَع الشيخ إلى بيته، وظلّ معتكفًا، وأعلَن أنّه لن يذهب إلى مكتبه حتّى يُحققَ مع المعتدين، ويعتذرَ رئيس الوزارء، وأضربَ الطلاب عن الحضور، وتحدثت الصحف بما لحق الرجل الكبير من إهانة ليس من أهلها، ورأى النقراشى باشا ـ وكانَ رئيس الوزراء ـ أن يترضّى الشيخ بنفسه، فسارعَ إلى الاعتذار، ورجَع الشيخ إلى مكتبه موفور الكرامة.

وقد ذهب نفر من الطلاب إلى تحيته بعد عودته، وكنتُ من بينهم، فسمعتُ الشيخ يقول: لقد تعرضتُ فى ثورة سنة ١٩١٩ إلى اعتداء البوليس، وقد وُوجِهتُ بمن يلطموننى من الخلف حتى سقط العَلَم من يدى، وأنا فى طليعة المتظاهرين، فجابهتُ المعتدى بأفظع مايُقال، ولم أستأ مِنْ ذلك، كما استأتُ هذه المرة، لأنّ المعتدى فى سنة ١٩١٩ كان إنجليزيا مستعمراً، أناصبُه العداء، ويحمل لى البغضاء، أما المعتدِى اليوم فمصرى من أبنائى، وأنا فى سن أبيه، وقد لمح العمامة على رأسى فدلّت على أنى من شيوخ الأزهر، فكيف أُقابل منه بمالا أنتظر!! وما جئت إلا لأهدئَ الموقف، وأصرف الطلاب، فكانَ حديث الشيخ أليمَ الوقْع على نفوسنا، إذ لايجوز لمثله أن يُقابَل بالاعتداء ممّن يعتبرهم أبناءه، ويرى نفسه أباهم الحنون.

فى مجلة الأزهر:

حدثنى صديقى الأستاذ محمود الشرقاوى فقال: حينَ اختير الأستاذ مصطفى عبد الرازق شيخًا للجامع الأزهر، رأى أن مجلة الأزهر لا تُعبّر عن الثقافة العلمية التى يدرّسها أساتذة الكليات، بحيث لايكاد يوجد فارقٌ بينها وبين المجلات الإسلامية التى لاتنتمى إلى هيئةٍ علمية كبيرة، فعقد عدة اجتماعات لتطوير المجلّة، ورأى أن يضم إلى الإشراف عليها الأستاذ محمود أبو العيون، زميلا لرئيس

تحريرها المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى! ثم اقترحَ أن يكتب الأستاذ أبو العيون عدةَ خطابات لمن يتّسم فيهم القدرة على كتابة البحوث العلمية، لُيشاركوا بنتاجهم فى تحرير المجلة، كل وَفْق تخصصه، ولكنَّ الأستاذ أبا العيون رأى أن تُوجه الخطابات باسم الأستاذ محمد فريد وجدى، لأنه مفكرٌ إسلامىٌّ كبير، ويجبُ أنْ يُحفظ له حقّه، باعتباره رئيسًا للتحرير، فقالَ الشيخ مصطفى: أنا أقدر وجهة نظر أبى العيون، ولكنْ يمنَع منها أنّ الأستاذ فريد لايعرفُ من أساتذة الكليات غير القليل، وأبُو العيون أزهرى عريق يعرف كرام الكاتبين، فقال أبو العيون، سأكتب أسماء من أراهم ذوِى مقدرةٍ كتابيّة، وأقدّمها للأستاذ وجدى، ليكتب هو الرسائل بتوقيعه، ولم يكن الأستاذ وجدى حاضراً عند النقاش، فشكر الأستاذ الأكبر وجهة نظر أبى العيون، وقال له: لايعرف قدر الفضلاء إلا فاضل! وفى هذا الموقف على بساطتهماينبئ عن روح عالية، ونبل أصيل..

* * *

الشاعر الفكه إبراهيم الدباغ

كنا فى ندوة الأستاذ الأديب السيد حسن القاياتى فدار الحديث عن شعراء العصر، فذكر القاياتى أن زميلَه بالأزهر الشاعر النديم إبراهيم الدباغ يعتزلُ الناس منذ ثلاثة أشهر فى مثوى (دار السلام) بالحسين، وقد اعتكفَ فى حجرته لايخرج منها إلاً للضرورة القصوى، ويأتيه الغذاء المتواضع مرّة واحدة فى اليوم، وأنّه حاولَ أن يثنيه عن عزلته فلم يفلح، ثم تطلّع إلينا القاياتى متسائلا: أفيكُم من يذهب إليه متودّدًا؟ ويؤانسه بذكر ما يعرف من مواقفه الأدبيّة، وقصائده الشعرية، ومقالاته السياسية، فإنه يستطيع بذلك أن يثبت له أنه مذكور غير منسى، وأن ناشئة الأدب يذكرونه اليوم كما كان يذكره زملاؤه بالأمس؟

قلت للسيد حسن القاياتى: أنا لا أعرف عن الرجل إلا ما قرأته فى ديوان الطليعة الذى جمع ألوانًا من أدبه، وقد قدّمَه الشاعر الكبير خليل مطران فذكر من تاريخ حياته، نشأته فى يافا بفلسطين، وانتسابه للأزهر، وتلمذته للصفوة من رجاله، من أمثال محمد عبده، وحسن الطويل، ثم ما قام به من إصدار بعض الصحف والمجلات، وقال زميلى الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد: إنه يعرف ما أعرف، فقال القاياتى: عليكما بزيارته غدًا إن شاء اللّه، وسأحدثه فى التليفون بأنكما تشفّعتما بى فى تمهيد ذلك اللّقاء، وسيستريح للقائكما إن شاء اللّه.

كان الوقت مساءً، فانطلقتُ على عجل لأتصفح (الطليعة) محاولاً حفظ ما يروق من أبياتها، وقضيت ليلة فى قراءة الديوان، فعرفتُ عن الدباغ ما ينتحيه من أسلوب فى النظم، وما يولع به من أغراض شعرية كانت ذائعة فى عصره،

واخترت أبياتًا أعجبتنى فى السياسة والاجتماع والرثاء، ثم حان الموعد، فوجدت الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد ينتظرنى بمسجد الحسين، فقلت: هيّا.

فى دار السلام:

لم نكد نسأل صاحب اللوكاندة عن الأستاذ الدباغ، حتى قال لنا، أنتما فلان وفلان، إنه فى انتظار كما بعد أن رفض مقابلة الزائرين عدة أسابيع، وقد حدثه الأستاذ القاياتى عنكما، ثم وجهنا إلى حجرته الصغيرة المنعزلة فى نطاق محدود.

كان الشاعر الضرير شاحب الوجه، تظهر دلائل المرض فى وجهه، ويلوح الانفعال الكظيم فى سحنته، وقد سارعت فقلت له: إنى منذ عام أحاول التعرّف به بعد أن حفظت أكثر ديوان الطليعة، وقد رجوت الأستاذ القاياتى عدة مرات حتى استجاب، وقال زميلى مثلما ما قلت، فابتسم الشاعر، وقال فى شبه مرارة: جهدكما ضائع، فلن تظفرا لدىً بشىء.

قلت: إنى كنت أستغرب عزلة أبى العلاء فى منزله، وأعدّها أمرًا صعبًا، ولكنّ أبا العلاء فى عزلته هذه كان يقابل تلاميذه، ويؤلّف كتبه، ويراسل أصدقاءه، أمّا الأستاذ القاياتى فقد حدثنا أنك لم تقابل أحدًا من عدة شهور، مع كثرة الزائرين والمتوددين. . .

فضحك الرجل، وقال: كثرة الزائرين؟ أنت واهم، لا يزورنى إلا نفرٌ من أهل الوفاء، وفى طليعتهم الشاعر النّبيل الأستاذ خليل مطران، والدكتور الوفى زكى مبارك، والقصاص محمود تيمور، والشاعران القاياتى والأسمر، وكان الهراوى رحمه الله لا ينسى زياراتى المتكررة، وقد سبقنى إلى رحمة اللّه، فعزّ على فراقه كثيراً. . ثم سألنى: ولماذا رغبتما فى زيارتى؟

قلت: إنك فى الطليعة من أصحاب الأقلام المكافحة، كتبت فى الوطنيّة مع على يوسف، وعبد العزيز جاويش، وأمين الرافعى، وأصدرتَ عدّة جرائد، وصاحبتَ عبد الله النديم وتأثرت به، فقال الرجل: أَبَقِىَ فى الناس من يعرف هذا؟ فقال الأستاذ عبد الحليم: وأكثر من هذا.

فقلّب الرجل كفيه، وقال: ذهب هذا التاريخ جميعه، لقد أصبحتُ أبعث القصيدة الطويلة إلى جريدة الأهرام فتنشر منها عدة أبيات! حتّى جريدة البلاغ وصاحبها ذو فضل على، وذو مروءه نادرة، يختصر ما أبعث إليه! فكيف يحدث هذا؟

قلت، لعلّك تكتب فى السياسة بما لا تُوافق عليه الجريدة، فقال: أحيانًا يحدث هذا، وأنا أقدّر ظروف رئيس التحرير بعقلى، ولكنى أغضب عليه بشعورى.

ثم قال: أنتم لا تعرفون شيئًا عن مروءة عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ، إنّه لايكافئ بالمال غير المحررّين الدائمين بالجريدة، أما الشعراء والكُتّاب الذين يراسلونها، فلا يأخذون قليلا أو كثيراً باستثنائى، فحين أرسل إليه شيئًا أجدُ مكافأةً تصل إلىّ مع خطاب رقيق، وقد حدثنى الدكتور زكى مبارك بأنه شكر الرجل نيابة عنى، فقال: هذا واجب! وحين أصدرت ديوان الطليعة، أخذ خمسين نسخة، وفرّقها على المحررين بالبلاغ، والموظفين بالمطبعة والإدارة، وأرسل الثمن إلىّ مضاعفًا، وقال: هذا حقّك! ثم قال الرجل وإذا كنتُ أشيد بصاحب البلاغ فإنى أعتب على سواه.

قال الأستاذ عبد الحليم: مثل مَن؟ ففوجئنا بردّ الدباغ مُعْلِنًا اسم الزعيم سعد زغلول رحمه الله!.

فتساءلْنا: وكيف؟ قال لقد نظمتُ قصائد كثيرةً فى تأييد سياسة الزعيم الخالد، ونشرتُها بالبلاغ وغير البلاغ، فما جاءنى منه خطابٌ يدلّ على اهتمامه بما نشرت، مع أنّه أرسل للشاعر عبد المحسن الكاظمى خطابًا يثنى فيه على مدائحه له، وقد نشر الكاظمى خطابَ الرئيس مبتهجًا فخوراً.

سمعتُ كلام الشاعر، فبدالى أن أقولَ له، إنّ الكاظمى قد جمع مدائح سعد فى كتاب خاص، تحت عنوان (المعلقات)، ولعلّه أرسَل الكتاب إليه، فكانَ طبيعياً أن يرد على تحيّةٍ تخصّه، فقال الدباغ: هو ما قلت، والذى جمع قصائد الكاظمى هو الأستاذ خير الدين الزركلى، وقدّم لها، وهى قصائد طويلة ذات نَفَسٍ ممتد!

فعقّبت أقول: إذن للكاظمى ظرف خاص، فلو كانَ قد اكتفى بالنشر فى الصحف ما اتسع وقت سعد للرد عليه، ولا أظنّ شعراء مصر الذين مدحوا سعدًا مثل حافظ وشوقى ـ وهُما مَن هما ـ كانا يتلقيان رسائل من سعد كما بعثَ للكاظمى! ثم إنّ الكاظمى تلميذ الإمام محمد عبده، ولعل صلةً شخصيةً جمعتْ بينه وبين سعد من عهد الإمام!

قال الدباغ: أنا موافق على ماقلت، وقد بدا لى أن أعذر سعدًا.

سيدة الغناء أم كلثوم:

وانتقل الحديث من سعد إلى أم كلثوم، فقال الدباغ إنّ المطربة الكبيرة تسألُ عنه كثيرًا، بحيث لاتمر مناسبةٌ ما حتّى تتصل به فى التليفون، فتهنئه بالعيد تارة، وتذكرُ أنها قرأت مقالةً له اليوم تارة، وهو يعرفُها منذ نشأتها الفنيّة الأولى، فقد كانَ صديقًا لأبيها، وهى تعلم أصحاب الوالد، وتخصّهم بالوفاء والتقدير.

قلت: لقد قرأتُ أبياتًا لك عنها فى ديوان الطليعة.

فتأوّه الشاعر، وقال: وهلْ عرفت مناسبةَ ماقلت؟ لقد كنتُ بعد مرض عينى أغشى بعض حفلات الغناء استجابةً لعاطفة مشبوبة لدىّ، ولكن بقدر محدود بالنسبة إلى ماكان قبل المرض، إذ كنتُ لا أدع احتفالا غنائيا أقدرُ على الذهاب إليه، وكانت صلتى بكبار المطربين مثل الشيخ سلامة حجازى، وسيد درويش مشتهرة، وفى بعض الحفلات عبرتْ بى الآنسة أم كلثوم، فبادرتْ بتحيّتى بالإشارة ظنا منها أنى أقدر على رؤيتها، فلما لمْ تجد الرد، سألتْ من حولها، فعرفتْ ما أصابنى، فاتجهتْ إلىَّ مواسية، وبكتْ فتساقط دمعها على كفّى وأنا أسلّم عليها، فتأثرتُ كثيرًا، وقلت من أبيات:

بكتْ فالتقى دمعى انسجامًا ودمعها ... ولكنها كانت على الدمع أقْدَرَا

فويحكَ ياقلبى أما كنتَ شاهدًا ... سنى الحُسْن أو معنى النسيم الذى سَرَى

أأنت كعينى غافلٌ حين أقبلت ... بربكما رُدّا التحية وانظرا

وبكى الشاعر، فغلبنا التأثر، ومضتْ مدة كان الصمت فيها أبلغ من الكلام، فأردت أن أقطع هذا السكون الثقيل فقلت: أنا أعرفُ صلتك الوثيقه بالشيخ سلامة حجازى، وقد قلتَ فى رثائه بيتًا نادرًا أحفظه جيدا، فرفع الشاعر رأسه إلى السماء كمن يتطلّع، وقال: بربّك أنشده، قلت هو قولك:

وأَسْكَتَ الموتُ هنا بُلْبُلا لو أنّه غناه لم يُرْدِه!

فقال الأستاذ محمد عبد الحليم: هذا أجمل مايُقال فى رثاء مطرب، فقال الدباغ، كان من عادة المصريين فى مطلع هذا القرن أن يبدءوا الغناء بقولهم: ياليل ياليل! وهكذا كان يفعل الشيخ سلامة حجازى، فرأيت على حبى إياه أن أهاجمه مع من يقولون دائمًا ياليل ياليل، فقلت من أبيات:

سئم الليل منهمو قول ياليل فنادى ما خَطْبُكُم مَنْ ينادى!

قلت: ولكنْ «شوقى» كان يستطيب غناء عبد الحامولى حين يهتف بالليل إذ قال:

يسمع الليل منه فى الفجر ياليل فيصغى مستمهلا فى فراره

فقال الدباغ بيت رائع! الله! الله! كان شوقى ابن فن، فقلت: لقد تبعه الأستاذ على الجارم فقال عن إحدى المطربات:

من كل شادية كأن حنينها همس المنى لليائس الكداح
الليل إنْ نادتْه مال بعطفه فتراه بين المنتشى والصاحى

فقال الدباغ، البيتان جميلان، والجارم شاعر رنان، ولكنّ صلتى به مقطوعة، فأنا كنت صديقًا لحافظ ومحرم والكاشف وولى الدين يكن ومطران والهراوى، ولكن الجارم لم تسمح ظروفى بلقائه. واتصل الحديث شيقا فى مثل هذه الخواطر، وقد لمسَ الدباغ نشاطًا من نفسه، فأخذ الجانب الأكبر والممتع من الحديث، وتحدّثَ عن نشأته فى «يافا» وكيف قرأ سيرة الظاهر بيبرس، وعنترة،

وألف ليله، ثم أطرفنا بأنه اشتغل قبل الالتحاق بالأزهر نجارًا صغيرًا فى مدينة يافا، ثم ترك النجارة إلى الحدادة، فصار (صبى حداد) وفى بعض المرات طارت شرارات فأحرقت كفيه، فعزم على ترك هذه المهنة، وحدثته نفسه بالنزوح إلى مصر والالتحاق بالأزهر، لأنه يحفظ القرآن، فوافق عمّه، وأمدّه بما يُعينه، ومن يومها صار مصريا كما يقول.

رجع إلى ندوة القاياتى:

لم تكد تمضى ثلاثة أشهر على هذا اللقاء حتى فوجئت بنعى الشاعر المريض، وتذكرت لقائى معه، فَسلّيْتُ نفسى بمقال كتبتُه فى رثائه، ونشرتُه بجريدة مصر الفتاة فى صفحةِ العالم العربى، وقد قرأه ابن عمه الأستاذ مصطفى درويش الدباغ فراسلنى شاكرًا، وامتدتْ رسائلنا غير منقطعة حتى مات رحمه الله، وقد أصْدَرَ مجموعة أدبيّة تجمع نثارًا من خطرات الشاعر مع بعض ما قيل فى رثائه، وكان من بينها مقالى المتواضع عن الشاعر، وذلك فى كتاب تحت عنوان (شَهْدٌ وعَلْقَم).

سهرناَ بعد رحيل الشاعر كعادتنا فى ندوة القاياتى بالسكرية، وطاف الحديث مشرقا ومغربًا، حتى عنّ ذكر الشاعر الفقيد إبراهيم الدباغ، فقلتُ: إن من مآثر السيد عندى أنه أتاح لى فرصة لقائه قبل انتقاله إلى دار البقاء، فقال: أتعدّ هذه مأثرة؟ إنك تذكرنى بالأستاذ مصطفى درويش الدباغ ابن أخ الفقيد، حيث كتب يشكرنى أن شيعتُ الفقيد إلى مثواه مع نفر قليل من أدباء مصر، شاكيًا تقاعس الصفوة من أصحاب الأقلام عن تشييعه، ثم عن تأبينه فى الصحف، ثم نهض السيد فجاء بصورة خطابٍ ردًّ به على الأستاذ مصطفى، وقال فيه ـ على طريقته النثرية فى اصطناع أساليب البلغاء من أمثال الهمذانى وأرباب البديع:

«تشكر لنا، وكيف؟ أن تنقلت أقدامنا فى خُطى معدودة لتشييع سيّد عزيز على الأدب والشرق، فُصِل من الأكباد، وخلّف السهاد، إذنْ فلامشت بنا قدمٌ إلى نبل، ولا برنا فضل!

صديقنا الدباغ، ومَن الأستاذ الدباغ؟ رفيق الصبّا، قريب الهوى، نشأنَا فى

الأزهر معا، شقيقى نفسٍ، وزَميلىْ دَرْس، على حين أقبلَ يُساجلُ بشعره النسمات، ويضاحكُ البسمات، ويغازلُ بعيون قصائده العيون، ويخلقُ الفتون، برَّز فى الأزهر وسنُّه فى الطليعة، ثم زاحمَ الفحول «بالطليعة» وطالما جرَى لسان الدباغ بحديث يكاد ينظر فى عطفه، ومغزىَ مبرة، يتحلّل من عطفه، أو تنقّلَ من عظةٍ وزهادة، تصدع الأكباد، أو تُعجب الزهاد، فناهيك منه جامعةَ علم وتعليم، وريحانة نديم، وهو بعدُ نجىُّ العظماء، صفىُّ العلياء، يجيلُ فى نديّهم ذكر التاريخ، فيذكره التاريخ، ويتحدّث عن مصر، فيلتفت العصر،» وقد أذن فنقلت صورة من خطابه، وأظنه نُشر فيما بعد بإحدى المجلات.

هذا بعض ما أذكر عن صاحب الطليعة، ولا بد لدارسى الأدب من الوقوفِ على ماترك من آثارٍ تحفظ له حقه فى سجلّ النابغين.

* * *

الشاعر محمد الأسمر

أقامتْ جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق حفلاً تعودتْ إقامته بمناسبة المولد النبوى الشريف، وكان المتأدبون من شعراء المعهد الدينى يقوُمون بإلقاء بعضِ القصائد تشجيعاً وتنويهًا، وفى مناسبةٍ ما، قيلَ لنَا، إن الشعر مقصور هذا العام على ضيوف أعزّة من شعراء القاهرة، فذهبْنا مستمعين لامنشدين، ورأيتُ لأوّل مرة على المنصة الأساتذة محمود غنيم، ومحمد الأسمر، وعلى الجندى، وكلّهم من النابهين المرموقين، وقد قُوبلت قصائدهم بالتصفيق الرنّان، وبعَد انتهاء الحفل تحلّقنا حول الشعراء نُطْرِى قصائدهم، وأفاضَ زملائى فى ترديد عبارات الإعجاب، ولا أدرىِ لماذا غلبنى لسانى، فقلتُ موجّهًا الحديث للأستاذ الأسمر: إن قصيدتك العامرة ذائعةٌ مشتهرة، حيث قرأتُها من قبل فى مجلات الرسالة والأزهر والإسلام، كما أنك أنشدتها فى موسم الشعر منذ عشرة أعوام فلماذا لم تأت بالجديد؟

قال الأسمر: عجبًا، أتعرف كلّ هذا عن القصيدة؟ قلتُ وأعرف الكثير عنك، قال: وهل تحفظ من أبياتها، فقلُت، إنى قرأت تعليقًا على قصائد موسم الشعر يقرّر أن قصيدة الأسمر كانتْ فى طليعة القصائد، فسارعتُ إلى قراءتها فوجدتُها من أبدعِ ما قال الشعراء فى مناسبة المولد، وإليك بعض ما أحفظ منها:

فجرٌ أطلّ على الوجود فأطلعا ... شمسيْن، شمس سنا، وشمس هدى معًا

ظلّت مطالعُ كلّ شمس لاترى ... من بعدِه شيئا كمكّة موضعا

يومٌ أغر كفاك منه أنّه ... يومٌ كأنّ الدهر فيه تجمّعا

ويكادُ غابر كل يومٍ قبله   يُثْنى إليه جيدَهُ متطلّعا
فلو استطاع لكرَّ من أحقابه   وثْبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كلّ يوم بعده   ينسلّ من خلف الزمان ليسرعاَ
فلو استطاعَ لجاء قلب أوانه   وانسابَ يخترق السنين وأتلعا
تتنافسُ الأيام فى الشرف الذى   ملأَ الوجود، فلم يُغادرْ إصبعا

ثم سكت بعد هذه الأبيات، فقالَ الأستاذ على الجندى، لقد سمعنا هذه الدرة مرّات، ولكننّا لم نسأم من معاودتها، لأنّ القصيدة الجيدة، كالأغنية الجيّدة لاتُملّ من التكرار، بل تزداد إمتاعًا، أفتضُجر أنت من سماع أغنية سلوا قلبى لأم كلثوم! فاستدرك الأستاذ الأسمر يقول:

صّدقونى أيها القوم، أن هذه القصيدة النبوية، وقفتْ فى طريقى بالمرصاد، فإذا حانتْ مناسبة المولد الشريف، وتطلّعتُ إلى نظم قصيدةٍ جديدة، أُلْقىَ فى روعى أننّى لن أجىء بأفضل مما قلت، فاستحيتُ من رسول الله أن أنخفض فى مديحه عن مستواى.

صاح بعض زملائى: الله أكبر، هذا الاعتذارُ يعّد قصيدة جديدة، ثم رأيتُ الأستاذ الأسمر يفسح مكانًا بجانبه ويدعونى، فجلست مزهوا، ليسألنى فى بساطة: وهل قرأتَ لى شيئاً غير هذه القصيدة، فأجبت على الفور: قرأت كلّ ما تنشره شعراً ونثراً، فتطلّع إلى رفاقه متبسمًا، ثم قال لى: والنثر أيضًا؟

فقلت: والنثر أيضًا، ولى سؤال يتعلق بموضوع كتبتَه، فقال الأستاذ غنيم: يظهر أننا لن نفرغ من الأسمر ومنك! فقال الأسمر، قل مالديك:

قلت: ياسيدى إنّ الذى يخيّل إلىّ قدرَ دراستى المحدودة، أنك فى اتجاهك الشعرى تنحو منحى أحمد شوقى، فأنت كما يخيَّل لى تلميذٌ نابهٌ من مدرسته، ولكنى قرأتُ لكَ مقالاً يحمل نقدًا صارخًا لأمير الشعراء، قرأتُه فى صحيفة

السياسة الأسبوعية التى لا أزال أحتفظ بها، وفى هذا المقال تُعلن أن شوقيا يبتكر تارة، وينسج على منوال غيره تارة، وشعرهُ منه الجيد ومنه الردىء، وهذا ليس موضع اختلاف، إنما أختلفُ معك فيما قلته عن معارضاتِ شوقى لأمثال البوصيرى والبحترى وابن زيدون، حيث قلت: إن المعارضة لا تمتّ إلى الشعر بسبب، وأنا أقول: لو كان شاعر مثل شوقى يحبُّ رسول الله صادقًا، وقد قرأ قصيدة البوصيرى فى مديح النبى فصادفتِ ارتياحه، ودفعتْهُ عاطفتُه الصادقة لأن يمدح الرسول الذى يهيم بحبه كما مدحَه البوصيرى من البحر والقافية! أتكوُن هذه المعارضة الصادقة فى اتجاهها، الخالصة المخلصة لموضوعها، بعيدةً عن الشعر؟ من يقول هذا؟

قال الأستاذ الجندى: أنت انتصرت باختيارك، قصيدة البردة بالذات، فماذا تقول يا أسمر؟ وكانَ السامعون قد تحلّقوا وملئُوا فراغًا كبيرًا حتى صار المجلس كأنه ندوة، فرأيتُ الأستاذ الأسمر ينهض واقفًا ليقول ما ملخّصه:

الحق أنها فرصةٌ طيبة أتحدّث فيها عن شعر شوقى، لقد كتبت المقال الذى أشار إليه زميلكم هذا، وأنا طالبٌ بالقسم العالى بالأزهر، وكانتْ مصر تحتفل بإمارة الشعر لشوقى حينئذ، إذ حَضر من شعراء البلاء العربيّة من يبايعونه مع نُخبةٍ من شعراء مصر، وكنت صديقًا لفريق آخر من الشعراء مثل الهراوى والقاياتى والهيهاوى والكاشف، وقد أجمعُوا على أن إمارة الشعر عبثٌ لايليق، فلكلِ شاعر مكانتُه وجوّه واتجاهه، ولايزيدُ من مكانة شوقى أن يُبايعه بعضُ الشعراء فى حفل، ثم علمتُ أن مجلّة السياسة الأسبوعية، وكنت موظّفًا بها، ستخصّ شوقيا بعددِ خاص، فرأيتُ أن أهاجمه بمقالٍ يرصد مَالَه وما عليه، وممّا عليه ما قلته عن معارضاته، وما قلتُه من ضعفه فى النسيب والغزل وشعرِ الفلسفة الفكرية، وأشكر الطالب الذى فتح باب القول عن شوقى لأتحدث لكم عن ظروف المقال.

ثم قال الأستاذ لأسمر: وسأطرفكم بقصة مشابهة، فبعدَ موت شوقى بايع الدكتور طه حسين الأستاذ عباس محمود العقاد بإمارة الشعر، ولم نطق صبْرًا

على ذلك، فرددنا على المبايعة بطريقة فكاهية، إذ عمدنا إلى نَسَّاخ بدار الكتب يُسمّى «البرنس» وكان يَقول الشعر المكسور ولا يدْرى أنه مكسور، فاقترحنا أن نُبايعه بالإمارة ردا على طه والعقاد! وأقمنا حفلا أُنشدت فيه قصائد للهراوى والقاياتى والكاشف وحسين شفيق المصرى وكامل كيلانى، ونشرت القصائد فى الصحف!

وجلسَ الأستاذ مع زملائه، فامتدت السهرة بنا إلى منتصف الليل، وقال لىَ الأسمر: أنا أعمل بالمكتبة الأزهرية، وهى فى مقدمة الجامع الأزهر، وأشتاقُ الى أن أراك كثيرًا، فإذا زرتَ الأزهر فلاتنسَ أن ترانى، وكانت مجاملةً طيبة من الشاعر الكبير، شكرته عليها، وعزمت على أن أوطّد صلتى الأدبيّة به.

فى القاهرة:

كان عملُ الأستاذ الأسمر بمكتبة الأزهر مُشجعا لى على لقائه فى فترات كثيرة، وقد عودنى أن يسألنى: هل قرأت قصيدةَ كذا ممّا نشره حديثًا، فيحملنى ذلك على تتبّع آثاره، وقد قالَ لى ذات يوم: إنه يحرص على سؤالى مضطرآ، لأن الأدباء الكبار يقرءُون ولايتحدثون بخير أو شر، حتى أكثر أصدقائه يقابلونه، وقد نشر بالأهرام قصيدةً بارزة فى الصفحة الأولى، فلايتحدّثون عنها بشىء، وكأنه ينشر شعره فى جزيرة (واق الواق) وهذا مما يجعلُه يسىء الظن بشعره قبل أن يُسيئه بنيات أصدقائه، وتصادف بعد أن صرَّح لى بذلك أنْ نشرَ قصيدة ممتازة فى رثاء أحمد حسنين، وكان الرجلَ الأوّل فى القصر الملكى حينئذ، فسارعتُ إلى قراءة القصيدة، وأدْهشنىِ منها أنّه وفق إلى تصويرِ شعرى رائع لمصرع الفقيد الكبير، حيثُ اصطدمت عَرَبَتُهُ بأخرى أمام جسر إسماعيل، وقد وقفت الأسودُ الحجريّة على واجهة الجسر، وعلَى بضعة أمتار نهض تمثال سعد زغلول مُشيرًا بيده إلى الفضاء! هذا الموقع المعروفُ كانَ مجال تصويرِ شعرىِ اهتدتْ إليه قريحةُ الأسمر الوقّادة حين قال:

على جسر إسماعيل والأسْد فوقه   هَوى أسدٌ بين الأسود الضراغمِ

ضراغم كادتْ هيْبة الحزن تنحنى لضيغمٍ غاب ما انحنى للعظائم
لهنّ حواليه وجوهٌ عوابس من الحزن أغنتْ عن زئير الضياغم
كأنى بسعْدٍ لم يمدّ ذراعه هنالك إلاّ خوف هذا التصادم

وقد حملنى الإعجاب بهذا التصوير على المبادرة بزيارته، وكنتُ حفظت الأبيات فأعدتُها على سمعه، فابتهج مسرورًا، وحدثنى أن الأستاذ أنطون الجميّل أُعجب بهذه الأبيات وعدَّها وثبةً شعرية.

ومن ذكرياتى الأدبّية مع هذا الشاعر الأنيس، أنى قرأتُ نقدا قاسيًا لقصيدة الأسمر فى رثاء النقراشى، حيث زعم الأديب الأستاذ عباس خضر أن الأسمرَ سطا فى قصيدتهِ على شبيهةٍ لها قالها الأستاذ أحمد الزين منذ سنوات، إذ قال الأسمر فى مطلع قصيدته:

أفى كلّ يوم دمعةٌ خلف غائب وفى كلّ يوم لوعة بعد غارب
رِجال كأمثال النجوم فثاقبٌ مضى وهو لمّاح على إثر ثاقب
لأوشك دمعى أن تجفّ شئونه على كلّ ماضٍ ليس يومًا بآيب
إذا ما انتهينْا من رثاءٍ لذاهب بدأنا رثاءً بعد ذاك لذاهب
ثُريّا رجالات تهاوتْ نجومها وكانت على الوادى ثريا الكواكب

وكان الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الزين قد قال فى مطلع قصيدة نظمها فى ذكرى حافظ:

أفى كل حينٍ وقفة إثر ذاهب وصوبُ دم أقضى به حق صاحب
أودّع صحبى واحدًا بعد واحد فأفقد جنبى جانبًا بعد جانب
تساقط نفسى كل يوم فبعضها بجوف الثرى والبعضُ رهن النوائب

فيادهرُ دعْ لى من فؤادى بقية لوصلِ ودود، أو تذكر غائب
ودعْ لى من ماءِ الجفونِ صبابة أجيبُ بها فى البين صيحةَ ناعب

وقد قرأت النّصيْن، ورجعتُ إلى القصيدتين، فلم أجد سطوًا، ولا ما يُشبه السطو، لأن اتحادَّ البحر والقافية، لايدلّ على أدْنى اتهام، أمّا حزن الشاعر على توالِى أعزائه راحلين غير منتظرين، فشعورٌ طبيعى يشترك فيه الناس جميعًا، وهو خاطرٌ متعارَف لدى كلّ من يفجعه الدهر بأحبائه، وأىّ الناس لايُفجع؟ على أنّ أوجَه الاختلاف فى المعانى تماثلُ أوجه الاتفاق التى تدلّ على اشتراك العاطفة، لا على أن شاعراً نهب قول شاعر! فيم السطو إذن؟

الحقّ أنى ماكدت أقرأ هذا الاتهام بعنوانه الحادّ (الأسمر يسطو على شعر الزين) حتى كتبتُ ردا مقنعًا، أكشفُ فيه عن دواعى التماثل فى القصيدتين، وأبسطُ ما قاله بعض النقاد فى توارد الخواطر، وكيف نحكم بالسرقة الشعرية إذا كانت وليدة عاطفةٍ خاصة، لا عاطفة مشتركة، ولم أشأ أن أنْشره حتى أقرأه على الأستاذ الأسمرَ، فاتّجهتُ إلى مكتبه، فقيل إنه سيحضرُ بعد يومين، وانتظرتُ حتى لقيتُه، وأسمعته ما كتْبتُ، فقال: إنه أرسْلَ ردا إلى مجلة الرسالة يحمل هذه المعانى، ولكنّه يفضّل أن يَسحب الردّ، لينشر ردّى، فهو أمام القراء تصويبٌ وتصحيح، أما ردُّه فقد يعتبر دفاعًا إذ يتحدثُ عن نفسه، ثم اتّصل بالأستاذ الزيات تليفونيا ليقول له: إنّ ردا جديدًا سيأتيه الساعة يحلّ محل ردّه، ولكنّ صاحب الرسالة قال: لقد طُبعت الصفحات الأولى من المجلة وبها ردُّ الأستاذ الأسمر فلا محيص، عند ذلك أخذَ الأستاذ مقالى ووعَدَ بنشره فى صحيفة أدبيّة، ولكنى لا أدرى إلى اليوم مصيره، حيثُ لم أقرأه، ولم أشأ أن أسأل عنه رجلاً يهتم به أكثر من اهتمامى.

ديوان الأسمر:

أصدرَ الأستاذ الأسمر ديوانه الحافل فى أكثرِ من سبعمائه صفحة، وقد قابلنى الشيخ إبراهيم خضر الموظف بمكتبة الأزهر، فقال لى، إنّ الأسمر قد أهدى إليك

نسخةً أودعها المكتبة، مع عشرات من النسخ لأصدقائه، إذ أن نفقات البريد لهذا الديوان الضخم سترهقه إذا أرسله به، وكنُت قرأتُ الديوان على عَجل، فرأيُته يجمع كلّ ما قال الأسمر، وفيه أشعار الطور الأول من حياته الشعرية. وهى بالنظم أشبه، كما أنّ به قصائد قيلتْ فى مناسبات طارئة، دفعت الشاعر إلى المجاملة بدون عمق فى الإحساس، أو انفعالٍ بما ينظم، فجاءتْ أشبه بَما يقول المبتدئون، فذهبتُ إلى المكتبة لأجد الأستاذ يبتسم فى ترحيب، ثم يحملُ الديوان ويقول هذه هديتك، فشكرتُه، وبانَ على وجهى أنّى أريد أن أتكلّم، فقال: هيًّا، ماذا لديك؟ قلت فى تُؤَدَة: لقد قرأتُ كثيرًا من شعر الديوان، وكنتُ أوثر أن تختار الروائع وهى كثيرة كثيرة! فرجعَ إلى الوراء، ونظر إلىَّ قائلا: لقد قامَ بطبعه صديقٌ أريحىّ، وطلب كلّ مالدىّ! وذكر اسم الصديق وهو «عيسوى زايد باشا» من كبار الوجهاء! فسكتُّ حائرًا، وانطلَق الأسمر يقول: إن الشاعر عادةً يحبّ جميع شعره مع خبْرته بمواضع الضّعْف به، كالوالد يحبّ أبناءه جميعًا، وفيهم الخاملِ والنشيط، والمحسن والمسىء، ثم إنّى أحارُ دائماً فى تقدير شعرى، فقد أحبُّ قصيدةً أراها ممتازة، ولكنّ أصدقائى يهبطون بها، كما أستضعفُ قصيدة أخرى فأجُد الإعجاب بها على الألسنة، فماذا أصنعُ إذا اخترت، فأهملت ما يحب القارئ، وذكرتُ ما أحبّ أنا ويكون موضع نقد لدى سواى!! وكلامُ الأستاذ الأسمر يحتاج إلى تعقيب ينطق بأن الجودة الرائعة لاخلاف عليها عند الأُصَلاء من النقّاد، ولكنّى آثرتُ أن أنتقل إلى الحديث العام دون أن أتسع فأُسىء.

لقد كان الأسمر شاعرًا موهوبًا، ومسامرًا أنيسًا، وصديقًا ذا بشاشة وترحيب.

* * *

الشاعر محمود غنيم

كتَبَ الأديب المهجرى الأستاذ توفيق ضغون مقالاً نقديا عن الشاعر محمود غنيم تحت عنوان (خليفة حافظ) ذَهَبَ فيه إلى أن الشاعر بديباجته المشرقة، ومعانيه السهلة، وخواطره الصادقة، وإحساسه الرقيق يُعدّا متدادًا لشاعر النيل، وقد صَدَقَ الناقد الأديب، فإن محمود غنيم أشبه الشعراء بحافظ، وإذا كان شاعر النيل يُسيطر على الاحتفالات الأدبيّة بمزاياه الفنيّة القريبة إلى ذوق الجمهور، فيقابلونه بالتصفيق، فقد كان خليفتُه من طرازه فى هذا المضمار، فقد يجتمع فى الحفل شعراء أقْوى منه تحليقًا، وأدقّ تصويرًا، وأعمق غوصًا، ولكنهّم عند الاستماع لايبلغون مبلغه! إنما يُحوزون تقديرهم الراجح عند الدارس المتأمل، والقارئ الفاحص، وما أقلّ هؤلاء، على أنهم ميزان الترجيح.

ومما أذكرُه عن غنيم، أننى رأيتُه ذات ليلة يُقدّم للأستاذ الزيات قصيدةً تحت عنوان (وحى الشرق) لتُنشر فى أحد الأعداد الْممتازة الخاصة بمطلع العام الهجرى، وكانت القصيدة لا تتجاوزُ عشرين بيتًا، فسمعتُ الأستاذ الزيات يقول له: ما هذا؟ ليست عادتُك مع العدد الممتاز؟ فقال الأستاذ غنيم: معذرة، فهكذا جاءت وليس لى أن أفتعل.

وحين خَرجنا معًا إلى الفضاء الرحب، وجدتُ الأستاذ غنيم، يضرب كفا بكف، ويقولُ: عجيبة والله! هل الشعر بالقنطار والطّن، حتى أملأ صفحتين من الرسالة! قلتُ فى هدوء: ياسيدى المناسبة الدينيّة جليلة، وقد تعودّ القراء منك فى الأعداد السابقة أن تبدع وتمتع، ولولا حرصُ الزيات على أدبك، ما طلب منك

أولا أن تُشاركَ فى العدد الممتاز، وما استقلّ ما أتيت به ثانيًا؟ فقال غنيم: القصيدةُ تحت عنوان (وحى الشرق) وقد ابتدأتها بقولى:

مَهْدَ الهدى ومثابة الأقمار نور البصائر أنت والأبصار

فيك الشرائع والشموس تلاقتا فتلاقت الأنوار بالأنوار

ومضيتُ أتحدث عن الوحى السماوى فى بلاد المشرق، وعن أثر الحضارة الأوربية فى إشعال الحروب وتدمير الأجساد، وعن البيان الشرقى فى لغاته الجميلة وعن أخلاق الشرقيين وأطماع الغربيين، فماذا يريدُ الزيات أكثر من ذلك، قلُت: إن المعانى كثيرة وتتّسعُ لمائة بيت! فقال: غدًا ستقرؤها وتحكم، وتنقّل الحديث إلى شعاب أخرى، حيث جلسنا فى مقهى بباب الخلق، ولكنّ الشاعر لم يثبت عند رأيه، فقال لى فى ختام الجلسة: الزيات له حق، ستظهرُ قصائد العدد شامخةً دون هذه المسكِينة! الفُرصة ستأتى فى العام القادم بإذن الله.

فى امتحان الترقية:

حين عُيِّنت مدرسًا أول للّغة العربيّة بدار المعلمات بالفيوم، كان من النظام المتبع فى وزارة التربية والتعليم أن تُقام دورةٌ تدريبيّة للمدرسين الأوائل تمتد أسبوعين، تُلقى فيهما المحاضرات صباحًا، وتدور المناقشات الشفوية مساءً، وكانَ الأستاذ محمود غنيم مع أحدِ أساتذة الجامعة يُديران حلقة النقاش فى مسائل الأدب والتربية والاجتماع، فأخذ الشاعر يرعانى بعطفه وتشجيعه، فلايُبدى رأيًا إلا وسألنى ما رأيك؟ ثم انقلب الأمر فجأةً لأمر يسير، فقد كان لنَا زميل هو الأستاذ الغزالى حرب تعودَ على الجلوس معى فى الفترة الهادئة بين الاجتماعيْن فكنا نتناولُ الغداء معًا كما تيسّر، ونصلّى الظهر والعصر، ونجلس فى المقهى حتى تحين المناقشة المسائية، وفى بعض الجلسات جرَى على لسانى هذا البيت مخاطبًا الغزالى:

عهدتُك بُحتْريا لا فقيهًا فكيف دعاك والدك الغزالى

وما كادتْ حلَقة النقاش تبدأ، حتى قام الغزالى بدون استئذان وقال: شرّفنى أخى الأستاذ رجب فقال هذا البيت ـ وأنشد ماقلت ـ وكانت مفاجأةً لى وللزملاء، وللأستاذ غنيم بنوع خاص، إذ كانَ على علاقة متوتّرة بالغزالى لأنّه يُصاول فى النقاش وكأنه يصارع، فقالَ غنيم: البيتُ ردىء وكذب، وماكدتُ أخرج من الحلقة بعد الانتهاء، حتى استدعانى الشاعر الكبير، وصاح بى: ما هذا الهراء يا ولد؟ أنتَ الذى لم تمدح طه حسين والعقاد وأحمد أمين تمدح الغزالى وتجعله بحتريا؟ الشعر كرامة، الشعر كرامة! ولم أجد غير السكوت إذ ماذا أقول؟

فى الفيوم:

حضر الأستاذ محمود غنيم للتفتيش فى إقليم الفيوم لمدة أسبوع، وفى أولِ يومٍ شرّف فيه المدينة اتّصلَ بى تليفونيا، وقال إنه يودّ مساءً هادئا بدون أن نجتمع بالمقهى مع الزملاء كعادةِ الكبار من المفتشين، ويرغبُ أن أزوره فى الفندق مساءً مع ديوان شعرىّ يكل إلىّ اختياره، لنقضى فى قراءته أمسيةً أدبّية هادئة، فأخذت أفكر فيما أختار، وراقنى أن أصحبَ الجزء الثانى من ديوان الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران لنقرأ معًا قصيدته الرائعه (عصفورة مغتربة) وهى من عيون الشعر المعاصر، وما أظنُّ أحداً من زملاء الشاعر الكبير قد وُفق إلى معانيها الرائعة ذات التصوير المبتكر البديع، وشعرُ مطران يقرأ على مهل، وقل أن يُعطى مضمونه الدقيق إذا أُنشد فى حفل، فلما واجهتُ الأستاذ بديوان مطران، لم يبدُ على وجهه الارتياح، ثم قالَ: لم تجد غير هذا الديوان، قلتُ سأُسمعك نادرةً من نوادر الشعر العربى، فقال: وهلْ لدى مطران هذه النادرة، قلت: ستسمع، ثم أخذت أقرأ القصيدة ومطلعها:

يا منَ شكت ألمى معى   طيبته فى مسمعى

ففاجأنى غنيم بقوله: «طيبته» كلمة عاميّة، قلت: أرجو أن ندّخر التعليق حتى أتّم المعلقة، ومضيت فى القراءة، فأشرق وجه الشاعر وجعل يَستعيدنى، بحيث قضينا ساعتين فى قراءة القصيدة واستعادتها والتعليق عليها، ثم قال: مطران

مظلوم يارجب! لأننّا نكتفى بقراءة مطالع قصائده، ولو عكفنا على نوادره هذه، لخرجنا بصيد ثمين!

ثم قال الشاعر الكبير: أنت تذكرنى الآن بالأستاذ أنطوان الجميّل رئيس تحرير الأهرام، فقد كان ذا ذوق أدبى رفيع، وكان يحتفل بقصائدى وينشرها بالأهرام فى مكان بارز، وفى ليلة من لياليه الأدبية بالأهرام، فاجأنى بهذا السؤال: لماذا لا تقرأ شعر مطران؟ قلتُ فى أدب: أنا أقرؤه كثيرًا، قال: ولكنك تأثرت بشوقى وحافظ والبارودى ولم تتأثرْ به.. قلت: هذا واضح، لأن لكل شاعر ذوقه، قال: إن قراءة مطران ستفتحُ لكَ آفاقًا جديدة، فاهتمّ به، قلت: هذه نصيحة غالية، وسأعمل بها، ولكنّى لم أرَ فى نفسى ميْلا إلى قراءة هذا الشاعر، وهاأنْتَذَا ستدفعنى إليه من جديد..

الانتقال إلى القاهرة:

ثم قالَ الأستاذ غنيم، أنا أعترف للأستاذ أنطوان الجميّل بفضلٍ كبير لا أنساه، فقد مكثت مدرسا بمدرسة كوم حمادة الابتدائية تسع سنوات، وكم سعيتُ للنقل بدون جدوى، وأرسلتُ القصائد تلو القصائد بالبلاغ والرسالة والأهرام شاكيًا غربتى فى منفى بعيدٍ عن الجو الثقافى فما استمع إلىّ أحد، وكان مما قلت:

أيذوىِ شبابى بين جدران قريةٍ ... يبابٍ كأنّ الصمت فيها مخيمُ

أكادُ من الصمت الذى هو شاملى ... إذا حُسب الأحياء لم أَكُ مِنْهُمُو

وعاشرتُ أهليها سنين وإننى ... غريب بإحساسى وروحى عنهمو

يقولون خضراء المرابع نضرةٌ ... فقلت هبوها لست شاة تسوم

على رسلكم إنى أقيمُ بقفرة ... يجوزُ على الأحياء فيها الترحم

حياةٌ كسفح الماء والماء راكد ... فليسَ بها شىء يسّر ويؤلم

وخاطبت الأساتذة عبد القادر حمزة، وأحمد حسن الزيات، وعلى الجارم، فلم أجدْ جوابًا، ثم تجرأت فخاطبت الأستاذ أنطوان الجميل، فكلّم الأستاذ الجارم المفتش الأول بالوزارة فاستجاب فوراً.

قلت: لقد ذكرتَ أنك رجوت الجارم فلم يستجب لك، وهو يعلم أنك شاعر موهوب، فضحك غنيم ضحكة ساخرة، وقال: سامحَ اللّه الجارم، لقد دخلَ أحد الفصول للتفتيش فوجَدَ بأيدى الطلاب الجزء الأول من كتاب المطالعة المختارة، وهمْ يقرءون قصيدةً لى أعدّها المدرّس من الكتاب المقرر عن (الكلب هول) وهو الكلب البوليسى الذى يكتشف الجناة وفيها أقول:

كلبٌ ينم عن الجناة ... تمشى العدالة فى خُطاه
إن قال أرهفت النيا ... بة سمعها وصغا القضاه
خافتهُ دون الله أفئد ... ةُ الجبابرة الطغاة
عجبًا يخاف الكلبَ ناس ... لا يخافون الإله

فتبرمّ الجارم، وقال للمدرس: أينَ شعر شوقى وحافظ والبارودى ومن فى طبقتهم، وأحسّ المدرس كأنه أخطأ فأخذ يعتذر بأنّ الموضوع من الكتاب المقرّر ولا ذنب له! فعجلت أقول: لقد ذكر الأستاذ الدكتور زكى مبارك فى كتاب ليلى المريضة فى العراق، أن مدرسى اللّغة العربيّة بالمدارس ينافقون الجارم فيختارون قصائده، ويصرون على أن يحفظها الطلاب، لينشدوها أمامه إذا دخل للتفتيش، فقال غنيم: هذا صحيح، ولكنى لم أفعل ذلك إطلاقًا. واسترسل الشاعر يقول:

حين مات الجارم اتصل بى الأستاذ محمد على مصطفى وقال إن نادى دار العلوم سيقيم حفلة تأبينية للشاعر الكبير، ولابدّ أن أعدّ قصيدة رنّانة، فأسرعتُ بالاستجابة، ونظمت قصيدة طويلة كلها حسرة على الشاعر العظيم، وكان مطلعها:

عرش ينوح أسى على سلطانه ... قد غاب كسرى الشعر عن إيوانه

طوت المنون من الفصَاحة دولة ما شادَها هارون فى بغدانه
فى ذمة الفن المقدس عازف لقى الحِمَامَ على صدى ألحانه،

وقد قُوبلت بالإعجاب، لأنى لم أكن أرثى الجارم قدر ما كنتُ أشيد بمدرسته الشعرية التى يرأسها شوقى، والتى تعرضت لهجوم العقاد ومن حَذَا حذوه، وقد لحظ ذلكَ أساتذة الأدب ممّن شهدوا الحفل، فأكثروا من إطراء القصيدة، وفهموا ما أهدف إليه من المعانى، وامتد الحديث بنا إلى وقت طويل..

عن العقاد:

تعددتْ أحاديثى مع الأستاذ غنيم فى مناسبات كثيرة، إذ كانَ من دَيْدَنه أن يكون نجم المجلس، يتحدث وكلنا نستمع، وكان له من الشعر الفكاهى ما يسمع ولا يُدَوَّن، ولكنّ الألسنة تتناقله فيحفظه الناس أكثر مما يحفظون الشعر المسطور، لأنّ الهجاء يتعلق بشخصيات مرموقة، وكلّ ذى نعمة محسود، على أن لكل عظيم هناته التى يجوّفها غنيم فيبدع غاية الإبداع.

وكانَ فى مجلسه الأدبى لايبدى ارتياحًا لآراء العقاد النقديّة، وبخاصّة فيما يقوله عن مدرسة شوقى، ويقول إنه ردّ على العقاد وهو طالبٌ بدار العلوم ردا مقنعًا، ولكنّ العقاد كعادته قد تولاه، بالنقض ونشرَ جانبًا من رد الشاعر فى كتاب (ساعات بين الكتب) مع ماكتبه من الردّ المسهب، والخلاف كما أرى خلافٌ بين مدرستيْن قبل أن يكون خلافًا بين شوقى والعقاد، وإن كنتُ أقدر للأستاذ غنيم وجهة نظره الخاصة بحقيقة الشعر، كما أقدّر للعقاد سعةَ أفقه، وبُعْد غوْصه، ولو شاء الله لجعل الناس أُمَةً واحدة!

ولا أنسى ذات مساء كنت بميدان العتبة بالقاهرة، فلمحتُ الأستاذ غنيم يجلس مع رفاقه، وعلى وجهه من الابتسام والبهجة مايُنبئ عن نشوة طافرة، فحينَ وقعتْ عينه علىَّ، قال: هيّا يارجب! جاءت معجزة كبرى، لقد مَدَحَنى العقاد بقصيدة، هى معى وبخطّه! والحقّ أنى فُوجئت، فأنا أعرف أن العقاد مُتشامخٌ، ولا يُجاملُ غير أقرانه الكبار، ولكنَّ الأستاذ غنيم، اندفع يقول: لقد زُرْتُ أسوانَ فى الشهر

الماضى للتفتيش، وعلمتُ أن الأستاذ العقاد يجتمعُ بزواره فى منزله هناك، فوجدتُ الشعر يسرع إلى لسانى، وذهبتُ لأنشده هذه الأبيات:

أسوانُ والعقادُ فيها كعبةٌ ... سمحَ الزمان فِصرتُ من حجاجها
قد كنتُ أبصرها برأسٍ حاسر ... واليوم قد أبصرتُها فى تاجها
قولوا لرواد الكواكب إننى ... زُرْت النجوم الزُّهْرَ فى أبراجها
الضّاديا عباس أنتَ سراجها ... وأنا شعاعٌ من وميض سراجها

فابتسم العقاد، وأجال فكره، فرّد علّى بقوله:

أسوانُ فى دين السماحة كعبة ... بحداتها، والغر من حجاجها
أقبلْ إليها يا غنيم وزِدْ بما ... حييتها بُرجا إلى أبراجها
والشعرُ من وحى الغنيم غنيمة ... أغنْى الغشاةَ مزوّدٌ من حاجها
أنت الوميضُ من السراج إذا ارتقتْ ... ومضاتُه العليا إلى معراجها

قلت هذا رائع، فصاح غنيم، أصبحتُ أحب العقاد، لأنّه السيف الذى يجتث رقاب أصحاب الشعر الحرّ، ولن يثبتوا أمامه بحال، ومات العقاد فرثاه غنيم، ثم ودع غنيم فبكيناه...

* * *

الشيخ عبد الحليم محمود

من مزايا الدكتور عبد الحليم محمود أنه يتكلم بِصَمْته كما يتكلّم بلسانه، فأنت تجلس معه، وهو سابحٌ فى فكره، وكأنّه فى الخلوةِ التى اعتاد أن يفىءَ إليها من هجير الحياة تجْلسُ معه صامتًا فتقرأ فى ملامح وجهه وفى بريق عينيه، وفى انطلاقِ بَسمتْه حديثًا موجّهاً إليك، مع أنّه يشتغل بتسبيح وذكرٍ، إذ يده تحرّك مسبحته، ولستُ وحدى الذى يحسُّ ذلك، بل أكثرُ مريديه يدركون ما أدرك.

وحين جاءهَ اليقين، وهرعتُ إلى محفل الوداع، وتقابَل الأصدقاُء والأهل، كانتْ مظاهر الهدوء الصامت تغلبُ مظاهر الحزن الناطق، لأن شعوراً خاصا سَيْطَر على الناس بأن الرجل قد انتقل من مصرَ إلى الجنّة فى مقعد صدقٍ، وكيف يحزنُ أحد لمن حظى برضوان الله، ثم استمعنا إلى مَن أخبرنا أن الرجل فى ساعاته الأخيرة طُلبَ منه أن يتهيأ لعملية جراحة، فابتسمَ، ثّم استسلم راضيًا، وحين أدركَ نهايتَه صاح فى المجتمعين: الله حقّ، الموت حق!! لقد كانَ يعلم أن الإنسانَ فى معترك الحياة يتأهب للرحلة الطويلة، ولابُدَّ منها، فلما حانَ موعدها، جزمَ بأنّها حق لامريَةَ فيه، وعليه أن يستقبلها ببشر وابتهاج.

أول لقاء:

كانَ الأستاذ مُدرسًا للأخلاق فى كلية اللّغة العربيّة، وكانَ الطّلاب يحبّون درسه، ويعجبون باتجاهه الروّحى، حتى كثر الحديث عن سعادتهم به، وجاء أحد الأساتذة الذين يدرّسون البلاغة فى الكلية، فاستمع إلى أحاديث الإعجاب، ثم دفعه التسّرع العاجل، فقالَ: وماذا فى درس الأخلاق من الجدّة والابتكار؟ إنّ كلّ

خطيب مسجد يتحدث كلّ يوم عن الأخلاق، ولا يُمكن أن يأتى مدرسُها بجديد، وكنتُ أستمعٍ إلى القائل، فقلتُ: ياسيّدى، الأخلاق فى الدراسات العالية بكليّات الجامعة جزءٌ من أجزاء الفلسفة، وقضايا الشّر والخير، والمسئولية والجزاء، والالتزام والإهمال، والحق والواجب، كلّ هذه القضايا الشائكة مُعترك يخوُض فيه أساتذة الأخلاق سابحين، ولهم أدلتهم العقليّة، ويزيد عليها الشيخ عبد الحليم أدلةً نقلية يلتمسها فى القرآن والحديث وسير السابقين من ذوى الفضل، وأدلّة ذوقية يلتمسها من أحاسيسه المؤمنة، وأشواقها المتوهجة، فكيف تقولُ إن خطيب المسجد فى الرّيف يقوم بما يقوم به أستاذ الأخلاق فى كلية جامعيّة! قالَ الشيخ: وهل تخرج الدروس عن الصّبر والورع والأمانة والإخلاص، فقلت إنّ مدرس المدرسة الابتدائية يتحدث فى النحو عن الفاعل والمفعول به، وأستاذ الدراسات العليا بالجامعة يتحدّث عن الفاعل والمفعول به فى النحو، فهل يتقاربُ الحديثان؟ قال الرجل: دائماً نتناقش فيما لا يفيد، وسكتَ وسكتّ، ولا أدرى مَن الذى أوْصَل الحديث إلى الأستاذ عبد الحليم محمود، فبعث إلىَّ يرجو أن أقابله، وصافحنى فى ابتسام، ثم قالَ: لا تُعارضْ من تلمس فيه الغرض الواضح، لأنّ النقاش لا يُفيد غير طالب الحقيقة، أما الذى يتمسّك بما يقول برغم وضوح خطئه، فمعارضتُه لاتفيد، دعْه يتكلم، فالكلامُ لايحق باطلا، ولا يبطل حقا، ثم تلاقول الله عز وجل:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[1].

في بني عامر:

توجهتُ فى إحدى المناسبات إلى زيارة أخى الأستاذ محمود أحمد هاشم رحمه الله، فوجدتُ الجمع بساحة المسجد حافلاً يغصّ بالمجتمعين، كعادة أهل الشرقية فى مولد الشيخ أحمد هاشم، وعلمتُ أن الدكتور عبد الحليم محمود يجلس فى صدر الحفل مع نفرٍ من أساتذة الأزهر، وحين رآنى، نهضَ فسلمتُ عليه مبتهجًا، فقال لى: نحن هنا منذُ ساعة، والناس يصخبوُن، فتحدثْ إليهم يارجب، فقد

(١) سورة هود الآية ١١٨.

ينتفعُون، فوجئت باقتراح الأستاذ، فقلت: إنى لم أهيِّئ كلامًا يليق بالمجتمعين، ولابد من الإعداد الجيّد لأفيد، ولستُ من رجال المنبر، فهل يتفضل سواى؟ فقال الأستاذ: لا أرى داعيًا لهذا التحفظ، إنّك تحفظ كتاب الله، ويكفى أن تقرأ آيةً أو آيتينْ وستجدُ الفتحَ المبين، لأن للْقرآن نوراً يشرح الله به صدر المؤمن، ثم التفتَ إلى الزملاء فقالَ: كنتُ فى شبابى أهابُ الحديث فى الاجتماع العام، لأنّى أريد أن أحْظى بقبول المستمعين، ثم صرفنى الله عز وجل عن هذه الرغبة، فأصبحتُ أريد النفع ولو لمستمعٍ واحد، فكنت أُسرع الكلام، وفق ما يوجهنى الله إليه بدون إعداد، وأنا أعترف أنى لم أكن آتى بالجديد، ولكنْ أذكّر الناس، فالذكرى تنفع، وهنا نهض الشيخ حسينى هاشم فألقى كلمةً موجزة حازت القبول، فدعانى الشيخ قائلا: هل قالَ الحسينى غير ما تعلم، ولكنْ هنا فى محيط العامة مَن لَيْس يعلم، فنفحُه إذن ضرورى، تشجعْ يا أخى ولا تنكص.

ثم انتقلنا إلى حجرة الطعام، وكانت مُهيَّأةً بأنْفس ما يُؤكل، فقال الشيخ: لا أريدُ غير العيش والجُبن، فقال قائل: العيشُ موجود، أمّا الجبن فهو مصنوعٌ من نتاج اللحم، واللحم حاضر ينوبُ عنه، فابتسم الرجل وقال: ليس عندى استعدادٌ لغير ما طلبت، فأنا أفهمُ نفسى، ثم قال: عاش المفكر الإسلامى الكبير عبد الواحد يحيى سنوات لايذوق فيها غير كوب اللّبن، يُقدّم لهُ فى الصباح والمساء، مرتيْن فقط فى اليوم، فقالَ أحد الحاضرين: ومن عبد الواحد يحيى هذا؟ إنى لا أعرف عنه شيئاً، فضحك الشيخ وقال تذكّرنى بموقف طريف، لأنّى سمعتُ عن الرجل كثيراً وأنا فى فرنسا، بدُون أن أعرف من أمره شيئًا، وعجبتُ كلّ العجب أن يعيشَ فى مصر، فتتحدث عنه باريس، ولا تتحدّث القاهرة، وحينَ رجعت من البعثة كان أكبر همّى أنْ أحظى برؤيته، وبذلت جهدًا جاهدًا حتى عرفت مكانه، وسعيتُ إليه، فحجبت عنه عدةَ مرات لا عتذاره عن مقابلة أحد، حتى ضاق بى الأمر، ثم علمت أنّ وزير الأرجنتين المفوّض فى مصر، يزورُه فى منزله، وإذْ أردتُ الاتصال به فعن طريقه، فبادرتُ إليه راجيا، حتّى سمح بمرافقتى إياه،

واتّجهنا إلى (فيلا فاطمة) فى إحدى ضواحى الدقى، فدققنا الجرس، وانتظرْنا لنَرى شيخاً مهيبًا، طويل القامة، يغمُر النور وجهه كأنّه بدرٌ ساطع، فاستقبلنا باسمًا، والتزم الصمت، ولكنّ السفير أخذَ يتحدّث فى ملاطفة، والشيخُ يبتسم دونَ أن ينطق، ثم رجَعْنا إلى المفوضية، فقال السفيُر لزوْجته: لقد قابلنا اليوم شخصية مهمة جدا، فمن تظنين؟ قالت: وزير الخارجيّة، قال السفير: أعظم. قالتْ ماذا أقول؟ أقول ربنا؟ فقال السفير: هو شخصية إلـهيّة، هو عبد الواحد يحيى، فَصَرَخَتْ: لماذا لم أذهبْ معكما؟ أنت تعلم شوقى إليه، هل هذا يليق؟». وعجبنا من القصّة، إذ كانت شخصيّة عبد الواحد غريبةً على أكثر المستمعين..

ابن عطاء الله السكندرى:

اتصلَ بى الدكتور يوسف الشال سكرتير تحرير مجلّة الأزهر، وقال لِى: إن الدكتور عبد الحليم محمود كلّفنى بأن أدعوك لزيارته سريعًا بمكتبه بالأزهر، وأنا أسعد كثيراً بلقاء الرجل، ولكن لا أحب التردد على المكاتب العامة للمسئولين، فلمّا علمتُ دعوته إلى سارعتُ للقائه، فقالَ لى: دعوتُك لتكتب مقالا بمجلّة الأزهر عن ابن عطاء الله السكندرى تتحدّثُ فيه عن تاريخه ومجده العلمى وأثره الأدبى، وتدعو القادرين للتّبرع كى ننهض ببناء مسجد يليق بمقامه، لأنى لم أرتحْ لموضعه، حين زرته بالأمس، وقد افتتحتُ بابَ التبرّعً بما أذن به الله، فما رأيك؟ قلت: إنّى على صلة بآثار ابن عطاء، وأحفظُ من حكمه أقوالا تكاد تكون شعراً، فقال: ما شاء الله: أسْعفْنى ببعض ما تحفظ! قلتُ قول ابن عطاء عن ربّه:

كيف يتُصوّر أن يحجبه شىء وهو الذى أظْهَرَ كل شىء؟ كيف يتصوّر أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء؟ كيف يتُصور أن يحجبه شىء، وهو أظهر من كل شىء؟ كيف يتُصوّر أن يحجبه شىء، وهو الواحد، ليس معه شىء؟ كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كلّ شىء، كيف يتُصور أن يحجبه شىء، ولولاه ما كان وجود شىء؟

فابتسم الرجل، وقال تقول هذا يكاد أن يكون شعرا! إن الشعر لنْ يبلغ شيئًا من تحليقه السَّاحر! اذهب لتكتب المقال الليلّة، وأقرؤه فى الغد.

وأذكر أن المقال أثار ثائرة أخى الأديب الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين الكاتب السعودى المعروف، فعلّق عليه بما يدلّ على منحاه الدينى فى إهمال الاحتفال بأضرحة العلماء، ولم أتأثرْ لنقده وكان قاسى اللهجة، لأن الأنظار لابدّ أن تختلف.

اعتكاف الشيخ:

أعَدَّتِ الجمهورية قرارًا بشأن الأزهر يُحيل الأمور به إلى وزير شئون الأزهر، ويسلب شيخ الأزهر حقّه فى إدارة الأزهر وتوجيهه، فعارضَ الشيخ هذا القرار، وأَبْدَى من الحجج ما كان موضع الإقناع، ثم قدَّم استقالته وآثر الاعتكاف فى منزله، فانهالتِ الوفودُ عليه مؤيّدة مُحبّذَة، وزحفَ أبناؤه نَحوَه من كل صوب، ورأتِ الحكومة أن تتَراجع بعد أن لمستْ صدى اعتزال الشيخ لدى الرأى العام، ولكنَ بعض من يضيقون بالشيخ من اليساريين رأوْها فرصةً لمهاجمته، فأخذوا يفترون الأكاذيب، ويقولون: إنّ آلاف الدولارات تجىء إليه من بلاد البترول بدون أن تَعرف عنها الدولة شيئًا، وقد دار حديث الشيخ معنا حول هذه الأراجيف، فقالَ (إن كشوفَ التبرعات موجودة فى أمانة لجنةٍ أزهرية خاصّة بها، وبهذه التبرعات أُنشئت عشراتُ المعاهد الأزهرية فى شتىّ أنحاء الجمهورية، كما أُنشئت مئات المكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولَدى الحكومة سجلٌ بما أنشئ، وما تبرّع به المصريون مُضافًا إلى ما جاَء من الخارج) والذين فى قلوبهم مرض يَعْرفون ذلك ثم ينكرون الحقّ الصريح، ومَع وضوح البراهين فقد وجدَ الآفكُون الذين لايجرءون أن يقولوا كلمة واحدة عن التبذير المسرف فى أكثر المرافق، ثم يتعمدون مهاجمة الشيخ، لأنه حاربَ الشيوعية بلسان باتر، فألّف الكتب، وأقام الندوات، وسَاحَ فى البلاد هاديًا ومرشدًا، حتى أفاق الناس من سكرة الخداع الشيوعى قبل أن تتزلزل أقدامُه فى روسيا ودول الحلف بسنواتٍ طوال، ثم مات الشيخ ولم يترك مليمًا واحدًا، ولم تجدْ أرملتُه غير المعاش الحكومى، ثم مالبثتْ أن لحقت به؟ فأين ما أفك به الخَرَّاصُون؟

حدثنى مدير مكتب الشيخ، أنه كان ينفق العُشْر مباشرةً حينما يقبضُ مكافأةً على مقال أو كتاب، وقد قيل له: إن الزكاة لاتجب إلاّ بعد أن يحول الحول، فقال: أنا أفهم فهمًا خاصا فى قول الله عز وجل: ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ إذ لا أقتصرُ بالحقّ على المزروع فقط، بل علَى كلّ ما يجىء من المال، وهذا فهمى ولا أقيد به أحدًا!

درس بليغ:

كان الشيخ عبد الحليم على معرفة جيدة بمن يمتّون للوعظ بالمساجد، لأنّه يتحسس أخبارهم فى يقظة، فإذا علم من أحدهم مثابرةً وكان دءوبًا شجعه وزاره فى مجلس وعظه، وإذ لَمس تقصيرًا لدى بعض من يكتفون بالرسميات دُون إخلاص نبّههم بالحسنى إلى مايجب نحو المسلمين من إرشاد وتوجيه، ومِنْ طرائفه النادرة أنّ أحَد المنتسبين إلى طريقةٍ صوفية يقوم على مشيختها، وله وَجاهة فى محيطه وأسرته، جاء إليه ناقمًا يشكو الشيخ صالحًا الجعفرى خطيب الجامع الأزهر، والداعية الإسلامى الشهير، لأنّه يجمعُ نفرًا من أتباع الشاكى فى حلقته كى يقرأ عليهم الصلوات الادريسيّة بدلَ الأوراد الشاذليّة، واستمع الشيخ إلى الشكوى، فكتم تأففه فى داخله، وقالَ للشاكى: مَتَى سيُلقى الشيخ صالح درسه المقبل؟ فقالَ: علمتُ أنه سيلقى درسًا بالأزهر بعد صلاة العشاء هذه الليلة، فقالَ الشيخ: سأكون لديْه، فتعالَ معى، لنتحدث معه، وحان الموعد، فذهب الإمام الأكبر متواضعًا ليجلس فى أقْصى الحلقة مستمعًا، بدون أن يشعر الشيخ صالح بمقدمه، وكانَ الشيخ مُوَفَّقًا كل التوفيق فيا أبدعَ من شرح، حيثُ فتح الله عليه بما أنعْش السّامعين، وجَذبَهم إلى مَوْرده الصافى مُسترسلاً فى روائع الآيات ورقائق الأخبار، ثم انتهى الدرس بعد ساعةٍ ونصف، فتوافد السامعون فى طابور على الشيخ يلْثمون يديه كعادتهم معه، وانتظم الإمام الأكبر فى الصّف، ووراءه مَنْ شكاَ الرجلَ الكبير ظانا أن الإمام سيُفاجئ الدّاعية بما لا يتوقّع، فلما دنَا من الشيخ صالح، قبّل كفّه ومضى، فصَاح بعضُ الحاضرين ينبّه الشيخ صالح بأن الذى قبّل كفه هو الإمام الأكبر، فصاح الشيخ صالح متأثّرًا ينطق بلا إلـه إلاّ الله كمن

يستجير ثم جرى خلف الشيخ ليعانقه قائلاً: مَنْ أنا ياسيدى بجوارك؟! كيف غفلتُ عنك وأنت تقبّل يدى؟ ثم انحنى على كفّ الشيخ عبد الحليم لاثمًا عدة مرات، وخرج الإمام ليقول لصاحبه: لماذا لا تجمعون أتباعكم كل ليلة، وتُحضِرون مَنْ يفسّر لهم كتاب الله إذا كنتم عاجزين؟! لقد جئتُ بك هذه اللّيلة لتتعلّم من الشيخ، هلْ مشيخةُ الطريق وجاهةٌ أو أنها رسالةذات هدف؟ أنتم بتقاعسكم عن هداية الناس تصدّون عن سبيل الله! ثم تنقدون من يقوم بواجبه عن قناعة وإيمان، أنتم فى وادٍ وهو فى وادٍ.

وكم للدكتور عبد الحليم من مواقف ذات تأثير، فما كتبتُ هنا غير القليل!

***

الأستاذ محمود الخفيف

سعدت مدينة الفيوم ذات أسبوع بزيارة الأديبين الشاعرين الأستاذين محمود غنيم، ومحمود الخفيف، إذْ كانا مفتشين عامين بوزارة التربية والتعليم، أولهما للغة العربية، وثانيهما للمواد الاجتماعية، وقد اصطحبا معًا فى جولتهما التفتيشية وهما بعدُ صديقان حميمان تُروى لهما النوادر الفكاهية شعرًا ضاحكًا، وأدبًا مرحًا، ومن المتعارف لدى زائرى الفيوم من رجال التربية والتعليم أن يقضوا أمسياتهم الليلية بنادى المعلمين، أو بكازينو السواقى، وهو مقهى فخم، تضيئه الأنوار، ويحيطه الشجر الناضر، وأمامهُ يتدفق الماء جاريًا من النهر حيث تقوم السواقى الشهيرة بحركتها الدائرة، فتنسال خيوطه الفضيّة المتناثرة أمام العين فى مشهد رائع يتسلط عليه ضوء الشمس نهاراً، وأشعة الكهرباء مساءً، فلا أَرْوَعَ ولا أبهى من منظره إذ ذاك، وهذا ما جعل المقهى قبلة الأنظار، ومهوى المتسامرين والطّاعمين معًا، وقد علمتُ ذاتَ لَيْلة أن الشاعرين الكبيرين يأخذان مكانهما البهيج بيْن كوكبة من المدرسين، فهرعت لأكون بين المرحبين، لأنّ علاقتى بالأستاذ محمود غنيم وثيقة، فهو الأستاذ والصديق، وكان ما توقعتُ، إذْ رأيتُ الشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم يتوسط الزملاء فى سمر فكاهى عذب، على حين جلس الأستاذ محمود الخفيف منفردًا وحده، فى مكان يطلّ على السواقى، فقلت فى نفسى: لَمِ لَمْ يحضر من أساتذة المواد الاجتماعية من يناقله الحديث؟ وإذا لم يكن ذلك فلماذا لم يندمج فى ندوةِ زميله وصديقه الشاعر محمود غنيم؟

وأخذتُ أتطلّع إلى مجلسه فى حيرة، وفى الأستاذ غنيم ذكاء وبديهة، إذْ عرف موقع نظراتى، فصاحَ من فوره، يا أستاذ محمود، الأستاذ رجب يريد أن يسمر معك، وقال لى ضاحكًا: هيّا.

أول لقاء:

ذهبت إلى الأستاذ الخفيف سعيدًا مغتبطًا، لأنى أعرف مكانه من الأدب الرفيع، وقبل أن أصل إليه، رأيته واقفًا يمدّ يده للسّلام، فتصافحنا فى شوق، وقال لى: لا تنكرْ علىَّ انفرادى، لأنّ منظر السواقى قد جذبنى إلى ذكريات ماضية أرتاح لاسترجاعها، وقد قلت للأستاذ غنيم إنى لا أرحب بضجيج المدرسين، وكفى أن أكون معهم فى الصباح! فعجلتُ أقول: أخشى أن أكون قد فرضتُ نفسى فرضًا على مجلسك الهادىء، فأجاب سريعًا: كلاّ كلاّ، الأستاذ غنيم ذكر لى أنك بالفيوم، فاشتقتُ للقائك، لأنّ الرسالة جمعتْنا، ولابدّ أن نتعارف، فاستدركتُ أقول: مع فارق واضح، هو أنك بمجلة الرسالة أستاذ وأنابها تلميذ! فربت بكفه على كتفى، وقال: لافرق.

وكنت أعرف من أصدقاء الخفيف أنّه يستمع أكثر مما يتكلّم، وهو فى ذلك نقيض الأستاذ محمود غنيم، إذ يتكلّم بإفاضة فى كل مجلس على معرفة وفكاهة وذوق، فأردتُ أن أفتح مجال الحديث الأدبى فيما يتعلّق بمؤلفات الأستاذ الخفيف، لأنّ له كتبًا تجمع بين التاريخ والأدب كانت محور الانتباه بين صفوة المفكرين، إذ كتب عن أحمد عرابى، وإبراهام لنكولن، وتولستوى، وجون ملتون، مجلّدات رائعة هى فى الصف الأول بين كتب التراجم المعاصرة، هذا إلى قصائده الشعرية التجديدية التى حفلت بها مجلدات الرسالة، فقدمت نمطًا جديدًا من الشعر العربى الأنيق، أقول: لقد أردتُ أن أفتح مجال الحديث الأدبى عن مؤلفات الخفيف، فقلت له: لقد قرأتُ ماكتبه الدكتور زكى نجيب محمود، والأستاذ العقاد، والأستاذ الزيات، والأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عن آثارك الرائعة، بعد أن كونت لى فكرة خاصة عنها، إذا طالعتها متفرقه على صفحات الرسالة، ومجموعة فى مجلدات خاصة، فنظر دهشًا، وقال: ما أظنك تهتم

فقال، وهل قرأت ردّى على الدكتور زكى نجيب محمود؟ قلت: لا تعتدنى مجاملاً حين أذكر أن الدكتور زكى نجيب محمود قد اشتط كثيرًا، إن الناقد الكبير أثْنَى على أسلوبك، وحمد جهادك المتواصل فى مضمار الأدب، عارفًا معدنك الفكرى الأصيل، وقد كتب فى ذلك فقرات صادقة، صادفت هوى المنصفين، ولكنه رآك تدافع عن أحمد عرابى وإبراهام لنكولن فى حماسة، فقال: إنك تجاوزت دور المؤرخ إلى أسلوب الخطيب، بل قال: إنك تحدثت عمًّا ينبغى أن يكون لا على ما قَدْ كان! وهذا غير الواقع، لأن الذى لايتحدث عمًّا كان لايكون مؤرخًا لأحداث، ومسجلا لمواقف، بل يكون قصَّاصًا يمزج الواقع بالخيال.

قال الأستاذ الخفيف: هذا بعض ما قلتُه فى ردّى عليه، ولم أشأ أن أطيل ردّى، لأنى أعرف من طبيعة الدكتور زكى ـ وقد كنا زملاء بمدرسة المعلمين العليا ـ أنه يضيق بالأسلوب الأدبى فى مجال التحليل التاريخى، مع أن كبار المؤرخين فى الشرق والغرب يقدمون الشخصيات التاريخية فى أفواف لامعة من البيان، دون أن يخالفوا الحقائق الأدبيّة فى شىء، وما احتفل القراء بآثارهم إلاّ لأنها تجمع بين الصدق الواقعى، وجمال الأسلوب البيانى، وأذكر أنى قلت فى ردّى المتواضع: إن على الدكتور زكى أن يتفضل بذكر حادثة واحدة بين أكثر من ألف وخمسمائة صفحة لم تحدث فى دنيا الواقع، وكتبتُها أنا متحدثًا عمًّا ينبغى أن يكون، ولم يجد الدكتور هذه الحادثة المتخيلة فآثر السكوت!

قلتُ: أتذكّر أنى قرأتُ هذا فى ردّك، ولكن أزيد عليه شيئًا أذكرهُ الآن، هو أنّ الدكتور زكى قد كتب نقده بعد رجوعه من لندن داعيًا إلى المنطق الوضعى، وقد كتب عدة مقالات تدور حول تحديد معنى الألفاظ بدون ترادف، وفى ظلّ هذا المفهوم المنطقى لديه قرأ كتابك، وحكم بما حكم، ناسيًا أن التاريخ من الدراسات الإنسانية وليس من العلوم التجريبيّة، وأن المؤرخين الذى كتبوا التاريخ بلسان الأدب، قد قربوه إلى القارئ وكسبوا أرضًا جديدة لم تُتح من قبل، وموضعُ

الحكم أن نسألَ: هل تعدّى المؤرخُ الأديب ماكان أو وقف عنده بدون شرود؟ وإذا لم يتعدّ فلا نقاش!

اغتبط الأستاذ الخفيف بما ذكرت، وقال: إنه كان يحسّ أن جمهوراً كبيراً من القراء سيتأثر بما قال الدكتور زكى، ولكنّه الآن يعلم أن المسألة قد أصبحت فى غاية الوضوح بحيث لم يتأثر به غير المغرضين.

ثم سألنى: هل تذكر رأى الأستاذ عباس العقاد؟ فقلت: لقد قرأت ماكتب العقاد فى حينه، وأظنك رددت عليه، ولكنى الآن لا أذكر ماقال، وفى مُكنتى أن أرجع إليه بعدُ.

قال الخفيف: الحق أن الأستاذ العقاد أنصَفنى إنصافًا كَبَتَ الذين فرحوا بما قال الدكتور زكى نجيب محمود، وللأسف نرى فى مصر جماعةً لا يقرءون أى كتاب، ولكنهم يتتَبَّعُونَ ما يُقال عنه، فإن كان حمداً ستروه ، وكأنهم لم يقرءوا، وإن كان توضيحًا لما قَدْ يُغمضه الكاتب أو تفصيلاً لما أجمله، عدُّوا ذلك التوضيح تخطئة ومضوا يقولون: لقد عصف العقاد أو غير العقاد بكتاب فلان، لقد اعترف العقادُ فى مطلع نقده النزيه أن كتابى جمع من الحقائق الثابتة بالأسانيد والوثائق مالاغنى عنه لفهم الشخصية التاريخية التى أتحدث عنها، وأننى فى كتاب أحمد عرابى قد محصت التاريخ المصرى، وأوضحت أساليب السياسة الاستعمارية فى القرن الماضى إيضاحا يكشف مخابئ هذه السياسة الماكرة فى هذا القرن، كما أبان أن كتابى عن أبراهام لنكولن هو الكتاب الوحيد فى اللّغة العربيّة الذى تكفل برسم هذه الشخصية العظيمة، وتوضيح أدوارها على مسرح الحياة، وقد أخذ على أنّى لم أكتب الكثير عن أسرة الزعيم الأمريكى، ولم أوضح أثر المصادفات فى نجاحه السياسىّ، وكنت بيْن عامليْن مُتناقضين إزاء ماكتب العقاد، إمّا أن أسكت فلا أعقب، ومعنى ذلك أنى موافق على ماوجّه إلىّ من نقد، وإمّا أن أردّ فأقع فى خطأ ما يأخذه العقاد فيفتح له مجالا لتعقيب قد لا أقدر على نقضه، وبعد استشارة بعض أصدقائى تقدّمت برد مهذّب على الأستاذ، وتفضّل بتعقيب ضيق

وَجهَ الخلاف، ولو أذن الله فطُبع الكتابان طبعة ثانية فإنى مثبت ما قال الناقد الكبير فى صدر الطبعة الجديدة، ومعقب بما قلت فى الرد عليه.

كنت أثناء حديث الأستاذ أستمع يقظًا بدُون اعتراضٍ مًا، فقال: أرانى أرهقْتُكَ بحديث جدلى لا فائدة فيه، قلتُ: معاذ الله، إنى حاولتُ استيعاب كل ما نطقتَ به متفضّلا، فقال: لنترك الكتابة إلى الشعر، فأسألُك عن آخر ما نظمت؟ قلت: ياسيدى أنا إذا قُلْتُ شعْراً إنّما أعرضه فخوراً أمام زميل لى بالمدرسة، أو صديق مستواه الفكرى لايرتفع عن مستواى، أما أن أقول الشعر لأسمعه للأستاذ محمود الخفيف، فإنى أجازف بذلك مجازفة خطيرة!

فضحك الأستاذ وقال: وإذا كنتُ قد قرأتُ كلّ ما نشرتَ بمجلتى الرسالة والثقافة، واستمتعتُ كثيراً فأين المجازفة إذن؟

نقلة فى مفاجأة:

وكأن القدر شاء أن نتركَ حديث الأدب شعراً ونثرًا إلى حديث مفاجئ اقتحم جلستنا، كما يهجم زائر بغيض على غير انتظار، فقد مرّ أمامنا فى الشارع المواجه للمقهى موكب يحشدُ فيه عشرات من المارّة، خلف شيخ يلبس عمامة حمراء، ويقلّب سبحة طويلة تكادُ حباتها تصلُ إلى الأرض، وخلفه من يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير، فقال الأستاذ متعجبًا: وفى الفيوم أيضًا هذه المظاهر السوقيّة؟ وقام الجالسون من حولنا لينظروا فى عجب، على حين صاح أحدهم: هو الشيخ فلان من بنى سويف، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه ورث المشيخة عن أبيه وجدّه، وإذَا زار الفيوم انعقد له هذا الموكب، وأخذ ينزل فى دور أتباعه قرابة شهر ليكون موضع التقدير والاحتفاء، وهذا الموكب مهذب معقول، فإنهم فى القرى الصغيرة يضربون الأعيرة النّاريّة ويطلق النساء الزغاريد احتفالاً بمقدمه، ويتقاتل الفلاّحون على استضافته شَهْرَيْن وثلاثة وأربعة، وهو ساكت لاينطق، لأنه يَسْبَح فى ملكوت الله عند الملأ الأعلى فى اعتقاد هؤلاء. . وهم يرجون نجاح التلاميذ وشفاء المرضى وجودة المحاصيل الزراعية ببركة زيارته.

قال الأستاذ الخفيف، بعد أن سمع هذا القول: سأروى لك قصّة من هذا الوادى، إن مصر هى مصر، وفى قريتنا بالمنوفية أتباع مخلصون لشيخ مثل هذا الشيخ الأُمِّى، ولكنُه دجال مشعوذ لايكتفى بالنظرات التى تسبح به إلى الملأ الأعلى، ولكنه يدبّر الحيل الغريبة ليوهم الناس بمعجزاته الخارقة، وأضرب لك مثلا لبعض ألا عيبه، فقد دخل منزل شيخ القرية ذات مساء، وجلس أتباعه من حوله كأن على رءوسهم الطير، ثم ارتفع صوته بالتكبير ونهض واقفًا، وهو يقول: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله، أَطْفِئ النارَ يارب، أَطْفِئ النار ياربّ، أَطْفِئ النار ياربّ، الفلاحون مساكين، يا حُسَيْن، يا سيد، وجعل يقفز ذات اليمين وذات الشمال، وبعد لحظات سمع الحاضرون صراخًا عاليًا جاء من الخارج، وقال القائل: إنّ النار قد اندلعت فى جُرن فلان، وخرج الريفيون كعادتهم وأطفئوا الحريق، ورجعوا وهم يتعجبون كيف عرف الشيخ اندلاع النار قبل أن ينبعث لها شرار! فقال لهم: لقد قدرتُ الموقف واستعنتُ بالحسين وبالسيد، وهما اللذان أطفآ الحريق، الحمد للّه، الحمد للّه، فزاد الرجل مهابةً فى نفوسهم، ولكنَّ شقاقاً حصل بيْنه وبين أحد أتباعه وخدمه بعد عام، فقال للناس: لقد أرسلنى حين دخل المنزل يوم الحريق إلى الجرن وأمرنى بإيقاد النار بعد ربع ساعة بالتحديد، ففعلتُ ليقومَ بلعبته، ويدعّى أنه يعلم الغيب، ويُنادى الحسين والسيد فيأتمران بأمره، وهمَّ أهل القرية أن يبطشوا بهذا الذى اعترف بالواقع جَزاء جرمه لولا أن فريقًا من الدهماء كذّبه وقال: إنه يفترى على الولىّ الكبير!

آخر لقاء:

قرأت فى الصحف بعد أسابيع أن الأستاذ محمود الخفيف صار ناظرًا للمدرسة السعيدية الثانوية، وهى من كبريات المدارس بمصر، فرأيت من اللائق أن أذهب إلى تهنئته، وماكاد يرانى حتى ترك مكتبه، ونهض يعانقنى هاشا باشا، فقال: لماذا تكّلف نفسك يا أخى! أنا لا أعد نظارة المدرسة الثانوية وان كانت السعيدية شيئًا ذا

بال، وإذا جاز لفريق من الموظفين أن يطمحوا إلى أمثالها، فهم وموازينهم التى لا أعتد بها!

وبعد أن دار الحديث فى رتابته المعهودة، قال لى: سأفاجئك بخطابٍ تعجب له، يكشف عن معدن ناظر أصيل من نظار المدارس الحقيقيّين، وهو إنجليزىّ للأسف، ليته كان مصريا فأفخر به وأزهو، ولكنه إنسان رفيع المستوى، لا تجد مثله بيننا، وأراهنك!

قلت: لقد حيّرتنى فأتمم، قال: كان (المستر إليوت)ناظرًا لمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة، وأُحيل إلى المعاش منذ خمسة وعشرين عامًا، وسافر إلى لندن، ولكن أحد الفراشين بالمدرسة كان يراسله كلّ عام، فيرد عليه الناظر ردا مسهبًا، ليسأل الفراشَ عن أبنائه وأحوال تعليمهم، كما يخبره عن أبنائه الذين رآهم فراش المدرسة صغارًا بمصر، كيف تعلموا؟ وأين صاروا، ثمّ كانت الدهشة التى تلقاها الأستاذ الخفيف حين حضر إليه الفراش بكتاب باللّغة الإنجليزية ليترجمه له كما اعتاد الخفيف أن يترجم بطاقات المعايدة، إذ وجد (المستر إليوت) يكتب إلى الفراش قائلا إن نجله نائب مارشال الطيران بجبل طارق أخبره أنه سيزور القاهرة فى عمل سياسىّ برفقة رئيس وزراء إنجلترا، فحتم عليه أن يزور السيد (أحمد حسين) فراش المدرسة التوفيقية، وأن يعلم أحواله الصحّيَّة، ويستفسر عن شئون أولاده بمصر، وقد جاء النجل الكريم للمدرسة فوجد السيد أحمد حسين غائبًا، واضطر إلى عدم تكرار الزيارة لأن الرحلة كانت لمدة يوم واحد فقط! وقد أسف المستر إليوت لعدم لقاء ولده بصديقه أحمد حسين، ويرجو أن يكون حظه فى المرة القادمة أحسن وأتم! هذا ما جاء فى خطاب الناظر الإنجليزى المحال إلى المعاش منذ ربع قرن، وهو خطاب حرص الخفيف على نشره فى صحيفة أدبية ليُعطى النموذج النادر فى الوفاء.

سمعتُ ما قال الخفيف، فقلت: أنتَ لم ترحّبْ بخطاب (المستر إليوت) إلا

لمشابهةٍ ما بين خُلُقِكَ وخُلقه، فقال: ليتنى أبلغه، وحان انصرافى فودعته غير عارف أنه وداع لغير لقاء، إذ لبى نداء ربه بعد عدة شهور.

* * *

الأستاذ على عبد الرازق

للأستاذ الكبير على عبد الرازق ـ وزير الأوقاف الأسبق ـ فكره المستقل، ورأيه الحرّ، وقد أحدث كتابه عن الإسلام وأصول الحكم ضجة فكرية جوّفتها السياسة الحزبيّة، فانتقلت من حيّز إلي حيز، ثم رأى الأستاذ بعد تجربته فى هذا الكتاب أنْ يُؤثر التؤدة، فلم يكتب من المقالات والبحوث ما يوحى به استعداده، ولكنّه اكتفى بمقالات هادفة ينشرها فى السياسة الأسبوعية أيام ظهورها، ثم فى مجلات دار الهلال، هذا غيرُ محاضراته فى الندوات الرفيعة التى كان يتحدث فيها كبار رجال الفكر فى مصر، مع دروسٍ علمية فى أصول الفقه ألقاها على طلبة الدراسات العليا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة، ثم طبعها تحت عنوان «الإجماع فى الشريعة الإسلامية».

وقد قابلت الأستاذ الكبير مرّتيْن متواليتيْن، فحظيتُ بفضله وعلمه وكرمه، وتنقّل الحديث من موضوع إلى موضوع، فى مدار العلم والأدب، وقد أعجبنيِ منه حسن استماعه، إذ كنتُ ـ على الفارق الكبير بينى وبينه ـ أجابهه بالمخالفة فيصغى فى تأمل، ثم يوجّهنى إلى ما غاب عنى من نقاط يعرفها حق المعرفة فى هدوء العالم المتمكن، والأستاذ السمح.

لقد تَقَدَّمْتُ بكتاب (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) إلى المسابقة الأدبية بمجمع اللّغة العربية فى مصر، وكانَ الأستاذ أحد الفاحصين، ففزتُ بتقديره، وحين اجتمعت اللجنة للمداولة، وجدَ من بعض الأعضاء من يعارض اتجاهه، وحجّتُه أنى لا أعرف اللّغة الأسبانية، وعلى مَن يكتب فى الأدب الأندلسى أن

يعرف الأسبانية، فقال الأستاذ على: أنَا لا أعرف الأسبانية، وأنت لا تعرفها، وكان لزامًا علينا بمقتضى وجهتك ألاّ نحكمَ على الكتاب حتى ندرسها! ووافقت اللجنة على تقدير الأستاذ..

علمتُ بعض ما كان، فأحببتُ أن أسعد بلقائه، وكأنّ الحظ كان معى، فقد جاءنى من قال: إن الأستاذ على عبد الرازق سأل عنك، ويحب أن يراك، وهى بشرى طيبة، لأنى أجد فى محادثة الكبار من الأساتذة آفاقًا جديدة تتسع أمام عقلى فجأة، ولهذه المحادثة تأثيرٌ يفوق تأثير القراءة فى الكتب، لأن صاحب الحديث يدافع عن رأيه، فترى فى بريق عينيه، وسحنة وجهه، ونبرة صوته ما يزيد حديثه تمكنًا ورسوخًا، وهكذا هرعت إلى منزل الأستاذ بالدقى ذات أصيل.

اللقاء الأول:

قابلنى الرجل الكريم بهدوءٍ باسم، وفهمتُ من حديثه أنه قرأ كتابى من ألفه إلى يائه، وقد سأل عن نقاط شتى فأجبته عنها كما أستطيع، وكانَ الحديث يتّجه فى أكثره وجهة الأدب الخالص، فرأيتُ أن أعدل به إلى مباحث التشريع، فقلت: لقد وقعَ فى يدى كتاب (الإجماع) وقرأتُه باهتمام، ثم علمت أنّ الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت قد عقّب عَليه، فناقشَ أمورًا جوهرية، تتعلق بمباحثه، واختلافُ الأساتذة الكبار متوقّع منتظر، فهل قرأتَ ما كتب الأستاذ شلتوت؟

فقال الأستاذ: إنّ الشيخ محمود شلتوت من أعزّ أصدقائى، وترجع معرفتى به إلى أكثر من ثلاثين عامًا وله رأيُه الحرّ، وقد ناقش آرائى بدون أن يشير إلى اسمى، وكأنّه رأى أن تكون الموضوعية وحدها منهجًا يُلْتَزَم، وقد قابلتُه بعد ظهور كتابه عدة مرات فى جلساتِ مجمع اللّغة العربيّة، وتحدّثنا فى مسائل كثيرة، ولكنه لم يُشِرْ إلى شىءٍ مما كتبَ فى حديثه معى، فآثرتُ ألاّ أفاتحه حتى يبدأ، وقد حمدْتُ له سلوكهَ العلمى لأنه احترم الرأى المعارض، وناقشَه فى حُدود الأدب واللياقة، ولو سلكَ المعارضون معى مسلكَ الأستاذ شلتوت لَما صادفتُ كثيرًا من العقبات.

أدركتُ من حديث الأستاذ، أنه يشير إلى المعركةِ الكبرى حولَ كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، إذْ رأى الأستاذ رَأْيًا لم يُوفّق فى تحقيقه، فقابله الجمهورُ بصخب مائج، وانْدَفع بعضُ الكُتَّاب إلى مهاجمةٍ تتعلّق بشخص الكاتب لا رأيه، فقلتُ فى أدب:

إنّ ماذهب إليه كتابكُ عن الإسلام وأصول الحكم حين قررتَ أنّ الإسلام صلةٌ روحية بين العبد وربه، وليسَ دستورَ معاملَة وتشريع! كانَ من الخُطورة بحثُ لا يجوز السكوت عنه!

قلتُ هذا وأنا أخشى أن أُغْضِبَ الأستاذ؟ وقد قابلنى مقابلة كريمة، ولكنه سأل فى هدوء: أتقولُ إنى قلت إن الإسلام صلة رُوحية فقط؟ لم أقلْ هذا، وقد أوضَحْتُ مقْصدى فى مقالٍ صريح نشرته بمجلة (رسالة الإسلام) التى كانت تُصدرها جماعة التقريب، ردا على الأستاذ الدكتور أحمد أمين حين قال إنّ هذه هى فكرتى!

كان ما قاله الأستاذ مفاجأة لى! فأنَا أعرفُ أنه قرَّرَ أن الإسلام صلة روحية فقط، وما قامت الفرقعة الصاخبة إلا من جرّاءِ هذا القول! وإنّ الذين عارضوه فى كتب مستقلة من أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعى، ومحمد الخضر حسين، ومحمد الطاهر عاشور، قد وجهوا الهدفَ إلى إبطال هذا الزعم، فهل يكون الأستاذ قد رجع عَنْ موقفهِ بعد سنوات رَاجَعَ فيها نفسه، وقرأَ ما كَتَبَ مُعارضوه بإمعان، فصحح الرأى، وعاد إلى الصواب؟!

لقد صممتُ أن أُراجعَ مقال الأستاذ، وارتحتُ كثيراً لهذا النبأ الجديد، وانتقلَ الحديث إلى شجون أخرى أَلْمَمْنا فيها بمؤلفاتِ شقيقه الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق، وصداقاته المختلفة لكبار المفكرينَ والشعراء فى هذا العصر، ثم ذكّرتُ الأستاذ بمحاضرةٍ جيّدة ألقاهاَ عن التجديد فى البلاغة العربية، ونشرها بمجلة

الهلال، فَراعَنى أن أجدهَ قد نسيَها كل النسيان، وقد طلبَ منّى أن أُحضر مجلة الهلال التى أشرت إليها، ليرى ما قال.

تحقيق ودراسة:

اتجهتُ من فورى إلى البحث عن أعداد مجلة (رسالة الإسلام) وكانت مهمّةً صعبة، لأن الأعداد كثيرة، والرجُل لم يحدد تاريخ الصدور فيريحَ الباحث، إذْ لا يذكره، ثم كان مِنْ توفيق الله أن وجدتُ ما أريد فى عددين متلاحقين (هما العدد الثانى والعدد الثالث من السنة الثالثة) أبريل سنة ١٩٥١، ويوليو سنة ١٩٥١) لأن المجلّة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر، وفى العدد الثانى (ص ١٤٦) وجدتُ مقالاً للدكتور أحمد أمين تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام) يقول فى مطلعه:

«كنتُ أتجادل فى الشهر الماضى مع معالى الأستاذ على عبد الرازق باشا، وكنا نتعرضُ حال المسلمين وما وصلوا إليه من جمود، فقال: إنّ دواءَ ذلك أن نرجعَ إلى ما نشرتُه قديمًا من أنّ رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، فقلت: إنّ رأيى أن رسالة الإسلام أوسع من ذلك فهى روحانيةٌ وماديّة معًا، بدليل ما ورد فى القرآن من نظامِ البيع والشراء، والإجارة والمعاملات المالية، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك.

ثم صدرَ العدد الثالث يحملُ مقالاً تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام - ص ٢٤٦) بقلم الأستاذ على عبد الرازق باشا قال فيه بعد أن نقل عبارة الدكتور أحمد أمين:

«وقفتْ أمام ناظرى كلمةُ رسالة الإسلام روحانية فقط، ولم تشأْ أن تمرّ من غير أن تثير ذكرى قصّة قديمة لهذه الكلمة معى، فقد زعم الطّاعنون الذين جعلوا فى قلوبهم الحميّة يومئذ، أنّنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعةً روحانية محضةً، ورتّبوا على ذلك ما طوّعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أمّا أنا فقد رددتُ ذلك عليهم وقلتُ لهم يومئذٍ صادقًا ومخلصًا: إننى لم أقلْ ذلك لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره... وأسوق هذاَ الحديث ليذكرَ الأستاذ الكاتب الكبير أن

فكرة روحانية الإسلام لم تكنْ لى رأيًا يوم نشرتُ البحث المشار إليه، وأنّى رفضتُ يومئذٍ رفضاً باتا أن يكونَ ذلك رأيى، فما ينبغى أن أعودَ اليوم فأقول إننى أدعُو إلى أن نرجع إلى ما نشرتُه قديمًا من أنّ رسالة الإسلام روحانية فقط».

هذا ما قاله الأستاذ ردا على الدكتور أحمد أمين، وهو مما أثارَ دهشتى، لأنّى أعرف أنه قال هذا الكلام بمضمونه إنْ لم يكن بلفظه، ولو كان ينكر كلمة (روحانية) فإنّ مادتها صريحة فى كتابه، حيث يقول (ص ٦٩ ـ الطبعة الأولى): «ولايةُ الرسول على قومه ولايةٌ روحية منشؤها إيمان القلب، وخضوعُه خضوعًا تاما يتبعه خضوع الجسم، وولاية الحاكم ولايةٌ مادية تعتمد على إخضاع الجسم من غير أن يكون له بالقلوب اتصال، تلك ولاية هداية إلى الله، وإرشادٍ إليه، وهذه ولايةُ تدبيرٍ لصالح الحياة وعمار الأرض، تلك للدين، وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامةٌ دينيّة، وهذه زعامةٌسياسيّة، ويا بُعدما بين السياسة والدين». ثم يقول الأستاذ على عبد الرازق (ص ٧٨ من الطبعة الأولى):

« والدنيا من أولها إلى آخرها، وجميع ما فيها من أغراضٍ وغايات أهونُ على اللّه من أن يقيم على تدبيرها غير ماركّب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلّمنا من أسماء ومسميات، هى أهونُ على الله من أن يَبعث لها رسولاً، وأهونُ عند رسل الله من أن يشتغلوا بها وينصبوا لتدبيرها».

هذا بعض ما جاء فى كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وهو تأكيدٌ لما ذكره الدكتور أحمد أمين عن الأستاذ، فما معنى هذا التعارض؟ يخيَّل إلىَّ أن الأستاذ على عبد الرازق قد آثر التراجع بطريقةٍ سياسّية لابطريقة علميّة، وهو تراجع لاشكّ فيه!

وقد عملتُ على نشر ما قاله الأستاذ فى أوسع نطاق أملكه، فنشرتُ عنه مقالين، أحدهما بمجلة الثقافة، والآخر فى جريدة الوفد، كما دوّنْته فى كتابيْن من مؤلفاتى، هما الجزء الثانى من قضايا إسلامية طبعة دار الوفاء، وكتاب (الأزهر بين

السياسة والفكر) وقد صدَرَ فى سلسلة (كتاب الهلال)، وقد جاءنى مندوب لصحيفة يومية فأخذ صورةً شمسية من مقال الأستاذ عبد الرازق ونشرها فى الصفحة الدينيّة، لتُعلَن الحقيقة مرات شتى، فينفى الالتباس، لأن خصومَ الفكرة الإسلامية، يتحدثون عن التشريع الإسلامى، ولا مرجعَ لهم غير كتاب الأستاذ ومنْ عَمَى العيون عن الحق أن يصدر فى نقض الكتاب عشرات المقالات والبحوث، ثم لا يقرؤها المغرضون، ولو كانتِ الحقيقة دافعًا لبحوثهم لاستمعوا إلى الرأى الآخر، بل لقرءوا ماكتبه الأستاذ فى مجلة رسالة الإسلام، وهو مرجعهم الوحيد.

اللقاء الثاني:

قلتُ: إن الأستاذ قد طلبَ منى عدد الهلال الذى يحمل محاضرته (عن تجديد البلاغة) وقد اتّضح أنها نُشرت فى عددين مُتتاليَيْن لا فى عدد واحد، فأحضرتُهما، وتوجهتُ إلى زيارته بعد أسبوعين من اللقاء الأول، فارتاح لرؤية ماكتب من قبل، وذكرَ أنه ألّف كتابًا فى البلاغة تحت عنوان (الأمالى) فى صدر حياته الأدبية، إذ كان مدرِّسًا بالأزهر قبل أن يُسافر إلى أوربا، وهو وسط بين التجديد والتقليد، ولكنّ بذرة التجديد تكمن فى أحشائه، وقد كانَتْ محاضرة البلاغة إحدى ثمار هذا التجديد!

قلتُ: إن الكاتب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشرى قد عقّب بمحاضرةٍ كبيرةٍ عن التجديد البلاغى نَحَا فيها منحى الأستاذ، وقد نُشرت أوّلا بالهلال ثمّ بالجزء الثانى من المختار!

فقال: لا يُستغرب أن ينحو البشرى هذا النحو، فقد كُنّا من هواةِ الأدب الرفيع أثناءَ الطلب بالأزهر، وكان محمد عبده والمرصفى من أساتذتنا، وكنا نسمُر معًا فى منزلنا بعابدين، ومعنا أخى مصطفى، ومحمود أبو العيون، وطه حسين، والزيات! وكان البشرى مصدرَ سرورٍ دائم لنا، وهو فى البيان العربى أصيل أَصيل، تربّى على أدب المويلحى واحتذاه فى مطلع حياته، ثم تَصدّر إلى المقام الأول بين الكُتَّاب.

أعجبنى ما قالَه الأستاذ عن البشرى ثم استدركتُ أقول: كانَ فى طوقِ أديبٍ كبير كالأستاذ البشرى أن يؤلف كتابًا عن التجديد البلاغى دونَ أن يكتفى بمحاضرةٍ، فلماذا لم يفعل؟

فقال: ماكنتُ أظن أن البشرى يعكفُ فى منزله لتأليف كتاب، إنّه نديمٌ سميرٌ مثل حافظ إبراهيم، ومحمد البابلى، وهؤلاء تستهلكهم مجالس السَّمر، ولا يطيقونَ عنها منصرفًا! لقد كان البشرى يمرّ فى الليلة الواحدة على عدة مجالس، فكيف يفرغ؟ أعتقدُ أنّ أصحاب الصحف قد أجبروا البشرى على نشر مقالاته، إذ كان مطلوبًا مَرْغُوبًا، وهم يُلحّون ويلحّون، وبذلك أجَبرَ نفسه على الكتابة، فى مقالٍ أو محاضرة، أما العكوف على بحث دقيق، فلن يتفرغ له، وله عملُه الحكّومى نهارًا، ومجلُسه السّامر ليلاً، وكلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، رحمه الله، فقد أسعدتَنى بذكره!

قلت: ألا تتكرم بجمع ما تناثر فى الصحف من مقالاتك كما فعل البشرى؟

فقال: لقد جمعتُ مقالات أخى مصطفى عبد الرازق بعد جهد شديد، وكنتُ أجد بعض مقالاتى أثناء البحث فلا أحفل بها، وحين ظهرتْ مقالات مصطفى قُوبلت بترحيب حار من ذوى الفكر، فحمدت الله على ذلك، وذلك حسبى! إن لى مرافعات قضائيّة تتضمن أصولاً كثيرة من الأحكام الشرعية، وأحبّ أن أفرغ بعض الوقت لها، ولكنْ ما أكَادُ أبداً، حتى أنصرف، والدنيا لا تسير كما نريد، ولمحتُ بعض الإرهاق على مُحَيّا الرجل، فاستأذنت، وكان يُعانى مرضاً لا أدريه. . ولـم تمض أيام حتى قرأت منعاه، فترحّمتُ عليه ذاكرًا استقباله العطوف.

* * *

الأستاذ محمد فريد أبو حديد

نشأتُ على إكبار أدب محمد فريد أبو حديد، لأن قصصه التاريخيّة الرائعة كانت مصدر انجذاب للشبيبة القارئة، فهى ذات أسلوب جياش متدفق، يجمع إلى جمال التعبير، حسن التصوير، ودقة التحليل، وروعة الخيال، وقد أخطأ بعض مؤرخى الأدب المعاصر، حين جعلوا قصص الأستاذ التاريخيّة تاليةً لمرحلة قصص الأستاذ الجارم، لأنّ الأستاذ فريد قد بدأ بنشر قصصه الأدبية بمجلة الثقافة منذ صدورها سنة ١٩٣٩، قبل أن يبدأ الأستاذ الجارم نشر قصصه التاريخية فى سلسلة اقرأ، مع الفارق بَيْنَ اتجاهى الجارم وأبى حديد، وكان للأستاذ مع مقدرته الفنيّة مقالاته النقدية والتربوية والاجتماعية ومؤلفاته الخالصة للتاريخ، فهو رائدٌ فى أكثر من مجال.

وأول لقاءٍ لى بالرجل الكبير، كانَ بإدارة مجلّة الثقافة (القديمة) حيث أشرفَ على تحريرها أمدًا غير قصير بعد مرض الأستاذ أحمد أمين بعينْه، إذ أرسلتُ للمجلة مقالاً تحت عنوان «ترقيات المدرسين بالجامعة» تحدثتُ فيه عن انحدار المستوى العلمى لهيئة التدريس بالجامعة، بعد أن أصبح التعيين آليّاً، يُنظر فيه إلى الحصولِ على الدرجات الرسميّة، وكثيراً ما يكون صاحبهُا حافظًا لافاهمًا، كما أنّ الصفوة من الأساتذة الكبار قد فرّوا إلى المناصب المرموقة خارج الجامعة، وتركوُا للصغار أن يحتلّوا أماكنهم، ممّا عصف بمكانة الأستاذ الجامعى، ودار الحديث نحو هذه النقاط حتّى ملأ عدّة صفحات، وانتظرت أن يُنشَر المقالُ، فلم أجد صدًى له، فذهبت إلى إدارة المجلّة، وعلمتُ أن القائم على نشر المقالات فى هذه الفترة هو الأستاذ محمد فريد أبو حديد، فانتظرتُ ساعةَ مَقْدَمِه، وسألتُه عن مصير المقال،

فإذا به يقف مبتهجًا، ويشدّ على يدى فى حماسة، ويَقُول: إنه قرأ المقال مرتين، ولكنَّ أكثر القائمين على لجنة التأليف والنشر التى تَصدر عنها مجلة الثقافة أصدقاء لأساتذة الجامعة، ومنهمْ من لا يزال أستاذًا بها، ونشر المقال بالثقافة قد يَدلُّ على أنه مُوعَزٌ به لحساسيات بين الزملاء، ثم قال الأستاذ: إنكَ تنشُر كثيرًا بمجلة الرسالة، والأستاذ أحمد حسن الزيات ليسَ أستاذًا بالجامعة، وقد نَشرَ عدة مقالات نقدية تتجه وجهة الإصلاح الجامعى، وإنّى أقترح عليك أن تنشرَه فى الرسالة، لأنّ ذلك سيسعدنى كثيرًا، إذْ لو وُكِلَ الأمرُ إلىَّ وحدى لنشرتُ المقال من يوم أن بعثته، ولا أكتم القارئ أنّى فرحت بتزكية الأستاذ للمقال، وخرجتُ مسرورًا بمودَّته لأنشره بمجلة الرسالة، وقد نُشِرَ بتاريخ ٦/ ١٠/ ١٩٥٢م.

ومضتْ سنوات، وانتقلَ الأستاذ أبو حديد إلى رحمة الله، وأقامَ مجمع اللّغة العربية حفلةً لتأبينه كعادة المجمع فى تكريم الراحلين، وكان صاحب كلمة التأبين هو الأستاذ أحمد حسن الزيات، فسمعتُه يقول: إنّه كان يضيقُ بمن يحملون الشهادات الجامعية من أُوربا دون اقتدار علمى، ثم يجيئونَ ليعلنوا أنهم وحدهم أصحابُ القول الصائب، ويباهون بالإجازة الأوربيّة مع هوانِ نتاجهم العلمى وانحداره، هُنا تذكرت ماكان من أمرى مع الأستاذ، حين أغفلَ نشر المقال بالثقافة لاعتباراتٍ يفهمها حق الفهم..

اللقاء الثانى:

أرسلْت لمجلة الثقافة عدّة قصائد، فكنتُ أجدها تُنشر فى صحيفة الغلاف، إذ دأبت الثقافة على نشر الشعر فى الغلاف الثانى للمجلة، سواءٌ أكانت القصيدة لشاعرٍ مشهور أم لشاعر ناشئ، ولا أدرى لماذا غضبتُ من هذا الاتجاه، فأرسلت للمجلة قصيدةً تحت عنوان (الشعر فى غلاف الثقافة) قلت فيها:

نصوغُ الشعر مؤتلق القوافى — فتنشرُه الثقافة فى الغلافِ
تناثَر فى هوامِشها بعيدًا — وكانَ محلّه بيْـن الشّغافِ

وباَت على الشواطىء وهو عَفٌ | يرى فتك الشواطىء بالعفافِ
وما رغبَ اصطيافًا حظّ منه | فتلزمه الثقـــافة باصطيـــافِ
وكانتْ من قريب تَجْتبيه | وتمنحُه هوى الخل المصافى
فينهضُ فـى حـدائقــها نضيرًا | كأغصانٍ زهـت فــوق الضفافِ
أَكان النثر أرفع منه قدرا؟ | لعمرك تلــك ثالثة الأثافى!
فإنّ الشعــر بين النثر يبدو | كخُضرة واحــةٍ بـين الفيافى

والقصيدةُ طويلةٌ، وقد نشرها الأستاذ فريد فى غيرِ الغلاف، وكتب تعليقًا فى آخرها يقول فيه: ليسَ لنا من اعتذار نُقدمه لحضرة الأديب سوى أنّ الشعر مثلُ الزهر الأنيق لايبالى أن يكون، سواءٌ أكان فى حَوْض بستان، أم على حافة غدير، فهلْ لحضرةِ الأديب أنْ يصوغ هذا الاعتذار فى قطعة من شعره الجميل؟

وحين قرأتُ تعليق الأستاذ رأيتُ أن أعتذر إليه أنَا بعد أن اعتذر إلىّ، فذهبتُ إلى لقائه، فاستقبلنىِ باسمًا، وقال: يا أخى: أكثُر شعراء أوربا الكبار تُنشر قصائدهم فى غلاف المجلاّت الأدبيّة، لأنّ القارىء يفتحُ المجلّة، فيجدُ الشعر أمامه، وإذا عُدّتِ الواجهة هى الصفحة الأولى، فإن خَلْفها واجهةٌ أخرى تُواجه القارئ مباشرةً، وهذا من الاهتمام، لامن الإهمال، فكيفَ ظننت هذا؟ ثم قال: إنك تُذكّرنى بحساسيات الرافعى، والعقاد، وطه حسين، فأنا أعلم أنّ كُلامنهم يحرصُ على أن يَسبقَ صاحبَه فى ترتيب الفهرس، ورئيسُ التحرير يُعانى كثيرًا حين يَجتمع الثلاثة، أو اثنان منهم فى عدد واحد، ويحارُ فيمَنْ يُقدِّم أوّلا، ومَن يؤخر، وأحيانًا يؤثر عدم الجمع على اضطرار.

ودار الحديثُ عن الشعر، فقال: لعلّكَ لاتعلمُ أن لى محاولاتٍ شعرية! قلتُ: إنك تتواضع كثيراً ياسيدى، أنت رائدٌ فى مجال الشعر القصصى، وقد تَرجمتَ بعض قصائد شكسبير شعرًا، وتحررتَ من القافية، فكانَ ذلك

موضعَ مناقشة نقديّة بين الكُتّاب، وأذكرُ أن الأستاذ العقاد قد حفظ لَكَ هذا السبق، وأشارَ إليه فى مقالاتٍ كتبها عن الشعر المرسل، فضحكَ الرجل، وقال: تذكرُ كلّ هذا،! إنّنى بدأتُ بالتحرر من القافية فى الشّعر القصصى الملحمى، ولكنّى لا أجيزه إطلاقًا فى الشعر الغنائى، لأنّ الأذن العربية قد تعودت على الموسيقى الخارجية التى ترنّ بها القافية، وإذا فقدتْها أحسّتْ بنقص كبير...

اللقاء الثالث:

مكثتُ مدرسًا بمدرسة «أبو تيج» الثانوية بالصعيد ثلاث سنوات، وفوجئتُ بأنّ زملائى الذين قضواْ معى هذه المدة، وهذ الحدّ المقررّ للنقل، قد انتقلُوا إلى بلادهم فى الوجه البحرى، وبقيتُ وحدى، وقد طالعتْنى الصحف إذ ذاك بأن الأستاذ محمد فريد أبو حديد قد عُيّن مستشارًا فنيا بوزارة المعارف، فقلتُ فى نفسى: الحمد للّه، إنكَ صاحبُ حَقّ صريح، ولن تطلبَ من الرجل غير الإنصاف فقط، وهو أمر يرحب به، لأنه يدفع ظُلْمًا ويقيمُ عدلاً، فسافرتُ من الصعيد إلى زيارته بمكتبه بالقاهرة، ووجدتُ الزائرين كثيرين، فانتظرتُ حتّى بعد الساعة الواحدة، ثم طلبْتُ لقاءه، فرحّبَ ودعانى على عجل، وقالَ لى: معذرة، فقد أخبرنى السكرتير أنّك تنتظرُ من زمن طويل، ولو كنتُ أعلم لا ستدعيتُك، ولكنْ ماذاَ أصنع فى هؤلاء الذين يَجيئون فى ثوب التهنته بالمنصب، ومع كلّ واحدٍ مطلب متعذرُ التحقيق، أنا لا أرحب بهؤلاء قدر ما أرحّب بشاعرٍ مثلك جاء ليهنئنى تهنئة الأديب للأديب! سمعتُ هذا القول، فقلتُ فى نفسى: لابدّ أن أكتفى بالتهنئة، ولا أتقدّم بظلامتى كيلا أكون واحداً من هؤلاء!! وانتقل الحديثُ إلى الأدب، فقل لى الرجل: أتعرُف أننّى منعتُ أن تُقَرَّر لى قصّةٌ هذا العام الدراسىّ فى المدارس كيلا يُظنَّ أننى أستغلُّ منصب المستشار، قلُت: إن قصصك الجميلة، تُقررّ على الطلاب فى دروس المطالعة ذات الموضوع من سنوات، قبل أن تجىء إلى الوزارة، فأىّ شبهة فى هذا؟ قال: الاحتياط واجب!

ورأيت أن أستطرد فقلت: إن الطلابَ سيُحرمون كاتبًا رفيعَ المستوى، وقد شرحتُ قصّةَ «زنوبيا» لطلاب القسم الأدبى فاستمتعَ الطلاب معى أكبر استمتاع! قالَ الأستاذ: وأىّ شخصيّة لفتتْ انتباهك من شخصيات قصّة زنوبيا! قلتُ: أكونُ صادقًا لو قلتُ لك: إن شخصيّة الفيلسوف «لونجين» قد شدّتْنى شدا عنيفًا، لأنّ الرجل الكبير قد وقَع فى حبّ كظيم لا يستطيعُ أن يصرّح به، فهو أستاذ الملكة، وقارئُها الدائم، وهو فى خريف حياته، وهى فى الربيع المشرق، وزوجُها الملك البطل الشاب يملأ مجامع تفكيرها، فأين يكونُ موضعُه العاطفىّ منها؟ ولكنها محنة قد انصبّتْ عليه كالبلاء النازل، فأخذ يكابد من حسرات الظمأ المحرق مالا طاقةَ له به، حتىّ لفظ أنفاسه فى معركةٍ حربية فداءً لها! وكنُت أقول ذلك بصوت ينمّ على التأثر، فقالَ الأستاذ: هذا ما عَنيتُه تمامًا حين صوّرتُ صاحب هذه الشخصية، وأنا لا أعلم من تاريخه إلاّ أنه فيلسوفٌ صحبها فى معركتها الأخيرة، ورأى أن يموت فى سبيلها، فقلتُ فى نفسى: إنّ الروح غاليةٌ عزيزة، وإن الذى يُضحى بنفسه مستشهدًا، لابد أنه يهيمُ بمن يفتديه، وقد وجدْتُ المبرّر لذلك الحب، فالملكة شابّة جميلة مثقّفة، وذاتُ عزيمة صلْبة فى الحكم، ورقة حانية مع حاشيتها الخاصة، ومثلها لابدّ أن تملك قَلْبَ من يُطيل الاجتماع بها أستاذًا، فصديقًا، فَمستشارًا، فإذا أقدم هذا الفيلسوف على الاستشهاد فى سبيلها فهو محب مشغوف!

وانتقل الحديث إلى شجونٍ كثيرة، ووجدتُ الرجل يُؤثر بقائى بعد انتهاءِ الموعد الرسمى للعمل، فشكرتُ له هذا الشعور، وخرجتُ لأكمّل عامًا جديدًا بالصعيد.

أبو حديد الناقد:

كان صديقى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عَمل وقتًا ما بدار الكتب المصرية، وكان رئيسه فى العمل هو الأستاذ فريد، فتذاكرْنا مرّة عنه، فقال: إن أعظمَ سمات الأستاذ أنّه ناقد أدبى ممتاز، وله فى جلساتِه الخاصّة ملاحظاتٌ صائبة

على كل كتاب نتعرض له بالحديث، فقلتُ له: إنى أحُسّ أنّ الأستاذ ناقد كبير، فقد قرأتُ له فصولا نقدية عن رواياتِ نداء المجهول، وفرعون الصغير، وشهر زاد الحكيم، وأحلام شهر زاد لطه حسينَ، فأحسستُ أنه ناقدٌ ممتار، أمّا أن أعظم سماته الأدبيّة هى النقد، فهذا مالا أوافق عليه، فقال مبتسمًا: سأقولُ له هذا القول وأنقله عنك، قلتُ: وقلْ له أيضًا: إنى قرأتُ ماكتبه بالعدد الخاص من مجلة الثقافة الذى صدر عن العقاد فرأيتُ تحليلاً ممتازًا للقصّة، وتسليطًا قويّاً للأضواء على نقاطِ مبهمة كانت تحتاج إلى إيضاح، ولكنّى لم أرَ نقدًا للقصّة، مع أنى أعلم أن الأستاذ فريد يخالفُ فى اتجاهه القصصىّ منحى الأستاذ العقاد فى كتابه (سارة)، وكانَ عليه وقد تعرضَ للعقاد القصّاص أن يعلن رأيه فى مذهبه الروائى!

قال الأستاذ فهمى ردا علىَّ: إنّ الأستاذ محمد فريد أبو حديد، كتبَ نقده بعد رحيل العقاد إلى عالم الخلود، إذ صَدر عدد الثقافة بمناسبة ذكرى الأربعين، فلا محلّ للقول بمجاملة الرجل أو محاباته، ولكنَّ الأستاذ فريد مُرهف الحسّ، رقيق الشعور، وقدْ أصدرَ العدد كلّه لتحية العقاد بمناسبة رحيله، أفتنتظر منه حينئذٍ أنْ يبدأ المقال الأوّل بنقده، إنه ترك مجال النقد لمن تلاهُ من الكاتبين، واكتفى بالعرض الدقيق للقصّة.

وأظنّ أن الأستاذ فهمى قال بعد ذلك، ولا ضرر فى مخالفة الأستاذ فريد لاتجاه العقاد فى قصّة سارة، فكثيرٌ من النقاد وقفُوا منها موقف النقد، وعدوها صفحة صادقة من التحليل النفسى، ولكنّ قواعد القصّة الفنيّة لم تُطبّق على وجهها الصحيح.

أقول: أظنّ أن الأستاذ فهمى قال ذلك، لأنّى لم أتأكد ـ بمرور الزمن ـ أنّى سمعت ذلك منه أو من صديق سواه تحدثتُ معه بشأن سارّة، ولكنَّ الردّ على ذلك واضح، فقواعد القصّة الفنيّة لا يتقيد بها غير المبتدئين، أماّ ذَوُو الحنكة والتجربة فهم أحرارٌ فيما يقصدون من اتجاه.

اللقاء الأخير:

علمتُ أن الأستاذ أصيب فى أواخر حياته بنوعٍ من أنواع الشلل، فأَسِفْتُ كثيرًا لمرضه الذى جعلَ أصابعه ترتجف فلا يقدر على الكتابة، ثم استطاعَ معالجوه أن يُبرئوه منه، ولكنّ دلائل الضعف ظلت عالقة بهيكله وسحنته، وقد لمحتُه جالسًا فى مجمع اللّغة ذات صباح، فسارعتُ إلى تحيته، وعجّلتُ بالذهاب كيْلا أُثقل عليه. لقد رأى من واجبه أن يحضر جميع جلسات المجمع، وهو يُعانى ضعف الشيخوخة، لأنّه رجلُ عمل، وصاحبُ رسالة، حتى فى أحرج أوقات البلاءّ!

***

الأستاذ أحمد شفيع السيد

انتقل إلى رحمة الله منذ ثلاثين عامًا، ولا تزال ذكرياته الطيبة تملأ نفوس تلاميذه. لأنه كان نمطًا فريدًا فى سماحة النفس، ورحابة الصدر، وبذْل العون المسعف، مع فكاهة نادرة، ودعابة فريدة، هذا إلى أستاذيته الأدبيّة فى فنّه، ومقدرته الشعرية ذات البديهة الحاضرة، أذكرُ أن صديقى الأستاذ أحمد الشرباصى قد خاض معى فى سيرة أستاذنا الكبير، فقالَ فيما قال: إنّ العهد بالتلميذ أن يمدحَ أستاذهُ بقصائده، ولكنّ الشيخ أحمد شفيع كانَ يمدح تلاميذه إذا رأى من بوادر النجابة فى مناقشاتهم ما يدلّ على استعداد، ثم عرضَ علىَّ قصيدة جيّدةً قالها الأستاذ فى تلميذه أحمد الشرباصى، وفيها يقول عنه:

قبسٌ من الإصلاح لاحَ بصيصهُ ... سيزيدُه كر المدى إشعالاَ

وإذا رأيتَ الفجر يبسم ضَوْؤُه ... فارقبْ لأنوار الضحى إقبالاَ

فالبحرُ ماذا كان؟ كان جداولا ... والبدرُ ماذا كان؟ كان هلالاَ

والأُسْد فى وَثَبَاتِها وَثَباتِها ... درجتْ على آجامها أشبالا

وكنتُ منذ التحقتُ بالكلية أسمع عن مآثره مايملأ الصدر إعجابًا، ولكنه يُدرّس للسنة الرابعة، وأنا بالسنة الأولى، ولا سبيل إلى التعرّف به، لأنّى لا أحبّ أن أفرضَ مودّةً بدون تمهيد، ثم حقّق الله رجائى، حين جاء الامتحان الشفوى آخر العام، فكان الأستاذ أحد أعضاء اللجنة، وبدا أنّه كان يسمع عنى، ويقرأ مشجعا بعض ما أكتب، وانتظرتُ أن يسألنَى فى المقررّ المدروس نحوًا وبلاغة، ونصوصًا

وقرآنًا، كما ينصّ قانون الامتحان، ولكنّه فاجأنى بقوله: لا أريُد منك غير إجابة واحدة عن سؤال واحد، فإذا وفقك الله فستستريح من الأسئلة المتعدّدة! مارأيكُ فى كتاب (الأدب الجاهلى) الذى درستَه بالكلية هذا العام؟ قلتُ: إن الكتاب من تأليفِ أستاذنا الضليع محمد هاشم عطية، ومكانتُه الأدبيّة لا تُنكر، ولكنّى أرى أن تقيده بموادِ المنهج الدراسى، قد أتخمَ الكتاب من ناحيةٍ، كما لم يُسعف المؤلف بالتحليل الكاشف لبعض المسائل الدقيقة التى تتطلب الأناة!

ابتسم الشيخ ونظر إلى زملائه مفرسًا، ثم قال: أريدُ بعض الإفصاح عمَّا أجملت، قلُت: لقد تكلّم الأستاذ الجليل عن قضايا البيئة الجاهلية، وعن الانتحال فى الشعر الجاهلى، وعن أيام العرب، وعن الأمثال والحكم والوصايا والخطب، وعن المعلّقات، واختلاف الأنظار فى ملابساتها وتسميتها، ثم أفرد لكل شاعر ترجمةً تفيض بأخباره، مع ذكرِ نصوص فى الأغراض المختلفة للشعر الجاهلى، وهذَا كلّه لايبلغُ مداه فى التحقيق العلمى بكتاب واحد، والأستاذُ قادر كل المقدرة على أن يخص كلَّ موضوع بكتاب مستقل، ولكنه المنهج!

قال الشيخ: وما رأيُك فى أسلوب الكتاب التعبيرى؟ قلت: إن بعضَ الأساتذة يأخذون عليه إبداعه الفنى، فى حلاوة السرد، وجمال التركيب، وتعدد الصور، ويرونَ ذلك عائقًا عن استشفاف الحقائق الأدبية، والأولَى أنْ تُصاغ بأسلوبٍ علمى خالص، ولستُ مع هؤلاء، لأن المؤلف لم يجمحْ به الخيال إلى ما يعد غريبًا عن موضوعه.

فكلّ ما ذكره يدور فى فلكِ الأدب الجاهلى، أما جمالُ الأسلوب، وحُسن انسجامه، فمما يُحسب للكتاب، ولا يمكن أن يكون موضَع مؤاخذة، لأن تاريخ الأدب يزدادُ بهاءً وقُربًا إلى النفس إذا كُتب بلغة الأديب، والمؤلف أديب موهوب، فلابُد أن يكون نتاجُه صورةً من أدبه، وأشهد أنّ حقائق الكتاب من الوضوح والدقة بحيث لم تسبح فى محيط زاخرِ كما يقول بعض الأساتذة، وهذا رأيى.

فالتفتَ الأستاذ إلى زملائه، وقال: إننا نعد الطالب ليكون ذا نظرة أدبيّة

مستقلّة، وليستطيع التعبير عن نظرته هذه فى وضوح ويسر، وقد كانَ للطالب نظرته الكاشفة، وتعبيره الهادئ، ولن نطلب منه أكثر من ذلك، تفضّل يا بنى مشكورًا فقد أجبت! وخرجتُ متعجبا أن أُسْألَ سؤالاً واحدًا! ثم رأيتُ درجاتى فى الامتحان قد وصلتْ إلى النهاية المرموقة! فذهبت إلى شكره قائلاً: لماذا لم تسألنى فى النحو؟ قال قد سألتك لأنك لم تخُطئْ فى تعبيرك، لم تكن اللجنة نائمة!

دعوة حبيبة:

مضتْ أيام، وظهرتْ مجلة الرسالة حافلةً بنقاشٍ علمى مُثْمر بين تلميذيْن نجيبين من تلاميذ الأستاذ أحمد شفيع، هما الدكتور على العمارى، والدكتور كامل شاهين، وكانَا لا يزالان مدرسين بالقسم الابتدائى، ودار النقاش حول علوم البلاغة بين التقليد والتجديد، لأنّ العمارى قد قرأ كلامًا للأستاذ الكبير أمين الخولى انتقص فيه جهود القدماء فى الحقل البلاغى، ونادَى بالتجديد فى أمور يعدّها من ابتكاره الموفَّق، فكتب العمارى عدة مقالات يُحاول فيها توهيَن ما اتجه إليه الأستاذ الخولى، ورأى الأستاذ كامل شاهين أنّ مقالات العمارى تحتاجُ إلى نقد كاشف، فردّ بمقالات معارضة، وتطرّق الزميلان إلى عباراتٍ ليست من النقد الأدبى فى شىء، وتعد خروجاً عن التى هى أحسن، وقد قرأ الأستاذ شفيع ماكتبَ تلميذاه، فحدّدَ لهما موعدًا لتناول الغداء لديْه، وبعثَ بمن يدعُونى مع الصديقيْن، وكنتُ لم أعرفهما من قبلُ، فتم اللّقاء الكريم فى منزل الشيخ النبيل، وقد اتجه النقاش إلى مُباسطات أدبيّة لطيفة، ثم قال الشيخ رحمه الله:

لقد ألّفَ الأستاذ إبراهيم مصطفى كتاب إحياء النحو، ومعَ نظراته الموضوعية السديدة وجدناهُ ينتقص القدماء بدون موجب، فانبرَى الأستاذ محمد عرفة للرد عليه فى كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وقد عَرضَ كتابه على الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ليكتب مقدمتَه، ولكن الشيخ الأكبر رأى من عبارات الهجوم القارص ما يبعُد عن مجال النقد العلمى النزيه، فأشارَ على المؤلف أن يحذف كلّ

ما ينبئ عن التنقيص، لأنّ الجدلَ لايستقيم مع الثلب! ونزلَ الأستاذ عرفة على رأيِ الأستاذ الأكبر، فجاء كتابه مثالا للنقد الجاد، وقد قرأتُ ماكتبه العمارى وشاهين، فأعجبتُ بالنظرات الصائبة، والمنطق السديد، ولكنى وجدت هجومًا بدأه العمارى على الأستاذ الخولى، وأنا لا أوافق عليه، لأنّ النقد البلاغى لايستدعى الهجوم الناقم، ثم جاءَ كامل شاهين، فهاجمَ العمارى بعبارات لا مبرّر لها، واندفع العمارى إلى مثل ما بدأ صاحبه، بل زادَ عليه كثيرًا، وقد دعوتُكما الآن لنتعاهد على حرية النقد من ناحية، ثم على تجنب العبارات اللاذعة لأنها تسىء ولا تفيد! فما رأيكما؟

قلت: وأنا معك ياسيدى، فقال الزميلان: هذا درسٌ مفيد، ولن نحيد عن الحسنى بعد الآن!

صداقة عريقة:

توثّقت علاقتى بالأستاذ الكبير إلى درجةٍ لم تُتح لى مع أستاذ آخر، بلْ لَم أشهْد نظيرَها فيما أعلم، ولمستُ من حَدبه على طلابه ما بَلغ حدَّ العجب، لأنه كان يبذلُ ما يستطيع فى تحقيق رغباتٍ مستعصية لذوى الحاجات ممّن عضّهم الدهر بنابه، وأذكُر بهذا الصدد حادثة طريفة سردتُها فى ترجمة حياته، ولكنّى أُعيدها لتكونَ مثالا للأبوة الحانية، والمروءة النبيلة: فقد زاره ذاتَ ليلةٍ بعضُ تلاميذه، وعليه من سماتِ الحزن والحيرة مالا مزيد عليه، فدهشَ الشيخ لما تَلَبَّثَ الطالبَ من الارتباك اليائس، وعجَّل بسؤاله عن بواعث ألمه، فقال: إنّ والده كان موظفًا بدائرة الأمير عمر طوسون، وقد فُصِل بالأمس لوشايةٍ كاذبة، ففقد مصدر رزقه الوحيد، وهو رب أسرةٍ كبيرة، وله طلابٌ بالمدارس والجامعة، وليسَ يدرى الطالبُ شيئًا عن مستقبله ومستقبل إخوته الذين يسكنون معه بالقاهرة طُلابا مثله، فَصرَفه الأستاذ مهدِئًا على أن يعود إليه بعد يومْين، ولم ينم ليلته، بل نَظَم قصيدةَ استعطافٍ حملها بنفسه إلى مقر الأمير بالإسكندرية، وسافر من الصباح متَّجهًا إلى شيخ المعهد الدينى بالثغر، وكان علَى صلةٍ وطيدة بالأمير، فطلَب منه أن يحدّدَ مع

سكرتير الأمير موعداً للقائه اليومَ، وشرح لفضيلة شيخ المعهد ما جاء من أجله، وسرعانَ ما تحدد الموعد، وتقدّمَ الزائران فوجدا من حُسنِ الاستقبال وبشاشةِ اللقاء ما شجّع الشيخ شفيع على أن يُنشد قصيدته وكان مطلعها:

نحنُ فى منزل الأمير ولا فضلَ لدينا يعلُو لقاء الأمير

فاستمع الأمير سعيداً بما قال الأستاذ، وعُرِض الأمر عليه فى إيجاز، فقالَ فى اهتمام: هذا المطلبُ الصغير لا يَستدعى أن يحضَر فضيلة الأستاذ أحمد شفيع من القاهرة بنفسه، وكانَ عليه أن يتَفضّل بحديث تليفونى ليجدنى طوعَ رغبته، ثم أصدَر أمره الفورى بإعادة الموظف المفصول معَ زيادة راتبه خمسة جنيهات، وكان يتقاضَى عشرة قبلها! ورجع الأستاذ فى المساء إلى القاهرة وهو فى أكمل سعادة، لأن للمروءة مذاقا شهياً لدى الكرام من ذوى العواطف النبيلة.

هذه قصّة دالة، ولها أمثلة كثيرة، ودلالتها واضحة لاتحتاج إلى تفصيل.

اهتمام علمى:

كنتُ فى زيارة الأديب الكبير الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى أثناَء إقامته بأحِد فنادق القاهرة، فحدّثنى عن رغبته فى لقاءِ أستاذ متخصص فى الأدب الأندلسى، لأنّ لديه بعض المعضلات العسيرة التى تتَطلّب الحلّ على يد باحثٍ متخصص! فذكرتُ اسم الأستاذ أحمد شفيع السيد، وحدثتُه بما أعلم من فضله العلمى، واطلاعهِ الشامل، وهو بعد أستاذُ الأدب الأندلسى بالكلية، فارتاح النشاشيبى لماسمعَ، وكَتَبَ لى بطاقة يدعوه فيها إلى تناول الغداء معه بالفندق، وسارعتُ إلى الشيخ، فقرأَ البطاقة مفكرًا، وقد عَلاَهُ سهومٌ لا عهد به، فقلتُ: ماذا؟ قال: يا بنى: إن العلامة النشاشيبى بحرٌ زاخر، وقد ناقشَ الفحول من أمثال أحمد العوامرى، وأحمد أمين، والرافعى، والإسكندرى، فأوفى على الغاية عُمقًا واستنتاجًا ودقة ملاحظة، فأين أنا منه؟ ثم إذا كانَ الأمر كذلك، فاذهب إليه اليوم مُدعيًا أنك لم تجدنى، وتحر عنِ موضوعِ النقاش لأستعد، فذهبتُ إلى الأستاذ، وعرفت منه أنّ النقاش سيدورُ حول شخصيّة ابن بشكوال المؤلف الأندلسى

صاحب «الصّلة» وغيرها، ولم أكد أخبر الشيخ حتى عكف على قراءة مؤلّفات ابن بشكوال، ثم امتد إلى قراءة ماكتُب عنه من ترجمات وشذور فى مختلف الكتب الأندلسية، وبذلَ جهدًا فى هذا النطاق، وكأنّه يستعد لتأليف كتاب خاص بالرجل، ثم أُتيحت المقابلةُ بعد أسبوع كما أرجأ الشيخ، وذهبت معه إلى لقاء النشاشيبى فوجدنَا مانعهد من كرم اللقاء، وبدأ النشاشيبى يذكر ملاحظات عن ابن بشكوال، والأستاذُ يجيب في دقّة، ويعلّل ويشرح فى إسهاب، حتّى بلغَ مبلغًا كبيرًا من نفس إسعاف، وشدَّ على يده مُرَحِّبًا، وأهدى إليه بعض كتبه فى عبارات تصفه بالأستاذية الكبرى، ورجع الشيخ سعيدًا مبتهجًا باللقاء، ولكنّى قلت له فى الطريق: لماذا أحجمتَ عن نقاش النشاشيبى قبل أن تعرف موضع البحث؟ إنّنى أناقشه كما أشاء بدون تهيب، فقالَ الأستاذ: يارجب، أنت لا تزالُ طالبًا، وإذا أخطأتَ فى نقاشك فلن يقول إن طالبًا قد أخطأ، لأن الطالبَ مظنة الخطأ، وقد قدّمَتنى إليه أستاذًا للأدب الأندلسى بكلية اللّغة العربية بالأزهر، فإذا تعرّضتُ للنقاش فى مسألةٍ لا أعلم عنها شيئًا، وقلتُ مالم يقنع الأستاذ فماذا يكونُ نظرُه إلىّ؟ بل ماذا يكونُ نظره لعلماءِ الأزهر وأساتذة الكليات؟!

موقف آخر:

أعدّ أحد طلاب الدراسات العليا بتخصص الأدب رسالةَ الأستاذية (الدكتوراه) بعد أن بذلَ جهده الجاهد سبَع سنوات لايفتُر عن العمل الجاد، وأُلفت لجنة المناقشة برئاسة الأستاذ الكبير حامد محيسن عضو هيئة كبار العلماء، وعميد الكلية السابق، ففوجئ الأستاذ أحمد شفيع بمجيء الطالب إليه شاكيًا متألما، لأن رئيس اللجنة قابله بنفور شديد، وأخْبره أنّه أكثر من المراجع إلى حد الإتخام، حتى ليكاد يكون ناقلاً لا باحثا، فأمر الشيخ شفيع بإحضار نسخةٍ من الرسالة، سارعَ الطالب بتقديمها إليه، فقرأها قراءة مستوعبة، ثم ذهبَ إلى منزل الأستاذ حامد محيسن، ليسأله عن سرّ غضبه على الباحث، فقال الشيخ ـ وكان ذا حدّة ـ إن كثرةَ المراجع التى يتباهى بها فى آخر الرسالة تدلّ على أنه ناقل فقط! قال الشيخ: لقد عكفت على قراءة الرسالة أسبوعًا، ووجدت الدارس قد أجادَ فى مواضع مختلفة،

وأخرجَ مذكرة من جيبه سردَ فيها مواضع الإجادة، وإذا كان قد أكثرَ من المراجع فهذا مما يُحمَدُ له، إذْ دَلّ على وفرة الاطلاع، فقال الشيخ: لستُ معك فى هذا المنحى فضحك الشيخ شفيع وسأله: هل لو اقتصر الباحث على مرجع واحد أيكونُ قد أدَّى واجبه على نحو يرضيك! فقال الشيخ وكأنه يكابر: المرجع الواحد إذا كان أصيلاً يكفى! إن السطر الواحد من الكتاب الجيد يتضمن المحمول والموضوع، والمنفى والمبثت، والمسند والمسند إليه، وكلّ هذه مجالات للبحث العلمى الدقيق فماذا تقول يا شفيع! فقال الشيخ: لقد نسيتَ أن الدارس مبتدئ، وأنّه يكتب أول بحث علمى جاد، وسينتفعُ بملاحظاتك وتوجيهات اللجنة عند النقاش، وحينئذ سيسلك النهج الذى سترتضيه، ثم إن زملاءهَ ليسوا أفضل منه، وقد قُبلت رسائلهم، فلماذا لا تخصّه بفضلك، فيكون تلميذًا من جنودك، يذكر لَكَ فضل التشجيع والتنويه! قال الشيخ: تلك هى المسألة: الميزان ليس واحدًا، فما أدقّق فيه لا أجد أحدًا يلتفت إليه؛ لن أكون نحسًا على الطالب، فابعثْه لأحدد له موعد النقاش، قالَ الشيخ: جزاك الله خيرًا، وتابَع المسألة، وحضَر مجلس النقاش، ونال الطالب ما يرتضيه!

هذه بعض مروءات الشيخ الكريم! وأقول بعض المروءات، لأن لدى من أمثالها الكثير!

* * *

الأستاذ على أدهم

يهتم الأستاذ على أدهم بما يبدع من آثار فكرية، فمقالُته الواحدة تُعطى من الثمار الشهية، ما يشبع ويمتع، أما كتابه ذُو الفصول فعملٌ منسق متكامل، يُشبه البناء الهندسى القائم على أسس وطيدة، وكل لبنة من لبناته ذاتُ قوة متماسكة فيشد البنيان بعضه بعضًا ليبقى ناهضًا شامخًا، وكنت ألحظ بُعده عن الأضواء، وعكوفه الزاهد فى صومعة الفكر، فأعدّه ناسكًا يؤثر الانزواء، ولكنّ الذين صادفوه يذكرونَ مِراسَه القوى فى المجادلة، وخبرتَه الدقيقه بالنّفس البشرية، وقد أوحتْ له مزيدًا من الترفع حتى ليعتبره الناس كبرياء لا ترفعًا، والكبرياءُ حبيبة أثيرة حين تعلو على الأدعياء والمتشامخين، أما الأصلاء فزملاء فى مستُوى خُلقى متقارب، فلا تَرَفُّعَ ولا استعلاء.

وقد رأيت من واجبى أن أشيد ببحاثة ضليع مثله، فكتبتُ مقالاً بمجلة الثقافة، قلت فى مطلعه:

منذ أخذتُ أقرأ للأستاذ الكبير على أدهم مقالاته الرصينة، وأنا أتذكّر به العقّاد فى كل فصل أقرؤه، وأعقد موازنةً صامتة فى نفسى بين ما قاله أدهم، وما يمكن أن يقوله العقاد لواتجه إلى معالجة ما عالجَهُ أدهم من أفكار، إذْ وقَر فى ذهنى أنّ أدهم أقربُ الكاتبين فى العربيّة إلى منحى العقاد، وليسَ معنى ذلك أنه يحتذيه، فَلِلأستاذ أدهم شخصيته الخصبة فى كل ما يكتب، بل إنكَ لتجدُ فيه واقعيّةً واضحة، وتسامحًا متواضعًا، وإغضاء صافحًا، فيستأثر بشعورك استئثارًا لا تحيد عنه، ولا أدرى لماذا لا تُعدّ الدراسات العلمية لإنتاجه الحافل الخصيب؟ ولماذا

يتعداهُ الباحثون إلى أناسٍ لا يبلغون مبلغ تلاميذه؟ يُخيّل إلى أن شخصية أدهم قد ساعدت على هذا التجاوز المعيب، فالرجُل هادئ قانع، لا يحاولُ أن يعقد مودّاتٍ ذات نفع مزدوج بين الكتّاب فيشيد بهم، ويشيد وابه على نحو مانرى».

وامتدّ المقال إلى صفحات صادقة تُحلّل أراء الكاتب الكبير فى نَفَرٍ من شعراء العربيّة، وكان أخشى ما أتوقّعه ألاّ يجد به الأستاذ ما ينبئُ عن الحقيقة العلمية التى أحاول تسجيلها، ولكن الرجل العاطف المشجّع قد كَتَب إلىّ خطابًا حارا نشره الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقى بعدد ستبمبر سنة ١٩٧٩ من مجلة الثقافة، قال فيه:

«لقد أسعدَنى الحظ بالاطلاع على مقالك القيّم فى الثقافة، وكنتُ أشعر فى خلالِ قراءته أنى أطالعُ فصلاً من فصول أمثال سانت بيف، وماثيو أرنولد، واسِنجادن، وغيرهم من أساتذة الأدب والنقد، الذين طالما استمتعتُ بالاطلاع على آثارهم الأدبيّة، ودراساتهم فى النقد، وأرجو الله أن يمتعكَ بالصحة والعافية، لمتابعة السير فى هذا الطريق، الذى لاشك فى أنّه سيعود بالنفع الجزيل على حياتنا الأدبيّة، ويسمُو بالنقد إلى المستوى الرفيع، ويرقى بالثقافة المصرية العربية!».

هذا ما قاله الأستاذ فى فاتحة خطابه، وهو تشجيعٌ هادف لكاتبِ كل ما يملكه هو الصدق المخلص فيما يكتب ويُقرِّر، وكنتُ قد أشرتُ إلى دراسة نقدية كتبها الأستاذ أدهم عن الشاعر الكبير عبد الرحمـٰن شكرى، فقلت إنى أحَسُّ إحساسًا قوياً أن أدهمَ المتحفظ قد كتبَ المقال، وفى ذهنه أن صديقه الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد سيقرأ ما يكتب، وليت شعرى أيُصدّق أحد أن العقاد الدقيق يضع اسمه على كتاب (الديوان) دونَ أن يعرفَ سلفا كل ما سيكتب فيه؟».

قلتُ ذلك فى خاتمة المقال، ولم يشأ الأستاذ أدهم أن يسكت عمًّا كتبت، فقال فى خطابه: إنه عاصر فترة الخلاف، وإنه يعرف من خفاياها ما يجهله الكثيرون، وقد كانَ الأستاذ العقاد يقدّر شكرى تقديراً عاليًا، ولم أسمع منه كلمة سوء فى أدب شكرى أو شخصيته».

ثم مضت أيام، ووصَلنى خطاب من الأستاذ أدهم يُعلن أنّه يعانى بعضَ عقَابيل المرض، ويُسعده أن أزورَه حين أمرّ بالقاهرة، وكنتُ أعرف احتجاز أدهم وعكوفه، فلم أشأ أن أبدأ بالزيارة التى أحرص عليها كيلا أتطفّل على خلوته، فلما جاءنى خطابُه الكريم، بادرتُ لأطفئ ظمأً أحسّ به، وليس من السهل أن يظفر الإنسان بحديثٍ مع أستاذ فى مستوى أدهم، والغثاء كثير.

لقاء فريد:

وأقول: إنه لقاء فريد، لأنه لم يتكرّر مرّة ثانية، فهو فريدٌ من هذا الناحية، كما أنّه فريدٌ من ناحية أخرى أهم وأعظم، إذْ أتاحَ لى من الفوائد الجزيلة ما أضاء بعض الظلمات فى أمورٍ كانت تشكل علىّ، وقد بدأ الأستاذ بثناء تشجيعى يحاولُ أن يدفعنى به إلى الأمام، ثم قالَ إنّه يغتنم هذا اللقاء ليتحدث عن علاقةِ شكرى بالعقاد! فقلتُ: ما أَحَبَّ إلىَّ أن أسمع ما أعتز به من ناقد خبير!

قال الأستاذ: قبل أن أتحدث عن شكرى والعقاد أعلن أن نفرًا من الكاتبين كان من همهم أن يوقدوا اللّهيب بين شكرى والعقاد، والعقادُ غَضُوبٌ لا يصبر على مهاترة، وهو يعرفُ تمامًا أن «شكرى» بعيد كلّ البعد عن محاولات من يَرَوْن إذكاء الوقيعة بينه وبين شريكه فى البناء التجديدى للشعر، كما يعلم أن هؤلاء لا يقصدون تمجيد شكرى قدرَ مما يقصدون انتقاص العقاد! كما يحاول فريق آخر أن يرتفعوا بمطران إلى حيثُ يجعلونه كل شىء فى التجديد الشعرى، ليضيع نصيب شكرى والعقاد والمازنى من التجديد هباءً!

يعرفُ ذلك العقاد جيداً، فيأسف للظروف التى أدّتْ إلى مخاصمة المازنى لشكرى، فجعلتْ مدرسة التجديد الشعرى التى نهضتْ على أكتافِ هؤلاء الثلاثة مثار القال والقيل!

قال الأستاذ أدهم: وهذا ما أحبّ أن أؤكده قبل أن أشرح حقيقة العلائق بين الأصدقاء الثلاثة، فالعقادُ معَجبٌ بشكرى كلّ الإعجاب، وشكرى لا يقلّ عن صاحبهِ إعجابًا به، ولكن كيف بدأ الثلم الصادع فى هذه الأخوة الأدبيّة الحميمة؟

لقد كانَ المازنى أسبقَ الكُتَّاب فى الاعتراف بمنزلة شكرى، وقد كتَب نقدًا عن حافظ إبراهيم جمعهُ فى كتاب خاصّ، وقد انخفضَ بشعر حافظ ليرتفع بشعر شكرى، فى مجال موازنةٍ نقدية حافلةٍ بالشواهد الشعرية مما قاله حافظ وشكرى معًا! وقد قالَ المازنى فيما قال: إن حافظا لا يقول الشعر إلاّ فيما يُسأل فيه من الأغراض، بيد أنه على ما به من ضيق فى المضطرب، وتخلُّفٍ فى الخيال، كان أفصحَ لسانٍ تنطق به الصحف، أمّا شكرى فشاعر لا يصعدُ طَرفه إلى أرفع من آمال النفس البشرية، ولا يصوّبه إلى أعمق من قلبها، وهو لا يبالغ كحافظ فى تحبير شعره وتدبيجه، بل حسبُه أن يُسمعك تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يُفْضى إليك بنجوى القلوب، وأن يُريك عيون الندى على خدود الزَّهْر، وافترار ضوء القمر على مكفهر القبور، ووميض الابتسامات فى ظلام الصدور، وأن يغوصَ بك فى لجج الفكر، ليكشفَ لك عن معانٍ لا يُدركها التعبير، ويتناول أبْسط معانى الطبيعة والعقل وأشدها ارتباطًا بالحياة، واتصالاً بالنفس، ثم يصوغ لكَ منها شعرًا نقى المستشف، كثير المآثر، جم المحاسن».

هذا ما قاله أدهم بمعناه، وقد رجعت إلى ماكتب المازنى لأنقلَ اللفظ الحقيقى، وقد جاء المغزى مطابقًا كلّ المطابقة لما قال الكاتب الكبير.

ثم قال أدهم: كان المنتظر من شكرى بعد هذا الثناء الصادق، أن يكون هيّن النّبرة مع المازنى، وإذا آخذهُ على شىءٍ فمؤاخذة الحبيب الودود، ولكنّه حين أصدرَ ديوانه الخامس صدَّره بمقدمة هاجمه فيها هجومًا عنيفًا، فقال: إنّه لا يراعى حرمةً، ولا يردعه ضميرُه عن السرقات العظيمة، وضربَ الأمثلة بما سرقه المازنى عن «هينى» الشاعر الألمانى، و «لويل» الشاعر الأمريكى، و «أديسون» الكاتب الإنجليزى».

وطبيعى أن المازنى قد تأثرَ بأسلوب صاحبه النقدى، إذ كانَ فى مُكنتهِ أن يجعل النصيحة فى محادثةٍ شخصيّة، أو فى رسالة خاصة بين الصديقيْن، وإذا لم يجدْ

شكرى بُدا من الإفصاح للقراء، فَبِالّتى هى أحسن، لا بالتى هى أقبح فنفّس المازنى عن غضبه بمقالات ناريّة تناولت شعر شكرى، فقلَبْته من وضع إلى وضع، وبذلَ العقاد جهدَه فى لَمِّ الشمل، فوُفّق إلى وقتٍ قريب، ثم عاودَ شكرى النّقد عاصفًا على صفحات جريدة عكاظ التى كان يصدرها الشيخ فهيم قنديل، ولم يقصر هجومَه على المازنى، بل امتد إلى شعر العقاد، وبالغ فى القسْوة إلى حد مستغرب، وكانَ المظنون بالعقاد أن يمتشقَ القلم ليأخذ بحقه، ولكنّه طَوَى صدره على أسف لما كان، وتركَ للمازنى أن يقول ما يشاء!

وبمراجعة هذه الحقائق، نجدُ أن المازنى قد أخطَأ أوّلاً حين سَطَا على أدب غيره، ونجدُ شكرى كان مُحقا حين لم يسكت عن هذه السرقات! ولكنّه كان مُخطئاً فى اندفاعه القاسى، وتورطه إلى الإقذاع فيما كتب بعكاظ، ثم فى انتقالِه إلى العقاد، وهو لم يُسلف إليه جريرة! وحين ظهر (الديوان) أسفَ أنصار التجديد حين قرءوا كلام المازنى عن صاحبه، لأنّ ذلك يُوحى بانهيار مادعًا إليه المازنى ورفيقاه من خطوات تجديدية، إذْ لو صار شعر شكرى كشعرِ حافظ مثلاً، ففيمَ كانتْ عواصف النقد العنيف؟

إنصاف شكرى:

قلت: وهلْ كانت صلة الأستاذ بشكرى تقرب من صلة بالعقاد؟

قال أدهم: ذكرتُ فى مقالى عن الأستاذ شكرى بمجلة المجلة أنّه كان أستاذى بمدرسة رأس التين الثانوية، وكانَ متميزا بين الأساتذة، بقوّة علمه، وجدة أفكاره، وقوّة شخصيته، وكنا نعرف مكانته الأدبيّة، ونقرأُ ما أصْدَرَ من دواوين الشعر، ونلمسُ تقديرَ المجتمع المدرسى لفضله! وقد امتدتْ صِلَتِى به ولم تنقطعْ بالنسبة إلىّ، وأنا أعجبُ للّذين يقولونَ: إن الرجلَ كان سَوْداوىّ المزاج، وحيداً مُعْتزِلاً، فأنا أعرفُه قُطْبًا لدائرةِ الأدباء بالإسكندرية، يجلسُ معهم ليفيضَ فى

شئون الأدب والثقافة، وهم يسمعونَ لآرائه، كما يستمعونَ لأستاذٍ جامعى، وفيهم المهندس، والمحامى، والطبيب، والاقتصادى، وكلّهم من رجال الفكر، وكانت صُحف القاهرة ومجلاتها الأدبيّة تُسارع إلي نشرِ أدبه شعراً ونثرًا، فما يُقال عن اعتزاله لم يكن دائماً، ولم يكن من طبيعته، ولكنه اضطر إلى اعتزالِ الأدب فترةً محدودة، لظروفٍ تطرأُ على أكثر الناس، وفى حيواتِ كبار الشعراء فى الشرق والغرب سنواتٌ غير خصيبة، ولكنّها فترةٌ تنقضى، ويعود الموج إلى تدفّقه، وسنواتُ شكرى فى الثلاثينات كانتْ حافلةً بالنتاج الزاخر فى المقتطف، والهلال، والرسالة، والثقافة، وأذكرُ أنه والى نشر مقالاتٍ نقدية بالرسالة كانتْ مصدر إعجاب المثقفين، وقد قرأها العقاد وأثنَى عليها كثيراً كعهده بإزاءِ ما يكتب شكرى، ولو جُمعت آثارُه النثرية فى هذه الفتره لملأتْ عدة كتب، ولن يكون هذا الفيضُ الممتد إلاّ مِن فكرٍ يقظ مقبل على الحياة والأحياء.

فقلت: أعرفُ هذا جيدًا، وقد قرأتُ أكثرَ ما اشرتمُ إليه، ولكنّى أسأل عمَّن تعنون، حين ذكرتم من يمدحُ شكرى لإغاظة العقاد؟

فقال الأستاذ أدهم: أنت مثقفٌ مستنير، ولا أزيدُك قليلاً أو كثيرًا، حين أذكر أن الدكتور زكى أبو شادى قد أصدرَ عدة مجلات تهاجم العقاد، لأنّ العقاد لم ينظرْ إلى أدبه شعرًا ونثرًا نظرة صاحبه إليه، وأبو شادى مكثر أتى عليه وقتٌ لا ينقطع فيه عن النظم، وأقولُ النظم عن قصدٍ، لأنّه لايفرق بين خطرات النفس التى تُوحى الشعر، ووثبات العقل التى تكسبه سعةً وعمقًا، وبين الموضوعاتِ العامة التى لم تتغلغل فى النفس الشاعرة لتكشفَ عن مكنون مستنير، وقد جمَعَ حولهَ فريقًا يُثْنون على كل ما نظم، وقد يوازنون بينه وبين العقاد، والعقّاد لا يرضى بالزيف، فجابَه هؤلاء وجابهوه، وبعضهم رأى فى مديح شكرى ما يهمل ذكر العقاد، مع أنّ لكلٍّ نجم مداره وضوءه وائتلاقه، ولاتكتفى السماء بفرقد واحد، ولكن هكذا كانوا يتصوّرون!

قلت: إننا أفرطنا كثيرًا فى الحديث عن شكرى والعقاد، وربّما كان تنوّع الحديث أَجْدَى، فقال أدهم: سيتنوع إذا تكرمّت بالحضور، غير أنّى أردتُ أن أزيلَ شبهةً أحسست بها فى آخر مقالك عنى بالثقافة، وأنا اهتم جدا بآراء أديب منصف مثلك!

على أنى أريدك شيئًا أتم به حديث العقاد وشكرى، فقد سارعتُ إلى تَعْزِيَةِ العقاد بالتليفون حين فُوجئت بنعى شكرى، فردّ على بصوت كلّه دموع وحُرْقَة، فلم أكتف بالتليفون، وسارعتُ إلى لقائه بمنزله، فوجدتُه ينظم قصيدة حارة فى رثائه، ويقولُ: حانَ الرحيل يا أخى، لقد رحَل شكرى كما رحل المازنى، ولابد أن يرحل العقاد! إذا لايحلو العيش بعدهما، وفى اليوم التّالى ظهرت جريدةُ الأخبار، وبها صورتان صورة شكرى وصورة العقاد باكيًا، ثم قصيدة العقاد فى رثاء شكرى ومطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أَوْدَى   قَرُبَ الرحيل، لقد قارب جدّا

وقراءة هذه القصيدة تكشفُ عن معانٍ كثيرة، يعرف بعضها قوم، ويعرفُ جميعها أصدقاء الفرسان الثلاثة، فهى وحدها تاريخ حافل، لعهد مجيد.

ولاحظت أن الأستاذ قد تعب كثيرًا، فودعته شاكرًا، وقد زاد فى عينى مهابة وإجلالاً..

* * *

الإمام محمد زاهد الكوثرى

فى شارع الصنادقية بميدان الأزهر ـ وهو يُشبه الحارة الضيّقة، تقومُ على جانبيْه حوانيت صغيرة، أكثرها يمتلئ بالكتب الأزهرية القديمة، بين متونٍ وشُروح وحواشٍ، فى هذا الشارع شاهدتُ شيخًا ربعة، أشرب وجهه بالحمرة، وله شيبة ذات وقار، يرتدى كاكولةً متواضعة، وعمامةً ذات طبقات أكثر مما نعْهد، وأمامه مجموعةٌ من الكتب يقرأ بعضَها فى صمت، فوقفتُ أرصدهُ عن كثب، ولكنّى وجدتُ رجلاً من العامة يدنو منه، ويحدثه، فخطوتُ لأسمَع سؤالا عن الطّلاق المعلَّق يُلقيه السائل فى وجل، منتظرًا الإجابة من الشيخ، ثم أدْهشنى أن يحكم الرجل فى إصرار بوقوعِ الطلاق، معَ أنى أعلم أنّ قانون المحاكم الشرعية الذى صدر فى مصر سنة ١٩٢٩ يمنع وقوع هذا الطّلاق استنادًا إلى أئمةٍ من غير أصحاب المذاهب الأربعة، وهم فقهاء أجلاّء ذوو شأن فى التشريع، وقد أرادَ القانون بذلك أن يُيسّر على من يُحلّون روابط الأسرة ذات الأولاد فى ساعة غضب ليتمكن الزوج من التئام الشمل رحمةً بأفلاذ الأكباد، فرأيتُ أن ألحق بالسائل لأقول له: إنّ الأمر فى مصر يجرْى على غير ما قال هذا الشيخ، وأظنّه محدود الاطلاع، فلا تركَنْ له، وقدا ستبشَر الرجلُ بما قلت، وأخذ يدعو اللّه أن يجزينى بالخير!

مضت أيام، وذهبتُ لزيارة أستاذى الجليل الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بكلية اللّغة العربية فوجدت منزلهَ عامرًا ببعض الزوّار من العلماء، وهم يتحدثون عن شيخٍ جليل انتقل إلى رحمة ربه، هو الشيخ خليل الخالدى مُفتى القدس، وأحد الوجهاء الكبار ممّن تولوا المناصب الدينية الكبيرة فى عهد الخلافة العثمانية،

وقد أجمعوا على تضلّعه المتين فى معرفة المخطوطات العربية فى شتى فروع الثقافة الإسلامية، إذْ زار أكثر العواصم الإسلامية - والأوربيّة أيضًا - ليقرأ ما تضمّه المكتبات الشهيرة من المخطوطات، وله خبرةٌ بخطوط العلماء، ومعرفةٌ دقيقة بأحوالهم المعيشية، ومذاهبهم الفقهية، وآرائهم المختلفة فى شتّى فروع الثقافة، حتى صار المرجع الأوّل فى بابه! هكذا قال القوم، ولكنّ الأستاذ الطنطاوى صاحب المنزل عقَّبَ على هؤلاء قائلا: إنّ الأستاذ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى تركيا من قبل، ونزيل القاهرة الآن يفوقُ الشيخ خليل الخالدى فى إلمامه بالتراث الإسلامى، لأنّ الشيخ الخالدى قد اقتصر على المؤلفات العربية وحدها، أما الشيخ الكوثرى فيقرأ التركية، والفارسية، والجركسية، والعربيّة، وقد هضم كل ما قرأ، وأصبح المرجع الأول فى هذا المجال، وعليه يعتمدُ ناشرو المخطوطات، ومصحّحو الموسوعات شرقًا وغربًا، وله باع طويل فى المناقشات العلمية، وقد وقف على نشر كثيرٍ من أمهات الكتب معلقًا ناقدًا مصحّحًا، والشيخ الخالدى - على فضله المشكور - لم يخلُ مكانه بعد، إذا أطال الله فى عمر الكوثرى.

سمعت مادار من الحديث عن الخالدى والكوثرى، فاشتقت إلى رؤية الكوثرى، وانتظرت حتّى انقطع الحديث عن الرجليْن، فسألت الشيخ الطنطاوى كيف أحظى بمجالسة الكوثرى؟ فابتسم، وقال فى دعابة: لايفوتك شىء يا رجب، إن الشيخ الكوثرى رجل متواضع على جلالة فضله، وهو دائما يصلّى الجمعة فى مسجد محمد أبى الذهب الذى يقابل الأزهر، فإذا صليت الجمعة به، فستجد جوار المحراب شيخًا وقورًا يتحلّق حوله الكثيرون، وكلٌّ يسأل عن معضلة، فهذا باحث فقهى، وذاك عالم أصولى، وذلكَ رجل منطق وجدال، وكلهمْ يسأل عن المراجع، أو يطلب الفتوى، والشيخ يجيب كل سائل بما يشفى غلته، ويظل فى مجلسه حتى تحين صلاة العصر، فيؤديها وينصرف سعيدًا، وقد قام بمجهود عدّة أساتذة ذوى اختصاص، إنه بحر لا ساحل له، فاذهب إليه إذا أردت.

دَفعنى حديث الأستاذ إلى رؤية العلامة الكوثرى، وكانتْ دهشتى عظيمة حين وجدتُ الكوثرى هو بعينه صاحب فتوى الطلاق فى شارع الصنادقيّة، فتذكرتُ أنى قلت عنه من قبل: إنه محدود الاطلاع جهْلا منى بمنزلته، وقلت فى نفسى: أيبلغُ بى الغرور أن أحكم على إمام كبيرٍ بما يخالف الواقع، مع أنّى لا أبلغ مبلغ تلميذ صغير من تلاميذه! إن للرجل الكبير رأيه الخاص، ولا يتقيد فى فتواه بقانون لا يراه صائبًا من وجهة نظره، ثم تذكرتُ أنه صاحب كتاب الإشفاق فى أحكام الطلاق وقد كتبه ردا على الأستاذ الفقيه الشيخ أحمد شاكر حين انتحى غير منتحاه! فإذا كانَ قد أفتى بوقوع الطلاق المعلق فهذا ما قامت لديه البراهين على صحته، فهو إذن إمام غير مأموم!!

حرصتُ على أن أصلّى الجمعة كثيرًا بمسجد أبى الذهب، حُبا فى رؤية الشيخ ومَن حوله من السائلين، وقد لحظ اهتمامى بما يقول، وانكبابى على تسجيل بعض آرائه فى كناشة أعددتُها لمجلسه، فبادَرنى متفضلا بالسؤال عن اسمى، وماذا أعمل، فعرفته بأنى طالب فى كلية اللّغة العربية بالسنة الثانية، فقال فى ملاطفة: وفقك الله، ثم سأل: لماذا تحضرُ دون أن تسأل؟ وكنتُ حينئذ مشغولاً ببحثٍ أعدّه عن الشاعر المغنى العباسى جحظة البرمكى، فتجرأتُ على أن أسأله عن مَراجع جحظة، فسكت هُنيهة، ثم نظر إلىَّ ليقول فى قوّة، بنى ماذا يعجبك فى أمثال جحظة! إنه مطرب شارب خمر، وواصف مجون؛ لهُ ترجمة كبيرة فى معجم الأدباء، وأولى بك أن تبحث عن أصحاب الاتجاه الخُلقى الرفيع من الأدباء أو العلماء! يا بنّى إن الشعراء ـ وجلّهم غير ملتزم ـ قد أخذوا نصيبًا كبيرا من اهتمام الباحثين فى مصر، وأنَا لا أمنع أن نبحث عن شاعر قوىّ الأسلوب، متعدد الأنحاء، ولكن أمنعُ أن نبحث عن الصّغار ممّن لا يزيدون الناس إحساساً أو فكرًا، بل يدعُون إلى منكرات يشمئز منها المؤمن الملتزم! إن كتاب الأغانى قد سيْطر على الأدباء أكثر مما يلزم، مع أنّ طالب الأزهر لو قرأ كتابًا مثل طبقات الشافعية للسبكى لوجد من الأعلام من يفوق مائة شخص من أمثال جحظة البرمكى، لا تغضبْ على يابنى فأنا أقول ما أعتقد!

سكتُّ قليلا، فقال الشيخ: هل تسمعنى شيئًا مما أعجبك من شعرِ جحظة؟ فقلتُ: يعجبنى مثل قوله:

ورقَّ الجوُّ حتى قيل هذا عتابٌ بين جحظة والزمان

فابتسم الشيخ وقال: بيتٌ حسن، ولو ترك الشاعر مجونه، وأتى بهذا الطراز لكان موفَّقًا، لقد قُلتُ لك رأيى يابُنَىَّ.

واتفق أن قابلتُ الأستاذ محمد الطنطاوى بعد محاورتى مع الشيخ، فذكرتُ له كلّ ما دار بينى وبينه، فسأل الشيخ الطنطاوى كالمتعجب: أقال الكوثرى لك ما يدل على ارتياحه لطبقات الشافعية؟ قلت: نعم.

فقال: كم يمتلئ السجن بالمظلومين، إنهم يأخذون على الكوثرى تعصبه الشديد لفقهاء الأحناف، وهاهو ذا يمدح طبقات الشافعية أوَلْو كان متعصبًا أما اختار كتاب (طبقات الحنفيّة)؟! قلت: ياسيدى، لا شبهة هنا فى التعصّب أنا مثلا شافعى المذهب، أفئن أفتيتُ بما أعرفه من فقه الشافعيّة أكون مُتعَصبا لهم، أم أكون مجيبًا بما أعلم! قال الشيخ: هذا حق، كلام الناس كثير ولا معنى له.

وكان النبهاء من رجال الأزهر فى الأربعينيات يلتفون حول جماعةِ المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، وهم من صفوة المفكرين من العلماء، وفى طليعتهم الشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد البهى، والأستاذ محمد محمد المدنى، ولهم باع طويل فى البحث التجديدى، ومناقشة القديم الذى تبدو به مظاهر الضعف، ولكن الأستاذ محمد زاهد الكوثرى قد وقَف من هذه الجماعة موقفًا معارضًا: ينقد فى شدّة، ويهاجم فى ضراوة، ويرجع باللآئمة على الإمام محمد عبده، والإمام المراغى إذهُما فى رأيه مصدرُ الفتاوى الجريئة، وأذكر أن المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم قد استُفْتِى فى لباس (القُبَّعة) فأجازَها معتمدًا على نصوص استمدها من كتب السّابقين، وموافقًا ما سَبَقَ أنْ قرره الإمام محمد عبده من قبل، فثارتْ ثائرة الشيخ الكوثرى، وكتبَ مقالات حارَّةً لسْنا ننقده من أجلها، ولكنَّ حدتها البالغة، وجُنوحها إلى التهجم الواضح جعلها تَحيدُ عن المجادلة

بالحسنى، بلْ إن الأستاذ الكوثرى قد تورّط فى استدلاله بالآية الكريمة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

مستنبطًا أن لبسَ القبّعة من بعض مظاهر هذه التولية المنهىّ عنها، ولم يحصر الهجوم على مقال المفتى الأكبر فحسب، بل تناولَ الشيخ شلتوت، والشيخ المدنى، مع أنهما لاصلة لهما بهذه الفتوى! كما تناولَ الإمام محمد عبده بالتخطئة الصريحة، وتوالت مقالات الكوثرى فى مجلة الإسلام لترمى شواظها المُحرق، وكأنّه يهاجم أعداءً لا زملاء فى جبهة واحدة، فساءنى كل الإساءة أن يبعُدَ الكوثرى فى غلوّه هذا البعد، وهو مَنْ هو، رجاحة عقل، وبُعد نظر، فصّممتُ على أن أسأله العدولَ عن الهجوم الجارح، وجئتُ إلى مسجد أبى الذهب متحمسًا، وبدأت القول قبلَ أن يسألَه أحد من تلاميذ الحلقة المعهودة، فذكرتُ فضل المفْتى وشيعته، ونظر الأستاذ إلىّ فى غضب مكتوم، ثم واجهَنى بقوله: أنتَ يا بنى طالب صغير فى كلية تدرّس علوم اللّغة لاعلوم الدين، ويَجِبُ أن تصبر طويلا حتى تفهم ما أعنيه، إنّ مجلة الرسالة التى تنشر للمفتى ولشلتوت لاتنوى الخير للمسلمين، فتسرعتُ قائلا: سيدى إن الرسالة هى المجلة الرفيعة المستوى التى تفوح بعبير الإسلام، ولها صوتُها المسموع، وأنتَ حين تحاربها متكلما وكاتبًا إنّما تحاول أن تهدم قلعة من قلاع الإسلام! فحوّلَ الأستاذ وجهه عنى، والتفت إلى القوم يغيّر مجرى الحديث.

وقد انقطعت عن المسجد بعد ذلك محاذرًا أن أثير غضب الرجل الكبير، ثم عرض لى أن أشترى بعض الكتب من مكتبة الأستاذ حسام الدين القدسى، بجوار دار الكتب المصرية، فما كاد الأستاذ حسام يرانى حتى صاح بى: لماذا انقطعت عن مجلس الإمام الكوثرى؟ إنه سأل عنك كثيرًا، وكان الأستاذ حسام الدين ممّن يحرصون على حضور مجلس الجمعة، وقد سمع محاورته لى من قبل بشأن (جحظة البرمكى) ومن التوافق أنى نشرتُ بالرسالة بحثًا عن جحظة، وقرأه الأستاذ حسام قبل أن أزوره، فقال متضاحكًا، لعلّك نشرت مقال جحظة لتجهر

(١) سورة المائدة الآية ٥١.

بمخالفة الأستاذ؟ فقلت كَلاً والله، المقال قد شغل تفكيرى، وسهلتْ علىَّ صياغته فبادرتُ بنشره دون أن أتذكر كلام الأستاذ.

كان فى الأستاذ حسام الدين القدسى أُنْسٌ وملاطفة، فأشار على أن أجلس معه بعض الوقت ليحدثنى عَمَّا أجهل من أمر الكوثرى، ولا زلتُ أذكر من حديثه الجيد أن الرجل زاهدٌ كاسمه، وأن الأستاذ «محمد أبو زهرة» قد لمس ما يعانيه من ضيق فى الرزق، فسعى إليه كى يكون أستاذاً للشريعة الإسلامية بقسم الدراسات العليا لطلبة كلية الحقوق بالقاهرة، كى يتَّسع له المورد على نحو كريم! والأستاذ الكوثرى جديرٌ بأن يفيد الطلاب، وأن يُنشئ جيلاً من الباحثين، ولكنَّ الشيخ قد اعتذر لأنه يُعانى آلام الشيخوخة، ولا يستطيع أن ينهض بالتدريس كما يحب، وطالَ رجاء أبى زهرة وطال امتناع الشيخ، لأنه لا يريد أنْ يقصّر فى الشرح! هكذا تخيل الرجل، مع أن مظنة التقصير متوهمة لا حقيقة لها، ولكن تقدير المسئولية العلمية حال دون التنفيذ.

ثم قال الأستاذ حسام، وشىء آخر أذكره عن الكوثرى، لقد قام بتصحيح مجلّدين كبيرين من كتب التراث وكتب لهما مقدمة حافلة، مع تعليقات كثيرة تأخذ نصف الصفحة فى كلّ أوراق الكتاب، فرأى الناشر الأستاذ عزت العطار أن يعطى هذا المحقق ما يعادل ثمن خمسين نسخة من الكتاب كبعض ما يستحق من الأجر، ولكن الأستاذ الكوثرى ـ برغم حاجته الشديدة ـ قد رفض فى تصميم، وقال: إذا أخذت الأجر الدنيوى فسيضيع الثواب الأخْروىّ، وكيف استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ وواضح أن الأجر الدنيوى لايمنع ثواب الله، إذ أن الأعمال بالنيات، ولكنه الاحتراز.

وثالثة قالها القدسى، وهى ذات مرارة موجعة ـ فقد ذكر أن الكوثرى منذ عامين أخذ يبيع مطبوعات مكتبته ومخطوطاتها بثمن بخس، ليجد ثمن الدواء له ولزوجته المريضة، وقد عرض عليه الأستاذ أحمد خيرى ـ وهو من أعيان البحيرة ـ أنْ يقوم بشراء ما يلزم من الدواء، فرفض مُصِرا مستنكراً، وقال: إن ذلك سيرهقه نفسيا فيزيد المرض!

سمعتُ هذا النوادر من الأستاذ حسام، فكنت بين الإعجاب بترفع الشيخ، والأسف الحار لضياع إمام كبير، هاجر من بلده فارا بدينه من طغيان مصطفى كمال، ثم لايجد الراحة فى شيخوخته الواهنة وتذكرت أن ما عند الله أَوْفَى وأجَل، ولن يضيع أجر المحسنين، فكان هذا عزائى . . .

* * *

الأستاذ صديق شيبوب

ظل الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب مدى أربعين عاماً قائماً على تحرير الصحيفة الأدبية بجريدة البصير، وله كل أسبوع مقالٌ نقدى ، أوبحث أدبى، أوتحليل لموقف اجتماعى، هذا غير محاضراته فى أندية الإسكندرية، إذ كانت الحركة الأدبية بها لعهده جياشة فائرة، تكاد تنافس القاهرة، لولا ماللعاصمة من قدرات مادية علمية رجحت بها على الثغر، ولكن إذا ذكر التاريخ الأدبى للإسكندرية فى الحقبة الماضية فللأستاذ صديق شيبوب مكانه المشهود، ودوره المجيد.

وقد انتقلت سنة ١٩٤٩ من القاهرة إلى الإسكندرية طالباً بالمعهد العالى للتربية بها، ولم أكن أعرف أحداً من أدباء الثغر فشعرت بوحشة كبيرة، لأنى لاأستطيع العزلة بمنزلى دون اتصال برجال الفكر، وقد حدثت نفسى أن أذهب إلى جريدة البصير، فأقدم مقالا أو قصيدة تكون بدء التعارف بالأستاذ صديق، وسأجد من زملائه وأصدقائه من أسعد بمعرفتهم فيؤنسون وحشتى الفكرية، ولكننى تقاعست قليلاً، ثم حدث ماحتم لقاء الأستاذ صديق شيبوب إذ كان علم النفس من أهم المقررات علينا بالمعهد، وكان يتناوب تدريسه دكتوران من أساتذة المعهد وفدا من الخارج، وأحدهما ممتازٌ لايرقى الشك إلى مقدرته العلمية، وتحليله النفسى مع نصاعة الأسلوب، واطراد التفكير، وهو الدكتور أحمد عزت راجح، أما الثانى فلانكاد نفهم شيئاً ممايقول، لأن الأفكار تصل إلينا غير متسلسلة، والاصطلاحات العلمية التى لاعهد لنا بها تتكرر فى حديثه مزدحمة محتشدة دون أن يفصح عن مدلولها، وكان يخص العلامة النمسوى الشهير سيجموند فرويد باهتمام؛ إذ يعيد

ويبدئ فى الحديث عنه دون أن يوضح مايعنيه، فتذكرت أنى قرأت سلسلة من المقالات النفسية بمجلة الرسالة عن فرويد، كتبها الأستاذ صديق شيبوب عقب رحيله، وللأستاذ بيانه الواضح وتحليله المفيد، فهرعت إلى لقائه كى يعيرنى هذه المقالات، واستبقلنى الرجل ببشاشة عاطفة، وأذكر أنه تواضع فقال: إنى أكتب عن هؤلاء هامشيات لاتتغلغل فى قضايا العلم ودروبه المظلمة، قلت: قد تكون هذه الهامشيات حلقة اتصال بين البحوث النفسية لدى الطالب الناشئ، ووعدنى أزوره غداً حيث أحضر عدة مراجع نفسية مع مقالاته المطلوبة، وقرأت ماكتب الأستاذ، فإذا الوضوح التام والتسلسل المتصل، والمقدمات المفضية إلى النتائج فى غير رهق، فأخذت أحصل ماأجده من المعلومات تحصيلاً ميسوراً لاتكلف فيه، ووجدتنى بعد ذلك أستمع إلي مايقول أستاذنا بالمعهد العالى فلاأجده يأتى بالجديد.

إذاعة الإسكندرية :

كانت إذاعة الإسكندرية تقدم ركنا أسبوعياً للشعراء، وقد احتفل معهد التربية بمناسبة تربوية، فألقيتُ قصيدةً بالحفل، وجاء مندوب الإذاعة ليسجل الكلمات كى تعاد فى ركن الأدب، وفوجئت بأن قصيدتى قد بترت بتراً هوى بها، لأن الحذف لم يكن متصلا، بل وجدت البيت يذكر ثم يحذف مابعده مع أنّه متصل به، وعز علىّ أن يحدث ذلك، فذهبت إلى القائم على باب الأدب فى الإذاعة، فقابلنى باستعلاء وأعلن أن البث الإذاعى يخضع لاعتبارات يعرفها هو، ولاأعلم عنها شيئاً، فقلت له: يجوز أن تحذف بعض المقال، وجانباً من البحث العلمى، ولكن القصيدة كالقصة عمل فنى متكامل لاسبيل إلى اختصاره دون إجحاف بالفن الأدبى فقال لى، أنا أحذف من قصائد الشاعر خليل شيبوب ماأريد، وكان رحمه الله لايجد فى هذا الحذف ماينقص القصيدة، بل واصل الإذاعة الشعرية لدينا فى رضا وارتياح! فيأتى طالب بالمعهد العالى ليعترض!

سمعت ما قال المذيع، فخرجت آسفاً، ولم أصدق أن الشاعر الكبير الأستاذ خليل شيبوب وجميع المجلات الأدبية ترحب بشعره المؤثر، يرتضى هذا الوضع، وكان قد انتقل إلى جوار الله منذ بضعة أشهر فساقتنى قدماى إلى مكتب شقيقه الأستاذ صديق شيبوب، ولم أكن موفقاً فى بدء الحديث، لأنى دخلت فى الموضوع بدون تمهيد، والأخ الحزين قريبُ العهد بفراق أخيه، فوجدت لون وجهه يشحب، وتحدث كأنه يبكى، فأفزعنى أنْ أنكأ جراحاً تحاول الالتئام، وأخذت أعتذر لحماقتى، ولكنه ترك مكتبه، وانتقل إلى جوارى، وقال فيما يشبه الهمس: ما قاله المذيع صحيح لاشك فيه، وطالما كان موضع الشكوى من خليل، ولكنه كان يبعث كل أسبوع برسالة شعرية إلى عزيزة لديه، لايملك أن يراسلها فى منزلها، وهى تنتظر رسالته الشعرية فى موعدها المحدد، وكان يتعمد السهولة المفرطة فى أسلوبه من ناحية، ثم يتجلى إلى التسامح مع بعض ممن يفرضون أذواقهم من المذيعين عليه من ناحية، لأنه يحرص على أداء الرسالة فى موعدها، ثم قال لى: نشر الأستاذ خليل قصيدةً بالرسالة من وحى هذه العزيزة الهاجرة تحت عنوان «العمر الضائع» فى أكثر من ثلاثين بيتاً، مع أن الذى أذاع القصيدة حذف منها عشرة أبيات، وقد رجعت إلى القصيدة فوجدتها أنة باكية، وفيها يقول:

قـد أرهقتنـى عزلـتى فكأننـى ... من قبل دفنى قـد دُفنت تِبَاعـاً

أصـبحتُ مـثل الموميـاء محـدثـاً ... عن غابر لى لم يكن ليذاعاً

بُعْداً لحـبك إنه البـحـر الذى ... غـاَلَ الـغـريق ومـاأراه القاعـا

الـصدرُ يطـفـح بـالمرارة ثـائراً ... والنفسُ واجفةٌ تطير شعاعاً

وتمضنى ذكرى هواكِ كأننى ... فى كل يوم أستجد وداعاً

صداقة نبيلة:

وقد خصنى الأستاذ من بعد بعطفه، وأذكر أنه عرض علىّ أن أصحبه لرؤية «فيلم» خاص بقصة رائعة للفيلسوف الروسى تولستوى، وأخذ يشرح لى كل

ماغمض، لأن الحوار يدور بلغة لاأفهمها، وكان معنا الأستاذ الأديب نقولا يوسف، فقال لى: سأختار أنا الفيلم القادم، ولكن لاأستطيع أن أبلغ مبلغ صديق فى الشرح والتوضيح، وهكذا سعدت بالأستاذين سعادة متصلة.

وفى أحد مواسم الصيف، قابلت زميلاً عزيزاً يعد رسالة علمية عن الفيلسوف الروحى «محيى الدين بن عربى» فدار الحديث كما اتفق، ولكنى وجدته يعانى أسفاً لايبوح بسره، فقلت له ماذا بك؟ فقال: لقد حضرت إلى الإسكندرية لمقابلة الأستاذ الدكتور رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب، لأن له بحوثاً رصينة عن ابن عربى، وبذلت جهداً كبيراً حتى ظفرت برؤيته، وحدثته عن رغبتى فى أن يرشدنى إلى بعض المصادر التى تنفعنى فى البحث تاريخياً وفكريا ، ولكنه ابتسم ، ثم قال: أليس لك مشرف؟ ارجع إليه، فإذا لم يسعفك، فابحث عن موضوع آخر، وانقطع حديثه المقتضب، فخرجت يائساً، قلت له: إنى أعرف أن الأستاذ شيبوب كتب عدة فصول عن ابن عربى، فهو إذن يُلم بكثير من المصادر، وسأزوره بمكتبه فى المساء، فتعال معى، فقد يعوضك الله خيراً، وفى الموعد كنا بمكتب الأستاذ بالجريدة، فقدمت إليه صاحبى، محدداً رغبته العلمية، فلا أنسى تحديق عينه فى وجهى لمدة طويلة، ثم ابتسامته المشرقة التى صاح بعدها يقول: عجباً لك يا أخى أنا فى منزلة من يرشد باحث الدكتوراه فى موضوع فلسفى! إن ابن عربى قد هزنى فى بعض اتجاهاته الإنسانية، فحاولت أن أقرأ عنه، وأن أفيد القارئ بتلخيصات يسيرة عما قرأت، فإذا كان صاحب هذه التلخصيات ثقة لديك ولدى الباحث، فإنى سأرجع إلى مكتبى اليوم لأحضر بعض المراجع التى اعتمدت عليها، وأقدمها إليكما فى الصباح، ولعلها تنفع! قلت: ذلك ماكنا نبغى.

وذهب الزميل فرأى سبعة كتب تتحدث عن ابن عربى، فتسلمها شاكراً، ووعد بردها بعد قراءتها، وقد فعل، ثم حدثنى أنه وقف منها على صيد ثمين لم يتهيأ له من قبل وأذكر أن صديقاً قال لى بعد هذا اللقاء أكونُ سعيداً لو قمت بإفادة باحث يستفيد، ولكن الفلسفة معقدة! فلاتقذف بى فى الطوفان.

الكاتب المزيف:

قرأت فى جريدة البصير عدة بحوث عن الحدود بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، كتبها محامٍ شهير بالإسكندرية، ثم تعرفتُ به فى مكتب الأستاذ صديق، فأثنيت على البحوث، وقلت له: إن نشرها فى مجلة إسلامية أجدى، لأن قراء البصير لايهتمون بهذه المقارنات، كما أن المجلة تبعث مكافأة مادية، وقد سر المحامى، ووعدنى أن أقابله في الغد، ليكتب صورة متماسكة أُرسِلها أنا لمجلة «التضامن الإسلامى» بالسعودية، وتم ذلك، وأرسلت المقال فنشره الأستاذ محمد سعيد العامودى رئيس التحرير لفوره، ثم فوجئت بعد شهر بخطاب من الأستاذ يعلن أن المقال مسروق من أوّله لآخره، ويحدد مكان السرقة بالصفحة ورقم الطبعة، فأسفت أسفاً شديداً، وذهبت للأستاذ صديق أعلن له ورطتى مع الأستاذ العامودى، فقال: آخر ماكنت أظن أن محامياً قانونيا يسرق المقال وينشره مرتين، مرة بالإسكندرية، وأخرى بالسعودية! قلتُ: فماذا نصنع؟ قال: سأخبره أنا إذا حضر إلى الجريدة، ولم يشأ الأستاذ صديق أن يجابهه مباشرة فقال له: أرجو أن تدلنى على المرجع الذى اعتمدت عليه فى مقال كذا بالبصير، قال: لقد غاب عنى اسمه، ولم أعد أتذكر، فانفعل الأستاذ وقال: فى هدوء: لن أنشر لك مقالاً إلا بعد معرفة مرجعه!

وقابلت الأستاذ. فأخبرنى بما كان، فقلت له: ولماذا لم تواجهه بخطاب الأستاذ العامودى، قال: لاأحبّ أن أثير عداوةً لالزوم لها، قلت: سأواجهه أنا، لأنى أحرجتُ مع العامودى، قال: لك ذلك، وسيعلم سلفاً أنى أدركت ماكان، فلايلطخ الجريدة بهذه السوءات! ثم قال الأستاذ مبتسماً: أتعرف كيف بدأت صلة هذا الكاتب بجريدة البصير؟ لقد كتب ذات يوم من أيام رمضان المبارك مقالاً عن الصوم، لايخرج عن معلومات تلميذ بالمدرسة الابتدائية، فلم أشأ أن أنشره رعايةً لمكانته القانونية، ثم فوجئت به يذيع فى كل مجلس أننى أحارب المقالات الإسلامية وأضيق بنشرها، وجاءتنى الفرية فقلت: ياقوم أمامكم البصير، تجدونه

يحتفل فى كل موسم دينى بمايوجه إليه من قصائد إسلامية وبحوث دينية، فكيف تصدقون هذا؟ وحادثت الرجل تليفونياً لأبلغه أن المقال لم ينشر لأنه دون ماينبغى أن يكتبه باحث ممتاز مثله، ومن يومها أخذ يمطرنا بالبحوث القانونية فأنشرها، دون أن أعلم أنها مسروقة!

عبد السميع المرسي:

ورثت عن والدى صداقة رجل فاضل، لم يتعلم فى مدرسة،ولم يجلس إلى أستاذ، ولكنه كان نادرةً فى حفظه يسمع القصيدة مرة واحدة فيروى بعض أبياتها، كان نادرةً فى نظراته الاجتماعية، حيث لاتخدعه الظواهر بل يحكم على كل إنسان بمايدل علي غور بعيد، ونباهة مفرطة، كما كان نادرةً فى بؤسه إذ ظل لايجد قُوت يومه إلا بعسر شديد، ولايترك ملبسه إلا بعد أن تتناهبه الريح! ثم جاءنى نعيه، وأنا أصطاف بالإسكندرية،فرأيت أن أرفه عن نفسى بكتابة مقالٍ عنه يبرز مواهبه المستترة، ويكشف عن معدنها،وقلت فى خاتمته: إن الرجل قد عاش فى قريته المتواضعة كما تنبت الزهرة الجميلة فى أعلى الجبل، ترسل العطر ولايشمه أحد، ثم تلوى بها الريح عند الذبول فتهوى وحيدةً بائسة لايحفل بها إنسان، وتقدمت بالمقال للأستاذ صديق لينشر فى البصير، فقال بعد الفراغ من قراءاته: لم أُسَرَّ بنشر مقالٍ كما سأسر بهذه الكلمة الرائعة، أنت متحدث عن رجلٍ مغمور لايعرفه أحد، وقد ذهب إلى ربه دون احتفاء، فيجب أن يحتفى البصير بذكراه، ثم التفت إلى زميله الاستاذ عبد الحكيم الجهنى المحرر بالجريدة وقال: أبشر ياعبد الحكيم، لقد وجدنا من سيتحدث عنا بعد الرحيل، لأن الأستاذ رجب سينظر إلينا كما نظر إلي صاحبه عبد السميع، لنطمئن من الآن! ثم نشر المقال فى موضع بارز، وجعل عنوانه (شخصيات منسية).

ومن طريف مالحق بهذا الموضوع، أنى تحدثت فى المقال عن مطارحات شعرية وقعت بين عبد السميع والشيخ على عقل العارف بالله الشهير،وماكاد المقال يظهر حتى جاء الدكتور حسن ظاظا إلى جريدة البصير، يطلب أن يرانى، فقد يكون

لدى ورثة عبد السميع بعضُ قصائد الشيخ، وهو يهتم بجمعها، كذلك حدثنى الأستاذ صديق، وقال إن لصاحبك المنسى كرامات.

النقد الرقيق:

اختص الأستاذ بتحليل مايصدر من المؤلفات، ولكنه كان يميل إلى إظهار المحاسن بإفاضة، فإذا تعرض للمآخذ كتبها فى إيجاز، وفسح للمنقود طريق الدفاع عنها، وقد تحدثنا فى هذا الاتجاه، فقال الأستاذ: إن كل فتاة بأبيها معجبة، وكلّ من كَتَبَ يتوقع الثناء المستطاب فلابد أن نعرض مانقدر على عرضه من المحاسن المشاهدة دون مبالغة! ثم نأتى للمآخذ بما يشير إليها، ، حينئذ يلمس المنقود، دلائل الصدق، فلايسىء الظن، وهذا أقوم السبل إلى التوجيه، وهذا السلوك المهذب قد أثار عليه ثائرة الأستاذ حبيب زحلاوى، فعقب يقول: إنه يخفى بعض الحقائق، وذلك لأن الأستاذ «صديق» عرض قصة رمزية للدكتور بشر فارس فخصها بكثير من الثناء، وجعل النقد متجهاً للأدب الرمزى بنوعٍ عام لابقصة الدكتور بشر، وكانَ الأستاذ حبيب قد نقد قصة بشر من قبل نقداً جارحاً، فانتهز كلمة الأستاذ شيبوب ليعيد الكرة، وليرمى الناقد بتعمد الغفلة عن مساوئ القصة، ولم يرّد الأستاذ «صديق»، حيث اكتفى بالقول بأنّه قَدَّمَ وجهة نظره، وليس من همه أن يفرضها على القراء فلْيعارضها من يشاء!

هذه شجون مختلفة، جاءت بها الذاكرة، فسردتها كما تواردت بدون تنميق وهى فى غايتها الأدبية تلفت الدراسين إلى جهود ناقد أدبى بصير..

***

الأستاذ عبد العزيز جادو

أزعم فيما أزعم من الآراء أن صديقى الباحث النفسى الروحى الأستاذ عبدالعزيز جادو شخصية خيالية لاوجود لها فى عالم الحقيقة، وأنا أزعم لنفسى هذا الزعم على حين أزوره بين الفينة والفينة فأناقشه فيما يعن من الرأى وجهاً لوجه، ثم أتلقى خطاباته الدورية فأسارع بالرد عليها لتصل إليه وهو مع ذلك كله فيما أزعمه لنفسى من الآراء شخصية خيالية لاوجود لها فى دنيا الناس.

أأكون سوفسطائياًأنكر حقائق الأشياء؟ لاأعرف إطلاقاً أنى كذلك! ولكنى أتابع الدكتور طه حسين فى منطقه الذائع حيت كتب فصله البديع عن مجنون ليلى، فرأى من متناقضات أخباره، واختلاف أنبائه ومفارقات أحاديثه ماجعله يزعم أن قيساً شخصية خيالية، وهأنذا أشاهد سيلاً من المتناقاضات المتضاربة سيغرق صديقى عبد العزيز جادو فى طوفانه. فلا أتابع الدكتور طه حسين فى منطقه فأزعم ماأزعم، خطأ كان ذلك أم صواباً؟ والخطأ إذ ذاك هين مغفور لمثلى، وكيف وقد اغتفره القراء لعميد الأدب الكبير.

أجلس مابينى وبين نفسى بعض اللحظات فأنسى نسياناً تاماً أنى أعرف عبد العزيز وأصاحبه كتفاً إلى كتف، وأناقشه وجهاً لوجه، أنسى ذلك لأراجع أنباءه،وأبحث آثاره ثم أصدر حكمى على هذه المراجعة وحدها،فأجدنى أزعم أنه شخصية خيالية لم تعش فى الأسكندرية يوماً واحداً، وإنما لفق الرواة أخبارها، كما لفقوا أخبار المجنون، ثم صنعوا له مؤلفاته الكثيرة وأبحاثه الضافية، كما أنشدوا الشعر الغرامى وعزوه إلى قيس فى منطق الدكتور، وإذا تعجب القارىء من ذلك فليسمع:

لقد جاء عبدالعزيز الناس ذات يوم بشعر عروضى ملتزم نشره تباعا بمجلة «المعرفة» فعرف عنه البعيد والقريب أنه شاعر من مدرسة الشاعر الكبير على الجارم يحتذى ويقلد، وتوالت قصائده بالمعرفة لتؤكد هذا الطابع التقليدى، حتى ظن الناس أنه سيذهب إلى بغداد ذات يوم ويقول فيها ماقال الجارم الكبير هناك:

ألسنا حماة القول فى كل محفل ... تتيه فى كـل أرض مـنـابـره

وأخذوا يرصدون كوكبه من هذا الأفق وحده، ولكن أيديهم تمتد بعد فترة إلى قصة غرامية من الشعر المنثور تتضمن خطرات مهجرية تحت عنوان، «آمال» فيرى القراء نمطاً من قول جبران خليل جبران يحتذيه عبد العزيز، فيدهشون ويتساءلون: أصاحب رصانة السبك،وجودة الحبك فى شعر المعرفة هو صاحب الهمسات والومضات فى خواطر «آمال»؟ وكيف تلاقى الجارم وجبران فى إطار؟ لابد أن يكون هناك تشابه فى الأسماء، وأن عبد العرير جادو شخصيتان لاشخصية واحدة، ولكن صاحبنا أمام معارفه وأصدقائه يعترف أنه يجمع الثلج والنار فى إناء.

وإلى هنا، فالمسألة مسألة حيرة واشتباه فقط، لم تصل بعد إلى التناقض فى إنتاج عبد العزيز! ولكن هذه الحيرة تشتد حين نجد عبد العزيز يفاجىء الناس بضرب من الفلكلور الفكاهى ينشره فى مجلة «الراديو والبعكوكة»، وفى مجلة «الطائف المصورة» فيترك الجارم وجبران إلى احتذاء حسين شفيق المصرى! ويرى القراء فى إنتاج عبد العزيز شيئاً جديداً لايتصل بمجلة «المعرفة» ولا بمجموعة «آمال» بسبب من الأسباب! أهو عبد العزيز الثالث أم ترى ماذا؟

لازلنا فى دائرة الحيرة والالتباس! ولكننا نكاد نقطع الشك باليقين حين نمر فى شارع شهير بالأسكندرية، فنجد محلاً تجارياً كبيراً يبيع «الحدائد» المختلفة الحجوم، وقد وضعت عليه لافتة كبيرة تحمل اسم «عبد العزيز جادو» ونرى الرجل بلحمه ودمه يناقش فى أسعار المسامير والمفصلات، ويكايد زبائنه ويكايدونه . . لابد أن يكون هناك تشابه فى الأسماء وأنه عبد العزيز آخر دون نزاع، فإذا التبس الجارم بجبران وحسين شفيق فلن يلتبسوا جميعاً بسادتنا التجار. أترى قد ودع الرجل

عالم الشعر والأدب؟ من المعقول أن يحصل ذلك، ولكن ليس من المعقول أن يودع هذا العالم إلى المسامير والمفصلات فجأة دون أسباب؟ وهذا ماكان!

وتمر على الشارع الكبير بحى كليوباترة بالأسكندرية لتقرأ اللافتة التجارية مابين مصدق ومكذب فيدهشك ذات يوم أن ترى جوارها لافتة أخرى تقول: عبد العزيز جادو صاحب جريدة «الشاطئ» فتضرب كفاً بكف، وتقول: هل أصبح تاجر الحديد صاحب جريدة ورئيس تحرير؟ وتتطلع إلى قراءة الأعداد فتزيد الدهشة فى نفسك حين تجد فى صدر الصحيفة هذه العبارة «جريدة الشاطئ» توزع مجاناً لمن يطلبها. ماهذا؟ إن عبد العزيز الذى نعرفه فقير يعتمد على ستر الله فى تربية أولاده، ولن يعقل إطلاقاً أن يصدر صحيفة توزع بالمجان!! لابد أن هناك مليونيراً آخر يحمل اسم عبد العزيز جادو! ولكن إدارة المجلة بمنزل عبد العزيز؟ وكلمات الكتاب ورسوم الكاريكاتوريين توجه إلى عبد العزيز، وهو يطالع تجاهك مايرد من الرسائل، ويخط أمام عينيك الافتتاحية التى لاتلبث أن تقرأها فى صدر الشاطئ! مهما تأكدت من ذلك كله فأنا بعقلى لاأصدق! وأذهب إلى صديقى وصديقه الأستاذ الكبير نقولا يوسف فأسأله عن هذا الكنز الذهبى الذى انفجرت فوهته تحت قدمى عبد العزيز فجأة فأتاح له أن يوزع الشاطئ بالمجان؟ فيضحك نقولا ثم يقول: «كنز إيه ياعم»! المسكين يعتمدُ على بعض إعلانات تكفى نصف التكاليف، ثم يدفع النصف الآخر من عرق جبينه بالمحل الجديد! فأسأله ثانية: وماهذا العناء؟ لماذا لم يخفض قيمة الاشتراك بما يجعله يخرج من الهوى لاعليه ولاله؟ فيقول: لقد تعب! جرب ذلك بضعة أعداد فأكل المشتركون ثمن الشاطئ، وطال انتظاره بدون جدوى، فكتب عبارة «توزع مجاناً» ليريح ويستريح! ثم أغمض عينى لأنسى أن عبد العزيز حقيقة واقعة، أغمضها كيلا أراه وأنا أقول له: ولماذا لاتكتفى بالنشر فى الصحف، وتوصد «الشاطئ» رحمة بأولادك الضعاف؟ فيقول: أنا أنشر أفكارى هنا كما أريد، أما رئيس التحرير فى مجلة أخرى فله مواصفات خاصة قد لاتقبل كل مايقال. أنا حر ياعم!! وأسمع وأسمع ثم أقول، هذه رابعة المتناقضات!

وتفاجئنى دار المعارف ذات يوم وأنا بالمنصورة بعيداً عن عبد العزيز بكتاب نفسى يصدر فى سلسلة «اقرأ» تحت عنوان «الأحلام والرؤى» لمؤلفه عبد العزيز جادو، فأتصفح الكتاب، فأجده يلم بالحقائق الجديدة لعلم النفس، فيتحدث عما يقوله النفسيون عن اللاشعور، والحيل الوهمية، والعقد المركبة، وما إلى ذلك. وأنا أعرف أن تاجر الحديد وصاحب «الشاطئ» وتلميذ الجارم وجبران لم يدرس علم النفس دراسة مدرسية أو جامعية، فلابد أن يكون عبد العزيز جادو قطعاً هذه المرة غير عبد العزيز الإسكندرى الذى يسكن فى شارع الجمال رقم ٧ فى حى كليوبترة بالرمل البهيج، لن يكون هذا بحال من الأحوال، وكيف؟ والشاعر يقول:

الشــرق منــزلــنا ومــنزلهــم   غرب، وأيــن الشرق والغرب؟

ولكن البريد يسرع إلى بهدية من كتاب «الأحلام والرؤى» تحمل توقيع عبد العزيز! ياالله متى درس عبد العزيز علم النفس؟ وكيف تمكن منه تمكن المؤلف لاتمكن القارئ؟ وأين وجد وقته فى دنيا التجارة والصحافة والأولاد؟ وأتلمس الأبناء فأعرف أن «الشاطئ» قد احتجبت بعد أن أكلت كل ماادخره عبد العزيز، وأن الرجل أراد أن يتبصر بالقراءة فاندفع إلى مراجعة كتب كثيرة فى علم النفس من أوروبية وعربية حتى استطاع فى ثلاثة أعوام أن يكون بثقافته الذاتية عالم نفسٍ يضع الكتب المتخصصة كما يضعها أساتذة الجامعات فى كليات التربية والآداب!

ويطول عجبى فترجع إلى وسوستى، وأزعم أن الرجل شخصية خيالية؛ إذ كيف يحلل النفس البشرية بأدق الأجهزة العلمية بائع مسامير؟!! ولكن بحوث عبد العزيز تتتابع لتغيظنى وتربكنى حيث يحمل البريد بين الفينة والفينة كتباً نفسية تصدرها دار المعارف لعبد العزيز تحت عنوان «طرق النجاح»، و«كيف تكون سعيداً» و«نحو ابتسامة مشرقة» ثم أرجع إلى أعداد «الرسالة» و «الأهرام» و «الأديب» و«الأقلام العراقية» فأجد عبد العزيز يملؤها علم النفس! فأقول فى نفسى هذه العبارة المضحكة التى يقولها المصريون فى مجال التعجب والإعجاب: «يخرب بيتك يا عبد العزيز» أنت شيطان!»

وتمضى المفارقات إلى نهايتها، فيكتب لى بعض الأصدقاء بالأسكندرية أن الشخصية الخيالية تركت علم النفس واشتغلت بعلم الروح، فلا أكاد أصدق، ولكنى أعلم أن الباحث النفسى الشهير مكدوجل قد خطا هذه الخطوة فجعل ميدانه النفسى طريقاِ إلى البحث عما وراء الغيب! فربما تكن روحه قد تقمصت روح عبد العزيز فانطلقت بها من شرارة علم النفس إلى ما وراء الأثير! وتصدق الأيام مازعم الصديق فتصدر دار المعارف فى سلسلة «اقرأ» كتاباً لعبد العزيز تحت عناون «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» ويجيئنى البريد بكتاب عبد العزيز ممهوراً بإهدائه وتوقيعه! ولكنى أغمض عينى إذ لاأستطيع القدرة على مجابهة كل هذه المفارقات من المتناقضات.

وتسوقنى الظروف الطارئة إلى زيارة الإسكندرية فأهرع إلى محل الحديد لأسامر صديقى القديم بعض الوقت فأجد المحل غير المحل، والتاجر غير التاجر، فأدهش وأتساءل عن صاحبى، فأفاجأ بأن عبد العزيز جادو يشغل الآن منصب المدير للعلاقات العامة بإحدى الشركات التجارية الكبرى بالأسكندرية، لأن خبراته الاجتماعية قد جذبت إليه مجلس إدارة الشركة فاختاره مديراً للعلاقات العامة، حيث يباشر منصبه بدبلوماسية لايلم بها سفير متخصص فى وزارة الخارجية! وكم أزاح من مشاكل وذلل من عقاب! فأقول فى نفسى: ربما تسأل عن عبد العزيز مرة أخرى فيما بعد فتجده شيخ المعهد الدينى! أو متخصصا فى شركة لصابون! أو مهندساً فى مؤسسة للنسيج! ثم يقابلك فى كل هذه الوظائف ليثبت لك أنه فى كل وظيفة متخصص أصيل! وكأننا نعدو الواقع إلى الخيال.

وآخر نبأ تلقيته عن عبد العزيز أنه يعكف على خريطة الجزيرة العربية ليحدد الأماكن الأدبية القديمة مثل عكاظ، وسلع، والعقيق، وودان، والغوير، والرقمتين، وأنه يقرأ مؤلفات ياقوت، والبكرى، وحمد الجاسر، وأبى على الهجرى، وقد كتب عن بعضها بمجلتى «الأديب» اللبنانية و«العرب السعودية»! فلم أدهش فى شىء؛ إذ لو قيل لى إن عبد العزيز صعد فى مركبة أبوللو لينزل على سفح القمر مع الأمريكان لأنشدت قول القائل :

ليس على الله بمستكثرٍ   أن يجمع العالم فى واحد

الأستاذ علي أحمد باكثير

كنت طالبا بالسنة الرابعة من القسم الابتدائى بمعهد دمياط الدينى، فوقعت فى يدى الثقافة التى تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وبها إعلان عن مسابقة أدبية فى القصة الطويلة تبرعت بمكافأتها السيدة قوت القلوب الدمرداشية، ولم أكن أقدر قيمة أدبى الهش، فصممت أن أشترك فى المسابقة، وكتبت مايقرب من ستين ورقة تدور حول (فتح مصر) متأثراً بقصة طالعتها لجورجى زيدان فى هذا الموضوع، هى قصة أرمانوسة المصرية، وبمقال كتبه الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعى تحت عنوان «اليمامتان»، وحين ظهرت نتيجة المسابقة كان الفائز بها الأستاذ على أحمد باكثير، إذ تقدم بقصة رائعة تحت عنوان «سلامة القس» .

ثم أخذت مجلة الثقافة تنشر قصة سلامة على حلقات متوالية كشأنها فى قصص الأستاذ محمد فريد أبى حديد، فأكببت على قراءة الحلقات لأعرف قيمة نفسى، فتأكدت أنى كنت غِرا حين قذفت بقلمى فى سباق بعيد الشوط لايجلى فيه غير الأفذاذ، إذ كانت قصة «سلامة» من روائع الأدب المعاصر فكرة وتحليلاً وتعبيراً وتصويراً، وماظنك برواية تدور حول العفاف الطاهر يتصدى لحب مضطرم كاللهيب، هائج كالبركان، فيمده بزاد من الصبر والثقة ورجاء المثوبة، ورغبة التوصل فى دار البقاء لا فى دار الفناء، وبطلها ناسك عابد اشتهر بالفقه والدين، وبطلتها مغنية رائعة الجمال نقلها حب صاحبها إلى دنيا التصوف والعفاف! أثرت هذه القصة فى نفس التلميذ الناشئ فجعل يترقب كل مايصدر عن براعة أحمد باكثير بشوق وصبر نافد ومن حسن الحظ أنه كان كاتبا إسلامياً ملتزماً فساعد نشأتى الأدبية مساعدة ألمسها فيما أفضل وأوثر من التيارات الفكرية المعاصرة، وقد

اختمرت فى نفسى فكرة لقائه والاغتراف من منهله عن عيان مشافه لااكتفاء بالورق المطبوع فحسب. . ولكن متى؟

قصيدة نادرة:

وبعد سنوات قاربت الخمس، لقينى أخى الأستاذ أحمد الشرباصى وكان يعرف إعجابى بعلم أحمد باكثير فأخبرنى أن حفلة تأبينية كبرى أقيمت لشهيد عربى شنق ظلماً واضطهاداً ألقى فيها الأستاذ على أحمد باكثير قصيدة كانت حديث المجتمعين كلهم، لأن الشاعر قد انتحى منحى مفاجئاً، إذ جاء بالقصيدة على لسان البطل الشهيد وقد افتتحها بهذا البيت.

فـيم احتفالـكمو هـذا لتأبينـى   أنتم أحـق بتأبين الـورى دونى

ثم مضى يلوم الخاملين الخانعين، الذى يحنون رءوسهم للطغيان فى براعة فائقة، وحين انتهى من الحفل خاف المستمعون أن تعوق الرقابة نشر القصيدة فأقبلوا ينسخونها، وقد قام من يملى على الجمع، وكل يحاول أن يلتقط مايفد إلى سمعه، ثم جلس الناسخون لمقابلة الأبيات فكان ذلك مشهداً من مشاهد الشعر فى عصور بنى العباس قبل أن تأتى المطبعة، إذ يلقى شاعرٌ كأبى تمام قصيدته فيتسابق السامعون إلى تدوينها مشافهة، سألت فى لهفة وهل لديك نسخة منها، قال ليست عندى الآن، فقد أخذها من يمر بهامن المتأدبين من هواة الشعر الحماسى ، فقلت: لقد أقلقتنى، فكيف أصبر على ما أنا فيه قال: أنت تمر بالمنصورة فى طريقك إلى قريتك والأستاذ على أحمد باكثير مدرس للغة الإنجليزية بمدرسة الرشاد الثانوية، فاذهب إليه وهو إنسان نبيل متواضع، وإذا لم يكن معه نسخة فسيمليها عليك من محفوظه، فانتهزت أول فرصة للسفر ونزلت المنصورة مبكراً فتوجهت إلى الرشاد، وسألت عن الشاعر المطبوع، ولم يكن بالمجهول إذ قال من سألته إنها مدرسة باكثير وليست مدرسة الرشاد، كل يوم يأتى الأدباء ليسألوا عنه متشوقين، فقابلته، ورحب بى، وحادثته، وقد أدرك الشاعر حيائى من انقطاع كلماتى، فشجعنى بود كبير، أزال عقدة لسانى فأخذت أتحدث إليه عن إعجابى به منذ خرجت قصة سلامة إلى الوجود، كما عرف تتبعى لآثاره الفنية تتبعاً متصلاً

فأشرق وجهه بابتسامة ارتياح ثم تحدثنا عن القصيدة التى سعيت فى طلبها، فقال: إنها قيلت فى الشهيد العراقى البطل «صلاح الدين الصباغ» وقد وقف فى وجه الإنجليز بطلاً من أبطال ثورة رشيد عالى الكيلانى، ثم فر بعد اختفاء الثورة، ولجأ إلى تركيا ، ولسوء حظه وقع فى يد من قبض عليه لينفذ فيه حكم الإعدام علنا ببغداد، فهاج الرأى العربى العام فى كل مكان، فتأججت مشاعرى، فقلت هذه القصيدة مبتدئا بقولى على لسان الشهيد:

فـيـم احتشادكمو هـذا لتأبينـى ... أنتم أحـق بتأبين الـورى دونـى

إنـى نزلـت بدار الخلدِ فى رغد ... بـين الخـمائـل فـيهـا والرياحين

فى جنةٍ مـابـها خوف ولاحـزن ... لولا رثاء لحـال العرب يشجينى

لاتندبونى فإنـى لـم أمت ضرعاً ... فإن علمتم على الذل فابكونى

وإن تريدوا لوجه الحـق تكرمتى ... فابغوا الشهادة للدنيا وللدين

فابن الوليد على اليرموك يرقبكم ... وليث أيـوب يرعـاكم بحـطـين

وقد نزلت القصيدة من نفسى منزلاً كبيراً حين سمعتها من الشاعر،وكان لديه عدة نسخ فأعطانى نسخة عليها الإهداء الكريم،ولم ألبث أن قلت له لقد فاجأت المستمعين بمذهب جديد فى التأبين حين جعلت الحديث على لسان البطل الشهيد إذ أعدته ناطقاً شاخصاً، وكأنه هوالذى تكلم القصيدة لاأنت، فابتسم باكثير وقال لى: لى تجربة سابقة فى هذا المنحى، فقد احتفلت كلية الأداب بالجامعة المصرية بذكرى المتنبى الألفية حين كنت طالباً فيها، وأقيم موسم للبحث الأدبى حاضر فيه كبار الأساتذة كطه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى، وعبد الوهاب عزام،وأحمد الشايب، ورأينا نحن الطلاب أن نقيم احتفالاً شعرياً يحضره الأساتذة ليسمعوا صوت الطلاب شعراء بعد أن سمعهم الطلاب باحثين، وكنت مشتهراً بنظم الشعر أنشره على صفحات الرسالة والفتح، فيلاقى قبول القراء فدعيت لإعداد قصيدة مناسبة،وقلت فى نفسى لابد أن تأتى بلون جديد يكون

محلاً للانتباه، فهدانى تفكيرى إلى أن أتكلم قصيدة على لسان المتنبى يتحدث عن نفسه ثم يشكر القائمين بالاحتفال بذكراه، فوفقنى الله إلى أحسن مايمكن أن أقول، وبدأت بقولى على لسان المتنبى:

من الملأ العلوى من عالم الخلد ... أهل عليكم بالتحـيات والحمـد

تقحمتُ حجب الغيب حتى أتيتكم ... لأجزيكم عن بعض إحسانكم عندى

كــأن الفضاء اللانهائــى سائــر ... على كُرة لاحد فيها سوى حدى

أجل ألف عام حال بينى وبينكم ... فهلا سبقتم أو تأخربى عهدى

ألا فتـزحـزح يـــازمـان فإنــنى ... أقول فلا تقوى الجبال على صدى

أنا الخالد السارى بأعصاب شعبه ... وماشعبه بالنزر أو ضرع الخد

وماأنشدت القصيدة حتى تجلت نعمة الله على فيما لاقيت من تشجيع وتعضيد وقد نشرت القصيدة بالأهرام وبالرسالة؛ وكان ارتياح السامعين لها دافعى إلى أن أنهج نهجها فى قصيدة التأبين، والحق أنى سعدت بلقاء الأستاذ،وقد تكرم فأهدانى بعض قصصه، وكتب الإهداء منوهاً بزيارتى، وخرجت سعيداً مغتبطاً.

استعارة من المكتبة:

كنت أراسل الأستاذ فى المناسبات العامة، فيرد على ثم جاءنى فى خطاب منه بعد انتقاله من المنصورة،وكنت مدرساً بها، يقول إن مدرسة الرشاد تطالبه بأربعة كتب ضاعت منه، ويريد منى أن أذهب إلى السيد ناظر المدرسة مستفسراً عن ثمن الكتب ليقوم بدفعه ثم ينتهى الإلحاح فى المراسلة، وقد سارعت إلى لقاء السيد أمين المكتبة، إذ هو القائم المباشر، فحدثته عن خطاب الأستاذ، فقام إلى السجل وذكر أن الكتب هى جزءان من حضارة الإسلام لآدم متز، والكشكول للعاملى، والموشى لأبى الطيب الوشاء،وقصة إنجليزية، فقلت له إن كتاب الحضارة بجزأيه عندى ،وسأحضره من مكتبتى، أما الكتب الثلاثة فماذا نصنع بها؟ وكان الأمين

على معرفة تامة بالأستاذ، فقال : إنى اضطررت إلى مراسلته تنفيذاً لطبيعة العمل، كيلا أسأل من فاحص يفتش علىّ، ويمكننى أن أسقط كتابين هذا العام من المستهلك، قلت: من يسقط اثنين يسقط ثلاثة، فسكت قليلاً ثم استجاب، وذهبت فأحضرت كتاب الحضارة، وأعلمت الأستاذ بما كان، فكتب يشكرنى، وأرسل إلىّ نسخة من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى فى ثلاثة أجزاء، وقال إنها عوض عن كتاب الحضارة، وقد بحث عنه فى القاهرة ليشتريه فلم يجده، وعلمت أنه أتحف أمين المكتبة بعدة روايات أدبية، فتقبلها شاكراً. . وقد انتقلت من المنصورة دون أن يعلم الأستاذ فكان يرسل بعض رواياته الجديدة إلىّ، ولاتحول على عنوانى إذ يتهالك عليها الزملاء حين تنتهى إلى حجرة المدرسين، علمت ذلك منذ سنوات، فكتبت للأستاذ على أخبره بأن القصور الشائن الذى وقعت فيه، حين لم أبادر بشكره على هداياه المتواصلة لاذنب لى فيه، فقد انتقلت إلى الصعيد، ولم أسعد بتسلم ماتفضل به من قصص فكان رد الأستاذ: لقد توقعت ذلك إحساساً لايكذب فاطمئن.

زيارة مفاجئة:

رجعت إلى التدريس بالمنصورة ثانية، وأعلمت الأستاذ بعنوانى الجديد، فتلقيت منه ذات يوم خطاباً يخبرنى فيه بأنه سيزور المنصورة، صباح الجمعة القادم، وقد اختار يوم الجمعة بالذات لأنه يتيح لى أن أصاحبه فى رحلة سأعرفها حين أقابله صباحاً بمقهى الكافورة، وحين أزف الموعد قابلت الأستاذ فرحاً، فقال لى: إن المجلس الأعلى للفنون والآداب قد عقد مسابقة أدبية عن انتصار المنصورة فى معركة لويس التاسع، وهى معركة ذات إيحاء قومى، فصمم على أن يشترك فى المسابقة بقصة يجعل عنوانها «دار ابن لقمان» وهى الدار التى أُسِرَ بها ملك فرنسا، وظلت إلى الآن ناهضة تلقى حديث الانتصار على الأجيال، وقد بدا له أن يصحبنى إلى أماكن بالدقهلية كانت مجال الصراع الحربى، ليرى من المشاهد مايوحى له بانطباعات قوية تلهمه وتهديه، وذكر من هذه الأماكن جديلة، وقرية أشمون، والبحر الصغير الذى هيأ المخاضة للعبور، فقلت له إن جديلة قرية ونبدأ بها، فقال هيا، فقد كانت باب النصر حين وقف الظاهر بيبرس بجنوده ليسحق

القادمين فى حركة مفاجئة، وركبنا السيارة، إلى بلدة أشمون، وشاهدنا البحر الصغير الذى كان نقطة هامة فى مسار الموقعة فى بدء أمرها، وكان مع باكثير كتاب إفرنجى عن حملة لويس جعل يتصفحه ذاكراً مادون به من الأماكن والأسماء، فقلت له: وأين المراجع العربية؟

قال: لقد قتلتها بحثاً، وأردت أن أتسلى بهذا الكتاب فى الطريق، ثم أخذ يتحدث عن خلاصة وافية لماكان، فقلت له: لقد سبق أن تحدثت عن الحروب الصليبية حين كتبت (سيرة شجاع) فقال لى: ومارأيك فيها؟ قلت: لاأدرى ربما أكون مخطئاً إذا قلت إن جانب التاريخ قد طغى فى كثير من صفحاتها على جانب الفن، فرد فى ابتسامة: هذا والله شعورى، وقد كنت أكتبها وفى أعماقى أن أسطر التاريخ الحقيقى لأحيى النخوة النائمة فى نفوس مريضة حين أذكرها بتضحية شجاع بن شاور حين وقف أمام أبيه، وفضل آصرة الإسلام والعروبة على آصرة الدم، وكان من حقه أن ينال الجزاء الحميد، ولكنه اغتيل ظلماً لذنب لم يرتكبه، وقد تركت مأساته فى صدرى جراحاً لاتندمل، ففرجت عن كربتى بتخليد ذكره، فكتبت قصة موجزة عنه ونشرتها فى مجموعة روائية ثم أحسست أنى لم أفعل شيئاً، فكتبت (سيرة شجاع) فى هذا النطاق المتسع، لأرعى مشاعرى الخاصة قبل أن أرعى حق الشهيد النبيل!

قلت إن القصة جديرة بالتمثيل! قال: دعنى فأنا أكابد من مخرجى الأفلام فوق الطاقة، فهم يريدون أن تكون المرأة في الرواية سيدة المواقف جميعها، وأن تحشر لقطات الغرام في كل مشهد، وإن كانت الرواية حربية تمثل الشجاعة فى مضمار الفداء والتضحية فليس من المهم لديهم أن تبرز هذه المعانى، لكن المهم أن تكون الممثلة فاتنة ذات إغراء، فماذا تصنع؟

ثم سألنى: أشاهدت قصة «سلامة» التى مثلتها أم كلثوم، لقد ظلمها المخرج ظلماً فادحاً، حين جعلها تظهر فى مرأى شائن يعبث بالتاريخ، فيغير الزمان والمكان وينطق الشاعرة الفصيحة بأزجال رخيصة، تثير الغرائز الهابطة، وماكانت هكذا «سلامة» وأنا أعلم أن أم كلثرم تتذوق الأدب العربى، وتغنى قصائد رائعة

لأبى فراس وأحمد شوقى وابن النبيه المصرى، فكيف تقبل أن تجارى هذا الانحدار، ثم إن مكان القصة هو الحجاز وله عبق خاص فى التاريخ أدبياً وفنياً، فكيف يكون المسرح فى العراق؟ وهو فى عهد «سلامة» مركز القلاقل الحربية والثورات السياسية وكيف يجرؤ مخرج يفهم حقيقة الفن أن يلقن «سلامة» طقاطيق «سلام الله على الأغنام» و «الحب حلو ولاحراق» و «غنى لى شوى» وهى عربية فصيحة نشأت فى عهد الأمويين؟ قلت: ألم تذكر أن القصة مسروقة ياسيدى فى أصلها وقد اغتصبت غصباً؟

فقال باكثير: ليست هذه أول مرة تغتصب أم كلثوم بإيحاء أحمد رامى عمل الآخرين، قصة «دنانير» كتبها الأستاذ إبراهيم جلال، وأعطاها لأم كلثوم لتنظر فى صلاحيتها للتمثيل، وفوجئ المؤلف بأن أحمد رامى قد نسخ القصة وكتبها باسمه، فاحتج فى الصحف ولامن سميع!

كان حديث باكثير شائقا معجباً طول الرحلة، وليتنى دونته في حينه، إذ لم يبق منه فى خاطرى غير قطرات من وابل دفاق! .

لم تطرد مقابلاتى كثيراً، وإن كنت أتابعه قارئاً مستفيداً، وقد علمت أن أعداء العروبة والإسلام من الماركسيين قد أرهقوه، وحاربوا اتجاهه الملتزم، وضيقوا عليه حتى حدثته نفسه بالرحلة ثانية إلى حضرموت فراراً من هذا الاضطهاد الأثيم، ولكن الرحلة لم تكن إلى حضرموت بل كانت إلى جنة الخلد، وماعند الله أشهى وأطيب.

* * *

الأستاذ محمود على قراعة

لم أر فدائياً فى عطائه العلمى مثله، لقد آلى على نفسه منذ تخرج فى كلية الحقوق المصرية سنة ١٩٣٤ أن يصدر سلسلة الروح الجامعية، فى أجزاء بلغت خمسة وعشرين كتاباً، أكثرها يفوق أربعمائة صفحة، وهو يطبعها على حسابه ويوزعها على القراء بدون أجر، إلا فى أحيان قليلة تأخذ بعض الوزارات الثقافية عدة نسخ محدودة من كتاب، وتمنحه مايعادل أجر الطبع، وقد أحيل إلى المعاش مستشاراً لوزارة العدل، وله زملاء كبار يعرفون جهاده العلمى ويقدرون صبره علي البحث بدون نفع مادى بل بخسارة محققة، ولكنها كسب له فى أجره الأخروى إذ تدور مؤلفاته حول شئون الفقه والإسلام والتاريخ رحمه الله.

عرفت الأستاذ محمود على قراعة فى سن باكرة من حياتى التعليمية إذ قرأت له مقالاً ضافياً بمجلة الرسلة سنة ١٩٣٩م عن نعيم الجنة ناقش فيه الدكتور زكي مبارك حول نعيم الجنة الأخروى، إذ ذهب الدكتور إلى أنه نعيم مادى حسى، وذهب الأستاذ قراعة إلى أنه نعيم روحى فحسب،وأطال فى تعداد أدلة تؤيد منحاه، ويذهب إلى تأويل النصوص التى يدل ظاهرها على أن نعيم الجنة حسى وقد قرأت كلام الأستاذ فوجدت قدر فهمى إذ ذاك وأنا طالب بالقسم الابتدائى- أن من النصوص الصريحة مالايقبل التأويل حتى مع التعسف الشديد، وكتبت رداً بعثته إليه بعنوان مجلة الرسالة وبعد أسبوع تلقيت منه رداً مستفيضاً يبلغ خمس ورقات تزدحم بالنصوص والتعليقات، ويختلط أسفلها بأعلاها، وعلى الهوامش من الجانبين تعليقات أخرى، ممايدل على أن الأستاذ حين كتب الرد وأراد مراجعته عنت له أفكار جديدة فأخذ يضعها فى الهوامش عن يمين وشمال ومن أعلى وأسفل! مشكورا إذ لم يغفل اعتراضاً وجه إليه فدافع عن رأيه قدر المستطاع.

مضت سنوات طويلة جاوزت العشرين، ثم رأيت فى البريد مجلداً كبيراً تحت عنوان (نفحات الحبيب الشفيع)، يصل إلىّ بالبريد مهدى من مؤلفه الأستاذ محمود على قراعة، والكتاب ذو معلومات قيمة ولكن ترتيبه كان موضع نظر جاد منى، حيث تظهر العجلة البارزة فى سرد الموضوعات وأفكارها دون اهتمام بالتوافق المطرد للأسلوب المتلاحم، فكتبت له شاكراً، وأبديت رأيى فى ترتيب الكتاب، وصادف أن كنت أمر فى منشية البكرى بشارع الخليفة المأمون فوجدت بطاقة تحمل اسم الأستاذ محمود قراعة فدفعنى إلى رؤيته على غير سابق موعد، وطرقت الباب لأجدنى أمامه وجهاً لوجه، فهم للقائى وتبادلنا الحديث، فذكرته بخطابه القديم إلىَّ حين كنت طالباً بمعهد دمياط،وقلت فى ابتسام هادىء إن روح الماضى لاتزال تلوح في المؤلف الجديد، وأرى أن يهتم الأستاذ بترتيب الأبواب، وتنوع المصادر، فأصغى لى فى هدوء ومنحنى مؤلفاً للشيخ حمزة فتح الله،وهو جزءان تحت عنوان (المواهب الفتحية) وقال إنه فى غنى عنهما، لأن موضوعاتهما العلمية تناسب مدرساً للغة العربية مثلى، فشكرته شكراً جزيلاً، ثم قال: إنه آلى على نفسه أن يخرج كل عام مؤلفاً إسلامياً، وهو يعمل ليل نهار بعد انتهاء عمله بالوزارة كى ينجز المؤلف فى زمنه المحدد، وهذا سر العجلة التى أبديت وجه النظر بشأنها، وانصرفت ولاأدرى أوقع حديثى النقدى منه موقع الارتياح أم أنه آنس فى صراحتى موضعاً لقلة الذوق! بقيت حائراً لاأهتدى إلى رأى قاطع ثم جاءنى بعد شهور كتابه «الأخلاق فى الإسلام، من أحاديث الرسول، وفتاوى ابن تيمية» وفى مقدمته يتحدث الأستاذ عن أصدقاء كبار من زملائه أهدى إليهم الكتاب السابق وشكروه على اتجاهه، ثم قال «وأهدى هذا الكتاب إلى الأخ الأستاذ محمد رجب البيومى الذى أهديته كتابى الماضى فنقده صادقاً، وزارنى متفضلاً فسرد لى مآخذ الكتاب قبل محاسنه، فكان أصدق من رأيت فى حياتى».

قرأت هذه العبارة فعجزت عن شكره، لأنه بدد ظنى المتوهم من قبل، وأقبلت على قراءة كتابه الجديد (الأخلاق فى الإسلام، من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) فرأيت أن فتاوى ابن تيمية تكاد تكون وحدها مرجع المؤلف، كما وجدت الأبواب فى حاجة إلى ترتيب جديد، فدفعنى ماوجدت فى عبارته السابقة من ـ

تقدير للنقد، أن أبدى له وجهة نظرى فى كتاب (الأخلاق) ويظهر أنى قسوت فى النقد، أقول «يظهر» لأنى لاأحتفظ بمسودات لما أكتب للأدباء والمؤلفين وبعد أيام جاءنى خطاب مسجل منه فى أربع صفحات يحتج على قولى فى الخطاب السابق إذا أردت أن تطبع كتاباً جديداً، فتفضل بدعوتى لنشارك فى ترتيبه، فرددت عليه، بما يثبت حسن نيتى وظننت أنى تجاوزت الحد معه، وأنا والله محب صادق!

ثم كانت المفاجأة التى تدل على براءة الأستاذ وطيبة قلبه حيث وصلنى مؤلفه الجديد «تكفير سيئات الصغائر بالقربات، وسيئات الكبائر بالتوبة» فوجدت الأستاذ يشير فى مقدمة الكتاب إلى كل ماكان منى بشأن كتابه، فهو يقول فى سجل إهدائه المتعارف (ص١٠ من الكتاب):

«إلى الأخ الدكتور محمد رجب البيومى الذى ذكر فى خطاب أرسله فى أول أبريل سنة ١٩٦٧ عبارة تقول: إذا كان لى رجاء لديك، فهو أن تتكرم باستدعائى حين تفرغ من كتابة أى مؤلف لنتشاور معاً في الحديث عنه، قبل أن يصبح حقيقة واقعة فى أيدى القراء، ولما أرسلت إليه معترضاً على هذا القول منه ـ لأنى لاأرضى عن قيم علي أفكارى، وإنى قليل الكتابة في الصحف لأن رؤساء التحرير يعطون أنفسم الحق فى تحوير مايصل إليهم من مقالات حتى ولوخرج عن هدف كاتبها، وانى لاأسترشد في كتاباتى إلا بضميرى، حتى أنى لم أطلع أبى ـ رئيس المحكمة الشرعية السابق على ماأكتب، لما أرسلت إليه معترضاً، أرسل فى ٥ أبريل سنة ١٩٦٧ يقول: سامحك الله ياأخى، لقد فهمت مالا أقصد ومالايمكن أن أقصد، من قال إنى أريد أن أكون قائماً على تأليفك! لو كنت تعلم أن المؤمن مرآة أخيه، وأن المرحوم الأستاذ فريد وجدى وهو كان يخصنى بقراءة بعض مايكتب وأمامك أستاذنا الزيات «يقصد الأستاذ أحمد حسن الزيات قبل وفاته»، فاسأله، فكثيراً ماتعرض علي مقالاته قبل أن تطبع، أين ذهب تفكيرك ياأخى سامحك الله، كل ماكنت أريد أن أقوله إنك مسرع جداً فى التأليف، لدرجة أن المؤلف الضخم من كتبك تخرجه فى أقل من عام، وهذا نشاط حميد ممتاز ولاشك، فهل إذا قلت إنى مستعد لمراجعة هذا الفيض الهادر كالطوفان معك، أكون مساعداً أو قواما، لقد ضاعت معانى الألفاظ أو كادت فكيف يشتط بك الوهم؟!.

هذا ماسجله الأستاذ فى صراحة رائعة فى كتابه، ثم أفرد فى الهامشين المتتابعين من الكتاب صفحتين تتحدثان عن رسائل إليه، وكنت قد نسيت ماكتبت له، فلما أعاد تسجيل بعض المعانى الهامة في هذه الرسائل خيل إلىّ أنى أقرؤها من جديد، وسأحاول أن أنقل منها فى هذا المقال، لأنها تصور علاقتنا الأدبية الصريحة أتم تصوير، وبذلك يكون الأستاذ محمود هو الذى يتحدث لاأنا، حيث استوعب وفهم ولخّص وأفاد..

يقول الأستاذ محمود «فى ص١١ من كتابه» «أذكر عناية الأستاذ الدكتور البيومى بتقريظ كتبى ونقدها فى آن واحد، فقد أرسل لى فى ١٢/ ١١/ ١٩٦١ عن كتاب (مشكلات عواطف الشباب) خطاباً يقول «فيه مزايا كثيرة أهمها وفاؤك لأساتذتك، وحشدك المعارف الكثيرة من كل ناحية مع اهتمام بالمثل العليا والسلوك النبيل، ورسم الطريق السوى، ولكننى أجد خلف ذلك أنى منه أمام غابة شجراء فيها الدوح والثمر والماء والطير، وفيها مع ذلك بعض الأشواك،فاعتمادك على بعض المصادر المتواضعة من ناحية ونقلُك قصة الرجل الطيب محمد الجنبهيى والإكثار من الحوادث الشخصية، كل ذلك يحتاج إلى تعديل ما».

هذا ماذكرته وسجله الأستاذ، وإن كنت أذكر أنى أرسلت له صفحتين كبيرتين، فلابد أن يكون للتقريظ صفحة، وللنقد صفحة مماثلة، وأنا فعلاً لم أمل من مؤاخذة الأستاذ على الإسهاب فى بعض مالاغناء فيه، وأذكر أنه قال فى زيارتى الأخيرة له قبل أن ينتقل إلى رحمة الله إنك لوقرأت ماكتبه السيوطى وابن حجر والسخاوى فى مؤلفاتهم الموسوعية لرأيتهم أكثر منى استطراداً وأطول إسهاباً، فقلت له: إن طابع العصر المملوكى غير طابع العصر الحاضر، إذ كان أكثر المؤلفين يجمعون ويلخصون دون تحليل أما نحن الآن فنقف عند الخبر الواحد وقفات مستأنية. لنسبر غوره، ونعرف أبعاده، ومايمكن أن يختفى تحت ألفاظه من المعانى التى لاتدرك إلا بإمعان، وردعلىَّ الأستاذ بما لم أوافق عليه لِيُلَتئِذ، ولكن الجلسة كانت ذات ود وترحيب.

ويتابع الأستاذ حديثه عنى فيقول «أرسل إلى رداً على برقية لى أهنئه فيها بالعام الهجرى يقول: وصلتنى برقيتك فعرفت منها الكثير، عرفت أن اعتزازك بالمواسم الدينية، يجرى في عروقك مجرى الدم ، وفى رئتيك مجرى التنفس، ولاريب فأنت غصن من دوحة طاهرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وعرفت منها أنك كثير الوفاء حتى لمن لم يسعدهم الحظ بطول صحبتك [مثلى] ولكنهم يعرفونك على البعد، بآرائك الحية، ومؤلفاتك الخالدة، وتأثيرك البعيد، لقد رأيت أن أجمع مؤلفاتك فى مكتبتى المتواضعة، حيث أفردت لها مكاناً عزيزاً».

والحق أنى لم أتعود أن أتلقى تهنئات برقية فى مواسم الهجرة والمولد ورمضان، ولكن الأستاذ محمود كان يفاجئنى بهذه البرقيات ذات الدلالة النبيلة، وقد كتبت له ماسبق عند وصول برقيته الأولى خاصةً بالتهنئة بالعام الهجرى، ثم تتابعت برقياته، لامختصرة مقتضبة، ولكن سطورها تتجاوز الخمسة، فكنت أكتفى بخطاب يتحدث عن الذكرى تارةً، وعن تأثرى بهذا الشعور النبيل تارة! وكنتُ من زمن يسير أرى بعض الناس يتبادلون التهانى فى عيد الميلاد أوائل يناير، فأذكر الأستاذ محمود مترحماً عليه، وأقول لقد حاول الرجل أن يعلم أصدقاءه، ولكنه لم يفلح، إذ لاشك فى أنّه كان يرسل هذه البرقيات الموسمية لعدد من أصدقائه. ولايختصنى وحدى!

ثم مضى بعد ذلك يذكر ماراسلته به عن كتابه «الأخلاق فى الإسلام» مسجلاً نقدى، ووجهة نظرى المخالفة، كما ذكر ماراسلته به خاصاً بكتابه (المسلم الكامل من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) ولم ينس أن يسجل نقدى الجوهرى له، والحق أن الأستاذ قراعة كان في نتاجه العلمى شعلة لاتخمد، فهو لايفتأ مفكراً فيما يكتب ويقرأ على طريقته التى ارتضاها، وقد نشر وهو طالب بكلية الحقوق مؤلفاً عن الوقف فى الشريعة الإسلامية حاز تقدير فقيه العصر الشيخ أحمد إبراهيم بك رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق حينئذ، وقد سارع بعض مدرسى الشريعة بالكلية إلى رجاء الطالب فى إعادة طبع الكتاب مع زيادة يسيرة يكتبها المدرس ليظهر الكتاب فى طبعته الثانية حاملاً اسميهما معاً، ولكن الطالب فاجأ أستاذه بالرفض .

فقال الأستاذ له إنه سيقرر الكتاب على الطلاب، فيضمن لك كسباً مادياً، وذخراً علمياً، فأصر محمود على الرفض وهذا ماسجله فى بعض مؤلفاته، وهو صادق لأنه يتحدث عن نفسه، فيسجل كل مأخذ ووجه به، ومثله لايلجأ إلى الادعاء!

كم أسفت لأنى كتبت رسائل نقدية كثيرة لمؤلفين! أهدوا كتبهم إلىّ، بدون أن أحتفظ بصورة منها، لأن ماكتبته لهؤلاء لايختلف عما سجله الأستاذ محمود فى رحابة صدر، واتساع نفس، ونقاء ضمير..

* * *

الأستاذ محمد زكى عبد القادر

كنت أحب أن أتحدث إليه ، وأصغى إلى أفكاره متحدثاً ، كما أستمع إلى أدبه قارئاً، ولكن الرجل متحفظ هادئ، لايجمع حوله التلاميذ، ويؤثر أن يمضى فى عمله الفكرى كما يجرى الغدير الهادئ فى الغابة تحت ظلال الشجر دون أن يراه أحد فى صفائه الرائق ونميره المتألق، وكان أعظم مايحيرنى فى أمره أنه كاتب قصة ممتاز. يصدر المجموعة خلف المجموعة ذات نبض نفسى، وحيوية اجتماعية وتصوير أدبى ثم لايحسب مع القصاص حين يتحدث الناقدون عن كتاب القصة لأن أشتغاله بالصحافة محرراً ذا لون خاص من ألوان التحليل وولوعه يالدراسات القانونية والسياسية جعل هؤلاء يحسبون أنه ضيف على القصة ، مع أن نتاجه الفنى يجلسه مجلس الفنان الأصيل وفى يوم من الأيام طلبنى الدكتور عبد الحسيب طه أستاذ الأدب بكليةاللغة العربية وقال لى: إن فضيلة الأستاذ الشيخ عبد السميع شبانة أستاذ النحو والصرف بالكلية قد انتقل إلى رحمة الله كما تعلم، وإنه من أسرة الأستاذ محمد زكى عبد القادر بفرسيس، إحدى قرى محافظات الشرقية، وقد اتصل الكاتب الكبير بالكلية راجياً أن يقابل أحد تلاميذ الشيخ، ليسأله عن تأثيره العلمى والاجتماعى فى محيطه الأزهرى، إذ يعد عنه دراسة تحيى ذكراه ، وقد انتهت الكلية إلى أن تكون رسولها المختار إلى الرجل بمكتبه فى جريدة الأخبار، فماذا ترى؟

قلت: ياسبحان الله إنى مذ سنوات أتلمس الفرصة السانحة لمقابلة الكاتب الكبير، ولكنى لم أكن أحب أن أتطفل على مجلسه كيلا أكون ثقيل المحضر، وهاهى ذى الفرصة تتهيأ إلىّ، أنا سعيد بها كل السعادة.

وقد اتصل الدكتور عبد الحسيب بالأستاذ محمد زكى عبد القادر يخبره أنى سأكون فى زيارته بالساعة العاشرة من صباح الغد، وقد حاولت أن أهيئ فى نفسى أسئلة أدبية أتوجه بها لمفكر لكبير، ولكنى رجعت عن هذا المذهب، وقلت دع الحديث يجرى حراً بدون إعداد.

قابلت الأستاذ فى الموعد المحدد، فرأيت من هدوئه و سكون نظراته،واتئاد منطقه ماتوقعته فى ذهنى قبل أن أراه، لأن كتابة الأستاذ تنبئ عن هدوء متزن بحيث لاتثيره العواطف الهائجة، وحين يستشار لايخرج عن طبيعته الهادئة. بل يقابل النار الملتهبة بهدوء يشبه الماء البارد الذى يطفئ الحريق المشتعل، وقد حيانى تحية طيبة ثم قال إن الفقيد العزيز من أخلص أقربائه، وقد فقد بفقده دوحة وارفة الظل، إذ كان إيمانه الجازم يبعث فى روحه سلاماً ينتقل إلى سامعه فيطرد عنه عواصف الشك، ويفسح أمامه طريق الأمل،وكان الأستاذ يسعى إلى لقائه فى أزماته الفكرية لينتقل من جو إلى جو، فيعود وقد أزاح عن صدره مايحمل من الأعباء ولذلك يسألنى عن سلوكه الروحى واتجاهه العلمى فى محيطه الأزهرى.

قلت إن ماذكرته عن صفاء الأستاذ وقوة إيمانه قد كان مصدر سلوكه الاجتماعى بكلية اللغة فنحن التلاميذ كنا نعتبره والدا قبل أن نعتبره أستاذاً إذ كان يحرص على أن يعرف أحوال الطلبة الاجتماعية وظروفهم النفسية ويحدد مواعيد اللقاء بمنزله المتواضع وله فى تحديد الميعاد فطرة مطبوعة على التقوى إذ يقول للطالب تزورنى بعد صلاة العصر من يوم كذا، أو بعد صلاة المغرب من يوم كذا،أو بعد صلاة العشاء من يوم كذا ، وبهذا أصبح موعد الصلاة هوعقرب الساعة الذى يحدد الميقات! ثم يستقبل زائره ببشاشة ويخوض معه فى شتى أموره. وقد يكون الطلاب أربعةأو خمسة أوأكثر فيجلسون مع الأستاذ على السجادة، وكأنهم يجلسون في المسجد وقد يحضر بعض الأساتذة لزيارته وكلهم من ذوى اتجاهه. فلايتغير الوضع ،إذ الجميع جلوس يتناقشون أو يتسامرون.

ابتسم الكاتب الكبير وقال هذا ماتوقعته تماماً دون أن أراه ، لأن سلوك الأستاذ فى قريته (فرسيس) مع أبنائها الفلاحين أو العمال أو الطلبة هو سلوكه الذى تحدثت عنه وكنت أثناء زياراتى للريف لاأجده إلا ساعيا للخير، مصلحاً بين زوجين يتشاجران، أو مواسياً مريضاً عز عليه الشفاء أوساعياً فى إيجاد وظيفة لعاطل محروم، حتى كانت إجازته السنوية موضع ارتقاب القرية جميعها ، وكنت أغبطه على اتجاهه الذى لاأقدر عليه!

ثم سألنى الكاتب الكبير قائلاً: وماذا عن اتجاهه العلمى، وطريقته فى التدريس؟

قلت: لقد كان الأستاذ يدرس مادة عسيرة الهضم، شديدة التعقيد، وهى مادة (الصرف) وكان يدرس للسنة الرابعة أعقد أبواب هذه المادة وهو باب (الإعلال والإبدال) فيبذل جهده الجاهد فى تذليل الصعاب وتقريب البعيد،وقد وضع للطلاب كتاباً طبع خمس طبعات وهو فى كل طبعة يكثر من الأسئلة ويجيب على التمارين ويصنع مايشبه المعجزةفى تفتيت الأحجار.

قال الأستاذ: أريد أن أقرأ نموذجاً من كتاب الصرف؟

قلت متسرعاً: الكتاب فى منهجه الدراسى لايروق لغير الوسط الأزهرى لأن الطلاب قد ألفو هذه المادة من السنة الابتدائية الأولى. ولايزالون يوالونها اهتماماً وتحصيلاً حتى يبلغوا السنة الرابعة بالكلية، فتكون لديهم ركيزة ثابتة تعين على الاستمرار.

فأجاب الأستاذ: وهل تكون هذه المادة أصعب من مادة أصول الفقه وقد درستها بسهولة فى كلية الحقوق ثم فى الدراسات العليا بالكلية دون أجد صعوبة ما.

قلت: إن دراسة علم الأصول بكليات الحقوق غيرها بكليات الأزهر، لأنى أعرف أن أساتذة الشريعة هناك من أمثال الشيخ أحمد إبراهيم والأستاذين عبد الوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومن سار هذا المسار، قد كتبوا مذكرات واضحة

تجمع حقائق هذا العلم، وأراحوا الطلاب من عناء الحواشى والتقارير، التى تدرس بكلية الشريعة بالأزهر! ولذلك فدراسة الأصول عندك كانت مريحة لاتمتلئ بالعقبات.

فرد الرجل فى ابتسام: أنت محيط واسع، ويسعدنى أن أعرفك. ولكن لابد أن تحضر لى نسخة من مؤلف الأستاذ، وسأنتظرك فى بحر أسبوع ، فلا تبطئ، ثم صافحنى بحرارة وودعنى إلى الباب.

بعد أسبوع :

رجعت للأستاذ بعد أسبوع ،ومعى نسخة من كتاب (القواعد والتطبيقات فى الإبدال والإعلال)، فأخذها الأستاذ ،ونظر إلى العنوان دون أن يتجاوزه ثم قال لى: لقد وفيت بوعدك، وأنا أشكرك، ثم أسألك عن قراءاتك الثقافية لأعرف اتجاه طلاب الأزهر الآن!

فأجبت: كنت طالباً بالقسم الثانوى أيام كانت تصدر مجلتا الرسالة والثقافة، وكنت أعتز بهما اعتزازاً كبيراً ، ولم يفتنى عدد منهما درن قراءة واعية ثم استدركت أقول، وكنت أطالع على فترات متقطعة (مجلة الفصول) التى كنت تشرف على إصدارها،

فابتسم وقال: هذه تحية منك ولاأعجب لاختيارك مجلتى الرسالة والثقافة فهما لسان التراث العربى بالذات ، والأزهريون حفظة هذه التراث.

فرددت فى سرعة: نظلم الرسالة والثقافة حين نؤكد أنهما تقصران بحوثهما على التراث العربى وحده، إذ كان أعلام الفكر فى مصر يحتلون صفحاتها وهؤلاء الأعلام لايعيشون على طعام واحد، وإذا كانتا تهتمان بالتراث العربى فهذا ضرورى محتوم لأنه يمثل الجذور التى تمد الشجرة بالغذاء! على أنى أرى أن الرسالة مع اهتمامها بالثقافة الغربية كانت أقرب إلى التراث العربى من الثقافة، لأن القائمين على تحرير الثقافة لجنة علمية لافرد واحد، وفى هذه اللجنة الأديب

والعالم والمهندس ومن يمثلون فروع المعرفة المختلفة، أما الأستاذ الزيات فهو وحده المسئول عن الرسالة، وقد أظهر مجلة الرواية عدة سنوات لتقوم بنشر الروائع الممتازة من أدب الغرب، كما ترجم قصصاً ممتازة لجى دى موباسان، ولامرتين، وجوته، وغيرهم.

قال الرجل فى هدوء هذا صحيح، وماذا تتذكر من موضوعات (مجلة الفصول)؟

قلت: أذكر اتجاهها الممتاز إلى الوضع الاجتماعى ومحاربة الفساد سياسياً واقتصادياً، وتسليط الأضواء على الحياة الغربية، ولاأدرى لماذا تقترن فى ذهنى أعداد الفصول بأعداد مجلة (المختار)؟

فضحك الرجل، وقال: هذا نقد مقنع، معناه أننا ننقل من المختار، فقلت، قد يكون النقل فى الإطار العام، لافى العناصر الداخلية، فالفصول مصرية، ومصرية مشرفة، وأخذ الحديث يدور فى شئون كثيرة حتى رأيت أن أستأذن، فقال لى الأستاذ، لاتنس أن تكثر من زيارتى فقد بدأت أشتاق إليك.

زيارة مفاجئة:

مضت مدة طويلة ولم تسمح زياراتى الخاطفة إلى القاهرة بالتردد على الأستاذ، وفى بعض الأعوام تلقيت خطاباً من الأستاذ عبد الرحيم فودة رحمه الله يعلن فيه أنه سيقوم بتحرير الصفحة الدينية فى جريدة الأخبار طيلة شهر رمضان، وأنه يطلب منى عشر مقالات موجزة، لتأخذ دورها فى النشر، ويترك لى تحديد الموضوعات، على ألا تخرج عن الإطار الدينى المناسب للشهر المبارك وحبذا أن تتجه للتاريخ الإسلامى، وقد رحبت بالفكرة إذ صادفت هوى فى نفسى وأرسلت المقالات العشر للأستاذ قبل أن يبتدئ الشهر الكريم، وقد بدأت الجريدة فى نشرماأرسلت ولكننى فوجئت بأنها تختصر بعض المقالات مع أنها موجزة بطبيعتها والصعب المؤلم فى هذا الاختصار أنه يغفل التحليل الذاتى للنصوص والأحداث، وتثبيت الآثار والوقائع الشائعة المشتهرة، وبهذا أكون مجرد ناقل! فتأثرت كثيراً ورأيت أن أصبر فلعل الاختصار لايستمر، ثم فوجئت ببعض مقالاتى تظهر فى الصفحة الدينية بدون توقيعى، وبغير أن تنسب إلى كاتب ما، فلم أستطع

التحمل، وسافرت إلى إدارة الجريدة من الفيوم التى كنت أعمل بها وقابلت المحرر المختص، إذا كان الأستاذ عبد الرحيم غير موجود ،فقال لى: هذه ضرورات صحفية لابد منها وسأقبض ثمن مانشر سواء أكان المقال موقعاً باسمى، أم غفلاً من الإمضاء! فحدثتنى نفسى أن أتصل بالأستاذ محمد زكى عبد القادر وهو بالدار فى مكتبه الخاص لأعرض عليه ظُلامتى، وفوجئ الأستاذ برؤيتى على غير انتظار فوقف يستقبلنى فى بشاشة، وقد حدثته بما وجدت فاستمع فى هدوء مفكر ، حتى إذا أفرغت مافى جعبتى قال لى فى أناة مطمئنة ، وكأنه يتحدث عن مسألة لاتخصنى.

قال الأستاذ: أما إهمال اسمك عند التوقيع، فهو موضع المؤاخذة ،ولاأدرى ماسبب ذلك،وما حكمه؟ فالمقال دينى، ولايتحمل نتائج خطيرة تكون موضعاً لتحقيق ما ،وسأتصل بالقائم على النشر يستدرك الوضع، أما الحذف من بعض المقالات ، فهذا مالاحيلة فيه، وأنا شخصياً أعانى من جراء ذلك، فقد أكتب فى اليوميات مقالاً متماسكاً لاسبيل إلى الحذف منه ،ثم أفاجأ باختصاره للحرص على إعلان صحفى هبط على الجريدة فجأة ، وهو لديها أعز من المقال، فأسكت بدون أن أعترض وقد أكتب مقالاً لايرتفع إلى مرتبة الجودة ، ثم لاتصادفه نائبة تحذف منه شيئاً بأكمله، والحظوظ التى تعترى البشر، تعترى المقالات ، فقد تولد طفلة رائعة الجمال فى بيت فقير لاتجد ربته الضروري الذى يساعد على تربيتها ، وقد تولد الدميمة فى قصر فاخر وتجد من عشرات الخدم من يترقب رغباتها فى دقة وسرعة! ولايهمك إذا تعلق الحذف بعنصر هام، فإن الأذواق تختلف ، وقد يرحب القراء بالموجود أكثر من المفقود.

لم يخرج الأستاذ محمد زكى عبد القادر عن طبيعته الهادئة فى الرد علىّ، فقد تحدث وكأنه يكتب مقالاً يعرض فيه الوجهات المختلفة ، فقلت له: أتمنى من الله أن أرزق شيئاً من رحابة صدرك واتساع أفقك لأستريح، فأنا ضيق الأفق ، ضيق الصدر،سأستعيد ماقلت بينى وبين نفسى، ولكن هيهات أن أبلغ أوج الكاتب الفيلسوف!

لم أقابل الأستاذ بعد هذا الحديث ولكننى قرأت نبأ انتخابه عضواً بمجمع اللغة العربية فأبرقت إليه مهنئاً ، ثم لم أجد البرقية الصغيرة تكفى عن خواطرى، فأرسلت إليه خطاباً مسهباً، أقول فيه:

إن أكثر من لجنة فى لجان المجمع ستسعد بمشاركته ، لأنه كاتب موسوعى مجدد، وإنه سيخلع النشاط والجدة فى كل مكان يسعد بنشاطه، ورد على الأستاذ بخطاب شاكر يعلن أنه فرح بالبرقية وبالخطاب لأنهما صدى نفس صادقة مخلصة، مهما بالغت فأسرفت، وطلبت أن أزوره بمكتبه وهذا لم يتح ، لأن الأمور تجرى كما يريد خالقها أن تكون.

* * *

التكوين(١)

حين أتحدث عن التكوين أرجع إلى الماضى البعيد منذ كنت طفلاً أتأمل مظاهر الوجود فى روعة واندهاش ، ولكن هل أستطيع أن أكون ذاكراً لهذه الأصداء البعيدة بحيث لاأتزيد أوْ أقتضب ، إن الإنسان ليتحدث عن الأمس القريب فلايستطيع أن يسجل أحداثه على وجه التحديد، فكيف بالماضى البعيد؟ ثم إلى أى مدى يقف زمان التكوين وفى كل لحظة تجد يضيف المرء إلى كيانه مالم يحط علماً به من قبل؟ أفيمتد التكوين إذاً إلى نهاية الحياة؟ أم أن هناك اصطلاحاً عرفياً بأن التكوين هو مايؤسس اللبنات القوية فى الدور الأول من المنزل إذا قدر للمنزل أن يرتفع إلي عدة أدوار؟ خيرلى أن أسترسل مع ذكرياتى دون تحديد،فإذا تحدثت عن اليوم فهو ثمرة الأمس، والبذرة تأتى بالثمرة، وإذن فلاانفصال.

حين نشأت فى القرية الصغيرة بمحافظة الدقهلية (الكفر الجديد) كان كل شىء فيها يتعلق بأريج الإيمان، فالمسجد هو المكان الجامع، وشيخ المسجد صاحب القدوة والامتثال، والمناسبات الدينية كالهجرة والمولد، والإسراء، ورمضان ترسل البسمات الوضيئة فى الوجوه الراضية، كانت القرية الفضيلة والحب والتراحم إذْ لاتباع فيها الفاكهة والخضرات والألبان، بل تهدى إهداءً لكل طالب، والفتاة هى بيضة الخِدْر لايستطيع أحد أقربائها أن يبادلها الحديث فى الطريق،أما الآن فقد انتشر الفيديو، وتجمع حوله الجيران يرون ويسمعون مايفزع، ونشز الولد على أبيه وجاهرت

---

(١) لكل كتاب خاتمة تشير إلى أهم مافى الكتاب، وقد جعلت هذه المقالة شبيهة بالخاتمة، فإنى كتبتها تلبية لطلب مجلة الهلال الغراء حيث نشرتها تحت عنوان (التكوين) وهو موضوع يتحدث فيه كل مفكر عن خيوط من حياته! وفيها إشارات إلى مواقف سجلت فيما قبل هذه الصفحات.

الزوجة صاحبها بالتمرد، واختفت البسمة المشرقة من الوجوه القانعة ليسيطر جدول الضرب بماديته الصماء.

في ذلك الزمن البعيد ، وأنا فى سن الخامسة ، كنت أفطن إلى صرير الباب قبيل الفجر، فأعلم أن والدى قد تأهب للذهاب للمسجد، وأبصر والدتى تقوم تتوضأ وتصلى، فأقول لها أريد أن أصنع ماتصنعين فتقول: كلا، أنت ولد، فاذهب مع أبيك، ولاأنسى فرحتى حين وجدت المسجد الريفى آهلاً، والصغار مثلى يصحبون آباءهم، وصوت القرآن يرتل فى خشوع، فإذا انتهت الصلاة رجع والدى مع نفر من أصحابه ليجلسوا فى فرجة المنزل يتحدثون حتى مشرق الصبح، ولم أنس أيضاً أن والدى اصطحب ذات صباح شيخاً مهيباً، أخذ يخاطبه فى إجلال، وحين جاء إلي المنزل لم يجلس معه فى الغذاء، بل اصطحبه إلى حجرة الضيوف هكذا كانت تسمى، ولم أفهم سر هذا الاحتفاء ، فقلت لوالدتى من القادم؟ فقالت فى فرحة، واعظ المركز يابنى، وكان الرجل مهيباً بلحيته البيضاء ، وعمامته العالية، ومسبحته التى لاتنقطع دررها بين أصابعه، وقفطانه اللامع، ومافوق القفطان من جبة وعباءة وشال!! وعلمت بعد حين أنه سيقضى بين متنازعين ويصدر الحكم فيقع موقع القبول بدون خلاف، إذ هو القاضى العرفى بالريف الذى يعلو صوته على قضاء المحكمة نفسها، وتم الصلح عن تراض فتعانق الخصوم. ورأى أبى حيرتى فيما أرى وأسمع، فقال لى، ستدخل الأزهر إن شاء الله يابنى، وعليك أن تجتهد لتكون مثل هذا الرجل بإذن الله، لقد رأيت لك رؤيا صالحة، والله معك!

كان الأزهر لعهدنا لايقبل أن تكون سن الطالب أقل من اثنتى عشرة سنة ليتمكن من حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق، وقد حفظته فى سن العاشرة، وبقيت سنتان حفظت فيهما متون العلم فى الفقه والنحو والتجويد. مع ديوان حافظ إبراهيم الذى اختاره أبى مع قصائد من كتاب (جواهر الأدب) وكان ذا ذيوع بين المتأدبين إذ وصلت طبعاته إلى العشرين، وإذن فقد التحقت بمعهد دمياط الدينى وأنا أفضل علمياً كثيراً من الزملاء، وكان المعهد حينئذ يضم النخبة المختارة

من الأساتذة إذ لم يزد عدد المعاهد فى مصر عن سبعة فقط، وشيخ المعهد هو رجل الإقليم هيبة وعلماً وذيوعاً ، وكان من شأنه أن يمر بالفصول ليستمع الدرس ويناقش المدرسين ويسأل الطلاب، فهو أستاذ الجميع، ولهذا المرور المتصل أثره فى انكباب المدرسين على تحصيل المادة أولاً ثم الاجتهاد فى تذليلها للطالب المبتدئ ثانياً، وإذا كانت مدة الدراسة بالقسم الإبتدائى أربع سنوات فقد كانت كافية لإتقان مواد الفقه والنحو والصرف والسيرة النبوية والتاريخ على أحسن وجه، بحيث كان الطالب الذى يحمل الابتدائية بالأزهر أفضل بكثير ممن يحملون الشهادات العالية منه اليوم، بل ليتهم يصلون إلى نصف مستواه العلمى، وكانت المجلات الدينية والأدبية ذائعة بين الطلاب يقرءونها عن طريق التبادل، بحيث أصبحت مدداً ثقافياً ممتازاً لاينضب له معين، وأذكر أنى قرأت مرة مقالة، بإحدى المجلات الدينية ، تتحدث عن غزوة بدر، فوجدتها لاتخرج فى مضمونها عما جاء بالكتاب المقرر بالمعاهد، فقلت فى نفسى إذا كانت الكتابة بهذه السهولة فلماذا لاأكون كاتباً؟ وكنت قد قرأت حديثاً مسهباً عن كتاب رسول الله إلي هرقل يدعوه إلى الإسلام، وعن أثر الكتاب فى نفسية الإمبراطور الرومانى، واجتماعه ببعض التجار من العرب متسائلاً عن النبى العربى ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم فى أمر صاحب هذا الدين، فوقع فى نفسى أن أكتب مقالاً يلخص هذه العناصر، وأن أبعث به إلى مجلة الأزهر، وكان هذا تسرعاً مشتطاً من طالب ناشئ يبعث بمثل هذا التلخيص إلى أكبر مجلة إسلامية! ولكننى فوجئت بعد أسبوعين بمظروف كبير يأتى إلى عن طريق البريد، ففتحته لأجد مقالى مع رد توجيهى من الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر، خلاصته أنه سر كثير السرور لاتجاهى الأدبى الحميد، وهو لذلك يرسل ثلاثة من مؤلفاته العلمية هدية لى، ولكنه يلفتنى إلى شيء مهم، هو أن المقال الإسلامى ليس ذكراً للأحداث المدونة، كما جاءت فى صحف التاريخ، ولكن الكاتب المعاصر يتخذ من هذه الأحداث مجالاً للتحليل والتعليل والاستنباط، ليضيف الجديد إلى المتعارف، وذلك لايتأتى إلا بعد مران شاق فى الاطلاع والنظر والمقارنة! قرأت خطاب الأستاذ فتعجبت لتسرعى،

وعلمت أن مقال غزوة بدر لو أرسل إلى مجلة الأزهر ماارتضى الأستاذ وجدى نشره، وكان سرورى بمؤلفاته قد جاوز حد الوصف، فحرصت على تجليدها مع الإهداء، ولكن الزمن لايبقى على شىء!

وأنا أتساءل كم من رؤساء التحرير يصنعون صنيع الأستاذ وجدى؟ مع انتشار المجلات فى كل قطر عربى إلى حد الإتخام؛ ولعل الأوفق أن يكون السؤال: كم من رؤساء التحرير الذين يصدرون المجلات المصقولة الأنيقة المعتزة بالمظهر فحسب من يماثل الأستاذ فريد وجدى!

على أنى لم أحرم فى المرحلة الابتدائية من موقف شد من عضدى، فقد أرسلت تعليقاً أدبياً لمجلة الرسالة على مقال لأستاذ كبير فنشره الأستاذ الزيات بدون إبطاء، نشره بالعدد الصادر فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠م، وكان للتعليق المتواضع دوى بالمعهد الدينى، حيثُ لفت أنظار الأساتذة إلىَّ،وفيهم من دعانى إلى زيارته بمنزله مشجعا وهو الأستاذ محمد عمر الذى رثاه صديقه الأستاذ طاهر أبوفاشا بقصيدة ممتازة فى ديوان (راهب الليل) فقام بمالم أقم به نحو الراحل العزيز.

انتقلت من دمياط إلى المعهد الثانوى بالزقازيق، فرأيت المجال أرحب وأفسح، لأن طلاب القسم الثانوى إذ ذاك كانوا أدباء كتاباً وشعراء وخطباء، ولهم فى الجمعيات الدينية وأندية الأحزاب السياسية صولات أسبوعية تستدعى الانتباه، وكان من المألوف أن يصدر الطالب الناشئ ديواناً شعرياً يجمع ماقال من القصائد فى المناسبات، والطريقة سهلة مريحة، لأنه يطبع إيصالات تبلغ الخمسمائة. ويفرقها على الطلاب كل إيصال بقرشين أو ثلاثة قروش على الأكثر وفى إحدى مطابع الزقازيق المتواضعة يتم الطبع ورقة ورقة حتى يكتمل الديوان ، فيجلد ويوزع على المشتركين، ومن المألوف حينئذ أن نرى فى الصفحات الأخيرة سيلاً من تقريظ الزملاء شعراً ونثراً، تبتدئ بالثناء على (أمير البيان) أو (بلبل العصر) أو (خليفة شوقى) وأكثر من يبرحون الكليات الآن لايقرءون بيتاً شعرياً صحيحاً، فإذا

كان طلبة الجيل الماضى بالمعاهد الثانوية شعراء أتوا بالصحيح المستقيم، فذلك لا يعدم مجال الموازنة بين ماضٍ مزدهر وحاضر جديد.

لم أشأ أن أشارك فى حركة التأليف عن هذا السبيل بل رأيت أن أراسل الصحف بما أنظم، فإذا سهل النشر فهى شهادة لى، وإذا صعب فعلى أن أسعى مجداً متقناً، وقد سهل الله أمر النشر بدون توقع، فقد كنت قرأت كتاباً قيماً تحت عنوان (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك. وهو من كبار رجال التربية والتعليم، فوجدته يفى بما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى فى خطابه إلى إذ يتبع كل حادث بالتحليل والاستنباط كما كان المؤلف أسداً هصوراً فى مواجهة مفتريات الخصوم، إذ يدحضها بسيف لايفل وبمنطق لايدفع، ثم قرأت نعيه فى الصحف فتأثرت تأثراً شديداً واندفعت أرثيه تلقائياً بقصيدة مطلعها:

حــن لليــث عرينــه	مــاعسى يُجـدى حنينهْ
كــلمــا ظــن لقــاءً	عــاجلاً خــابت ظنونــهْ
كــم غـدا يســألُ عنهُ	أيْــن ســاقتــه منـونه؟
فــإذا لــم يــلــف رداً	شــافيــاً هاجت شجونـه

و بادرتُ بإرسالها لمجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فنشرها الأستاذ صالح عشماوى رحمه الله فور وصولها، وأرسل إلى خطاباً رقيقاً يقول فيه إن صفحةالشعر بالمجلة تشكو الفراغ، وإنه يرحب بشعرى فى الإسلاميات!! وقد تأثرت بالخطاب تأثراً شديداً، وعددته ثروة غالية هبطت علىّ من السماء! ووقفت عند كلمة الإسلاميات أسبح فى محيطها، وهو محيط أثير عزيز بالنسبة إلىّ، فواليت إرسال قصائدى تحت عنوان (على قبر حمزة)، (هلال المحرم)، (إلى مدينة النور)،(جهاد المستضعفين)، (من وحى بدر)، (صرعى المادة)، إلى مايدور هذا المدار، وهو شعر حماسى يقرب من الخطابة! فماذا يقول طالب مبتدئ بالقسم الثانوى غير الشعر الخطابى، وحين جمعت ديوانى فيما بعد تحت عنوان (صدى

الأيام)، و(حنين الليالى) و(حصاد الدمع) أغفلت كل ماقلت فى هذا العهد. ومن العجيب أن أحد الباحثين الفضلاء وهو الدكتور على إسماعيل قد كتب رسالة الدكتوراه عن شعرى، وجعل من همه أن يجمع كل ما قلت فى دراستى الثانوية فى ديوان خاص يلحق بالدراسة العلمية مستدلاً على باكورة حياتى الأدبية بهذه القصائد، وفوجئت بما صنع الدارس، فقلت له هذا الشعر لايمثل اتجاهى، وقد نسيته، فقال: ولكنه التاريخ!

لاأترك الزقازيق بدون أن أسير إلى صداقة أدبية أعتز بها كل الاعتزاز، هى صداقتى للأستاذ إبراهيم الترزى أمين مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حيث كنا زميلين بالمعهد، وأنا أتقدمه بسنوات، ولكنه كان منذ التحاقه بالأزهر مشغوفاً بالأدب إلى غير ماحد، وكان يفيء إلى يسر وارف، أتاح له أن يشترى مايوده من كتب الأدب والعلم، ومجلات الفن والثقافة، ولاأطمع فى قراءة كتاب لاأقدر على امتلاكه إلا سارع بشرائه وفرض على أن أقرأه قبل أن يصل إلى مكتبته.

ومما أذكره فى هذا الصدد أنى احتجت إلى دراسة مختارات البارودى، وهى فى عدة أجزاء، فعرض علىّ أن أشتريها بماله وأقرأها وأجلدها، ثم أردها بعد أن أستوعبها وقد تم ذلك. وحين أردت تجليدها، كتبت اسم إبراهيم الترزى ليضعه المجلد بحروف ذهبية، على كعوب المجلدات كالمعتاد، وكتبت اسمى ليتذكر المجلد أنى الذى أحضرت المختارات للتجليد، وسأقوم بتسلمها، وكانت المفاجأة لى حين وجدت المجلد قد كتب اسم إبراهيم الترزى واسمى أيضاً كأنا شريكان فى الشراء، وصحبت المجلدات لإبراهيم وأنا خجل، ولكنه ضحك من أعماقه وقال: أصاب المجلد إذ سجل اشتراكنا فى حيازة المختارات على ارتباط أدبى وثيق، وإذا لم يكن إبراهيم قد أعار المجلدات لبعض أصدقائه فسيقرأ اسمينا من جديد.

مضت أيام الزقازيق، وذهبت إلى القاهرة طالباً بكلية اللغة العربية، ووافق ذلك انتمائى إلى مجلتى الرسالة والثقافة كاتباً وشاعراً، والمجلتان - والرسالة بالذات - مهوى طلاب الأزهر، فانتشر لى بالكلية ذكر حميد، حيث عرفنى الطلاب،

وشجعنى الأساتذة تشجيعاً لم أكن أتوقعه، وأذكر أن أستاذى الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب المعاصر بالكلية كان يكلفنى بأن أعد بعض الدروس وألقيها على زملائى، وهويستمع ناقداً مما دعا بعض الزملاء إلى احتذائى، فأوجد حركة أدبية بين المتنافسين عادت بالأثر الحميد، كما أن عميد الكلية فى بعض سنواتها كان فضيلة الأستاذ الكبير إبراهيم الجبالى، وهو عضو هيئة كبار العلماء، وممن سادلهم ذكر في مجال التفسير القرآنى إذا كان يتولى تحرير باب التفسير بمجلة الأزهر تسع سنوات، فصدر عن ذاتية ممتازة فى الاتجاه، وتعمق دقيق فى الرأى، وسلاسة رائقة فى التعبير، حتى صار التفسير نموذجاً من نماذج البيان، هذا الرجل الكبير كان لايسمح لطالب أن يتأخر يوماً واحداً دون عذر يفحصه شخصياً ويقتنع به، وكان من عادته أن يتقدم إليه الطالب مبدياً عذره، ليتعرض لامتحان علمى فى بعض المقررات، فإن أجاب فعذره مقبول، وإلا فلا سبيل إلى الاعتذار، وقد كتب لى والدى ذات يوم أنه سيحضر إلى القاهرة فى موعد حدده. وعلى أن أكون فى استقباله بباب الحديد، فرأيت أن أذهب للأستاذ معتذراً عن التأخير، وكان مجلسه ساعتئذ عامراً بالأساتذة، فتطلع إلى، وسألنى أن أجلس لأعرب له قول الفرزدق:

وكل رفيقى كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخوان

وكان من حظى أن أحيط بالبيت من قبل، فابتسمت وقلت ياسيدى: سأعرب البيت كما تود، ولكننى سأسألك بدورى عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد الأئمة الذى أخطأ فى إعرابه من كبار النحاه، فائتلق وجه الشيخ بالنور، كأنه يستمع إلى بشرى سعيدة، وقال الله أكبر يابنى مادمت تعرف أن ابن هشام قد أخطأ فى إعرابه فى كتاب المغنى فأنت على علم به، أما القائل وأما المناسبة فأنا لاأعرفهما، لقد جئت بآبدة لقد جئت بآبدة!! وكان الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بين السامعين فقال للشيخ: إن الطالب من كتاب مجلة الرسالة، فنهض الرجل من مكانه محيياً وقال: اذهب كما شئت دون اعتذار، لأننى أحرص على حضور المتعلمين لا العلماء!

هذه واحدة، أما الثانية فقد قابلنى بعض الأساتذة،وقال لى إن الشيخ الجبالى يرغب أن تزوره فى منزله فى أى يوم تريد،بعد صلاة العشاء، فقلت: ومن أنا؟ حتى أشغل الرجل الكبير بلقائى؟ فقال: هو الذى طلب فلاتبطئ، وقد سعدت بما سمعت، وسارعت إلى لقاء الرجل، فرأيته يجلس على السجادة بأرض الحجرة وكان قد فرغ من صلاة العشاء فدعانى إلى الجلوس معه،وكأننا فى مسجد، ودار حديث رقيق سجلته فى بعض مقالاتى، وأهم مابه حديثه عن زيارته للهند مبعوثاً على رأس بعثة أزهرية لاستطلاع حالة المنبوذين، وزيارته أكثر من خمسين مدرسة وجمعية هناك، واستقبال البعثة الأزهرية بأسمى مظاهر الترحيب ،وقد عقد لقاءات مع الزعيم الكبير محمد على جناح والشاعر الفيلسوف محمد إقبال، وكان يعانى من مرضه الأخير ، ولكن الشاعر العظيم تحامل على نفسه فتحدث أكثر من ساعتين عن تحامل الإنجليز على المسلمين وانتصارهم للهنادكة، وتقديمهم عليهم فى أرقى الوظائف وقد حدثنا عن غاندى ونهرو بأشياء لم نكن نعلم عنها شيئاً إذ أنها تخالف ماتذيعه الصحف المصرية عن تسامح الزعيمين، وهما عنصريان كبيران،كما صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة،وخطبنا المصلين بالعربية التى يعشقونها، لقد كانت جلسة الأستاذ على السجادة، واسترساله فى الحديث عن المسلمين بالهند من أنفس ماسمعت، ولم تكن الباكستان حينئذ قد خرجت إلى الوجود، ولكنها أصبحت كياناً مستقلاً بعد رحلة البعثة الأزهرية بسنوات!

وإذا كنت قد تحدثت عن تواضع الرجل فى مجلسه،فهذا يذكرنى بموقف مماثل مع عميد آخر هو الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، حيث ذهبتُ مع نفر من طلاب الكلية إلى لقائه، إذ تقررت دراسة اللغات الشرقية بالكلية لأول مرة، ووجدنا اللغة العبرية وحدها هى التى تقرر على الطلاب، فذهبنا إلي شيخ الكلية وهو حينئذ الأستاذ عبد الجليل عيسى،وقلنا له: نريد اللغة الفارسية لأنها لغة إسلامية،والأزهر أولي بها، فقال إن كلية الآداب لم ترسل غير مدرسين للعبرية إذ لايوجد من يشغل الفراغ من أساتذة الفارسية زائداً عن حاجتهم هناك، وإذا استطعتم أن تقنعوا الدكتور عزام بإيفاد مدرس للفارسية، فهذا مايسرنى! فاتفقنا على أن نقابل العميد صباح الغد واتجهنا إلى مكتبه، فقال

لنا سكرتير العميد انتظروا قليلاً، لأنه يصلى الضحى بمكتبه!الله أكبر كأننا لم نترك كلية اللغةالأزهرية إلى كلية الآداب المدنية!! وكان هذا الخبر براعة استهلال جميلة وسرعان ماتم اللقاء، فترك العميد المتواضع مكتبه وجلس معنا يسأل عن مقصدنا فى ابتسام،وقال فى صدق إن زيارة طلاب الأزهر لمكتبى تذكرنى بشبابى فى الأزهر ومدرسة القضاء، وإنه لايوافق على أن تكون الفارسية مزاحمة للعبرية بكلية اللغة بالذات، لأن إسرائيل قد أصبحت حقيقة واقعة، ولابد من أن تجيدوا لغتها، وأن تقرءا صحفها،وأن تسمعوا إذاعتها، ليكون منكم من يدافع عن دينه،ومن تعلم لغة قوم أمن مكرهم، فوجئنا من العميد بمالم نكن نتوقع، ووقع حديثه منا موضع القبول المطلق، واستأذنا شاكرين.

كانت سنوات القاهرة بالنسبة لى وسيلة للتعرف بأدباء كبار سمعت عنهم، وراسلت بعضهم وحفظت آثارهم من قبل، ومن أبرزهم الأستاذ محمد فريد وجدى، والأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ محمود تيمور، وكلهم عَلَمٌ فى بابه، ومنهم من هو عَلَم الأعلام.

أما الأستاذ محمد فريد وجدى، فقد هرعت إلى لقائه بمجلة الأزهر إذ كان رئيساً لتحريرها، فاستقبلنى مشجعاً حين ذكرته بخطابه السابق،وبمؤلفاته التى تفضل بإهدائها، وكنت قد قابلت موظفاً ببريد قرية بالدقهلية تدعى (إخطاب) فعرض على أكثر من عشر رسائل علمية كتبها له الأستاذ وجدى، وكل رسالة تضم مقالة علمية ذات صفحات، فتعجبت أن يخص الأستاذ هذا الموظف برسائل علمية دون أن يشرك معه الجمهور فيذيعها على الناس فى مجلة أو في كتاب! فحانت المناسبة لسؤاله عن هذا الاتجاه،فقال لى الأستاذ فى هدوء باسم، لقد كتبت بمجلة الأزهر عن الإسلام والمسيحية،فأرسل لى هذا الرجل رداً مليئاً بالأخطاء العلمية، وخفت أن أنشره معقباً بدحضه فيحدث بين إخواننا المسيحيين بلبلة لاأريدها، وخشيت أن أهمله فأعد ساكتاً عن تصحيح الخطأ، فرأيت أن أفند أقواله فى خطاب خاص أرسلته إليه ولكنه رد فى إسهاب، وفتح لى مجال التصويب، وكلما رددت أخذ يتعقب،

ووجدت من الأمانة أن أرد حتى بلغت الرسائل عشراً كما ذكرت فعجزت!! عجزت! هكذا قالها الأستاذ المتواضع، قلت: ولكن هذا جهد صامت لايعرفه أحد، فقال الأستاذ: الصامتون كثير، لقد كان الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى بعد اعتزاله الإفتاء الرسمى لبلوغ المعاش يتلقى الرسائل من شتى بلاد الإسلام فيجيب عنها على الفور، ويرسلها بالبريد خاصة بالمستفتى ، وبعض الإجابات تصل إلى سبع صفحات فأكثر، إذ أتيح لى أن أطلع على إحداها حين اختلف بعض العلماء فى مسألة (التشريح) واستند كاتب ما إلى فتوى الشيخ التى أرسلها إليه فى خطاب خاص، وعرضها علىّ! ولوجمعت فتاوى الشيخ على مدى عشرين عاماً بعد المعاش لبلغت عدة أجزاء! ولن يضيع ثوابها عند الله! كان حديث الرجل يملأ نفسى، وأنا أذكره الآن حين أرى من يتخاصمون على مكافأة جلسة رسمية لم يقولوا فيها شيئاً. ولكنهم حضروا فلابد من أن تملأ الاستمارات!!

أما الأستاذ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر فيما بعد) فقد تشبعت بمقالاته وبحوثه العلمية قبل أن أراه، وكلها قوى محكم، وهو من ذوى الثقافة الشاملة المحيطة بحيث يعد إماماً فى عدة فروع مختلفة كالشريعة والعقيدة وعلوم الأدب والتاريخ، وحين شرفت بلقائه وجدته صامتاً، حديثه همسٌ أوكالهمس، فهو فصيح القلم وليس محدث جمهور، ومن طرائفى معه أنى توجهت مرة إلى مقر جمعية الهداية الإسلامية، وكان رئيساً لها فوجدت معه شيخاً وقوراً، عرفت أنه الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر المغربى، نائب رئيس المجمع العلمى بدمشق، وتلميذ جمال الدين الأفغانى، فاستمعت إلى العالمين الكبيرين يتناقشان فى تفسير حديث الرسول «وإن منكم محدثين منهم عمر بن الخطاب» فأفاض المغربى فى ترجيح كلمة (محدث) على أنها اسم مفعول، ورأى الشيخ الخضر أنها محدث على أنها اسم فاعل، وصال دليل على دليل، وزاحم ترجيح ترجيحاً، وأنا صامت أسمع ولا أستطيع أن أتكلم، فوجدت العلامة المغربى ينظر إلى فى ابتسام ويقول: أى الرأيين ترجح؟ فقلت عجلاً: معاذ الله ياسيدى، أيتناقش الخضر والمغربى فى

الحديث واللغة، وأكون أنا مرجع الترجيح؟ أنا طالبٌ بكلية اللغة، فربت الرجل بيده على كتفى، وقال مبتسماً: من يدرى، قد تكون؟

ومجالس الأستاذ الزيات بالرسالة لاتنسى فقد كانت ندوات حافلة بأئمة من أهل الفضل فى العالم العربى، وبها عرفت الأستاذ ساطع الحصرى والأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى، والأستاذ على الطنطاوى، والأستاذ روفائيل بطى، والأستاذ محمد البشير الإبراهيمى ، وهو من كبار المفكرين فى العالم العربى، والزيات وادع رقيق يستمع، وقلما يشترك فى نقاش، ولكن وجهه فصيح الملامح تعرف من التطلع إليه حكمه على مايسمع قبولاً أو رفضاً، وله أعصاب قوية تتلقى أعنف الآراء المصادمة باحتمال عجيب، دون أن يظهر انقباضاً أو تأففاً، وكنت أحادثه عن بعض مايدور مما يخالف رأيه، فأجده يقول مبتسماً، كلام يقال، وسيزيده النقاش اشتعالاً، ولن يخمده غير الإهمال والسكوت، ومن عادته أن يتسلم المقال فلايقرؤه أمامك، بل يضعه فى المكتب ليرى رأيه المستقل فى هدوء، وهو بعد ذلك يفحصه فى اهتمام، ولاينشر غير الجيد المستطاب.

أما الأستاذ أحمد أمين فمن ذكرياتى معه أنى كتبت بحثاً عن المؤرخ الكبير جرجى زيدان، ودفعت به إلى مجلة الثقافة، وانتظرت قرابة شهر فلم ينشر، فتوجهت للسؤال عنه، فأسعدنى أن يكون الأستاذ الكبير بإدارة المجلة، فسألته فى خشية، فأشرق الابتسام على وجهه وقال لى: أنا أحتفظ بالمقال حتى تأتى لتزيد فيه سطرين، فأنت وازنت بين مسلك الشيخ الخضرى فى التأليف التاريخى ومسلك الأستاذ جورجى زيدان، فقضيت بأن مسلك صاحب الهلال أعم وأوسع دائرة من مسلك الشيخ الخضرى، حيث تحدث زيدان عن سائر نواحى التمدن الحضارى فى الإسلام، واقتصر الخضرى على القليل، وكان عليك أن تضيف إلي قولك أنّ الخضرى كان مقيداً بمنهج دراسى مقرر على طلبة مدرسة القضاء فليس له أن يتسع، أما زيدان فيكتب كما يشاء دون أن يتقيد بمنهج دراسى كالخضرى، وفى استطاعته أن يجارى زيدان فيما انتحاه!! قلت، ولم لم تُعقب الثقافة بسطور

قليلة تكشف هذه الناحية؟ قال الأستاذ : أضف أنت ماسمعت، فذلك أفضل! وكتبت سطرين أضفتهما فى حضرة الأستاذ، وخرجت متعجباً من دقة الرجل، وحرصه على أن يكون الكاتب وحده صاحب الرأى دون أن يفاجأ بزيادة ليست فى باله! أليست هذه هى الأمانة؟!

بقى حديثى عن الأستاذ تيمور، فقد نشرت بمجلة الكتاب (إبريل سنة ١٩٤٨) بحثاً تاريخياً ضافياً عن والده العلامة أحمد تيمور، إذ كان الأستاذ محب الدين الخطيب دائم الحديث عن جهوده الصادقة فى خدمة الإسلام والتراث العربى، فشغفت باتجاهه، وتتبعت مانشر من مؤلفاته، واندفعت إلى كتابة هذا الفصل عنه، وبعد ظهور المقال رأيت طرداً كبيراً يحمل أكثر مؤلفات الأستاذ محمود تيمور، وعلى كل مؤلف إهداء كريم عاطف مع خطاب رقيق يثنى على ماكتبت فى مجلة الكتاب، ويدعونى إلى لقاء الكاتب الفنان، فكان ذلك مصدر سعادة لى. ومن الطريف أن مجلة الكتاب أرسلت لى شيكاً بمبلغ قدره ثلاثة جنيهات، ولم أكن أعرف أن المقال يؤجر وأننى أستحق قليلاً أو كثيراً على ماكتبت، فلما وصلنى الخطاب المرافق بالشيك، أخذت أعرضه على معارفى مباهيا، وأذكر أنى قلت لوالدتى إنى تسلمت ثلاثة جنيهات مكافأة على مقال أدبى، فقالت: اكتب دائماً لتنشر وتكسب! فقلت فى نفسى أما الكتابة الدائمة فسهلة، وأما النشر والكسب فقد أجاب عنهما أبو العلاء حين قال:

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريبٌ، ولكن دون ذلك أهوال

ولن أترك حديث القاهرة دون أن أشير إلى اتصالى بالدكتور زكى مبارك، وكان فى آخر مراحل حياته الحرجة، هذه المرحلة التى آثر فيها الصراحة الكاشفة، والفاضحة أحياناً، فقد كان يكتب مقالات (الحديث ذو شجون) فى البلاغ على نحو غير المعهود فى أحاديث مجلة الرسالة إذ كان الزيات يحذف من شطحاته مالايليق، أما البلاغ فقد تسعت أنهاره لمهاجمة أدباء كبار وصفهم الدكتور بالانحطاط والجهل والملق، والرجل معذور بينه وبين نفسه إذ رأى أنه لم ينل بعض

مايستحق على حين وصل تلاميذه إلى القمة، وبقى فى السفح، فلجأ إلى الشراب كى ينسى، وفى هذه الآونة كثر ترددى على مجلسه فى جريدة البلاغ، وقد طلبت منه أن يعرفنى بالشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران، إذ لاأجد السبيل إلى لقائه، مع أنى مولع بفنه، وقد حفظت أكثر ديوانه عن هوى شديد،وكان الشاعر الكبير فى أخريات أيامه ينزل بإحدى مستشفيات حلوان ليرد عيناً من عيون الماء قيل أنها تعوق انتشار الداء،فاستجاب الدكتور مبارك لرجائى وصحبنى لزيارة الشاعر الكبير، وقد دُهشت حين وجدته كما قال بشار :

إنَّ فى بردتــى جسماً نــاحــلاً   لــو تـوكــأت عـليــه لانــهْدَمْ

على أنه سر كثيرا حين علم أن أذهريا ناشئا مثلى يحفظ ديوانه ويجعله شاعره المفضل.

وقد طلب مني أن أسمعه بعض مانظمت،فقرأت قصيدة ظننتها ستحوز قبوله إذ كانت ممانشرته لى مجلة الرسالة،ولكن الرجل الصادق قال لى بإخلاص، أنت تملك النول الجيد،وعليك أن تبحث عن النسيج الممتاز، فالشاعر لايُعبر عن العواطف العامة قدر مايلتفت إلى الخوافى الكامنة فى مطاوى الأحاسيس، وحين شاهدوجومى، قال: لابأس، أنت مثل الكثيرين من المشهورين، وأريدك أن تكون سباقاً مرفرفاً على هؤلاء! وإذن فقد صدقنى الرجل حين محضنى النصح، ومن يومها بدا لى أن أتئد ولاأتسرع، فكانت جلسة واحدة بألف.

انتهت دراستى بكلية اللغة العربية، وانتقلت إلي معهد التربية العالى بالأسكندرية، ففوجئت بعلوم جديدة لاعهد لى بها، يقوم على تدريسها أساتذة من حملة الدكتوراه من أرقى جامعات الغرب، يشرحون لنا علوم النفس والتربية والاجتماع والصحة النفسية، ولكن هؤلاء الكبار ليسوا في مستوى واحد ففيهم الناقل المردد، المتباهى بالمصطلحات العلمية فى علوم النفس والتربية دون أن يسوقها مساق الدارس المستوعب، وفيهم من خلط جوارحه بالمادة بعد أنْ هضمها هضماً ممتازاً، وأضاف إليها تجاربه الخاصة فى الحياة، ثم ساقها مساق الشراب

الصافى الهنىء وكان الدكتور أحمد عزت راجح منْ هذا الطراز الممتاز حقاً، وكان له تعبيره الأدبى المحكم، فَيَسَّرله أن يَطَّرد بالقول إلي حيث يشاء فى نصوع وإشراق، ومما أذكر أنه طلب منا البحوث التربوية بعد أن أعلن موضوعاتها، وأشار إلى مراجعها، بمكتبة المعهد، وكان من حظى أن أكتب عن موضوع (أثر اللعب فى نمو المدارك لدى التلميذ) فرجعت إلى كل ماتضمه المكتبة من مراجع، ومكثت زمناً ليس بالقصير أُنسق وأعلّل وأنقُل ماأرضاه موافقاً، وما أخالفه معارضاً، حتى استوى البحث كما أريد، ثم فوجئت يوماً فى محاضرة الدكتور بسؤاله عنى، فقال لى فى تجهم: أنت نقلت بحثك نقلاً، ولكنى تعبت في العثور على مصدره، فلم أوفق، من أين سرقته؟ فسكت حائراً، وأنقذنى زميلٌ هو الأستاذ عبد المنصف ناصف، فقال بأعلي صوته: يادكتور إن الأستاذ رجب من كتاب الرسالة والثقافة والصحف الأدبية الرقيقة! ففتح الدكتور فمه دهشاً، وقال: ولذلك لم أعثر على الأصل كما توهمت! ثم مد يده إلى جيبه أمام الطلاب، وتقدم بخمسة جنيهات مكافأةً للمقال، فأنكرت ودهشت، فقال الدكتور، ليس المبلغ من جيبى، ولكنى سأنشره فى صفحة التربية وأنا مسئول عن بحوث علم النفس بها، وأنا الذى أقر المكافأة! هذا حقك يابنى، لن أعطيك مليماً من جيبى، ودوى الطلاب بالتصفيق!

وكانت الإسكندرية تضم نخبة من الأدباء، يكتبون فى الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت في جريدة البصير، وهى جريدة تهتم بالشئون المالية، وتتحدث عن أعمال البورصة والبنوك والغرفة التجارية، ولكن صحيفة الأدب في يوم السبت ذات صدىً حيٍ بين أدباء الثغر، ويقوم على تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، فحرصت على لقائه، ووجدته على قدر هائل من الثقافة الرفيعة، ومن قبلُ قرأتُ له فصولاً بارعة في الثقافة والرسالة والمقتطف والكتاب، فحدثته عنها، فكانت مفاجأة لى أن أنكر علمه بنشرها فى هذه المجلات، وحكى لى أنه لم يكتب في غيرالبصير، ولكن من تتحدث عن مؤلفاتهم من أمثال بشر فارس، ومحمود تيمور، وحبيب الزحلاوى، وعبد الرحمن بدوى، لايقتنعون بجريدة البصير، فينقلون مقالاتهم إلي صحف مختلفة ، ولم يشأ أن يعاتبهم، فقد أدى

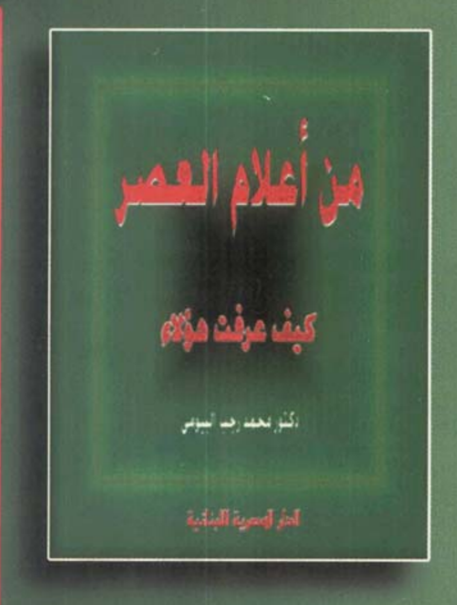
دوره المتواضع فى صحيفته الإقليمية، بدون ضجيج! كم أثر فى نفسى هذا التواضع المجرد عن عوامل الاستعلاء والذيوع! كما أثر فى نفسى أن تحتجب ثمرات هذا العلم الثرى فى أضيق مكان! ثم تأكدت صلتى به حتى لقى ربه فى هدوء صامت كعهده فى الحياة.

إلى هنا انتهى دور التكوين الرسمى فى معاهد التعليم، حيث استقبلت الحياة مدرساً لأستقبل تكويناً آخر ذاتياً، وليس لى أن آخذ من صفحات الهلال أكثر مما أخذت، فحسبى أن أشير إلى الخطوات الأولى، وفى رأيى أنها حددت مسارى المتواضع فى درب الحياة! وياله من درب مديد..

* * *

الفهرس

الصفحة



هذا الكتاب

سِفْر جليل يضم بين دفّتيه مجموعة من الصور القلمية لصفْوةٍ من أعلام العصر وعلمائه ومفكريه ، يتوزعون بين شتى الميادين الدينية والعلمية والأدبية ، ويجتمعون على نهج واحدٍ فى قيم المثل العليا والمزايا الإنسانية الرفيعة ، فكل منهم فى مجاله طراز فذّ من حيث القدوة ، ومن حيث القدرة على العطاء .

وقد أتيح لمؤلف الكتاب أن يتصل بهذه النخبة المختارة من أعلام العصر ، وأن يتعرف عليهم ويتحدث إليهم ، فكتب عنهم من هذه الزاوية وقدّمهم إلى القارىء فى صورٍ جلّية صادقة ، لا مغالاة فيها ولا بَخْس ، وزاد فى صدقها وجلائها أسلوبها الشائق الممتع الذى عرف به كاتبها البليغ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى .

لا ريب أنه كتاب جدير بالقراءة .

الناشر

الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق ثروت ـ تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٥٣ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ ص . ب : ٢٠٢٢ ـ برقيا : دار شادو ـ القاهرة